في المخطوطات والتراث

دراسات مهداة

إلى الأستاذ الدكتور

عبد الستار الحلوجي

بمناسبة بلوغه سن السبعين

(١٩٣٨ - ٢٠٠٨)

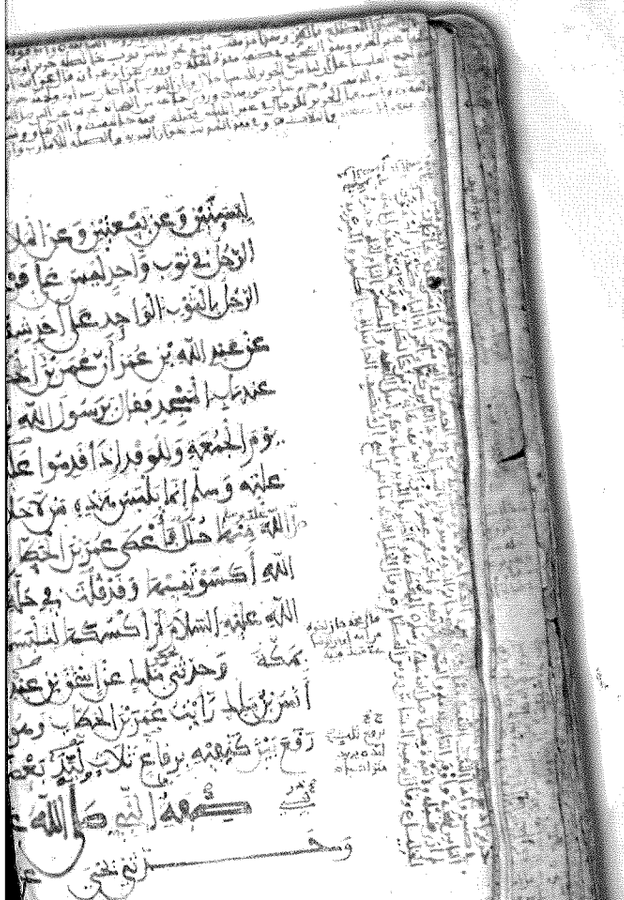

تقديم

أ.د. كمال عرفات نبهان

أستاذ المكتبات والمعلومات

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

في المخطوطات والتراث

دراسات مهداة إلى الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

on

Manuscripts and Arabic Tradition

Studies Presented to

Professor **Abdel-Sattar Al-Ḥalwagy**

On his seventieth birthday

(1938 – 2008)

Introduction

Professor **Kamāl Arafāt Nabhān**

Al-Imām al-Bokhāry

Bookshop

في المخطوطات والتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

في المخطوطات والتراث

دراسات مهداة

إلى الأستاذ الدكتور

عبد الستار الحلوجي

بمناسبة بلوغه سن السبعين

(١٩٣٨ - ٢٠٠٨)

تقديم

أ.د. كمال عرفات نبهان

أستاذ المكتبات والمعلومات

مكتبة الإمام البخاري

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٤٩٣٢ / ٢٠٠٨م

ISBN
978 -977 - 481 - 016 - 9

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
في المخطوطات والتراث .

في المخطوطات والتراث : دراسات مهداة إلى الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي بمناسبة بلوغه سن السبعين (١٩٣٨ - ٢٠٠٨) / تقديم كمال عرفات نبهان .— القاهرة : مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٨ .

٤١٦ ص : أيض ؛ ٢٤سم .

تدمك ٩ - ٠١٦ - ٤٨١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١- المخطوطات العربية أ. كمال عرفات نبهان (مقدم) ٠٩١

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع
القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

المحتويات

تقديم : أ.د. كمال عرفات نبهان ٧
السيرة الذاتية للدكتور عبد الستار الحلوجي ١١

*** عنه (شهادات – مقالات – دراسات)** ٣٩

(١) شهادات : ٤١

١- شيخ المخطوطات العربية / أ.د. محمد فتحي عبد الهادي ٤٣
٢- تقدير ووفاء أ.د. حسين نصار ٤٨
٣- خَوَاطر حول الصَّدِيق الذي أعرفه : الرَّجل والإنسان د. جلال الغندور ٥٠
٤- الإيثار وحب الخير للآخرين/ أ.د . سعد الهجرسي ٥٤
٥- أستاذٌ لأجيال مُتَعَاقبة / د.أحمد معبد عبد الكريم ٥٥
٦- عبد الستار الحلوجي كما عرفته/ د. عابد سليمان ٥٧
٧- رائد علم المخطوطات في الوطن العربي / د. أسامة ناصر النقشبندي ٦٠
٨- شهادة وتقدير / أ. د. يسرية عبد الحليم زايد ٦٤
٩- هذه هي أخلاق العلماء / د. أماني الرمادي ٦٥
١٠- أَسِيرٌ من مئات الأَسْرَى / أ. أيمن محمد المصري ٦٧
١١- زميلُ رحلة الحياة / أ. علي عبد المحسن ٧٠
١٢- ذكريات دار الكتب / د. محمود رزق محمود ٧١
١٣- محبة وعرفان / أ. حنان عبد الله محروس ٧٤
١٤- كَلِمَةُ وَفَاء / أ. رينه دو جرانلونيه ٧٨
١٥- عبد الستار الحلوجي أَبًا / د. داليا عبد الستار الحلوجي ٨٢
١٦- عبد الستار الحلوجي مُؤلفًا وَمُعَلِّمًا / د. جبريل حسن العريشي ٨٥
١٧- باقة حب : شعر/ للشيخ معوض عوض إبراهيم ٨٩
١٨- لُزوميَّة إلى شيخنا الجليل / أ. محمد أحمد المَعْصراني ٩٢

(٢) مقالات : ٩٧

١- عبد الستار الحَلْوَجِي أستاذا جامعيًا / د. مصطفى حسام الدين ٩٩
٢- أستاذنا الجليل : هل وفَّيناك حقك ؟ / أ. د. هاشم فرحات ١٠٩
٣- الحَلْوَجِي كما عرفته / د. فوزي ميخائيل تادرس ١٣١
٤- رسالة لمن لا يعرفه / د. عماد عيسى صالح ١٤٨

٥- بين ضفَّتين / أ . إيناس عباس توفيق خضر ١٥٣
٦- شَذَرَات إبداعية من مؤلفات الحَلْوَجِي الفكرية/ أ.سعيد ضامن الجوماني ١٦٧
(٣) دراسات : **١٧٣**
١- العَطَاء الفكري للدكتور عبد السَّتَّار الحَلْوَجِي/ د. عايدة نصير ١٧٥
٢- الصُّورة المَادِيّة للمخطوط عند الحَلْوَجِي/ د. مصطفى طوبي ١٩٨
٣- فهرسة المخطوطات عند الحَلْوَجِي بين النظرية والتطبيق / أ. فاطمة محمد عبد..... ٢٢٥
*** له (شهادات – مقالات – دراسات)** **١٦٩**
١- التُّراث العِلْمِي العربي ودَوْره في حَلِّ المشكلات المُعَاصِرة / أ.د. كمال الدين البتانوني ٢٤١
٢- حضارة الكتاب : نظرية في التأثيرات الحضارية للطباعة / أ.د. كمالعرفات نبهان ٢٥٣
٣- هل حرَّر النديم (الفهرست) أكثر من مَرَّة ؟ / أ. د. أيمن فؤاد سيد ٢٨٥
٤- المُصْحَف العُمَاني : تَقَاليد الكتابة وجَمَاليات الفَن / د. فيصل الحفيان ٢٩٣
٥- مُعْجَم السَّفر لأبي طاهر السِّلفي / أ. عصام محمد الشنطي ٣٠٥
٦- أضْواء عَلىٰ حياة أبي بكر بن العَربي المُتَأَخِّر / أ. العربي الدائز الفرياطي ٣٢٠
٧- الوَرَقَ وصِنَاعته في مدينة دمشق / أ. إياد خالد الطَّبَاع ٣٣٤
٨- المستشرق الفرنسي جورج فايدا وآثاره حول التُّراث الإسلامي / د. عبد الواحد جهداني ٣٤٣
٩- همة العلماء وسنوات الثمار . رحلة مع ابن الجوزي / أ. أشرف عبد المقصود ٣٦١
*** مقتطفات من كتاباته غير المنشورة** **٣٧١**
(١) الحلوجي وأدب الرحلة (مختارات من كتابه مع الإنجليز في بلادهم) : إعداد محمود ذكي ٣٧٣
(٢) مقالات : (خواطر شاردة) ٣٩٦
١- الطريق الطويل ٣٩٦
٢- إلى جدتي ٣٩٩
٣- هذا النور ٤٠٤
٤- فلسفة الحزن والألم ٤٠٩
٥- رجع الصدىٰ ٤١٣

***

تَقْدِيم

الأستاذ والأخ والصّديق ..

الدكتور / عبد السّتار الحلوجي ..

خُلِقْت أُسْتاذًا قبل أن تتشرف الجامعة بتسميتك أُستاذًا .. وخُلِقْت شاعرًا مُرْهف الشعور يقظ الوجدان .

وسَعِدَ بك العالم سبعين عامًا هي التي نحتفي بها في هذا الكتاب ، وتزيد دائمًا بعون الله في عُمْر طويل وسعادة وصفاء وصحة وعافية .

ولعل العالم سَعِد بك أكثر مما سَعدت به ، والعطاء يزيد عند صاحب الفضل عما يأخذه ، والكفة منعطفة نحو الخير والمحبة .. كما تنعطف الزهرة نحو ضياء الشمس .

لقد سَعِدت بمعرفتك أستاذًا وأخًا كبيرًا وصديقًا .. وفكرت في أن أغار من نفسي ولكنني آثرت أن أحمد الله علىٰ نعمة الصّفوة من الناس .

وأنا أعرف أنني حينما أُقَدِّم هذا العمل لتكريم الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي ، فإنني أقدم له وللناس باقة من الزهور ، ولكنها زهور عجائبية الألوان والعطور ؛ لأنها من شجرة الكرم والكرامة والتكريم ، وهي من الخالق المبدع ، ونحن نتعلق بها سعيًا إلى خصال الجمال ، وجمال الخصال ..

هو رجل كريم تمتع بنعمة البساطة والطيبة والوفاء ، فتَحَلَّق حوله محبُّوه ليكرموه .. ومَن أَحَبَّ الناسَ أَحَبُّوه ، وأعرف أن محبيه في مصر عصبة جمعتهم به التلمذة والصداقة ومحبة العلم ، كما أعرف أن محبيه في الوطن العربي كثيرون ، وأن طلابه الذين أشرف عليهم في الماجستير والدكتوراه ، والذين تحملوا بعد ذلك مسئوليات مرموقة في أوطانهم ، يحملون له الكثير من الحب والتقدير .

وما أكثر ما تحدث عن رفاق طريق سَعِدَ بصحبتهم في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض وجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وأتذكر منهم الدكتور يحيى بن جنيد والدكتور علي النملة ، والدكتور جبريل العريشي ، والدكتور عبد الله المحضار ، وغيرهم كثيرون من الأصدقاء الأوفياء ، ويمتد نهر الحب هذا في كل بلد عربي ، عند من دَرَسُوا على يديه أو تتلمذوا على كتاباته أو سَعِدُوا بصحبته .

وأَجْمَلُ ما عرفته في الدكتور الحلوجي ذلك المزيج الرائع بين رَهَافة الشاعر ودقّة العالم ، وكلاهما يعملان معًا في حديثه وعمله ، وفضيلة القول عنده لا تنفصل عن فضيلة العمل . يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، وهذا محك لصدق الإنسان يندر أن يتحقق في كل العصور .

وحينما يلتفت المرء حوله لمراجعة شريط العمر وأحداثه يعجب للعدد القليل من الناس الذين ثبت معدنهم للزمان بل وازداد بريقًا ، وثبتت في العقل كلماتهم وحكمتهم ، وهذا ما وجدته في حديث كل من عَرَف الدكتور الحلوجي ، وقلَّما يجود الدهر بمن نسعد باللحظة التي عرفناه فيها ، ونعتبرها من نعم الزمان ومكاسب العُمْر ..

ولعل في هذا الكتاب ما يرقى إلى تكريم الدكتور الحلوجي ، ويعبّر عن هذه السيمفونية الجميلة التي تعزفها عصبة خيرة من عدّة أجيال من محبِّيه وأصدقائه وتلاميذه .

ولا ينبغي أن أختم هذه المقدمة دون أن أتوجه بالشكر والامتنان لكل من سَاهم في هذا الكتاب ببحث أو دراسة أو شهادة ، كما أتوجه بالتحية والتقدير لكل من فكَّر في إصداره أو شارك في مراحل إعداده ، وأَخُصُّ بالذكر الأستاذة إيناس عباس خضر المدرسة المساعدة بكلية الآداب جامعة القاهرة ، التي تحمَّلت مسئولية المراجعة

والتصحيح ونهضت بها بدقة أغبطها عليها ، والأستاذ محمود محمد ذكي الذي تولى الاتصال بأصدقاء الدكتور الحلوجي وتلاميذه ومُريديه ، وتابع تجميع المادة العلمية بدأب شديد ، والأستاذ أشرف عبد المقصود صاحب مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، الذي تحمَّس لطبع الكتاب ، وحَرص على إخراجه في أفضل صورة ممكنة .

* * *

وبعد ..

فهذه تحيتي إليك . لعلها تصل إلى أقوام بعد آلاف السِّنين ، لكي يعلموا أننا سعينا للانتصار على عصرنا وعمرنا ، وعلى قوالب بشريتنا وجذورنا الطينية ، وعلى غرائز الوحوش والزواحف ، التي لا تزال تغالب طبائع نوعنا البشري ، ونحن في مطالع القرن الواحد والعشرين .. فاشهدوا يا سُكَّان الكواكب عندما يصلكم حديثنا .. لقد انتصرنا بالمحبة والعلم والفن .

كمال عرفات نبهان

عميد المكتبات الجامعية بجامعة

مصر للعلوم والتكنولوجيا

٢٣ / ٩ / ٢٠٠٨م

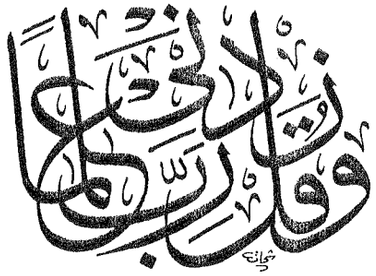

السيرة الذاتية

للدكتور عبدالستار الحلوجي

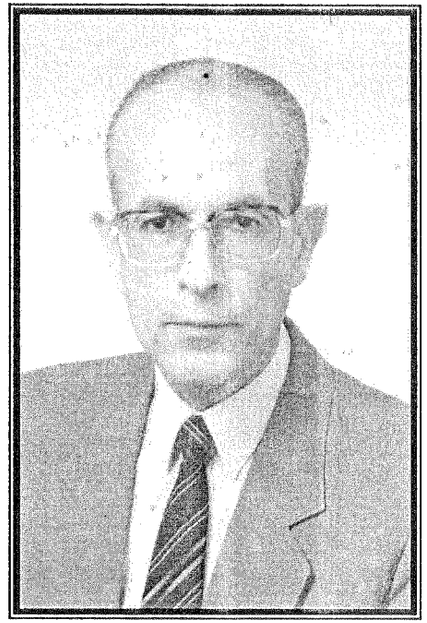

أ.د. عبد الستار الحلوجي

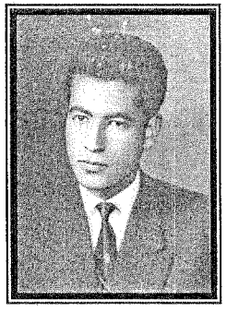

الاسم : عبد الستار عبد الحق الحلوجي

تاريخ الميلاد : ٢/ ٥/ ١٩٣٨

محل الميلاد : محافظة الدقهلية - مصر

العنوان : منزل : ٧ شارع حسب النبي - أحمد كامل

الهرم - الجيزة - مصر - رقم بريدي ١٢١١١

عمل : كلية الآداب - جامعة القاهرة . الجيزة . مصر .

تليفون : منـزل ٣٥٧١٩٧٨٥ (٠٢) القاهرة - محمول ٠١٢٧٤٥٦٨٨٥

١ - ليسانس آداب - لغة عربية - جامعة القاهرة ، ١٩٥٨

٢ - دبلوم عامة - كلية التربية - جامعة عين شمس ، ١٩٥٩

٣ - دبلوم خاصة - كلية التربية - جامعة عين شمس ، ١٩٦٠

٤ - ماجستير مكتبات - جامعة لندن ، ١٩٦٣

٥ - دكتوراه مكتبات - جامعة القاهرة ، ١٩٦٩

التدرج الوظيفي :

١ - مدرس لغة عربية - وزارة التربية والتعليم - مصر ، من ١٩٦٠ إلى ١٩٦١ .

٢ - عضو بعثة دراسية بانجلترا ، من ١٩٦١ إلى ١٩٦٤ .

٣ - رئيس قسم فهرسة المخطوطات بدار الكتب المصرية ، من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٧ .

٤ - رئيس قسم إرشاد الباحثين في المخطوطات بدار الكتب المصرية ، من ١٩٦٧ إلى ١٩٦٩ .

٥ – أمين مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ، من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٠ .

٦ – مدرس بقسم المكتبات والوثائق – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣ .

٧- أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٥ (١٣٩٣ – ١٣٩٥ هـ) .

٨ – أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٧ (١٣٩٥ – ١٣٩٧ هـ) .

٩ – رئيس قسم المكتبات بكلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٧ (١٣٩٦ – ١٣٩٧ هـ) .

١٠ – أستاذ مساعد بقسم المكتبات والوثائق – كلية الآداب – جامعة القاهرة – ، من ١٩٧٧ – ١٩٨٠م .

١١ – أستاذ بقسم المكتبات والوثائق – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، من ١٩٨٠ حتى الآن .

١٢ – أستاذ ورئيس قسم المكتبات والمعلومات – كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، سنة ١٩٨٢ / ١٩٨٣ (١٤٠٢ / ١٤٠٣ هـ) .

١٣ – رئيس قسم المكتبات والوثائق – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٥ .

١٤ – أستاذ بقسم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز بجدة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ (١٤٠٥ – ١٤١٠ هـ) .

١٥ – رئيس قسم المكتبات والوثائق – كلية الآداب جامعة القاهرة ، من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٤ .

١٦ – وكيل كلية الآداب – جامعة القاهرة ، من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨ .

١٧ – عميد كلية الآداب – جامعة القاهرة ، فرع بني سويف من يونيه ١٩٩٨ حتى أكتوبر ١٩٩٩ .

١٨ – أستاذ متفرغ بكلية الآداب – جامعة القاهرة من مايو ١٩٩٨ حتى الآن .

عضوية اللجان العلمية :

١ – عضو اللجنة العلمية الدائمة لتخصص المكتبات والوثائق بالمجلس الأعلى للجامعات منذ ١٩٨١ حتى الآن .

٢ – مقرر اللجنة العلمية للوثائق والمكتبات منذ ١٩٩٠ حتى ١٩٩٨ .

٣ – عضو لجنة الكتاب والنشر بالمجلس الأعلى للثقافة من ١٩٩٤ حتى ١٩٩٨ .

٤ – عضو الهيئة الاستشارية لمعهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ ١٩٩٨ حتى الآن .

٥ – عضو اللجنة العلمية المشرفة على مركز تحقيق التراث بدار الكتب منذ سنة ٢٠٠٠ حتى الآن .

٦ – عضو لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية من سنة ٢٠٠٠ ومقرر اللجنة من سنة ٢٠٠١ ورئيسها منذ ٢٠٠٥ حتى الآن .

٧ – مقرر اللجنة العلمية الدائمة للوثائق والمكتبات بجامعة الأزهر منذ سنة ٢٠٠٦ .

المؤلفات المنشورة :

أولاً : الكتب المؤلفة (مُرَتَّبة حسب تواريخ صُدور طبعاتها الأولى) :

(١) الزبيري: شاعر اليمن . – القاهرة ، ١٩٦٨ .

كتاب يقع في مقدمة وثمانية فصول يتناول المؤلف سيرة شاعر اليمن الكبير محمد محمود الزبيري مع دراسة لشعره ونثره .

(٢) مع الملاح التائه : علي محمود طه .– ط١ .– القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .– (سلسلة المكتبة الثقافية) .

ط ٢ .– القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ .– (سلسلة المكتبة الثقافية) .

ط٣ .– القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ .– (مكتبة الأسرة) .

كتاب يعرِّف بالشاعر علي محمود طه ، وينقسم إلى قسمين كل منهما في ستة فصول . القسم الأول يستعرض حياة الشاعر من الميلاد إلى الوفاة ، أما القسم الثاني فيتناول شعره من عدة زوايا .

(٣) لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات .– ط١ .– القاهرة : جمعية المكتبات المدرسية ، ١٩٧١ .

ط٢ .– القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ .

ط٣ .– القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩١ .

كتاب في مقدمة وسبعة فصول تتناول تاريخ الكتب والمكتبات في مصر والشرق القديم ، ثم في بلاد اليونان وفي الإمبراطورية الرومانية ، وفي الدولة الإسلامية ، وفي أوروبا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث . ثم يقف عند بعض الظواهر الملفتة في تاريخ المكتبات ، ويختم برؤية مستقبلية .

(٤) مدخل لدراسة المراجع .– ط١ .– القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٤ .

ط٢ .– الرياض : دار العلوم ، ١٩٨٣ .

ط٣ .– القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

كتاب في خمسة فصول خصص كل منها لفئة من فئات المراجع ، فيبدأ بالموسوعات ثم المعاجم ، يليها كتب التراجم ثم البيليوجرافيات ، وأخيرًا الدوريات . ويختم الكتاب بكشافين هجائيين أحدهما للموضوعات والعناوين والمؤلفين العرب ، والآخر للعناوين والمؤلفين الأجانب .

(٥) المخطوط العربي .– ط١ .– الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٧٨ .

ط٢ .– جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٩ .

ط٣ .– القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٣ .

كتاب في ثلاثة أقسام ، يتحدث أولها عن ظروف نشأة المخطوط العربي وعوامل انتشاره ويقع في ثلاثة أبواب ، ويتناول القسم الثاني صناعة المخطوط العربي خلال القرون الأولى للهجرة ويضم ثلاثة أبواب أيضًا . أما القسم الثالث فعن الإعداد الفني للمخطوطات ويضم بابين أحدهما للفهرسة والتصنيف ، والآخر للتحقيق والنشر .

(٦) الخدمة المكتبية الريفية : دراسة ميدانية .– سرس الليان (مصر) : المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، ١٩٧٩ .

محاولة لاستكشاف نمط الخدمة المكتبية المناسب للمجتمع الريفي ، والتعرف على ميول القراء من واقع ما يقرأون . يقع الكتاب في ثلاثة فصول وخاتمة . الفصل الأول يحدد الإطار النظري للبحث ، والفصل الثاني يتحدث عن تصميم التجربة التي طبقت

في محافظة المنوفية سنة ١٩٧٨ ، والفصل الثالث يستعرض تنفيذ التجربة ونتائجها .

(٧) قراءة في أوراق جامعية .- الرياض : دار العلوم ، ١٩٨٤ .

كتاب في ستة فصول صنِّفت فيها الأخطاء التي كشفت عنها إجابات طلاب الجامعة في الامتحانات ، وفي مقدمتها أخطاء اللغة والنحو والإملاء والتعبير . والفصل الأخير محاولة للتعرف على أسباب تدني مستوى الطلاب ، واقتراح بعض الحلول التي يمكن أن ترتفع بمستوى العملية التعليمية .

(٨) دراسات في الكتب والمكتبات .- جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٨ .

ينقسم الكتاب إلى قسمين أولهما : الدراسات ، وتضم ١٦ دراسة في موضوعات متنوعة ، والقسم الثاني : نقد الكتب ، وفيه عرض لثلاثة أعمال ببليوجرافية أحدها صدر في القاهرة والآخران صدرا في الرياض .

(٩) المخطوطات والتراث العربي .- القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠١ .

كتاب في قسمين أولهما عن المخطوطات جمعًا وفهرسةً وتحقيقًا ، ويضم تسعة مباحث؛ والثاني عن التراث وقضاياه الببليوجرافية ويضم ثلاثة مباحث .

(١٠) الكتب والمكتبات بين القديم والحديث .- القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٢ .

كتاب في ثلاثة أقسام أولها يضم عشر دراسات في المجالات المختلفة لتخصص المكتبات ، وثانيها يقدم تعريفًا بأربعة من الكتب المنشورة في المجال ، وثالثها يضم خمسة بحوث عن رواد مهنة المكتبات في مصر في العصر الحديث .

(١١) نحو علم مخطوطات عربي .- القاهرة : دار القاهرة ، ٢٠٠٤ .

كتاب يحاول أن يحدد إطارًا لعلم المخطوطات العربي ، ويقع في مقدمة وستة فصول

وخاتمة . في المقدمة تعريف بالمخطوط العربي وأهميته ومظانه ومجالات دراسته . أما الفصول الستة فتتناول تاريخ المخطوط العربي وصناعته وحفظه وصيانته وفهرسته وتحقيقه ونشره وعناصر تقييمه .

ثانيًا : الكتب المحققة :

عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب المنسوب للمعز بن باديس / تحقيق عبد الستار الحلوجي ، علي عبد المحسن زكي .- "مجلة معهد المخطوطات العربية" .- مج ١٧ ، ج ١ (ربيع الآخر ١٣٩١ / مايو ١٩٧١) .- ص ص ٤٣ – ١٧٢ .

كتاب يضم اثني عشر بابًا تتناول صناعة الكتاب بدءًا بالأقلام ، ومرورًا بالأحبار والأصباغ ، وانتهاءً بالورق والتجليد .

[ترجمه إلى الفارسية نجيب مايل هروي ، ونشر بمشهد: مركز الدراسات الإسلامية آستان القدس الرضوي .- ط١ .- ١٤٠٩ هـ .- ١٤٦ ص] .

ثالثًا : الكتب المترجمة :

(١) المخطوطات الإسلامية في العالم = World Survey of Islamic Manuscripts / تحرير جيوفري روبر.- لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٧ – ٢٠٠٢ .- ٤ مجـ .

كتاب في أربعة مجلدات ضخمة بلغ عدد صفحاتها ٣٤٥٨ صفحة ، وهو يعرِّف بمجموعات المخطوطات وفهارسها في ١٠٧ دولة ، ويختم كل مجلد بمجموعة من الكشافات التي تيسِّر استخدامه وهي: كشافات اللغات ، والأعلام ، والمجموعات ، والمدن ، وعناوين المخطوطات .

(٢) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي = Introduction to the History of the

Muslim East: A Bibliographical Guide / تأليف جين سوفاجيه Jean Sauvaget ، كلود كاهين Claude Cahen ؛ ترجمة عبد الستار الحلوجي ، عبد الوهاب علوب .- ط٢ .- القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٨٨ .

يقع الكتاب في ثلاثة أقسام: أولها عن مصادر التاريخ الإسلامي ويضم تسعة فصول ، والثاني عن أدوات البحث والمؤلفات العامة ويضم أربعة فصول ، والثالث عن الببليوجرافيا التاريخية ويضم ١٢ فصلاً . ويختم بكشاف للأعلام .

وقد تولى الدكتور الحلوجي ترجمة القسمين الأول والثاني (١٣ فصلاً) ، وتولى الدكتور علوب ترجمة القسم الثالث .

(٣) الكتاب في العالم الإسلامي : الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط= The Book in the Islamic World : The written word and communication in the Middle East / تحرير جورج عطية .- الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ٢٠٠٣ .- (عالم المعرفة ؛ ٢٩٧) .

كتاب في ثلاثة عشر فصلاً خصص كل منها لبحث من البحوث التي قدمت إلى المؤتمر الدولي الذي عقدته مكتبة الكونجرس الأمريكية في نوفمبر ١٩٩٠ ، عن دور الكتاب في إثراء الحضارة في العالم الإسلامي .

رابعًا : الأعمال الببليوجرافية :

(١) عباس محمود العقاد: نشرة ببليوجرافية بآثاره الفكرية .- القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٦٤ .

ببليوجرافية شارحة بما ألف العقاد من كتب وما نشره من مقالات في الدوريات (باستثناء ما نشر في الصحف اليومية) . تبدأ بمقدمة عن العقاد ، ثم تعريف بالبيانات التي تقدمها الببليوجرافية وطريقة تنظيمها . وقد وزعت مؤلفات العقاد على سبعة

أقسام رئيسة ، يليها قسم للكتب التي عرَّف بها العقاد أو نقدها . ويختم العمل بخمسة كشافات أحدها لمؤلفات العقاد ، والثاني للكتب التي شارك في تأليفها ، والثالث للكتب التي قدم لها ، والرابع للكتب التي تعرض لها العقاد بالنقد والتعريف ، والخامس للأعلام والمصطلحات .

(٢) أمير الشعراء أحمد شوقي: نشرة ببليوجرافية بما كتبه وما كتب عنه .- "المجلة" .- ع ١٤٤ (ديسمبر ١٩٦٨) .- ص ص ١٠٩ – ١١٦ .

ببليوجرافية صدرت بمناسبة مرور مائة عام على مولد أمير الشعراء ، تحصي مؤلفاته الشعرية والنثرية ، وتضم أيضًا ما كُتب عنه من الكتب والمقالات والقصائد .

(٣) فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبات الوطنية الألبانية في تيرانا / تحرير عبد الستار الحلوجي ، حبيب الله عظيمي .- لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٧ .

ينقسم هذا الفهرس إلى قسمين أولهما للمخطوطات العربية موزعة على خمسة عشر موضوعًا ، والثاني للمخطوطات الفارسية موزعة على خمسة موضوعات . يلي ذلك كشاف للعناوين ، وآخر للمؤلفين ، وثالث للنُّسَّاخ .

(٤) المخطوطات العربية بدار الكتب المصرية (المجاميع) تحرير ومراجعة عبد الستار الحلوجي .- القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٨ .

خامسًا : مقدمات الكتب :

(١) دليل المطبوعات المصرية ١٩٤٠ – ١٩٥٦ / إعداد أحمد منصور وآخرين . – القاهرة : الجامعة الأمريكية ، ١٩٧٥ .

(٢) اللغة العربية في عصورها قبل الإسلام / تأليف أحمد حسين شرف الدين .- القاهرة : المؤلف ، ١٩٧٥ .

(٣) أصول نقد النصوص ونشر الكتب / برجستراسر ؛ إعداد وتقديم محمد حمدي البكري .- ط٢ .- الرياض : دار المريخ ، ١٩٨٢ .

سادسًا : البحوث والمقالات المنشورة في الدوريات (مرتبة حسب تواريخ نشرها) :

(١) الكتاب العربي المخطوط في نشأته وتطوره إلى آخر القرن الرابع الهجري .- « مجلة معهد المخطوطات العربية » .- مج ١٣ ، جـ١ (شعبان ١٣٧٨ هـ/ نوفمبر ١٩٦٧) .- ص ٢٨٧ – ٣١٧ .

(٢) نظرة على تاريخ الكتب والمكتبات عند العرب . – « مجلة الكتاب العربي» .- ع ٥ (أكتوبر ١٩٧٠) .- ص ص ١٢ – ١٧ .

(٣) ضرورة حياة .- « منبر الإسلام » .- ع ٥٤ ، س ٢ (ربيع الآخر ١٣٩١ هـ/ يونيو ١٩٧١) .- ص ص ٧٥ – ٧٦ .

(٤) فهارس المخطوطات .- « الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (الببليوغرافيا) والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية » : دمشق ٢- ١١/ ١٠/ ١٩٧١ » .- دمشق : وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٢ .- ص ص ٢٨٤ – ٣٠٠ .

(٥) المخطوطات العربية بين التأليف والإملاء .- « مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض » .- ع ٤ (١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م) .- ص ص ٣٠٣ – ٣١١ .

(٦) التصنيف العشري والمكتبة العربية .- في: مؤتمر الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي بالرياض من ٢٩ شوال – ٧ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ/ ٢٤/ ١١-١/ ١٢/ ١٩٧٣م .

ونشر في: « مكتبة الجامعة » .- مج ٤ ، ع ١ (يناير ١٩٧٥) ص ص ٣٤-٤٥ .

(٧) المستشرقون والعمل الببليوجرافي .- « مكتبة الإدارة » .- س ٣ ، ع ٣ (المحرم

١٣٩٥ هـ/ مارس ١٩٧٥ م) .- ص ص ١-١٠ .

(٨) المكتبات العربية بين أمجاد الماضي وتحديات المستقبل .- « الدارة » .- ع ١ (ربيع الأول ١٣٩٥ هـ/ مارس ١٩٧٥ م) .- ص ص ٨٨- ٩٩ .

(٩) تراثنا المخطوط : دراسة في ظروف النشأة والتطور .- « الدارة » .- س١ ، ع٤ (ذو الحجة ١٣٩٥ هـ/ ديسمبر ١٩٧٥ م) .- ص ص ١٦٢- ١٧٧ .

(١٠) الجهود الرامية إلى تجميع وحماية ونشر المخطوطات بالمملكة السعودية . – « المورد » .- ع ١ (١٩٧٦) . - ص ص ٤٩ - ٥١ .

(١١) جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي .- « مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية » بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . - ع٦ (١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م) .- ص ص ٧٢٣- ٧٤٩ .

(١٢) اللمسات الفنية في المخطوطات العربية . - « الدارة » .- س ٢ ، ع ٢ (رجب ١٣٩٦ هـ/ يوليو ١٩٧٦ م) . - ص ص٤٠ - ٥٩ .

(١٣) نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط في: حلقة حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها .- بغداد ٨-١٧/ ١١/ ١٩٧٥ . ونشر في : « المورد » .- مج ٥ ، ع١ (١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م) .- ص ص ١٣٣- ١٣٩ .

(١٤) نشأة علم الببليوجرافيا عند المسلمين . – « الدارة » . - س ٢ ، ع ٣- ٤ (شوال ١٣٩٦ هـ/ أكتوبر ١٩٧٦ م) . - ص ص ١٧٦- ١٨٣ .

(١٥) من تراثنا الببليوجرافي : ابن النديم وكتابه الفهرست . – « مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية » بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . - ع ٧ (١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م) . - ص ص ٤٦١ – ٤٧٨ .

(١٦) تراثنا الفقهي وقضاياه الببليوجرافية . – « الدارة » . – س ٣ ، ع ٢ (جمادى الثانية ١٣٩٧ هـ/ يونية ١٩٧٧ م) . – ص ص ١٦٣ – ١٧٥ .

(١٧) نحو ببليوجرافيا وطنية للمملكة العربية السعودية . – « الدارة » . – س ٣ ،ع ٤ (صفر ١٣٩٨ هـ/ يناير ١٩٧٨ م) . – ص ص ٤٠– ٤٥ .

(١٨) مع الدكتور الضبيب وكتابه « آثار الشيخ محمد عبد الوهاب » . – « الدارة » . – ع ١ ، س ٤ (ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ/ مارس ١٩٧٨ م) . – ص ص ٢٧٦ – ٢٨٣ .

(١٩) قرأت لك : من أحاديث السمر لعبد الله بن خميس . – « الدارة » . – ع ٣ ، س ٤ (شوال ١٣٩٨ هـ/ سبتمبر ١٩٧٨ م) . – ص ص ٢١٢ – ٢٢٣ .

(٢٠) تصنيف الكتب بين القديم والجديد . – « الدارة » . – س ٥ ، ع ١ (ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ/ مارس ١٩٧٩ م) . – ص ص ٩٩ – ١٠٧ .

(٢١) الخدمة المكتبية الريفية . – « آراء » . – س ٩ ، ع ١ (مارس ١٩٧٩) . – ص ص ٢٩ – ٣٧ .

(٢٢) دور المكتبة في تعليم الكبار . – « آراء » . – س ٩ ، ع ٤ (ديسمبر ١٩٧٩) . – ص ص ٥١ – ٧٦ .

(٢٣) مسئولية جامعاتنا تجاه تراثنا المخطوط . بحث مقدم إلى مؤتمر « رسالة الجامعة » الذي عقد بجامعة الرياض من ٢– ٥/ ١١ / ١٣٩٤هـ ١٦– ١٩/ ١١/ ١٩٧٤م) ونشر في : « الفيصل » . – ع ٣١ (المحرم ١٤٠٠هـ/ ديسمبر ١٩٧٩ م) . – ص ص ٦٧– ٧٠ .

(٢٤) الوضع الراهن لدراسة المكتبات في المملكة العربية السعودية بحث قدم إلى « المؤتمر الإقليمي لمعهد المكتبات والتوثيق في العالم العربي » ببغداد من ١١–١٥/ ١٢/

١٩٧٦ ، ونشر في : « مكتبة الإدارة » . – مج ٧ ، ع ٢ (صفر ١٤٠٠ هـ/ يناير ١٩٨٠ م) . – ص ص ٣– ٢١ .

(٢٥) ديوي عربيًا . – « الدارة » . – س ٥ ، ع ٣ (ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ/ مارس ١٩٨٠ م) . – ص ص ١٣١ – ١٣٨ .

(٢٦) حق المؤلف في القوانين العربية . – « عالم الكتب » . – مج ٢ ، ع ٤ (ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ/ يناير – فبراير ١٩٨٢ م) . – ص ص ٦٤٥ – ٦٥٢ .

(٢٧) عباس محمود العقاد للدكتور حمدي السكوت . – « عالم الكتاب » . – ع ١ (يناير – مارس ١٩٨٤) ، ص ص ١٨ – ١٩ ؛ ع ٢ (أبريل – يونية ١٩٨٤) . – ص ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢٨) التدريس المصغر : تأليف أو ترجمة ؟ . – « عالم الكتاب » . – ع ١٠ (أبريل – يونية ١٩٨٦) . – ص ٩ .

(٢٩) المستفيدون غير المستفيدين من المكتبات في الوطن العربي . بحث قدم إلى ندوة « المستفيدون من المكتبات » التي عقدها المعهد الأعلى للتوثيق في تونس من ٥–٧ أبريل ١٩٨٥ ، ونشر في : المستفيدون من خدمات المكتبات ومراكز التوثيق العربية / جمع وتقديم وحيد قدورة . – تونس : مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات ١٩٨٦ . – ص ص ٥٣ – ٥٨ .

(٣٠) تأملات في إهداءات الكتب العربية . – « عالم الكتب » . – مج ٧ ، ع ٣ (المحرم ١٤٠٧ هـ/ سبتمبر ١٩٨٦ م) . – ص ص ٢٨٤ – ٢٩٨ .

(٣١) الكتابة عن المخطوط العربي بين الأصالة والادعاء . – « التوباد » . – مج ١ ، ع٤ (شوال ١٤٠٨هـ/ يونية ١٩٨٨ م) . – ص ص ٨٢ – ٨٨ .

(٣٢) قراءة في كتاب: الوقف وبنية المكتبة العربية (للدكتور يحيى محمود ساعاتي) . – « مجلة المكتبات والمعلومات العربية » . – س ٩ ، ع ٢ (أبريل ١٩٨٩) . – ص ص ١٨٢ – ١٩٠ .

(٣٣) الدكتور محمد المصري عثمان . « عالم الكتاب » . – ع ٢٦ (أبريل – يونية ١٩٩٠) . – ص ص ٢٣ – ٢٤ .

(٣٤) Recent Changes in Library Education in Egypt . – "Journal of Education for Library and Information Science" . - Vol . 33 (Summer 1992) . - P .P . 255 - 259

(٣٥) الدكتور أحمد أنور عمر . – « عالم الكتاب » . – ع ٤١ (يناير ١٩٩٤) . – ص ص ١٩٨– ١٩٩ .

(٣٦) من قسم المكتبات والوثائق صاحب المؤتمر . – « عالم الكتاب » . – ع ٤١ (١٩٩٤) . – ص ٢٩ –٣١ .

(٣٧) الدكتور السيد محمود الشنيطي . – « عالم الكتاب » . – ع ٤٩ (يناير – مارس ١٩٩٦) . – ص ص ١٨ – ٢٠ .

(٣٨) تجربة مؤسسة الفرقان في حصر المخطوطات الإسلامية في العالم . بحث قدم إلى الندوة الأولى عن قضايا المخطوطات فى الوطن العربي ، التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في ديسمبر ١٩٩٧ . ونشر في : التجارب العربية في فهرسة المخطوطات / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان . – القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٨ . – ص ص ٣٢١ – ٣٣٢ .

(٣٩) التحقيق وأدواته . بحث قدم بدورة تحقيق التراث ، التي عقدتها كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ونشر في : فن تحقيق التراث / إشراف وإعداد محمد السيد الجليند . – القاهرة : مركز الدراسات والبحوث الإسلامية – كلية دار العلوم – جامعة

القاهرة ، ١٩٩٨ . – ص ص ٩ – ٩٣ .

(٤٠) الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات للدكتور أيمن فؤاد سيد . – « عالم الكتب » . – مج ٢٠ ، ع ٢ (رمضان – شوال ١٤١٩ هـ / يناير – فبراير ١٩٩٩ م) . – ص ص ١٢٨ – ١٣٤ .

(٤١) فن الفهرسة : المصطلح والحدود . بحث قدم إلى الندوة الثانية عن قضايا المخطوطات فى الوطن العربي ، التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة في سبتمبر ١٩٩٨ . ونشر في : فن فهرسة المخطوطات مدخل وقضايا / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان . – القاهرة: معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٩ .– ص ص ١٩ – ٣١ .

(٤٢) تحقيق المخطوط الفلسفي في مصر . بحث قدم إلى ندوة الفكر الفلسفي في مصر في مائة عام ، التي عقدتها كلية الآداب جامعة القاهرة ، ونشر في : « مجلة كلية الآداب » جامعة القاهرة . – مج ٦١ ، ع ٢ (أبريل ٢٠٠١) . – ص ص ١٦٣ – ١٦٨ .

(٤٣) إسهامات صلاح الدين المنجد في تأصيل علوم المخطوط العربي . في كتاب : مقالات ودراسات مهداة إلى الدكتور صلاح الدين المنجد . – لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ٢٠٠٢ .– ص ص ٤٥ – ٥٧ .

(٤٤) نحو تأسيس علم مخطوطات عربي . في: الاجتماع الخامس للهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي .– القاهرة : معهد المخطوطات العربية (أكتوبر ٢٠٠٢) . – ١٣ ص .

(٤٥) هذا هو تراثنا . – «تراثيات» . – ع ١ (يناير ٢٠٠٣) . – ص ص ١٧– ٣٠ .

(٤٦) مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث : المؤسس والمؤسسة . – «تراثيات» ، ع ٣ (ذو القعدة ١٤٢٤ هـ / يناير ٢٠٠٤م) . – ص ص ١٥٥ – ١٦٠ .

(٤٧) أما بعد : في رثاء شوقي ضيف . – «تراثيات» . – ع ٦ (جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ/ يوليو ٢٠٠٥ م) . – ص ص ١٣١ – ١٣٤ .

(٤٨) المخطوطات الموقعة بمكتبة الأوقاف بالقاهرة . في : مؤتمر المخطوطات الموقعة . – مكتبة الإسكندرية (٢٦ – ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٥) . – ١٠ ص .

(٤٩) مناجاة واعتذار . – « منبر الإسلام » . – س ٦٥ ، ع ٦ (جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ/ يوليو ٢٠٠٦ م) . – ص ص ١١٦ – ١١٩ .

(٥٠) المصطلح العربي في علوم المكتبات والمعلومات . بحث نشر في كتاب تذكاري عن المرحوم يوسف إيبش بعنوان : صفحات من تاريخ دمشق ودراسات أخرى / تحرير محمد عدنان البخيت . – لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م . – ص ص ٤٨٥ – ٥٠٢ .

(٥١) نعيب زماننا والعيب فينا . – « منبر الإسلام » . – س ٦٥ ، ع ٩ (رمضان ١٤٢٧ هـ/ أكتوبر ٢٠٠٦ م) . – ص ص ٩٠ – ٩٣ .

(٥٢) عبقرية التأليف العربي للدكتور كمال عرفات نبهان . – «تراثيات» . – ع ٩ (٢٠٠٧) . – ص ص ٢٠٥ – ٢١٠ .

(٥٣) التراث الإسلامي ودوره في وحده الأمة والتقارب الدولي . – « منبر الإسلام » . – س ٦٥ ، ع ٩ (رمضان ١٤٢٧ هـ/ فبراير – مارس ٢٠٠٧ م) . – ص ٣٦ – ٤٤ .

(٥٤) تحقيق المخطوطات .– « تراثيات» ، ع١١ (يناير ٢٠٠٨) .– ص ص ١٧ – ٢٧ .

(٥٥) عن الترجمة وصعوباتها في مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية .– « لوجوس » ، ع٤ (٢٠٠٨) ، ص ص ٥٧–٦٣ .

هذا فضلاً عن الافتتاحيات الدورية التي يكتبها لمجلة « تراثيات » بصفته رئيس

التحرير ، وكذلك المحاضرات غير المنشورة التي ألقاها في كثير من الندوات وورش العمل والدورات التدريبية .

– المدرسة العلمية :

يعد صاحب هذه السيرة من أوائل الذين درسوا علم المخطوطات في مصر والعالم العربي . وقد بدأ هذه المسيرة برسالته التي حصل بها على درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩ .

ومنذ ذلك التاريخ وهو يعمل على تأصيل هذا العلم بما ينشره من كتب وبحوث ، وبما يُشْرف عليه من رسائل للماجستير والدكتوراه . وكان آخر جهوده في هذا المجال كتاب «نحو علم مخطوطات عربي» الذي صبّ فيه خلاصة تجربته ، وحاول فيه أن يضع حدودًا فاصلة لمجالات البحث في هذا العلم .

ولعل ذلك ما يبرر اختياره عضوًا في اللجنة الاستشارية لمعهد المخطوطات العربية ، ومقررًا للجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومستشارًا لوزير الأوقاف ولمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء لشئون المخطوطات ، ودعوته إلى مكتبة الكونجرس الأمريكية كخبير للمخطوطات في الفترة من يوليو إلى أكتوبر ٢٠٠٥ .

– المؤتمرات والندوات العلمية التي شارك ببحوث فيها (مرتبة زمنيًّا) :

١ – الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (الببليوغرافيا) والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية ، التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع حكومة الجمهورية العربية السورية بدمشق في أكتوبر ١٩٧١ ، و شارك فيها ببحث بعنوان : فهارس المخطوطات نشر ضمن أعمال الحلقة . – دمشق : وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٢ . – ص ص ٢٨٤ – ٣٠٠ .

٢- مؤتمر الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي ، الذي عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الرياض في نوفمبر ١٩٧٣ ، وشارك فيه ببحث بعنوان : « التصنيف العشري والمكتبة العربية » ، نشر بمجلة « مكتبة الجامعة» بالكويت . - مج ٤ ، ع ١ (يناير ١٩٧٥) . - ص ص ٣٤ - ٤٥ .

٣- مؤتمر رسالة الجامعة ، الذي عقدته جامعة الرياض في نوفمبر ١٩٧٤ ، و شارك فيه ببحث بعنوان : مسئولية جامعاتنا تجاه تراثنا المخطوط نشر بمجلة « الفيصل » . - ع ٣٢ (ديسمبر ١٩٧٩) . - ص ص ٦٧ - ٧٠ .

٤- حلقة حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها ، التي عقدها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية في بغداد في نوفمبر ١٩٧٥ ، وشارك فيها ببحث عنوانه: « نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط» نشر في مجلة « المورد » (العراقية) . - مج ٥ (١٩٧٦) . - ص ص ١٣٣ - ١٣٩ .

٥- مؤتمر الفقه الإسلامي ، الذي عقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٩٧٧ ، وشارك فيه ببحث بعنوان: تراثنا الفقهي وقضاياه الببليوجرافية ، نشر في مجلة « الدارة » . - س ٣ ، ع ٢ (١٩٧٧) . - ص ص ١٦٣- ١٧٥ .

٦- المؤتمر الإقليمي لمعاهد المكتبات والتوثيق في العالم العربي ، الذي عقد في بغداد في ديسمبر ١٩٧٦ ، وشارك فيه ببحث بعنوان : الوضع الراهن لدراسة المكتبات في المملكة العربية السعودية ، نشر في مجلة «الدارة» . - مج ٧ ، ع ٢ (١٩٨٠) . - ص ص ٣ - ٢١ .

٧- ندوة: « المستفيدون من المكتبات » التي عقدها المعهد الأعلى للتوثيق بتونس في أبريل ١٩٨٥ ، وشارك فيها ببحث بعنوان : المستفيدون غير المستفيدين في الوطن العربي ، نشر ضمن أعمال الندوة التي جمعها وحيد قدورة ونشرها مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات بتونس . - ع ١٥(١٩٨٦) . - ص ص ٥٣ - ٥٨ .

٨- ندوة : « قضايا المخطوطات - ١ » ، التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في ديسمبر ١٩٩٧ ، وشارك فيها ببحث بعنوان : تجربة مؤسسة الفرقان في حصر المخطوطات الإسلامية في العالم ، نشر ضمن أعمال الندوة في كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٩٨ بعنوان: التجارب العربية في فهرسة المخطوطات / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان . - ص ص ٣٢١ - ٣٣٢ .

٩- ندوة « قضايا المخطوطات - ٢ » ، التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة في سبتمبر ١٩٩٨ وشارك فيها ببحث بعنوان: فن الفهرسة : المصطلح والحدود ، نشر ضمن أعمال الندوة في كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٩٩ بعنوان : فن فهرسة المخطوطات مدخل وقضايا / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان . - ص ص ١٩ - ٣١ .

١٠- ندوة تدريس اللغة العربية في كليات الجامعة المصرية ، التي عقدها المجلس الأعلى للجامعات في مايو ١٩٩٩ ، وشارك فيها ببحث بعنوان: واقع الأداء اللغوي عند الطلاب الجامعيين ، نشر ملخصه ضمن ملحقات أبحاث الندوة التي نشرتها لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات . - ص ص ٥٣ - ٥٧ .

١١- ندوة الفكر الفلسفي في مصر في مائة عام ، التي عقدتها كلية الآداب جامعة القاهرة ، وشارك فيها ببحث بعنوان : تحقيق المخطوط الفلسفي في مصر ، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .- مج ٦١ ، ع ٢ (أبريل ٢٠٠١) . - ص ص ١٦٣ - ١٦٨ .

١٢- مؤتمر خمسون عامًا على تخصص المكتبات و الوثائق و المعلومات في مصر ، الذي عقدته كلية الآداب - جامعة القاهرة في أكتوبر ٢٠٠١ ، و شارك فيه ببحث بعنوان: رائدان .

١٣- مؤتمر المخطوطات الموقعة ، الذي عقدته مكتبة الإسكندرية في إبريل ٢٠٠٥ ،

وشارك فيه ببحث بعنوان: المخطوطات الموقعة بمكتبة الأوقاف بالقاهرة .

١٤- مؤتمر قضايا البحث العلمي في المكتبات و الوثائق و المعلومات : قضايا الواقع و آفاق المستقبل الذي عقده قسم المكتبات والوثائق و المعلومات بكلية الآداب - جامعة القاهرة في ٣ – ٤ أكتوبر ٢٠٠٤ . وشارك فيه ببحث بعنوان : البحث العلمي في مجال المخطوطات العربية .

هذا إلى جانب مشاركته في ندوة إعداد أخصائيي المكتبات والوثائق و المعلومات في مصر ، التي عقدتها كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٩٠ ، و في مؤتمر الجامعات في خدمة المجتمع وتنمية البيئة الذي عقدته جامعة القاهرة في مارس ١٩٩٧ و كان عضوًا في اللجنة المنظمة للمؤتمر ، وفي مؤتمر المخطوطات الألفية الذي عقدته مكتبة الإسكندرية في ديسمبر ٢٠٠٤ ، و في معظم المؤتمرات والندوات التي عقدها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية و قسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب جامعة القاهرة منذ ١٩٩٠ حتى الآن .

أنشطة أخرى :

١- الإشراف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في تخصص المكتبات على مدى أكثر من ربع قرن (من ١٩٧٦ حتى الآن) ، والاشتراك في مناقشة عدد كبير من الرسائل خلال تلك الفترة . (مرفق بيان بالرسائل التي أشرف عليها) .

٢- الإشراف على قسم المكتبات بكلية الآداب جامعة القاهرة – فرع بني سويف ، وعلى قسم المكتبات بكلية الآداب - جامعة طنطا في العام الدراسي ١٩٩٠ / ١٩٩١ .

٣- الإشراف على قسم المكتبات بكلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر (فرع البنات) بالقاهرة في العام الدراسي ١٩٩٣ / ١٩٩٤ .

٤- رئيس قسم النشر بمركز جامعة القاهرة للطباعة والنشر حتى ٢٠٠٦ .

٥- مستشار مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء لشئون المخطوطات .

٦- مستشار وزير الأوقاف لشئون المخطوطات .

٧- رئيس تحرير مجلة « تراثيات » التي يصدرها مركز تحقيق التراث بدار الكتب بالقاهرة منذ يناير ٢٠٠٣ .

الجوائز ومظاهر التقدير الحاصل عليها :

١- جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية ١٩٩٨ (بالاشتراك) .

٢- الجائزة التقديرية لجامعة القاهرة في مجال العلوم الإنسانية والتربوية عام ٢٠٠٦ .

٣- جائزة جامعة القاهرة للتميز العلمي في مجال الإنسانيات عام ٢٠٠٩ .

٤- درع جامعة القاهرة ، مايو ١٩٩٩ .

٥- درع كلية الآداب جامعة القاهرة ، أكتوبر ١٩٩٩ .

٦- شهادة تقدير من كلية الآداب جامعة بني سويف ٢٠٠٦ .

٧- شهادة تقدير من جامعة القاهرة بمناسبة احتفالها بمرور تسعين عامًا على إنشاء الجامعة ، ديسمبر ١٩٩٨ .

٨- شهادة تقدير من جامعة القاهرة بمناسبة انعقاد مؤتمر الجامعات في خدمة المجتمع وتنمية البيئة ، مارس ١٩٩٧ .

٩- تأليف كتاب عنه بعنوان : جائزة الملك فيصل العالمية بين الحلوجي وبن جنيد ، أعدَّهُ محمد فتحي عبد الهادي وأمين سليمان سيدو ، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٩٩ .

الرسائل التي أشرف عليها مرتبة زمنيًا :

أولًا: رسائل الدكتوراه:

أ – التي نُوقشت :

١- مشروع خطة تصنيف لمكتبات وببليوجرافيات شركات التأمين وإعادة التأمين / محمد عبده السيد صيام ، ١٩٨١ .

٢- الاختيار والتزويد في المكتبات الجامعية بالمملكة العربية السعودية / يحيى محمود ساعاتي ، ١٩٨٣ .

٣- الأرشيف الحديث في مصر / جمال إبراهيم الخولي ، ١٩٨٤ .

٤- كتب الأطفال في مصر في ربع قرن (١٩٥٥ – ١٩٨٠) / سهير أحمد محفوظ ، ١٩٨٦ .

٥- الاتصال القرائي وعلاقته بالإنتاج الفكري / كمال عرفات نبهان ، ١٩٨٧ .

٦- خزائن الكتب العباسية : دراسة في الموارد والنظم والخدمات / محمد مجاهد الهلالي ، ١٩٨٧ .

٧- إدارة المكتبات الجامعية / حامد الشافعي محمد دياب ، ١٩٨٨ .

٨- أنماط التوثيق في المخطوط العربي في القرن التاسع الهجري / عابد سليمان المشوخي ، ١٩٩٢ .

٩- المخطوطات العربية بدار الكتب القومية بمصر / شمس الأصيل محمد علي ، ١٩٩٥ .

١٠- المجموعات العربية والإسلامية في مكتبة الكونجرس / فوزي ميخائيل تادرس ،

١٩٩٧ .

١١- الإنتاج الفكري المصري المعاصر لعلوم السياسة والاقتصاد / زينب محمد محفوظ ، ١٩٩٨ .

١٢- مكتبات جامعة قاريونس (ليبيا) / صالح محمود الشريدي ، ٢٠٠٠ . (إشراف مشترك) .

١٣- الفهارس المحسبة في المكتبات السعودية : دراسة لواقعها وأساليب تطويرها / عبد الرحمن غالب دبور ، ٢٠٠١ .

١٤- الفهارس الموضوعية المحسبة للقرآن الكريم / مجدي عبد الجواد الجاكي ، ٢٠٠٦ . – (كلية الآداب- جامعة الإسكندرية) .

١٥- مصادر معلومات الحج : دراسة تحليلية مع التخطيط لإنشاء مركز معلومات/ عبد الله عبد الرحمن المحضار ، ٢٠٠٧ .

ب – التي لم تُناقش بعد :

١- مجموعات معهد المخطوطات العربية وخدماته : دراسة تقويمية / سامية عبد الله عبده الكفوري ، ٢٠٠٥ . (إشراف مشترك) .

٢- البيانات الخلفية (الميتاداتا) للمخطوطات العربية المرقمنة على الإنترنت دراسة تحليلية مقارنة لاستنباط أسس معيار واحد / وليد غالي نصر ، ٢٠٠٦ . (إشراف مشترك) .

٣- فهارس المكتبات عند المسلمين: من نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) / سعيد ضامن الجوماني ، ٢٠٠٨ . (إشراف مشترك) .

ثانيًا: رسائل الماجستير :

أ- التي نُوقشت :

١- التوثيق في مجال العلوم الاجتماعية : مع دراسة ميدانية لأهم مراكز التوثيق والمكتبات المتخصصة في مصر / لوريس لويس يونان ، ١٩٨٠ .

٢- الفهارس الموحدة للدوريات بمكتبات البحث / سناء عبد المنعم المقدم ، ١٩٨٣ .

٣- المكتبات العامة في السودان / رحمة الله محمد حمد السيد ، ١٩٨٣ .

٤- الخدمة المكتبية للمعوقين / أميرة عبد السيد غطاس ، ١٩٨٤ .

٥- تقويم الدور التربوي للمكتبات في المرحلة الابتدائية / محمد عبد الحكيم الغول ، ١٩٨٥ . - (كلية التربية - جامعة المنوفية) . (إشراف مشترك) .

٦- المستفيدون من المكتبات العامة في مدينة بني سويف /مها أحمد إبراهيم ، ١٩٩٥ . - (كلية الآداب - جامعة القاهرة / فرع بني سويف) . (إشراف مشترك)

٧- المخطوطات العربية في المكتبات العمانية / خلفان بن زهران بن حمد الحجي ، ١٩٩٧ .

٨- التعليم المبرمج بمساعدة الحاسب الآلي في تخصص المكتبات والمعلومات / عماد عيسى صالح ، ١٩٩٩ .

٩- الكشافات الموضوعية للقرآن الكريم : دراسة تحليلية مقارنة / مجدي عبد الجواد الجاكي ، ٢٠٠٠ . - (كلية الآداب - جامعة المنوفية) . (إشراف مشترك) .

١٠- أنماط الإفادة من الرسائل الجامعية في مجال الإنسانيات في مكتبتي جامعة القاهرة وعين شمس / نصر منصور نصر ، ٢٠٠٢ .

١١- توثيق النصوص : دراسة مقارنة لوثائق القرن العاشر الهجري ومخطوطاته المحفوظة بدار الكتب المصرية / طه محمد نور أبو الخير ، ٢٠٠٢ . - (كلية الآداب - جامعة القاهرة / فرع بني سويف) . (إشراف مشترك) .

١٢- دار الكتب المصرية : دراسة للتنظيم الإداري وتطوره / هالة فوزي عبد الرحمن ، ٢٠٠٣ .

١٣- اتجاهات التحقيق في الرسائل الجامعية بالجامعات المصرية : دراسة تطبيقية على علوم اللغة العربية / عبير عبد الله علي ، ٢٠٠٤ . - (كلية الآداب -جامعة القاهرة / فرع بني سويف) . (إشراف مشترك) .

١٤- المخطوطات العربية في المكتبات العُمانية : دراسة لتكوينها و تنظيمها و سُبُل الإفادة منها / خلفان بن زهران بن حمد ، ١٩٩٧ .

١٥- المكتبات في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي / حنان عبد الله محروس ، ٢٠٠٧ .

١٦- أوعية المعلومات الإلكترونية في مكتبات جامعة الإسكندرية : دراسة ميدانية في تكوين المجموعات وإتاحتها / أميرة عبد الرحمن ، ٢٠٠٨ . - (كلية الآداب - جامعة الإسكندرية) . (إشراف مشترك) .

١٧- مكتبات الجمعيات المصرية للعلوم الانسانية والاجتماعية : دراسة تاريخية وميدانية / فاطمة مصطفى محمود ، ٢٠٠٨ .

١٨- مكتبات الهيئة العامة للأبنية التعليمية : دراسة تحليلية للمقتنيات والخدمات / عزة سيد محمد محمد شيمي ، ٢٠٠٨ .

١٩- مكتبات الأندية الرياضية و الاجتماعية بالقاهرة الكبرى / محمود أحمد محمد

عبد الرحمن ، ٢٠٠٧ .

٢٠- العلامات المائية فى المخطوطات العربية : دراسة على مخطوطات مكتبة الأوقاف المصرية / أمير محمد صادق إبراهيم ، ٢٠٠٨

٢١- جهود المستشرقين فى مجال الضبط الببليوجرافي للإنتاج العربي / إيناس عباس توفيق خضر ، ٢٠٠٩ .

ب – التي لم تُناقش بعد :

١- علم المكتبات في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين : دراسة توثيقية لإسهامات الدكتور أحمد أنور عمر والدكتور محمود الشنيطي / كرم أحمد عبد الله ، ٢٠٠٣ .

٢- الكتب المترجمة في مصر منذ ١٩٨٥- ٢٠٠٣ : دراسة ببليومترية / مي محمد صلاح نور ، ٢٠٠٣ .

٣- المخطوطات في مؤسسات وزارة الأوقاف المصرية : دراسة نظرية وتطبيقية في ضوء مشروع المكتبة المركزية للمخطوطات / محمد عبد العزيز محمد ، ٢٠٠٤ (إشراف مشترك) .

٤- مكتبات أسرة محمد علي بدار الكتب القومية : دراسة وصفية تحليلية / زينب محمد إسماعيل المقدم ، ٢٠٠٥ .

٥- فهارس المخطوطات التي أصدرتها مؤسسة الفرقان بلندن : دراسة تحليلية / فاطمة محمد عبد السلام ، ٢٠٠٦ .

٦- مكتبة كلية دار العلوم : دراسة حالة / هبة الدسوقي جاد الرب ، ٢٠٠٦.

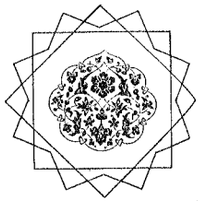

عنه

شهادات

مقالات

دراسات

عبد الرحمن ، ٢٠٠٧ .

٢٠- العلامات المائية فى المخطوطات العربية : دراسة على مخطوطات مكتبة الأوقاف المصرية / أمير محمد صادق إبراهيم ، ٢٠٠٨

٢١- جهود المستشرقين فى مجال الضبط الببليوجرافي للإنتاج العربي / إيناس عباس توفيق خضر ، ٢٠٠٩ .

ب – التي لم تُناقش بعد :

١- علم المكتبات في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين : دراسة توثيقية لإسهامات الدكتور أحمد أنور عمر والدكتور محمود الشنيطي / كرم أحمد عبد الله ، ٢٠٠٣ .

٢- الكتب المترجمة في مصر منذ ١٩٨٥- ٢٠٠٣ : دراسة ببليومترية / مي محمد صلاح نور ، ٢٠٠٣ .

٣- المخطوطات في مؤسسات وزارة الأوقاف المصرية : دراسة نظرية وتطبيقية في ضوء مشروع المكتبة المركزية للمخطوطات / محمد عبد العزيز محمد ، ٢٠٠٤ (إشراف مشترك) .

٤- مكتبات أسرة محمد علي بدار الكتب القومية : دراسة وصفية تحليلية / زينب محمد إسماعيل المقدم ، ٢٠٠٥ .

٥- فهارس المخطوطات التي أصدرتها مؤسسة الفرقان بلندن : دراسة تحليلية / فاطمة محمد عبد السلام ، ٢٠٠٦ .

٦- مكتبة كلية دار العلوم : دراسة حالة / هبة الدسوقي جاد الرب ، ٢٠٠٦.

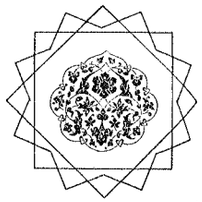

عنه

شهادات

مقالات

دراسات

شهادات

شيخ المخطوطات العربية

أ.د. محمد فتحي عبد الهادي*

قابلت الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي في أوائل السبعينات من القرن العشرين في قسم المكتبات والوثائق والمعلومات ، مع أساتذة وزملاء آخرين بكلية الآداب جامعة القاهرة الذي احتضننا مع أساتذة وزملاء آخرين عبر سنوات طويلة حتىٰ الآن .

كان الرجل وما يزال نسيجًا أو توليفة فريدة من نوعها ؛ فهو قد دَرَسَ اللغة العربية ودرّسها ، وتعلّم فنون التربية ودروبها ، وفضلًا عن هذا تخصَّصَ في مجال المكتبات والمعلومات دراسة وبحثًا وتدريسًا وتأليفًا ، فثالوث اللغة والتربية والمكتبات إذن هو الذي يشكل هذه التوليفة الفريدة وهذا النسيج المتآلف .

وقد انعكست هذه التوليفة علىٰ الرجل في مؤلفاته وفي تعاملاته مع الآخرين ، فهو يتحدث بطلاقة وعذوبة وفصاحة لسان ، وهو مرجعنا في اللغة العربية ، وهو القدوة في التدريس والتعليم ، وهو المرجع الأول في التراث والمخطوطات . بل كان لتعدد التوليفة أثرها في أمور شخصية كثيرة ؛ فهو يتميز بهدوء الطباع ، ورزانة العلماء ، والتمسك بصحيح الدين ، وهو إنسان محسن بكل ما لهذه الكلمة من معان ، وهو يهدي الكثير من كتبه لمن يقصده من الطلاب ، ويساعد الكثيرين في الخفاء بطريقة مباشرة وغير مباشرة دون أن يحس أحد بذلك ، ربما حتىٰ الشخص نفسه الذي يساعده ، وهو الوسيط بين الأطراف المتناحرة والمتنافرة ، وهو المدافع عن حقوق الآخرين عندما يقتنع بأن لهم حقوقًا .

---

* أستاذ المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة ، والوكيل الأسبق للكلية .

ولا أعرف على وجه التحديد سر أو سبب توجهه الأساسي لدراسة وبحث التراث المخطوط ... هذا التوجه الذي يمثل رحلة طويلة تقترب من خمسين عامًا ، فعندما عاد إلى مصر في فبراير ١٩٦٤ بعد الحصول على الدبلوم العالي في المكتبات من جامعة لندن عام ١٩٦٣ ، عمل رئيسًا لقسم فهرسة المخطوطات بدار الكتب المصرية ، ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم وهو منشغل بالتراث وبالمخطوطات عملًا وتدريسًا ودراسةً وبحثًا وتأليفًا .

قد تكون النشأة العلمية الأولى في قسم اللغة العربية وآدابها هي السبب ، وقد تكون النشأة الأسرية هي السبب ، فقد كان والده مدرسًا للغة العربية والدين الإسلامي ، وقد يكون مكان العمل بقسم المخطوطات بدار الكتب هو السبب ، وقد تكون تلك الأسباب مجتمعة ، وقد تكون هناك أسباب أخرى .

المهم أن مجال المكتبات والمعلومات كان سعيد الحظ بدخول هذا الرجل في قطاع التراث العربي والمخطوطات العربية ، فقد كان ذلك سببًا في تنبهنا إلى التراث العربي العظيم الذي خلَّفه أسلافنا ، وكان سببًا في الاقتناع بأن دراسة المخطوطات جزء أصيل من دراسات المكتبات والمعلومات وليس اللغة العربية أو الوثائق .

وعندما تُذكر المخطوطات العربية نتذكر على الفور أسماء عدد من العلماء والباحثين أبرزهم بالقطع أستاذنا الجليل ، فالرجل عضو الهيئة الاستشارية لمعهد المخطوطات العربية ، وعضو اللجنة العلمية المشرفة على مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ، ورئيس لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومستشار لوزير الأوقاف ، ولمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء لشئون المخطوطات .

والرجل نال رسالته للدكتوراه عام ١٩٦٩ عن المخطوط العربي ، وكانت الرسالة الأولى التي تُقدم في تخصص المكتبات والمعلومات عن هذا الموضوع .

وقد أَلَّفَ الدكتور عبد الستار الحلوجي عدة كتب عن المخطوط العربي ؛ أوَّلها وأشهرها كتاب « المخطوط العربي » الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٨ وطبعته الثالثة عام ٢٠٠٢ . وهو كتاب عمدة في الموضوع ، إذ يتحدث عن نشأة المخطوط العربي وعوامل انتشاره ، وصناعة المخطوط العربي خلال القرون الأولى للهجرة ، وأيضًا الإعداد الفني للمخطوطات وتحقيقها ونشرها .

والكتاب الثاني هو « المخطوطات والتراث العربي » الذي صدر بالقاهرة عام ٢٠٠١ ، وهو يتناول المخطوطات جمعًا وفهرسةً وتحقيقًا ، فضلًا عن التراث وقضاياه الببليوجرافية .

أما أهم الكتب في هذا المجال فهو كتاب « نحو علم مخطوطات عربي » الذي صدر بالقاهرة عام ٢٠٠٤ ، وقد صبَّ فيه خلاصة تجربته وحاول أن يحدد إطارًا لعلم المخطوطات العربي . وللأسف فإن هذا الكتاب لم يُكتب عنه ما يستحقه حتى الآن .

ولم يقتصر الجهد العلمي في المخطوط العربي على التأليف ، وإنما انصرف أستاذنا أيضًا إلى التحقيق ، فقد حقَّقَ كتاب « عمدة الكُتَّاب وعُدَّة ذوي الألباب » للمعز بن باديس ، وهو كتاب يتناول صناعة الكتاب بدءًا بالأقلام ومرورًا بالأحبار والأصباغ ، وانتهاء بالورق والتجليد .

كما انصرف جهده أيضًا إلى الترجمة في هذا المجال ، فقد نقل إلى العربية العمل الضخم الذي أصدرته مؤسسة الفرقان في أربعة مجلدات عن « المخطوطات الإسلامية في العالم » وصدر في الفترة من ١٩٩٧ – ٢٠٠٢ وهو الكتاب الذي يعرّف بمجموعات المخطوطات وفهارسها في ١٠٧ دولة ، كما نقل إلى العربية مع زميل له كتاب جين سوفاجيه وكلود كاهين « مصادر دراسة التاريخ الإسلامي » عام ١٩٩٨ .

والكتاب الثالث الذي ترجمه نُشر في السلسلة الشهيرة « عالم المعرفة » التي تصدر

بالكويت وهو كتاب « الكتاب في العالم الإسلامي » الذي حرره جورج عطية ، وقد صدر عام ٢٠٠٣ ويتحدث عن دور الكتاب في إثراء الحضارة في العالم الإسلامي .

وإضافة إلى ما سبق شارك العالم الجليل في تحرير « فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا » وقد صدر عن مؤسسة الفرقان بلندن عام ١٩٩٧ .

وقد ساهم الرجل ببحوث علمية في مجال المخطوطات في عديد من المؤتمرات والندوات العلمية ، منها بحثه عن فهارس المخطوطات بالحلقة الإقليمية للخدمات المكتبية والمخطوطات العربية بدمشق عام ١٩٧١ ، وبحثه بعنوان « نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط » الذي قُدم إلى حلقة حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها في نوفمبر ١٩٧٥ ، وبحثه « الفهرسة : المصطلح والحدود » في ندوة « قضايا المخطوطات في الوطن العربي » عام ١٩٩٨ ، وبحثه « تحقيق المخطوط الفلسفي في مصر » في ندوة الفكر الفلسفي في مصر في مائة عام ، وبحثه « المخطوطات الموقعة بمكتبة الأوقاف بالقاهرة » في مؤتمر المخطوطات الموقعة الذي عقد بمكتبة الإسكندرية في إبريل ٢٠٠٥ .

وللرجل دراسات عديدة منشوة في دوريات عربية ، فضلًا عن كونه رئيس تحرير مجلة « تراثيات » التي يصدرها مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية .

كما أشرف على عدد كبير من الرسائل العلمية لدرجتي الماجستير والدكتوراه في تخصص المخطوطات منها :

- أنماط التوثيق في المخطوط العربي في القرن التاسع الهجري عابد المشوخي ، ١٩٩٢ .
- المخطوطات العربية بدار الكتب القومية بمصر شمس الاصيل محمد علي ، ١٩٩٥ .
- المخطوطات العربية في المكتبات العمانية خلفان الحجي ، ١٩٩٧ .

- اتجاهات التحقيق في الرسائل الجامعة بالجامعات المصرية عبير عبد الله علي ، ٢٠٠٤ .

ذلك جانب من جوانب فكرية عديدة لهذا الباحث الجليل .

إنه لا يكتب كثيرًا مثل الآخرين الذين يسهلون ، ولكنه يجيد عندما يكتب وهذه هي قمة العطاء . ولأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا ، فقد منحته مؤسسة الملك فيصل جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٩٩٨ عن جهده المتميز في مجال المخطوط العربي ، وهي من الجوائز المرموقة على النطاق العربي والعالمي ، كما منحته جامعة القاهرة الجائزة التقديرية للجامعة في مجال العلوم الإنسانية والتربوية عام ٢٠٠٦ .

بارك الله في جهد هذا الرجل الذي عمل ويعمل في صمت العلماء المتميزين النادرين هذه الأيام ، وأطال الله في عمره وأدام عليه الصحة والعافية .

(منذ وضع الإنسان قدمه على ظهر الأرض إلى أن وضعها على سطح القمر والعقل البشري لا يكفّ عن التفكير والإبداع ، ولا يعترف بحدود لآماله وطموحه . وعلى طول الطريق الذي قطعته البشرية منذ أقدم عصورها إلى الوقت الحاضر ، كان هناك العديد من الكشوف والاختراعات التي انتقلت بالإنسان من حياته البدائية البسيطة إلى حياته الحضرية الحديثة في أعقد صورها . ومن بين تلك الاختراعات الهائلة يقف اختراع الكتابة متفردًا باعتباره أهمها وأعظمها على الإطلاق . فيوم بدأ الإنسان يسجل أفكاره ومعتقداته حفرًا في الصخور ونقشًا على الجدران كان بذلك يضع اللبنة الأولى في صرح حضارته) .

من مقال بعنوان : المكتبات العربية بين أمجاد الماضي وتحديات المستقبل .

نشر بمجلة « الدارة » العدد الأول ، ربيع الأول ١٣٩٥ هـ (مارس ١٩٧٥ م) .

وأعيد نشره في كتاب : « الكتب والمكتبات بين القديم والحديث » .

تقدير ووفاء

أ.د. حسين نصار*

الكتاب التذكاري – في تصوري – نُصْب بقيمة المجتمع البشري لواحد منه قدَّم لهذا المجتمع عطاء له قيمته الذاتية ، عطاء يرىٰ أنه يجب ألا ينساه ، لا هو ولا الأجيال التالية .

فهو بمثابة التمثال الذي يقام في أحد الميادين أو الساحات أو مداخل الصروح لواحد من الرواد المبدعين أو القادة الموفقين أو الزعماء الملهمين أو المفكرين الذين لم يسهموا في ارتقاء مجتمعهم الخاص وحده ، وإنما أسهموا في ارتقاء الإنسانية جمعاء .

وتتنافس الشعوب في مثل هذا التكريم ، وتتعدد أنواعه ، فمن الشعوب من يلجأ إلىٰ الحجر الجرانيتي أو البازلتي ، ومنها من يلجأ إلىٰ النحاس أو البرنز أو غيرهما ، ليتخذ منها تمثالًا شامخًا أو متفردًا .

إذا كان هذا ، فأولىٰ الشعوب بأن يتخذ من الكتاب نُصب التشريف : العرب . فقد كانوا منذ بدء معرفة البشر بهم أمة الكلمة البليغة المعجبة ، الكلمة العذبة الحلوة ، تصوغها شعرًا يمتلك القلوب ، أو نثرًا يسيطر علىٰ العقول .

وكانت معجزة العرب كتابًا كريمًا ، تحداهم في أزهىٰ عصورهم القولية ، فعجزوا عن مضاهاته ، وأقروا بذا مذعنين . وكانت الكلمة الأولىٰ في الرسالة التي بُعثت إليهم أمرًا بالقراءة .

إذا كان هذا شأن الأمة التي أنجبتنا ، فأولىٰ الأولاد بأن يكون تشريفهم بالكتاب

* أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب – جامعة القاهرة ، والعميد الأسبق للكلية .

أبناء كلية الآداب التي تُعنىٰ فيما تعنىٰ به باللغات المتنوعة وما أنتجت من آداب .

إذا صحَّ هذا علىٰ أبناء كلية الآداب ، فأولاهم أبناء قسم اللغة العربية ، أول قسم أنشأته أولىٰ الجامعات المصرية ، قسم اللغة القومية .

والمُهْدَىٰ إليه الكتاب ، نصب التشريف ، اجتمعت فيه كل هذه الأمور . ثم لم يكتف بهذا ، وإنما بذل ما وسعه الجهد في كل عمل تولاه لإتقانه وتطويره ، حتىٰ وصل إلىٰ ما وصل إليه من مناصب ، واستدعته الجامعات في الشقيقات العربيات وبقية الأقطار إما للعمل فيها أو للإسهام في الندوات العلمية المنعقدة هناك . وبذل ما وسعه الجهد ليكون إنسانًا ، فكان ، فالتف حوله الأصدقاء والمحبون من كل مكان ، وقدموا له – عن حب – ما يرىٰ القارئ شيئًا منه في هذا الكتاب .

(في هذا الوقت الذي يُمتحن فيه الإسلام والمسلمون ، لابد لنا من وقفة مع النفس ، نبحث في أعماقنا عن هويتنا ، ونجمع الخيوط المتفرقة التي تنسج شخصيتنا الإسلامية ، فنحن مطالبون اليوم ، أكثر من أي وقت مضىٰ ، بأن نكتشف أنفسنا ، وأن نتعرف علىٰ جوهر ديننا ، لأن هذا الدين هو طوق النجاة لنا في هذا الخضم الهائل الذي تتدافع فيه أمواج الباطل من كل مكان . وما ورثناه من تراث إسلامي هو الوقود الذي تستمر به جذوة الحياة متوقدة في نفوسنا . ويوم نبتعد عن ديننا أو نتنكر لتراثنا ، تنماع شخصيتنا ونفقد كل مقومات البقاء) .

من مقال بعنوان : هذا هو تراثنا .

نشر بمجلة « تراثيات العدد الأول ، يناير ٢٠٠٣

خواطر حول الصديق الذي أعرفه: الرجل والإنسان

د. محمد جلال غندور*

العلماء ليسوا كغيرهم ، ولا يجب أن يكونوا كذلك ، فقد اختصهم الله سبحانه وتعالىٰ بقبس من نوره ، وعلىٰ قدر تميزهم هذا أُلقيت علىٰ عاتقهم مسئولية جسيمة في تعلُّم العلم وتعليمه ، لذا لا تقاس أعمارهم بحساب البشر بقدر ما تقاس بسنوات عطائهم العلمي وإبداعاتهم الفكرية ، والعبرة في ذلك ليس بكم الأعمال وكثرتها ، وإنما بقدر ما لهذه الأعمال من قيمة وفائدة لمعاصريهم ولمن جاء بعدهم .

وصديقي الذي أعرفه شيخ بعلمه لا بسنوات عمره ، ورائد بفكره لا بمناصبه ، وعالم بإبداعاته لا بوظائفه . متفرد بقلمه وسجاياه . إنه من أولئك الذين يعلمون ، ويعلمون أنهم يعلمون . لا يألو جهدًا ، ولا يضنُّ بعلم ، ولا يبخل بمال وإن كان به خصاصة . يقصده طلاب العلم فيفيض عليهم بعلمه حتىٰ يكتفوا ، ويلجأ إليه المُحتاجون فلا يرد لهم حاجة وإن أجهدته ، فإن أعطىٰ فهو فرح بما أخرج ، وإن منع فبعذر قاهر وحزن لما منع. ضعيف تجاه الضعفاء والمستضعفين وإن تشددوا ، قويّ أمام الأقوياء المستكبرين وإن تجبروا . لا يغضب لنفسه قدر غضبته للحق . إن أردت أسره فبكلمة طيبة ، إن استشعرها صادقة وخالصة لوجه الله تعالىٰ ملكته ، ورأيتَ منه الوداعة والسكينة وطيب المعشر . له بصيرة الحكماء ، وحكمة العلماء ، وعلم العارفين ، ومعرفة الأتقياء ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ولا تحسبنَّ أنى أبالغ في القول ، أو أشتط في المقال ، فأُسبغ علىٰ الرجل ما ليس فيه ،

* أستاذ المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة بني سويف ، ووكيل الكلية السابق .

وأضعه فوق مرتبة البشر –حاشا لله – فهو رجل من أواسط الناس ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، لكنْ أوجز فأقول : « رجل صالح » .

وليست تلك المرة الأولىٰ التي أكتب فيها عن الرجل وفضائله العلمية وصفاته الإنسانية ، وقد سبق أن قلت فيه في معرض حديثي عن أعماله الفكرية :

« أستاذ جليل من رواد الجيل الثاني لمجال المكتبات والمعلومات في مصر، وعَلَم من أعلامه في وطننا العربي .. تميزت كتاباته برشاقة الكلمة ، وجزالة الأسلوب ، وعمق المعنىٰ ، وشمولية المضمون . فهو يصوغ كلماته بلغة عربية رفيعة المستوىٰ ، لا يتقنها إلا من امتلك موهبة التعبير ، وحذق الكتابة وفنونها ، وأحب اللغة العربية فأحبته ، وامتلك ناصيتها فأطاعته ، وأعطاها فأعطته ، فهو بحق من أفضل الكُتَّاب أسلوبًا وإتقانًا للغة الضاد في مجال المكتبات » .

وفي تحليلي لأحد أعماله الموسوعية (المخطوطات الإسلامية في العالم) ، قلت فيه : « المُبدع الذي انكبَّ علىٰ هذا العمل سنوات طوالًا ، ترجمةً وتحقيقًا وتنقيحًا واستزادةً حتىٰ خرج بالصورة المشرِّفة التي تليق برصانة الموضوع وأهميته ، وجدية الراعي وقدره ، وعلم المبدع ومكانته. فالأمر جد يسير ، والتعريف برواد العلم وقادة الفكر أمر هيِّن لا مشقة فيه ، وهو ما ينطبق علىٰ مبدع هذا العمل ، فهو عَلَم من أعلام المجال ، وعالم لا يختلف اثنان علىٰ غزارة علمه وعظيم خبراته ومكانته المرموقة » .

ولا يتسع المجال هنا ، لذكر كل ما كتبته حول الرجل وعنه ، ولعلِّي اختتم الحديث عنه بما جاء في قرار منحه جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٨ ، حيث ورد فيه ما يلي : « أما الأستاذ الدكتور عبد الستار عبد الحق الحلوجي، فقد منحته اللجنة الجائزة تقديرًا لجهوده في مجال المكتبات . فكتابه « المخطوط العربي » المنشور عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) يعد عملًا متميزًا في مجال صناعة الكتاب عند المسلمين ، درس فيه

نشأة المخطوط وعوامل تطوره وصناعته عند المسلمين في القرون الأربعة الأولى ، مستقيًا معلوماته من المصادر الأصلية ، ومستفيدًا من الدراسات السابقة المتخصصة العربية والأجنبية ، راسمًا صورة واضحة للمخطوط العربي في فترة دراسته ، وقد صاغ كتابه بأسلوب جيد مع دقة في توثيق المعلومات وعرضها » .

ومع كثرة خواطري حول الصديق ، والرجل ، والإنسان الذي أعرفه وتزاحمها ، لم أجد سوى تلك الكلمات البسيطة في ظاهرها ، الصادقة العميقة في باطنها ، أُقدِّم بها الأستاذ الصديق عبد الستار الحلوجي (مع حفظ الألقاب) ، لأعبر عن مشاعري التي تبلورت نحو الرجل عبر سنوات طويلة منذ عام ١٩٩٠ حتى يومنا هذا ، عرفت فيها الأستاذ العالم ، والزميل الفاضل ، والصديق الوفي ، والرجل الراشد. تنامت خلالها درجات القرب فيما بيننا من زمالة واحترام ، لصداقة وود ، ثم محبة خالصة لوجه الله تعالى لا غرض فيها ولا رياء.

ثمانية عشر عامًا مرت ، منذ لقائي به أول مرة ، ولا زلت أذكر من اللقاء بشاشة الوجه ، وحُسن اللقاء ، وهدوء الكلام ، وجاذبية الحديث . ومع توالي اللقاءات ، وتتابع المواقف ، وتشعُّب الأحداث ، توطدت معرفتي بالرجل الإنسان ، وتكشَّف لي معدنه الحقيقي بعيدًا عن هالة العلم المحيطة به ، هذا العلم الذي عشقه وكرَّس حياته من أجله ، وبمنأى من نفوذ المناصب التي لم يَسْعَ إليها ، ولم يحبها قط ، ولم يرَ فيها إلا سبيلًا لخدمة الآخرين. ولا أنوِّه هنا إلى أني أقدم معارفه أو أعز أصدقائه – هذه تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه – فهم بحمد الله كُثر ، إلا أنني أزعم أني واحد من الذين اقتربوا من الرجل الإنسان بشكل وثيق ، ورافقوه في ظروف ، وخبروه في مواقف ، وجالسوه في ساعات صفاء ، لمستُ فيها رجاحة عقله ، وطيب عنصره ، وكمَّ الخير بداخله ، وهي أمور أحسب أنه لم يتسنَّ للعديد من قدامى معارفه وأصدقائه أن يختبروها .

لذا ، كم أسعدتني هذه اللفتة الكريمة من مريديه ومحبيه الذين أرادوا أن يكرموه بهذا

العمل ، فهو بالتكريم أجدر ، وبالتقدير أحق ، ليس فقط لكونه عالمًا له مكانته وشأنه في مجال العلم والمعرفة ، ولكن لشخصه ومكانته في قلوب الناس من حوله .

فلله عباد اختصهم بقضاء حوائج الناس ، حَبَّبهم في الخير وحبب الخير إليهم .

وأنت بإذن الله منهم ، وفي زمرتهم ، يا أستاذي وصديقي . أدعو الله عز وجل – صادقًا – أن يطيل لنا في عمرك ، ويوفق مسعاك ، ويسدد خطاك ، ويعينك على المزيد من عمل الخير الذي أحببته فأحبك ، وأعطيته فأعطاك ، وسيعطيك بإذن الله رحمة من الله ومغفرة من عنده. اللهم آمين .

❦❦❦

(إن قلة علمنا بتراثنا ، وعجزنا عن التعريف به تعريفًا صحيحًا هو الذي يتيح لأصوات أعدائنا أن تعلو ، ويتيح لتُهمهم الباطلة الجائرة أن تجد لها آذانًا صاغية . ولهذا أقول إن أزمتنا الحالية أزمة جهل قبل أن تكون أزمة ضعف ، وإن المعرفة الصحيحة بتراثنا هي التي يمكن أن تجمع شملنا وتقرّب بعيدنا وتصون وحدتنا . فهذا التراث هو الذي يشكِّل عقل الأمة ووجدانها ، ولا تكفي المعرفة به وحدها ، وإنما لابد من إحيائه وتفعيله والتمسك به. بل لابد من التعريف بما يحمله من مبادئ سامية ومثُل عليا وقيم رفيعة ، تجمع ولا تفرِّق ، تبني ولا تهدم ، تصون ولا تبدِّد ، تنشر الحب والإخاء بين البشرية كلها ، وتحفظ الدماء والأموال والأعراض ، وتحرر الإنسان من الخضوع لغير الله ، وتطلق طاقاته الكامنة لعمارة الكون وإثراء الحياة) .

من مقال بعنوان : هذا هو تراثنا .

نشر بمجلة « تراثيات » العدد الأول ، يناير ٢٠٠٣ .

الإيثار وحب الآخرين

أ.د. سعاد الهجرسي*

سَعِدت بمعرفة الدكتور عبد الستار عبد الحق الحلوجي لأول مرة منذ بضع عشرات من السنين ، لا أرغب أنا ولا يرغب هو في تحديدها بدقة ، وإنما نترك هذا التقدير لذكاء القراء ..!

وهؤلاء القراء فئتان : أولاهما الأتراب الذين يبلغون من العمر ما بلغنا ، ونحن نثق في تقدير هؤلاء ونثني عليه ..! وثانيتهما الأبناء والأحفاد الذين لم يبلغوا من العمر نصف ما بلغنا أو ربعه ، ونحن نتحفظ على تقدير هؤلاء وعلى حساباتهم ..!

ولست أدري ما الذي دفعني للدخول في هذا الموقع الشائك ؟ فلنعد إلى جوهر الموضوع ، وهو شخصية المحتفى به .

الشخصية بالنسبة لأي إنسان هي مجموعة متداخلة ومتشابكة من العناصر والمكونات التي يسيطر فيها عنصر معين فيصبح هو الصفة الأساسية للشخصية ، وفي تقديري فإن ذلك العنصر في شخصية الدكتور الحلوجي هو الإيثار وحب الخير للآخرين والعمل على إسعادهم بكل ما يستطيع .. وهو كثير.

* أستاذ المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

أستاذ لأجيال متعاقبة

د. أحمد معتب عبد الكريم*

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد :

فإن الأخ الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي له على من عَرَفه واستفاد بعلمه وخُلُقه حقوق متعددة ، وإن كان هو لا ينتظر من أحد جزاء ولا شكورًا .

فهو أستاذ لأجيال متعاقبة ، ويكفيه فخرًا وشرفًا أن يكون معلمًا للخير ، ليس بالكلمة فقط ، ولكن بالقدوة الصالحة التي رأيت بنفسي نماذجها الفَذَّة ، ليس في مصر وحدها ، ولكن خارج مصر ، حيث جمعنا العمل في رحاب إحدى جامعات المملكة العربية السعودية ، فكان كما هو شأنه متمتعًا بسمعته العلمية في اختصاصه الأصيل ، بحيث كان محل تقدير وثناء كل من تتلمذ عليه أو شاركه في محافل العلم وقاعات الدَّرْس .

وانضاف إلى ذلك نتاجه العلمي في ذات التخصص ، وهو علم المخطوطات ومكتباتها ، فمن لم يتتلمذ له شفاهة تتلمذ على مؤلفاته ، وأنا واحد من هؤلاء . ثم هو صاحب خبرة علمية مشهودة في تخصصه هذا ، فكم من مركز للمخطوطات أقام أركانه ودعائمه ، حتى أصبح يؤدي دوره المتكامل في صيانة المخطوط وفهرسته وتقديمه للباحث ، وتنظيم التعامل معه على كل المستويات والجوانب ، وذلك في داخل مصر وخارجها .

* أستاذ الحديث النبوي – جامعة الأزهر .

كما أني عرفت الأخ العالم الدكتور « عبد الستار » خلال عدد من المؤتمرات العلمية التي اعتلىٰ منبرها محاضرًا ومبدعًا ، ورأس جَلَسَاتها بالحكمة ، وأدار حواراتها بالحيدة والنزاهة . ثم إنَّ الرجل عرفتُه يُفَضِّل العمل في صمت ، ويترك عمله يتحدث عنه ، ومثل هذه النوعية لم تعد كثيرة في وقتنا هذا ، لكني أسأل الله تعالىٰ أن يكثر من أمثاله من روَّاد العلم ونماذج القدوة الصالحة . وخير ما أختم به هو دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، أن يبارك الله في عمره وعمله ويمتعه بموفور الصحة والسداد ، حتىٰ يستمر عطاؤه الذي ينهل منه الجميع ، آمين .

(كيف تُتَّهم بالإرهاب أمة دينها الإسلام ، وتحية أهلها السلام ، وختام صلاتها السلام ، وقرآنها يدعو إلىٰ السلام { يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة } { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علىٰ الله } { فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلًا } ؟! وكيف يُقرن الإرهاب بالإسلام ورسوله أوصىٰ قواد جيوشه بألا يقطعوا شجرة ولا يروِّعوا طفلًا ولا امرأة ، ولا يتعرضوا بالأذىٰ لأي عابد يتعبد في صومعته أيًّا كان دينه أو عقيدته . وهي وصية تناقلها الخلفاء الراشدون المهديون من بعده وألزموا بها قواد جيوشهم)

من مقال بعنوان : هذا هو تراثنا .

نشر بمجلة « تراثيات » العدد الأول ، يناير ٢٠٠٣

عبد الستار الحلوجي كما عرفته

أ.د. عابد سليمان المشوخي*

تعرفتُ الأستاذَ الدكتور عبد الستار عبد الحق الحلوجي أول مرة بمدينة الرياض عام ١٩٧٦ / ١٩٧٧م عندما كان رئيسًا لقسم المكتبات بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وكنت يومها طالبًا في السنة الأولىٰ بقسم المكتبات وكنت أحد تلامذته في المرحلة الجامعية.

ومما لفت انتباهي لأستاذي الفاضل تمتعه بصفات قلَّما تتوافر في غيره ؛ فقد كان قريبًا من طلابه ، وكان نعم المعلم المربي والأب المرشد والأخ المساند والعالم المتواضع والأستاذ المتسامح .

لقد أعجبت بأسلوب أستاذي الكريم الدكتور عبد الستار أثناء المحاضرات ؛ فقد لمستُ لديه قدرة علمية متميزة ، وكان سهلًا وواضحًا في عرض أفكاره العلمية بأسلوب رائع مشوِّق يشد انتباه الطلاب إليه دون أن يشعروا بالكلل أو الملل.

ولم تقتصر علاقته بطلابه علىٰ الدراسة أو المحاضرات التي كان يلقيها ، بل كان يقيم علاقة ودٍّ وصداقة مع طلابه ، ويشجعهم علىٰ مواصلة دراستهم ويقوم بحل مشكلاتهم.

وهذا ما حصل معي بالفعل، فلم تنقطع علاقتي بأستاذي الدكتور عبد الستار

* أستاذ المكتبات بكلية الآداب جامعة الملك سعود بالرياض .

الحلوجي منذ عام ١٩٧٧م حتىٰ هذه اللحظة ، فقد غادر المملكة وواصلت أنا دراستي الجامعية وأنهيتُها في عام ١٩٨٠م ، وبعدها واصلت دراستي العليا وحصلت علىٰ درجة الماجستير . وشاء الله أن ألتحق بجامعة القاهرة لإكمال مرحلة الدكتوراه بقسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب في عام ١٩٨٩م ويومها كان الأستاذ الدكتور معارًا لجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وعندما رجع إلىٰ القاهرة بعد انتهاء إعارته أسند الإشراف علىٰ رسالتي إليه ، وكنت سعيدًا جدًّا بذلك لأن موضوع رسالتي يتعلق بتخصصه الدقيق وهو «المخطوط العربي» .

وأثناء إشرافه علىٰ رسالتي لمستُ منه حرصه الشديد علىٰ قراءة البحث بتمعن ؛ فكان يدوّن الملحوظات الدقيقة حول النصوص دون كلل أو ملل ، والأغرب من هذا أنه ربما يكتب ملحوظاته في صفحة رقم (١١٠) علىٰ سبيل المثال حول فقرة معينة ويشير إلىٰ ورودها في صفحة رقم (١٥) من البحث ، وفي هذا دلالة واضحة علىٰ فطنته وشدة ذكائه وإخلاصه وأمانته .

لقد بذل الدكتور الحلوجي الجهد الكبير في خدمة البحث العلمي وتوجيه طلابه الوجهة الصحيحة ، وربما لمست منه في بعض الأحيان شدة غير معهودة أثناء إشرافه عليَّ ، إلا أن هذه الشدة كان لها ما يبررها ، فطبيعة المرحلة تتطلب ذلك ، وهي تصب في مصلحة الطالب أولًا وأخيرًا.

لقد تتلمذت علىٰ يد أستاذي الحلوجي في المرحلة الجامعية ومرحلة الدكتوراه واستفدت كثيرًا من محاضراته وتوجيهاته ، وتأثرت بأسلوبه وبمؤلفاته التي اتسمت بالموضوعية والأسلوب الواضح ، والمعلومات الغزيرة والمفيدة والعميقة والموثقة في مجال التخصص.

إنَّ الحديث عن أستاذي الدكتور عبد الستار الحلوجي يطول ، ومع إدراكي بأن المقام

لا يتسع للخوض في التفصيلات وضرب الأمثال ، إلا أنني لابد أن أنوِّه في نهاية كلمتي إلىٰ سلوكه وخلقه القويم النابع من إيمانه القوي بالله ، فقد كان وما زال عفيف النفس أمينًا صادقًا وفيًّا يحب الخير للناس ويسعىٰ فيه ، ويعطف علىٰ طلابه ويحسن التعامل معهم.

ولا يسعني في هذا المقام إلا الدعاء له بظهر الغيب بأن يطيل الله عمره ويجعل خير أعماله خواتيمها ، وأن يسبغ عليه نعمة الصحة والعافية ، سائلًا المولىٰ عز وجل أن يوفقه في دينه ودنياه .

(التراث العربي المخطوط هو الذاكرة الحية لأمة امتد تاريخها لما يزيد علىٰ خمسة عشر قرنًا من الزمان ، ووضعت أقدامها في مشارق الأرض ومغاربها ، وأمدت الحضارة الإنسانية بزاد ثريّ في مختلف فروع المعرفة ، وتفرَّد تراثها بعلوم لم يُسبقوا إليها ولم يُلحقوا فيها ، وهي علوم اللغة والأدب والدين ، لأنهم أهل هذه اللغة ، ومبدعو هذا الأدب ؛ ولأن القرآن الكريم شرَّفهم بأن نزل بلسانهم { لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم } ، ولأن النبي ﷺ عاش بين ظهرانيهم وتلقىٰ عنه صحابته أمور دينهم ودنياهم . فهم أقدر الناس علىٰ فهم القرآن والحديث واستيعاب تعاليم الدين وأصوله وتوصيلها إلىٰ أذهان الآخرين . وهم لم يتحرجوا من نقل علوم السابقين ، فترجموا تراث اليونان في الفلسفة والطب والرياضة والجغرافيا والفلك ، ولكنهم لم يقفوا عند مجرد النقل والاتباع وإنما تجاوزوا ذلك إلىٰ مرحلة النقد والابتداع ، فصحّحوا أوهام القدماء ، وأضافوا إلىٰ ما ورثوه من معارفهم إضافات رائدة كان لها تأثيرها البالغ في مختلف مناحي الحياة ، وكانت إنجازاتهم الحضارية الأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة) .

من مقدمة كتاب « نحو علم مخطوطات عربي » .

رائد علم المخطوطات في الوطن العربي

د. أسامة ناظر النقشبندي*

كانت دورة المبعوثين العرب الأولى لدراسة المخطوطات التي عقدها معهد المخطوطات العربية ، بالقاهرة عام ١٩٧١ ، هي المرة الأولى التي أشد فيها الرحال إلى القاهرة أرض العروبة ، وحلم العلماء والفنانين ، منبع الحكمة والمعرفة ، ومحط رجاء العلماء والأدباء قديمًا وحاضرًا ، فهي بحق حاضرة العرب والمسلمين .

لم أسافر على بساط الريح ، ولا على جناح هدهد سليمان ، بل اعتليت الطائرة المتجهة إلى القاهرة لأول مرة في حياتي ، وكلي رغبة للقاء الحبيب الذي طال شوقي إليه ، والعشيق الذي سلبني لبي وعقلي ، منذ أن عملت شابًا في حقل المخطوطات وعالمها في ١ / ٢ / ١٩٦٢ م ، والذي شد على يدي وقوّى عزيمتي وهيّج أشواقي المرحومان : علي الخاقاني ومحمد حسن آل ياسين ، والأديب المغربي محمد إبراهيم الكتاني عند لقائي به في بغداد عام ١٩٦٤ .

وحين حطّت قدماي أرض مطار القاهرة تملكتني رهبة وأنا أفكر بلقاء جهابذة المخطوطات وعلمائها الذين طالما سمعنا عنهم وقرأنا نتاجاتهم ، حيث سألتقي بهم في اليوم التالي . وفي المطار كان في انتظاري أخي الكبير الأستاذ عصام الشنطي ، الذي هدأ من روعي واحتضنني منذ اللحظة الأولى بلطفه وأدبه العالي ، وخفف عليّ الوساوس التي راودتني .

وفي اليوم الأول للدورة حصلنا على برنامجها وأسماء المحاضرين ، وإذا بهم أعلام

* خبير المخطوطات بالعراق .

العلماء العرب في هذا التخصص ، منهم : الأستاذ إبراهيم مدكور ، والدكتور عبد الحليم منتصر ، والأستاذ أحمد صقر ، والدكتور حسين نصار ، والدكتور محمد حمدي البكري ، والشيخ محمود شلتوت ، والأستاذ حسين جلبي ، والسيد إبراهيم الخطاط ، والدكتور عبد الستار الحلوجي .

كانت الدورة تتضمن دروسًا عملية ونظرية تمتد إلى ساعات طوال ، دروسًا قيمة شدتني بقوة إلى هذا العالم الخاص والمبهم الذي كنت لا أعرف منه إلا الألف باء ، وفتحت دروسها مغاليق عقلي على علوم متنوعة ، أُلقيت علينا من قبل عمالقة هذا العلم في العالم العربي ، وما زلت أحتفظ باعتزاز بمطبوعات (ملازم) تلك المحاضرات في مكتبتي ببغداد أراجعها بين الحين والآخر ، وأذكر أن حب العمل كان يأخذني لساعات طويلة تمتد حتى المساء وأنا أتدرب مع الأستاذ محمد شلبي في دار الكتب المصرية .

وكان الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي واحدًا من أهم الذين درّسوا في تلك الدورة ، وكان هذا لقائي الأول به ، ومن حينها امتدت صداقتنا حتى هذه اللحظة ، أدام الله عمره ومتعنا بعلمه وفضله ، فوجدته عالمًا فاضلًا متواضعًا ، وفيًّا لإخوانه وأصدقائه في زمن قلّ فيه الوفاء وغاب عنه الصديق ، دءوبًا في عمله معطاءً بعلمه ، محبًّا لتراث أمته حريصًا عليه . امتلك أسلوبًا علميًّا مشوقًا في عرض مخزونه الفكري ، مبتكرًا مبدعًا في تناول مادته عن « المخطوط العربي » .

وقد حاولت أن أجد دراسات أخرى عن هذا الموضوع ، ورحت أبحث في دار الكتب المصرية عن مصادر ومراجع أخرى ، فلم أجد كتابًا متخصصًا شاملًا لمختلف جوانب هذا الموضوع ، واحتفظت بتلك المذكرة القيمة المطبوعة على الآلة الكاتبة منذ عام ١٩٧١ ، وكانت كل مفردة أو معلومة أوردها في هذه المحاضرات لها قيمتها . وأصبحت مرجعًا لي فيما بعد ، وفتحت كثير من المعلومات الواردة فيها أمامي مجالًا للبحث عندما عملت في دائرة المخطوطات موظفًا مسئولًا عن قسم المخطوطات في مكتبة المتحف العراقي ، ثم

مديرًا عامًّا لدائرة المخطوطات العراقية (دار صدام للمخطوطات سابقًا) وخبيرًا للمخطوطات ، فكتبت تسعة فصول عن علم المخطوطات (منذ القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث عشر) في موسوعة « حضارة العراق » التي أصدرتها وزارة الثقافة العراقية عام ١٩٨٤ في الجزءين التاسع والحادي عشر .

لذا تُعَدُّ دراسته التي صدرت في كتاب (المخطوط العربي) من الدراسات الرائدة ، وهي بحق أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، ولذا استحق عليها بجدارة جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٩٩٨ ، ووجدت نفسي قاصرًا في أن ألحق بأستاذي عبد الستار الحلوجي إلا أن أستقل مركبة فضائية تخترق بي جدار الزمن وهذا محال .

ومع احترامي لكل من كتب عن علم المخطوطات وأنا منهم ، فإن أيًّا من تلك الكتابات لا يمكن أن يرقى إلى ما كتبه الحلوجي بمنهجية علمية متخصصة ودقيقة ، وبروح شفافة ونقية ، تكاد تلمس ابتسامته تخرج من بين السطور وأنت تقرأ كتبه. فالرجل يعمل بصمت ويفاجئك بنتاج أصيل رغم انشغاله بأعمال كثيرة وكبيرة ، فرضها عليه علمه ودماثة أخلاقه والتزاماته . ينتزع الفرصة للاقاتي ويسعى لها في اللحظة التي يسمع فيها بوجودي في القاهرة ساعيًا لملاقاتي أينما حللت ، متفقدًا احتياجاتي ، معبرًا عن حبه واحترامه لي بتواضع العلماء وبابتسامته المحببة النابعة من القلب .

وأَكْبَرْتُ فيه وفاءه لزملائه وأصدقائه من العلماء والأدباء ، وحبه للتراث وأهله ، حتى إنه حرص على إهداء أحد مؤلفاته للعالمين الكبيرين المرحومين الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحلو والأستاذ الدكتور محمود الطناحي اللذين فقدناهما جميعًا ، وشكل موتهما خسارة كبيرة . فهذه التفاتة كريمة طيبة من رجل أصيل لرجلين أثريا المكتبة بعطائهما .

هذه الوريقات هي أقل القليل مما يستحقه أستاذي وصديقي عبد الستار الحلوجي . وقد كنت أتمنى أن أكتب عنه أكثر من ذلك ، لكن الدعوة وصلتني متأخرة جدًّا ، فحرصت أن أشارك في هذه الاحتفالية وأتشرف بالكتابة عنه في كتابه التكريمي لبلوغه السبعين أمد الله في عمره ، وأتذكر رسالة الأخ الحبيب المرحوم قاسم الخطاط (رحمه الله) بعثها لي حين بلوغه هذا العمر وأنا في بغداد ، ما زلت أحتفظ بها ، وأتذكر هذا البيت منها قائلًا :

لكن في قلبي يعيش فتى لم يبلغ العشرين من عمري

وكلي أمل في أن أكتب عنه دراسة وافية تتناول شخصيته ومنهجه ومؤلفاته إذا كان في العمر بقية ، ونحن نعيش ظروفًا صعبة في بغداد بعد أن فقدتُ ثلاثة من إخوتي وبعض الأصدقاء المقربين في ظروف مختلفة ، عسى الله أن يحشرنا مع الشهداء الأبرار أو يكتب لنا فيها أجر المرابطة .

(إن الذي يسرق عمل شخص آخر أو جهده لا يسقط في نظر الناس فحسب ، وإنما هو في الحقيقة يسقط في نظر نفسه قبل أن يسقط في نظر الناس ، ويحتقر نفسه قبل أن يحتقره الناس . وحتى لو احترمه بعض الناس ، أو حتى أكثر الناس ، فماذا يفيده احترامهم إذا كان هو لا يحترم نفسه ؟) .

من مقال بعنوان : « الكتابة عن المخطوط العربي بين الأصالة والادعاء » .
نشر بمجلة « التوباد » السعودية .
المجلد الأول ، العدد الرابع (شوال ١٤٠٨هـ / يونيو ١٩٨٨ م) .

أ.د. يسرية عبد الحليم زايد*

شَرُفْت بأن تتلمذت على يديه لمدة عامين دراسيين متتاليين في مرحلة الليسانس ، فتجسدت لي مثالية الأستاذ الجامعي كما ينبغي أن تكون : العلم الغزير ، والخُلق الرفيع ، والتواضع الجمّ ، وحنان الأبوة المتدفقة . وافتقدت هذه المعاني الجميلة كلها حينما سافر إلى السعودية معارًا ، ثم شرفت بعد عودته بأن أكون زميلةً لسيادته حينما عينت معيدة بالقسم ، فإذا بي أكتشف جوانب إنسانية رائعة في أستاذي الفاضل الكريم والعالم الجليل ، إنسانٌ محب للخير ، يملك قلبًا غاية في الرِّقة والحنان والعطف ، فهو كما يحلو لنا أن نصفه دائمًا صاحب الأيادي البيضاء على الكثيرين ممن يعملون في قسم المكتبات والوثائق والمعلومات بآداب القاهرة ، أو في أقسام المكتبات الأخرى المنتشرة في محافظات مصر ، وقد حظيتُ شخصيًّا منه بمواقف ووقفات إنسانية نبيلة لن أنساها ما حييت ، وسأظل أعترف بفضله عليَّ وعلى زوجي العمر كله ، فقد أعاد البسمة إلى حياتنا بعد أن كادت تختفي منها إلى الأبد .

دعواتي القلبية لسيادته بأن يمتعه الله بالصحة والعافية وطول العمر ، وأن يجعل أعماله الخيِّرة في ميزان حسناته آمين .. يا رب العالمين .

* أستاذ بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب- جامعة القاهرة .

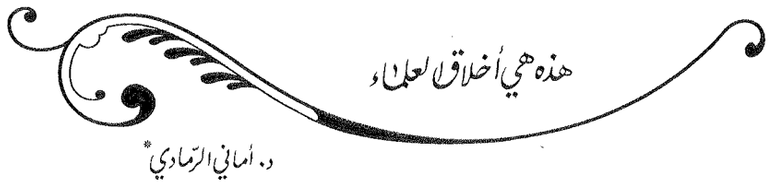

د. أماني الرمادي*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين ، سيدنا محمد ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، وبعد .

فحينما أردتُ أن أكتب كلمة عن أستاذي الجليل الدكتور عبد الستار الحلوجي ، كان أول ما تذكرته عنه أدبه الجم ، وغضُّه لبصره ، وتواضعه الجميل ، وسعة أفقه . ثم تذكرت أنه من بين المكتبيين القليلين الذين اهتموا بالتراث العربي والإسلامي ، وتذكرت حرصي على حضور محاضراته التي كنت أستمتع فيها بعلمه النافع وأسلوبه الجاد الملتزم ، الذي يتخلله بعض المرح والفكاهة من حين لآخر لدفع الملل والسأم عنَّا .

وتذكرته حين كنت طالبة في الفرقة الأولى بقسم المكتبات والمعلومات ، وكنت أدرس على يديه مادة «الخدمة المكتبية العامة» ، وكان من الأساتذة المنتدبين لدى قسمنا ، فلما انتهت امتحانات النصف الأول من العام وأعلن علينا النتيجة بالمحاضرة ، شعرت بالظلم والأسى ، فقد كانت درجتي أقل بكثير مما توقعت ، خاصة أنني أتصور أنني أجبت إجابة جيدة ، كما استعنت بقراءات خارجية حول المقرر الدراسي ، فلما انتهت المحاضرة ذهبت إلى سيادته بغرفة رئيس القسم وهو جالس إليه ، فاستأذنتُ ودخلت إليه قائلة : « معذرة يا أستاذي لقد حصلت على درجة أقل بكثير مما توقعتُ وأظن أنني أجبت إجابة جيدة » ؛ فلم يشعر بأدنى حرج ، ولم يعترض ، ولم ينهرني ، بل سألني عن اسمي ، وأخرج ورقة الإجابة الخاصة بي من مظروف أوراق الامتحانات ، وقرأها

* مدرس المكتبات والمعلومات بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية .

سريعًا ، ثم قال لي : « انظري!! لقد طلبتُ كذا ، وأنت كتبتِ كذا » وأطلعني على الورقة دون أن يتعجلني ، واكتشفت أنني قد أسهبت في الإجابة عن أشياء تتعلق بالموضوع ولكنها لم تكن مطلوبة ، مما جاء على حساب المطلوب في السؤال ، فشكرتُه وخرجت راضية قانعة ، وقد تعلمت من يومها التركيز على المطلوب في السؤال أولًا ثم الإضافة إن كانت هناك فرصة ، وتعلمت أيضًا أن هذه هي أخلاق العلماء التي ينبغي أن يُحتذى بها : الأمانة ، ومن ثمَّ الحِلم ، والشجاعة .

أما القصة الأخرى التي لا أنساها ، فهي أنه لما شرَّفني بمناقشتي في رسالة الدكتوراه، كان يناقشني بطريقة الأب الرحيم ، والأستاذ المعلِّم وليس المُعنِّف ، وكما أشار إلى عيوب الرسالة فقد أوضح مزاياها ، والأجمل من ذلك أنني لما ذهبت إلى سيادته بعد المناقشة بفترة لأعطيه النسخة الأخيرة منها بعد التعديلات ، فوجئت به يقدم لي المزيد من النصائح والملاحظات حول الرسالة وما جاء فيها ، مما يعكس حرصه على تعليم تلامذته ، سواء بالطرق الرسمية أوغيرها .

فجزاه الله تعالى عني وعن كل تلامذته خير الجزاء ، وزاده علمًا وحِكمة ويقينًا بالله ، ورفع قَدره في الدنيا والآخرة ، إنه على كل شيء قدير.

(شاعر في أمة ، وأمة في شاعر ..
في شعره يتدفق صوت الشعب اليمني يشق عباب القرون ويأتينا من بعيد هادرًا قويًّا وثائرًا على الظلم والفساد ، مناديًا بكرامة الإنسان اليمني وحقه في الحرية والحياة . وفي كتاباته تنساب خفقات قلوب الملايين من أبناء أمته ، وتنصهر آمالها في الحياة الحرة الكريمة المنزهة عن كل ألوان العبودية ، والاستغلال والتخلف) .

من كتاب « الزبيري شاعر اليمن » .

أسير من مئات الأسرى

أ. أيمن محمد المصري*

أعتبر نفسي - ولي الشرف - واحدًا من الأسرى الذين طَوَّقهم الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي باهتمامه وعطفه وخدماته.

تعود معرفتي المباشرة بالأستاذ الدكتور الحلوجي إلى عام ١٩٨٩ ، حين التحقت طالبًا بقسم المكتبات والوثائق . فقد استمتعت كطالب بمحاضراته التي كان يلقيها علينا في مادة « تاريخ الكتب والمكتبات » حيث أخذَنا بأسلوبه الرائع إلى آفاق المكتبات في العصور السابقة وقصة الكتابة والتدوين.

وقف أستاذنا الفاضل إلى جانبي وأخذ يُؤَازرني حين توقفت حركة الحياة - بالنسبة لي - عندما توفي والدي رحمه الله ، فمدّ لي يد العون وساندني بتوجيهاته كي أجتاز هذه المرحلة الصعبة في حياتي .

وتخرجت في الجامعة ففوجئت باتصال من الدكتور الحلوجي يرشدني فيه إلى فرصة عمل بالخارج. لا أستطيع أن أحصي عدد المرات التي سألني فيها عن أحوالي واستعداده -الصادق -لتقديم أية مساعدة في مجالي المهني والبحثي على حدٍّ سواء.

إنني من خلال هذه السطور القليلة أوجه تحياتي إلى هذه الشخصية الجليلة التي أحيي فيها الأب والعالم ، وأتمنى له عمرًا مصحوبًا بالصحة والعافية إن شاء الله . كما أرجو أن ينعم الله عليه بالمزيد من الإلهامات العلمية ، وأدعو الله أن يبارك له في أولاده وأحفاده.

وليسمح لي القارئ أن أرفق بهذه السطور قائمة بأبرز أعمال الدكتور عبد الستار

* أخصائي المكتبات والمعلومات بمكتب القاهرة لمكتبة الكونجرس .

الحلوجي المتاحة في المكتبات العالمية ، وذلك من خلال البحث في المرفق الببليوجرافي OCLC.

عنوان العمل	بعض المكتبات المتاح بها
الكتاب في العالم الإسلامي : الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط	Yale University Library Brown University University of Manchester
عباس محمود العقاد : نشرة ببليوجرافية بآثاره الفكرية	University of California Yale University Library Boston Public Library Harvard University
دراسات في الكتب والمكتبات	The Library of Congress University of Arizona New York Public Library
فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا	The Library of Congress University of Illinois Harvard University
لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات	University of Chicago University of Michigan Library
مع الملاح التائه علي محمود طه	University of Arizona University of California University of Pennsylvania
مدخل لدراسة المراجع	University of Washington Library The Library of Congress
المخطوط العربي	Georgetown University Yale University Library University of Chicago University of Utah
المخطوطات والتراث العربي	The Library of Congress Cornell University

niversity	
versity	نحو علم مخطوطات عربي
arvard University Princeton University	قراءة في أوراق جامعية
University of Utah Portland State University Library University of Minnesota	الزبيري .. شاعر اليمن
The Library of Congress Yale University Library Harvard University	المخطوطات الإسلامية في العالم

الحلوجي المتاحة في المكتبات العالمية ، وذلك من خلال البحث في المرفق الببليوجرافي OCLC.

عنوان العمل	بعض المكتبات المتاح بها
الكتاب في العالم الإسلامي : الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط	Yale University Library Brown University University of Manchester
عباس محمود العقاد : نشرة ببليوجرافية بآثاره الفكرية	University of California Yale University Library Boston Public Library Harvard University
دراسات في الكتب والمكتبات	The Library of Congress University of Arizona New York Public Library
فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا	The Library of Congress University of Illinois Harvard University
لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات	University of Chicago University of Michigan Library
مع الملاح التائه علي محمود طه	University of Arizona University of California University of Pennsylvania
مدخل لدراسة المراجع	University of Washington Library The Library of Congress
المخطوط العربي	Georgetown University Yale University Library University of Chicago University of Utah
المخطوطات والتراث العربي	The Library of Congress Cornell University

نحو علم مخطوطات عربي	The Ohio State University Indiana University
قراءة في أوراق جامعية	Harvard University Princeton University
الزبيري .. شاعر اليمن	University of Utah Portland State University Library University of Minnesota
المخطوطات الإسلامية في العالم	The Library of Congress Yale University Library Harvard University

زميل رحلة الحياة

أ. علي عبد المحسن زكي*

أخي الصَّادق الوفي الكريم عبد الستار عبد الحق الحلوجي . منبع العلم والأخلاق ، زميل رحلة الحياة ، وحامل راية العلم . لساني وقلمي وإحساسي يعجزون عن التعبير عن كرم الأصل ومنبت الدين ، وصاحب الفضل علىٰ كثير من طلبة العلم في مصر والعالم العربي.

فهنئيًا لك ، والحمد لله العلي القدير ، داعيًا المولىٰ عز وجل أن يمد في عمرك ، ويزيدك من فضله ونعمه ، ولعل هذا كله يكون في ميزان حسناتك .

(وكثير من الناس تبهرهم مكتشفات العلم الحديث ، وليس ذلك في حدّ ذاته عيبًا ، وإنما العيب أن ننسىٰ أنفسنا في غمرة الحماس لكل ما هو جديد . ذلك أن الأمة التي تنسىٰ ماضيها كالإنسان الذي يفقد ذاكرته فيفقد معها الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا) .

من مقال بعنوان : المكتبات العربية بين أمجاد الماضي وتحديات المستقبل .
نشر في مجلة « الدارة » العدد الأول ، ربيع الأول ١٣٩١ هـ (مارس ١٩٧٥ م) .
وأعيد نشره في كتاب « الكتب والمكتبات بين القديم والحديث » .

* مدير دار الكتب المصرية سابقًا .

ذكريات دار الكتب

د. محمود رزق محمود*

من أين أبدأ ؟ وكيف أبدأ ؟ أمر صعب ، فأنا أمام أحد الشوامخ العظام ، شاء القدر أن يجمعني به في أقدس محاريب العلم . شاب طويل القامة ، نحيل الجسم ، منذ أن تلقاه تشعر باطمئنان وسكينة وراحة بال ، إذا تحدَّث فليس أمامك إلا الاستماع والإنصات ، صوت هادئ تشعر أمامه بالراحة ، لعذوبة الحديث وصدق الكلمة .

في مجلسه يتناول موضوعات عدة ، منها ما يمَس أوتار الحياة ، ومنها ما يتناول الشئون العلمية يعرضها بأسلوب مبسط ، حتىٰ يُشْعِرَك أنك مشارك له في الحديث ، وهو في كل هذا عفُّ اللسان لا يهجو ، نبيل القلب لا يحقد ولا يتكلم في إنسان بغير الخير ، ولا يسمع وشاية لأحد .

في الصباح يلقي التحية علىٰ الجميع ، من يحبه ومن يخالفه في الرأي . يبدأ يومه مبكرًا في العمل ، لا يُشعر مرءوسيه برئاسته وإنما هو زميل لهم جميعًا ، فأصبح كل واحد يفضي له بكل ما يُسعده أو يُكَدِّر صفو حياته ، وهو في كل هذا صندوق أسرار الجميع ، يعالج ما يقدر عليه بحكمته التي عُرف بها .

لهذا علا اسم الحلوجي بين زملائه ، ولم يبق اسم يعلوه أو يساويه ، بفضل خُلُقه ودِينه وسياسته ، فأصبح حب الناس له إيمانًا في قلوبهم لا يزحزحه إلا إيمان مثله أو أكثر منه .

* أستاذ التاريخ بكلية الآداب – جامعة المنيا.

ولا يعني هذا أن طريق الأستاذ الدكتور الحلوجي كان مفروشًا بالورود في دار الكتب المصرية ، بل كان أعداء النجاح دائمًا كالسوس ينخرون في الداخل ، وكالغربان ينعقون في الخارج ، لا يعملون ولا يتركون غيرهم يعمل – على حدٍّ قول الدكتور الحلوجي . ولا أدلّ على ذلك مما حدث إبان تولي الأستاذ الدكتور الشنيطي رئاسة الهيئة ، فوقع اختياره على « الحلوجي » دون غيره من القيادات ليكون مسئولًا عن قسم المخطوطات ، مما أوغر صدر العديد من أعداء النجاح حتى أخذ يأكل بعضهم بعضًا ، ولكن الدكتور الحلوجي تركهم وشأنهم مصداقًا لقول الشاعر :

اصبر على كيد الحســـود ... فإن صبرك قاتـله

فالنار تأكل نفسها بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

ولقد كتب الله للدكتور الحلوجي أن ينجح ، الكل يؤازره بعد أن خبروه ، وآمنوا بما كُلِّف به ، خاصة أنه تجرد من أي نزعة لكسب مادي أو شخصي ؛ إذ كان يقدّم مرءوسيه على أنهم هم صانعو النجاح .

بادرت بهذا التقديم المقتضب قبل أن أذكر تجربتي معه ، فقد كان لي عظيم الشرف أن كنت من بين مرءوسيه ، قادم من صعيد مصر لتوِّي ، لم أتكيف بعد مع المجتمع القاهري ، أحمل معي هموم حياتي وبُعدي عن عشيرتي وقريتي وأسرتي ، فلما التقيتُه أكبرته ، وشعرت أنني أعرفه منذ زمن بعيد ، كتاب مفتوح ، يُفضي لك بكل ما يلج في صدره ، قلبه يتسع لمحبة الناس جميعًا ، ويضيق وينقبض لمجرد ذكر كلمة كراهية ، ليس عنده ما يخجل منه أو يخبئه . شخصية تفرض احترامها من خلال الأفعال والأقوال . يقدم لك المعروف دون أن تطلبه منه ، يجامل الجميع ، الكبير والصغير قولًا وفعلًا ، يبحث للجميع عن الخير في مجال العمل وخارجه ، فإن وجده ، تَوجَّه للبحث عنك .

وللحق فإن دعاء والدي قد استجيب ، فما من مشكلة خاصة تدهمني إلا وكنت

أحكيها له أو ربما يلحظها في وجهي دون أن أُفضي بها إليه ، وإذا به يبادر إلى معالجة ما ألَمّ بي كأنه يقرأ ما يعتلج في صدري . وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على شفافية الرجل ، وكأنه يتلقى إلهامًا من الله ، وليس هذا بغريب على الإنسان المخلص النقي ، وأظن أن الدكتور الحلوجي يصدق فيه ما رُوي عن رسول الله ﷺ : « إنّ لله عبادًا اختصهم بقضاء حوائج الناس ، حببهم إلى الخير وحبب الخير إليهم ، هم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة » .

دعائي له بطول العمر والصحة وراحة البال والعطاء الدائم .

(نريد مواجهة صريحة وشجاعة لقضايا التعليم ابتداء من المرحلة الأولى حتى المرحلة العالية . إنهم يتحدثون عن مجانية التعليم وهي خرافة ، ويتحدثون عن ميزانيات ضخمة ترصد للتعليم الابتدائي وهو أسطورة . وأنا أتحدى من يزعم أن تلميذ المرحلة الابتدائية يمكن أن يتعلم شيئًا من سنوات الدراسة الست التي يقضيها في هذه المرحلة إذا اعتمد البيت على المدرسة ولم يتابع تعليمه .. وماذا يمكن أن نفعل بمدرس المرحلة الأولى وهو بائس مطحون . مطحون علميًا واجتماعيًا وماديًا) .

من كتاب « قراءة في أوراق جامعية » .

محبة وعرفان

أ. حنان عبدالله محروس*

ما أجمل الحديث عن العلم وأهله ، وما أروع أن نُعطي لكل ذي حق حقه ! ولكنها تبقىٰ مهمةً صعبةً ، ليس لسبب سوىٰ أن العلمَ بحورٌ لا نهاية لها ، والعلماءُ هم الصفوةُ التي تنير لنا الطريق ، بما تحمله من مشاعل علمٍ ، وقناديل فكرٍ ، تزيل عنا الجهلَ ، وتسمو بنا بعض الدرجات إلىٰ أعلىٰ ، فكيف نمنحهم كامل الحق فيما نكتب نحن الصغار؟!

حين أمسكت قلمي أكتب به بعض السطور عن أستاذ جليلٍ ترك في حياتي العلمية علامات وعلامات ، من الجحودِ إغفالها ، ومن الظلمِ عدم الاعتراف بها علىٰ الملأ ، فوجئت أنني أواجه صعوبة بالغة في الكتابة ، لقلة الكلمات ، وعدم توافر العبارات التي توفِّيه حقه من التبجيل والتقدير والاحترام ، ويا لها من صعوبة بالغة أن تتحدث عن شخص قريب إلىٰ قلبك ، عزيز عليك ، وبخاصة عند الحديث عن جوانبه الإنسانية التي قد يجهلها البعض ، وقلَّما يعرفها الكثيرون عنه ، وإن كان الكثيرون يعرفون قدرًا كبيرًا عن جوانبه العلمية في التخصص .

هذا العالم هو الأستاذ الدكتور عبد الستار عبد الحق الحلوجي ، أستاذ علم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة . صدقوني إذا أكَّدت لكم أن شعورًا انتابني بأنني تجاوزت قدري ، بمجرد التفكير في الكتابة عن عالم بحجم الدكتور الحلوجي ،

* طالبة دكتوراه بقسم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

الذي لبس حُلة العلماء الكبار ، بيد أنه كان حريصًا علىٰ أن يكون التواضعُ شيمته ، والعلمُ الغزير صفته ، والنبلُ والأخلاقُ العاليةُ أسمىٰ فضائله ، وكان له ما أراد وأكثر .

وأتاح لي القدر أن أكون قريبة من هذا العالم الجليل ، أثناء إشرافه علىٰ رسالة الماجستير ، ومن قبلها سنوات الدراسة الجامعية والسنة التمهيدية للرسالة ذاتها ، فتعرفتُ الإنسانَ في شخص أستاذي الحلوجي ، ووجدتُها فرصة لأنهل منه الكثير والكثير ، أتعلم كيف يصبح الإنسان إنسانًا بمعنىٰ الكلمة ، وكيف يحترم ذاته وعلمه قبل أن يحترمه الآخرون . كيف يمتطي العالم صهوة جواده ، وينطلق في سُبُل العلم ، يستزيد منها وينفع بها من حوله . تعلمتُ منه كيف يعشق الإنسان مساعدة الآخرين ، وكيف ينامُ قرير العين بعد أن ينفع بعلمهِ البلاد والعباد . عرفت إنسانًا يندر أن يجود الزمان بمثله ، لا سيما هذه الأيام ، ولمست فيه دماثة الخلق ، وفعله الخير سرًّا ، وحبه للتواضع وإنكار الذات . أما عشقه لمساعدة الآخرين فالحديث عنه يطول ، فهو يجدُ سعادة غامرة في مساعدة الآخر ، سواء علىٰ المستوىٰ الإنساني أو المستوىٰ العلمي ، فقد كان وما زال نعم الأستاذ والأب الروحي لي .

وما حييتُ ، فلن أنسىٰ لهذا العالم الجليل وقوفه بجانبي في حالات اليأس والإحباط التي تسللت لي أثناء إعداد رسالة الماجستير ، فرأيت أمامي الإنسان والأب ، وجدتُ في كلماته مُعينًا علىٰ تحمل الصعاب ، وحافزًا علىٰ إكمال المسيرة ، ومشجعًا علىٰ مواجهة العقبات مهما كانت شدتها وقسوتها .

هذا علىٰ المستوىٰ الإنساني ، أما علىٰ المستوىٰ العلمي ، فلا أنسىٰ تشجيعه لي علميًّا ، فقد أرشدني في طريق البحث العلمي ، ومنحني من وقته وعلمه الكثير ، وفتح لي أبواب مكتبته الخاصة ، لأستعير منها كلَّ ما يتعذر عليَّ الوصول إليه من الكتب والمراجع ، ولم يبخل عليَّ بتقديم النصيحة الخالصة والتوجيه المستمر ، فلا يمر يوم إلا وأتعلم منه شيئًا جديدًا ، وأكتسب من توجيهاته وإرشاداته ما يفيدني في بحثي وفي حياتي بصفة عامة .

وهنا أجدني أتذكر كلمته التي ألقاها أثناء مناقشة رسالتي للماجستير ، فقد نسب كل خطأٍ وقعتُ فيه أنا الطالبة ، إلى نفسه ، وهو المشرف على الرسالة ، ألا يدل هذا على التواضع وإنكار الذات ، ألا يدل هذا على دماثة خلق وكرم أخلاق غير متوافر هذه الأيام في كثير من الأساتذة الذين يتحيَّنون الفرصة لنسب الجهد ، بل كل الجهد إلى أنفسهم ، وإرجاع كل الأخطاء إلى الطالب ، ألا يدل هذا على أن الفرق كبير بين العلماء ومن سواهم؟!

حقًّا أستاذي .. إنك إنسان عظيم بكل ما في الكلمة من معانٍ ، أقول هذا وأنا أعلم تمام العلم أن هناك الكثير من الصفات والسمات النبيلة في شخصه لم أعرفها بعد ، لكنني سوف أعمل على اكتشافها ، كي أتعلم منها ، وأسير على خطاها ، ولكي يعرف الجميع من هو عبد الستار الحلوجي الإنسان ، وكيف تكون الأخلاق في أحسن صورها .

أستاذي : كنت دائمًا تقول – وما زلت – إنك لا تستحي أن تحمل حذاء أستاذك الجليل الدكتور شوقي ضيف ، وتسير وراءه في كل مكان ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على وفائك وعرفانك لأستاذك – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته – في زمن ندُر فيه الاعتراف بالجميل والعرفان للأساتذة الأجلاء ، لما بذلوه من جهد ، ولما قدَّموه من علم . فاسمح لي أستاذي القدير أن أقولها لك الآن ، وبأعلى صوت ، إنني لا أستحي أن أفعل الصنيع نفسه معك عن طيب خاطر وكلي سعادة غامرة ، وإنَّه لشرف لي كبير أن تسمح لي بذلك ، فلا تحرمني هذا الشرف العظيم ، وإن كان أيضًا لا يوفيك حقك وقدرك .

– أستاذي . .

أنتم أهل العلم ، ونحن طلابه . أنتم الأصل ، ونحن الفرع . فلكم منا الدعاء بطول العمر وصلاح السريرة وصفاء الذهن ، ولنا منكم العذر والسماح على تقصيرنا في حقكم علينا . ولا يسعني في النهاية إلا أن أقدم لك تحية حب وتقدير وإعزاز ، ودعاءً

لك في كل صلاة بأن يفرج الله همك ، وييسر أمرك ، وأن يجزيك عني وعن أبنائك وطلابك خير الجزاء .

والله من وراء القصد والسبيل .

(إذا وصفنا المخطوط بأنه عربي فينبغي أن نتنبه إلى أن العروبة هنا عروبة لسان وليست عروبة جنس أو مكان . فكل كتاب كُتب باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، والتي تنطق بها الشعوب العربية في كل مكان حتى يومنا هذا يعدُّ كتابًا عربيًّا بغضّ النظر عن الأصول العرقية لكاتبه ، وبصرف النظر عن المكان الذي أُلِّف فيه . فالإمام البخاري شيخ المحدّثين لم يكن عربيًّا ، ولم يولد في ما اصطلح الجغرافيون على تسميته ببلاد العرب . وسيبويه إمام النحاة لم يكن عربيًّا كذلك ، وإنما كان فارسي الأصل ، ومع ذلك فإن مؤلفاتهما تعدُّ من أمهات الكتب العربية بإجماع الباحثين) .

من مقدمة كتاب « نحو علم مخطوطات عربي » .

كلمة وفاء

أ. رينيه دوجرانلونيه*

ما زلت أحتفظ بذكرى عطرة للعامين اللذين أمضيتهما في معهد المخطوطات العربية حيث كان الدكتور عبد الستار الحلوجي أستاذًا لي – بالطبع إلى جانب العديد من الأساتذة الآخرين . وهنا وهناك ، كان – وما زال – تساؤل يُطرح عليَّ : لماذا تأتي إلى القاهرة لدراسة التراث العربي الإسلامي ، في حين أنه لديك القدرة على دراسة التراث الغربي في فرنسا ؟ وقد يُصبح السؤال أكثر تحديدًا عندما يتخذ صبغة دينية : لماذا الاهتمام بدراسة التراث العربي الإسلامي عندما لا يكون المرء مسيحيًّا فحسب ، بل منخرطًا في الحياة الرهبانية؟ ولقد أصبح من اليسير عليَّ الإجابة عن هذا السؤال . فالتراث – أيًّا كان – يعد ميراث الإنسانية جمعاء . ويجب على رابطة الأخوة التي تجمع بين الناس في هذا الكون أن تدفع بعضهم لدراسة ما نجح فيه الآخرون ، وإبراز حصادهم خلال فترة حياتهم .

وبالاستناد إلى خبراتي في العالم العربي ، سواء في فلسطين أو العراق أو الآن في مصر ، تدفعني قوة لا تُقاوَم ، ولا أستطيع تفسيرها تحديدًا ، أن أنهل من هذا النور الذي يشعُّ من الثقافة العربية . وكان من الممكن أن أكتفي بدراسة التراث العربي المسيحي . إلا أنّ معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان (IDEO) الذي أنتمي إليه ، يعدّ متخصِّصًا في التراث العربي الإسلامي . وهكذا ، فقد نمى لديَّ تدريجيًّا هذا الشغف بالثقافة العربية الإسلامية . ورغم أنني ما زلت في هذا المجال في أول الطريق ، إلا أني على يقين

* مدير مكتبة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان بالقاهرة .

برغبتي في التعلم – بل الاستفادة – من رابطة الأخوة التي تجمع بيننا .

وتبدو تلك الثقافة ، التي أُتيحت لي من خلال مكتبة المعهد ، كغابة كثيفة مترامية الأطراف . وأمام كثافتها واتساعها ، هناك احتمالان لردود الأفعال ؛ الأول يتمثل في الالتفاف حول هذه الغابة أو التحليق فوقها . وهذا هو الاختيار الأسهل والأسرع . ويتمثل ردُّ الفعل الثاني في القيام بالمغامرة في تلك الغابة . ويُعَدُّ ذلك الاختيار هو الأكثر مشقةً وعناءً في رحلة طلب العلم .

واليوم أسفرت قلة الاهتمام بالعلوم الإنسانية عن فقدان المسئولية فيما يتعلق بالتراث المكتوب . فعلى مستوى العالم ، لا تشجع الجامعات كثيرًا على الدراسة الجادة للتراث ، ولا تقوم سوى بالتحليق والالتفاف حوله . وتكون النتيجة أن نصل إلى الطرف الآخر من الغابة دون أن نتعمّق فيها ، فنستمع إلى تغريد الطيور التي تختبئُ هنا وهناك ، أو نتنسَّم الرائحة المنبعثة من الأوراق المتناثرة في الهواء الرطب ، أو نخفض رءوسَنا قليلًا حتى لا نصطدم بالأغصان الدّانية ، ودون أن نقطف الفواكه البرية ، أو نصادف سنجابًا أو وَعْلًا ، أو نعتلي إحدى الأشجار بغرض تأمل تلك المساحات الشاسعة من الخضرة الكثيفة والمتشابكة .

ومما لا شكّ فيه ، أن التراث العربي الإسلامي واحد من تلك الغابات الكثيفة التي خلَّفت وراءها ميراثًا ضخمًا للإنسانية . حيث يسعى الباحث عن الحقيقة فيتجوّل في أرجائها . وهذا هو ما شعر به – في تقديري – عدد كبير من المستشرقين . فعندما يرحل الكُتَّاب عن دنيانا ، يخلِّفون وراءَهم أعمالًا ليست لأقرانهم فحسب ، بل لكل مَن يشاركهم الاهتمام بسعادة البشرية من خلال البحث الدائب عن الحقيقة بصرف النظر عن العقيدة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلوغ هذه الغابة ليس بالمهمة السهلة خاصةً على مبتدئ

مُشْبَعٍ بالثقافة الغربية . فهناك عقبة لا بُدَّ من اجتيازها أولًا من أجل الوصول إلى هذه الغابة الكثيفة ؛ ألا وهي اللغة . وعادة ما يكون هذا الطريق طويلًا ، فعلينا اتباع مَن سبقونا لإرشادنا إلى المدخل والطرق المؤدية إلى ارتيادها . وبالنسبة إليَّ ، فقد كان الدكتور عبد الستار الحلوجي ، بكل رصانته ، واحدًا من الذين استطاعوا - بكل حماسة - إرشادي أنا وكثير من زملائي إلى الطرق المهمة المؤدية إلى قلب هذه الغابة .

وليس الهدف من هذه الرحلة هو البقاء في تلك الغابة . فنحن نتكبد عناء الوصول إليها لأننا نعلم أننا سوف نستقي منها الطاقة اللازمة لبناء المدينة الحديثة المجاورة . وعندما ندخل الغابة ونتوغل في وسطها ، يجب أن نتعلم كيف نجوب أطرافها وكيف نتقدم فيها مستشعرين الجمال والحكمة المنبثقة عن هذا المكان الأصيل ، وأن نستفيد من ثراء هذه الغابة مع تقديرنا واحترامنا لها . فهذه الأشجار التي تقابل تلك الأعمال التي صاغها بإتقان بعض الكتاب المشهورين أو غير المشهورين ، علينا أن نقدرها ونعتني بها . وإلّا ما الجدوى من عبور تلك الغابة إذا ما مررنا بشجرة جميلة دون أن نتأملها ونتفحصها ؟ وما جدوى أن نقرأ نصًّا دون أن نتفهّم معانيه ، ونلمس مواطن الجمال فيه مفصَّلا ومجملًا ؟

وقد كان للكاتب الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠١ -١٩٧٦) ، و هو من كبار المدافعين عن نهوض الثقافة ، مقولة شهيرة : « الميراث لا يُتوارث بل يُقتحم »[١].

واقتحام الغابة ، ومعرفة فن إدارة تلك المساحات الشاسعة التي تعدّ من الثقافات التراثية العالمية ، لا يتأتى إلّا بالدُّربة الكافية في علم المخطوطات (Codicologie) .

و إنني في هذا الصدد أشعر بامتنان شديد للدكتور عبد الستار الذي يُولي اهتمامًا

(١) أندريه مالرو . السياسة و الثقافة : خطب ، مقالات ولقاءات (١٩٢٥ -١٩٧٥). - باريس : جاليمار ، ١٩٩٦ . ص ١٢٣.

خاصًّا بدراسة تلك الأشجار الوارفة التي تتمثل في المخطوطات العربية ، حيث أثبت فعليًّا أنه يجب علينا اقتحام التراث وتكبُّد المشقة من أجله .

ومن المؤكد أن ذلك يعود علينا بالنفع . فعندما نصل إلى الجانب الآخر من الغابة ، نكون قد فهمنا بشكل أكبر من أين تنبع عاداتنا و تقاليدنا وكيف تشكلت .

كذلك ، فإننا نأخذ بيد الأجيال القادمة لفهم العالم من حولهم ، بفضل النور الذي يشعّ من ثنايا هذه الغابة . لأننا سنكون قد مهدنا لهم الطريق ، وفي كثير من الأحيان ، استطعنا أن نغرس أعمالًا أصيلة و ثرية .

(وتنتهي سنو الحرب ، ويخرج الملاح بزورقه من وسط الأحراش التي اختبأ فيها ، يخرج وقد امتُحنت مشاعره ومشاعر أمته ، بل ومشاعر العالم كله ، ومن ثم نراه ينشر شراعه ويقترب بزورقه من شاطئ الأمان ، شاطئ الأمة العربية والوطن العربي . الشاطئ الذي انتظرته عليه جماهير الشعب لتتلقى منه قياد زورقه الهائم ، ولتجعل منه قيثارًا يعزف خفقات قلوبهم وخلجات صدورهم وأصوات ضمائرهم) .

من كتاب « مع الملاح التائه : على محمود طه » .

عبد الستار الحلوجي أبًا

د. داليا عبد الستار الحلوجي*

في حياة كل منا شخصيات تؤثر فيه وتتأثر به ، ولعل الأب من الشخصيات التي تؤثر فينا جميعًا باعتباره قدوة ونموذجًا يحتذى بالنسبة لأبنائه ، فكيف إذا كان هذا الأب هو عبد الستار الحلوجي ! لا أعرف كيف أبدأ حديثي عنه ، ولا من أي جانب أتحدث عنه ، هل أتحدث عن الوالد أم المربي أم المعلم أم الصديق أم السند ، أم أتحدث عن صفاته التي لا أشعر بها وحدي ، بل يشعر بها كل من حوله ؟

فهو الأب الحنون الذي يتفانى من أجل راحة وخدمة أبناءه ، ويشعر بالسعادة البالغة لتلبية احتياجاتهم مهما عظمت ، ويحنو عليهم ، وربما لا يظهر حنانه لهم ، وإن دلت عليه جميع تصرفاته ، بل ربما يظهر هذا الحنان في صورة قسوة تخفي وراءها خوفًا وقلقًا شديدين وحنانًا لا تعرف له قرارًا .

وهو الذي اعتاد تحمل مسئولية كل من حوله ، يفكر في كل شيء قبل أن يفكر فيه صاحبه ، ويقلق بشأن كل فرد في الأسرة ، الصغير قبل الكبير ، ولا أنسى له أبدًا موقفه في مرض ابنتي الصغيرة ، فقد كنت أتعجب من بكائه تارة وانفعاله تارة أخرى وتهدئته لنا تارة ثالثة ، وإصراره على مرافقة ابنتي في كل زيارتها للأطباء ومعامل التحاليل . وأتساءل أحيانًا هل يهتم بها أكثر مما أهتم أنا ، أم هو شعور بالمسئولية تجاه كل من حوله ، أم هو فيض الحب والحنان ؟!

أما عن العطاء فرغم كونه واجبًا عليه نحو أبناءه ، إلا أنني أجده عطاء مفرطًا مقارنة

* مدرس المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

بغيره من الآباء ، فهو من أكثر الناس الذين عرفتهم عطاءً ماديًا ومعنويًا ، عطاءً ينبع من إحساسه بالمسئولية تجاه كل من حوله من الأهل والأقارب والزملاء والتلاميذ والجيران وكل من يعمل لديه ، عطاءً لا مقابل له ، فتجده يبذل الجهد الذي لا يتناسب مع حالته الصحية والعمرية ، ويذهب هنا وهناك ليقضي مصلحة هذا ويساعد ذاك سرًا دون أن يشعر به أحد أو يُعلم أحدًا .

ولا أكون مبالغة إذا قلت إن أكثر ما يمتعني هو مجالسته والاستماع إلى حديثه العذب الشيق ، بأسلوب هادئ رقيق في أي أمر من أمور الحياة العامة أو الخاصة . فلا يخلو حديثه من طرفة أو حكمة أو خبرة ، وينجذب له الصغير قبل الكبير . وكنت أظن أن هذا الرأي تكوَّن عندي لكونه والدي ، وأن العاطفة والتحيز يُؤثران على رأيي فيه . ولكن وجدت كل من يجلس إليه – حتى الأطفال – لا يستطيع أن يلتفت إلا لحديثه ، وتتعجب كيف يكون له مثل هذا الحضور في كل أمور الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والثقافية والدينية والاقتصادية ، فيستفيد منه كل من يجالسه دون الشعور بالملل .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في شخصيته ، أنه على الرغم مما وصل إليه من مكانة علمية وأدبية ، وما حصل عليه من جوائز وشهادات تقدير ، لعل أبرزها جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٩٩٨ ، إلا أنه يتميز بالتواضع الشديد – تواضع العلماء – متخذًا من البساطة منهجًا له في حياته . فتجده يتكلم عن نفسه بتواضع شديد ويخجل من الكلام عن كل ما هو مشرِّف له من جوائز وتكريمات .

ونظرًا لحكمته ورجاحة عقلة كان قبلة كل المحيطين به ، يفضون إليه بمشاكلهم التي ينشغل بها ، ويلقون عليه بأحمالهم فيعمل جاهدًا على حلها سواء على المستوى الشخصي أو العملي ، ساعيًا دائمًا إلى الخير وَدحر الشر ومحاربته . وتجد فيه الوفاء المفرط لزملائه وأصدقائه وأساتذته ، تلمس ذلك في حبه الشديد وتقديره الهائل لأستاذه الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي الذي تتلمذ على يديه في دراسته الجامعية ، وتشعر بذلك كلما

تكلم عنه واستحضر ذكره . ونجد وفاءه لزملائه الذين توفاهم الله وحزنه عليهم مثل الدكتور محمد المصري والدكتور محمد إبراهيم ، وحرصه على تكريمهم في أعمال منشورة .

وهو الأستاذ البارع كذلك ، فعلى الرغم من أنني لم أشرُف بالتتلمذ على يديه خلال دراستي الجامعية ، وحُرمت من محاضراته ، اللهم إلا بعض اللقاءات والمحاضرات العامة ، إلا أنه في هذه المرات القلائل كنت أراه نعم الأستاذ ، يبسط الأمور ويسهلها ، واضحًا في عرضه لأفكاره ، مستخدمًا أسلوبًا شيقًا في عرضها ، كما يظهر هذا جليًّا في كل كتاباته ومؤلفاته .

ولكل ما سبق تجدني أزداد يومًا بعد يوم إعجابًا به وتقديرًا له ، وغبطة له على ما وصل إليه ، وغيرة عليه من كثرة محبيه ، فكل من يلقاه ويتعامل معه يجد فيه الإنسان الصدوق الحنون ، ويجده الأب والصديق والملجأ ، بفضل خلقه ودينه ، فأصبح حب الناس له راسخًا لا يؤثر فيه ولا يزعزعه المغرضون ولا الحاقدون . وأجد نفسي عاجزة عن التشبه به وانتهاج نهجه ، وإن ظل دائمًا القدوة التي أصبو إليها وأحاول جاهدة أن أهتدي به وأنهل من معينه في كل أمور الحياة . وإني لأشكر الله على ما أنعم به عليَّ ، فقد تميزت عن إخوتي بصحبته ومجاورته ، فكنت في صغري مُصاحبة له في معظم تحركاته فأسعد بمراقبته ، وجاورته في الدراسة في نفس تخصصه فكنت أستزيد منه في مصادر الدراسة ، وجاورته في العمل فكان نعم المرشد ، وجاورته في السكن فكان نعم السند .

وبعد ... فهذه رسالة إعجاب وتقدير لوالدي الذي لن أوفيه حقه أبدًا ما حييت ، فهو نعم الأب والمعلم والمربي والمرشد . أطال الله في عمره ، ومتَّعه بالصحة والعافية ، ونفعنا بعلمه وفضله ، وبارك لنا فيه ، فجزاه الله عنا خير الجزاء ، وزاده علمًا وحكمة .

عبدالستار الحلوجي مؤلفًا ومعلمًا

د. جبريل حسن العريشي*

لقد اعتدنا أن نكرم علماءنا وكتابنا ومشاهيرنا بعد موتهم ، وقد مضى على هذا التقليد زمن طويل ، حتى صار المثل الشعبي الذي يجري على أفواه العامة ، أن يتمنوا ألاّ يتم هذا التكريم ، أو هذا الشكر ؛ لأن ذلك يعني أن صاحبه قد صار في عداد الموتى . ولست أدري ما السر في تكريم الشخص بعد وفاته ؟!

فالمنطق والعقل يقولان إن الإنسان يجب إن يكرم وهو حي يرزق ، حتى يحس ويشعر أن عمره الذي أفناه بين أضابير الكتب ، ورفوف المكتبات ، ودور الوثائق والمخطوطات لم يضع سدىً ، وأنه قدم للبشرية جهدًا يوجب شكره .

واليوم نتحدث عن أحد علمائنا الإجلاء الذين بذلوا عمرهم كله للعمل في خدمة التراث ، فأغنوا مكتباتنا بدرر فريدة ، ظلت شاهدًا على علو كعبهم فيما أوقفوا حياتهم عليه .. العالم المقصود هو الباحث في التراث ، والمعلم ، والمفكر ، والمحقق ، الدكتور عبدالستار الحلوجي .

الحلوجي : معلمًا ومحققًا :

وسيكون الحديث عن هذا العالم الموسوعي في جانبين فقط من جوانب علمه المتعددة وهما : الحلوجي معلمًا ، ومؤلفًا .

---

* أستاذ المعلومات المشارك بقسم علوم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب – جامعة الملك سعود – الرياض . وعضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية .

● الحلوجي معلمًا :

أحب الحلوجي مهنة التدريس وأخلص لها ، فالتدريس عنده « ليس مجرد وقفة يقفها المدرس في قاعة الدرس ، وكلام يلقيه على طلابه ، وإنما هو تفاعل بين الأستاذ والطالب، وعطاء من الأستاذ يتجدد عامًا بعد عام ، عطاء يحس بلذته ، ويرى انعكاساته واضحة في وجوه طلابه وأعينهم ، فينسى نفسه ، وينصهر معهم في بوتقة واحدة ، ويخرج من درسه الناجح ، وروحه المعنوية في السماء » .

وقد أعطى الحلوجي هذه المهنة بسخاء ، وأكد عشقه لها ، وأنه لا يتحرج منه ، وإنما يعلنه ويعتز به ، وكان له في ذلك سُنَّة درج عليها طوال سنين ممارسته هذه المهنة ، فقد كان يدّون انطباعاته عن العملية التعليمية ، ويدّون ملاحظاته على إجابات الطلاب في نهاية كل عام ، فإذا جاء العام الجديد خصص المحاضرة الأولى في كل فرقة لتصفية حساباته القديمة معها ، فيوضح لطلابه ما وجده في إجاباتهم من أخطاء في الفهم ، أو في التعبير ، أو في المعلومات ، أو حتى في اللغة والإملاء ، أملًا في أن ينتبهوا لها ، ولا يقعوا في مثلها[1] .

وقد ألف في هذه الأخطاء كتابًا أسماه (قراءة في أوراق جامعية) نشر في طبعته الأولى سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ، عن دار العلوم للطباعة والنشر ، في محاولة منه لتجنيب الطلاب الوقوع في مثل هذه الأخطاء التي تتكرر في أكثر من جامعة ، وفي أكثر من دولة عربية .

● الحلوجي مؤلفًا :

ارتبط الحلوجي بالمخطوطات العربية ، وبدأت رحلته معها بعد رحلته الدراسية التي استمرت ثلاثة أعوام قضاها في دراسة علوم المكتبات في لندن ، إذ وجد نفسه مسئولًا عن

(١) عبدالستار الحلوجي . قراءة في أوراق جامعية .- الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ .

آلاف مؤلفة من التراث المخطوط ، أو خازنًا له على حد تعبير القدماء ، فوجد حينها أن هذا المجال بكر ، لا يوجد كتاب واحد قديم أو حديث ، تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث ، أو حتى استقصاء المادة العلمية المتصلة به ، وجَمعِها في موضع واحد . فكان لابد لدارس المخطوط أن يغرق نفسه في بحور كتب التاريخ والحضارة ، بل وكتب الطبقات والتراجم ، دون وجود هادٍ يهديه ، أو شعاع من نور يكشف له ظلمات الطريق .

وكان الحلوجي من جيل الشباب الذين اقتحموا هذا العالم الغامض ، عالم المخطوطات ، وتحملوا بشجاعة وجلد مشقة العمل في ظروف غير مواتية ، وتعامل مع نوعٍ من أوعية المعلومات أدركه البِلى وتنازعته الآفات لسوء الحفظ ، وسوء الاستخدام .

واعترف الحلوجي أن الطريق أمامه كان مسدودًا ، وفي ذلك يقول : « كلما حاولت اجتياز عقبة من عقباته برز لي ما هو أشد منها هولًا وأعظم نكرًا ، ومع ذلك فقد كان غموض الطريق يستهويني ، ويغريني بالمضي فيه على الرغم من المشقة في محاولة لاكتشافه ، والوقوف على أسرار تلك العهود الأولى التي شهدت نشأة المخطوط العربي وتبلوره في صورته النهائية »[1] .

كما اهتم الحلوجي بدراسة المراجع[2] ، فوضع الأسس العلمية لدراستها دراسة موضوعية تفصح عن حقيقة هذا العلم ، وتعرف بأهدافه وموضوعه وميادينه التي تعطي صورة واضحة المعالم والقسمات عن أسسه ودعائمه التي ينهض بها ويرتكز عليها ، وهذا ما ينير الطريق لطلاب العلم والباحثين ، الذين هم بأمسِّ الحاجة إلى ما يبصرهم بهذا العلم . فألفَّ كتابه (مدخل لدراسة المراجع) الذي طبع سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

(١) عبدالستار الحلوجي / المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري .- الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(٢) عبدالستار الحلوجي / مدخل لدراسة المراجع .ـ الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

وقد توخى الحلوجي أن يتجنب فيه التفاصيل الثانوية ، واكتفى بتتبع الخطوط الرئيسة في كل نوع من أنواع المراجع ، في محاولة لتحديد أبرز ملامحه ، وأهم سماته ، وأدق خصائصه ، مع إيضاح الخطوط العامة ، والتيارات الكبرى التي تحكم هذا النوع من الكتب(١) .

وقد نال الحلوجي عددًا كبيرًا من الجوائز ، والأوسمة ، داخل وطنه وخارجه ، منها جائزة الملك فيصل العالمية التي فاز بها سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، وكان موضوع الجائزة (الدراسة التي تناولت المكتبات وصناعة الكتاب عند المسلمين) .

(وهكذا كانت حياة الزبيري حافلة بالجهاد والنضال والتضحيات ، وكانت خاتمته أروع من حياته ، وكانت ذكراه أروع من خاتمته . لقد مات شهيد نضاله من أجل الوطن كله ، فلم يكن عجيبًا أن تبكيه الملايين من الرجال والنساء والأطفال في جبال اليمن وهضابها وسهولها ووديانها ، وأن يفتح له التاريخ اليمني أوسع أبوابه ، وأن يضع بين يديه أنصع صفحاته ليسجل فيها بحروف من نور :

أصبو إلى أُمَّتي حُبًّا وأبعثها ... بعثًا وأبني لها بالشعر بنيانا
أصوغ للعُمْي منه أعينًا نُزعت ... عنهم وأنسجه للصُّمِّ آذانا
وما حملتُ يراعي خالقًا بيدي ... إلا ليصنع أجيالًا وأوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلةً ... في عنقه ، ويراه الشعب ميزانا
فهاك يا أُمتي روحًا مدلَّهة ... عصرتها لخطاك الطهر قربانا
كأسًا من الشعر لو تُسقى الشموس بها ... ترنحت ومشى التاريخ سكرانا)

من كتاب « الزبيري شاعر اليمن »

(١) عبد الله عبد الرحمن عسيلان . ملاحظات على كتاب (مدخل لدراسة المراجع) . - « مجلة الفيصل» . - س٤ ، ع ٤٥ (ربيع الأول ١٤٠١هـ / يناير - فبراير ١٩٨١م) .

باقة حب

شعر الشيخ معوض عوض ابراهيم*

حُبُّهُ فِي القُلُوبِ جِدُّ مَكِينِ ... وَاسْمُهُ لِلأَرْوَاحِ خَيْرُ خَدِينِ
لِعُلُومٍ تَشِعُّ فِي كُلِّ أُفْقٍ ... وَنَدًى طائِلٍ وخُلْقٍ وَدِينِ
وأُصُولٍ زَكَتْ كَزَهْرِ الرَّوَابِي ... وَوُرُودِ الرَّبِيعِ واليَاسَمِين
وَشَّجَ اللهُ مِنْ ثَمانِينَ عَامًا ... فِي عُرَانَا، يا طِيبَ تِلْكَ السِّنِين
وَمَضَيْنَا والوَالِدُ البَرُّ نَشْدُو الْـ ... ـعِلْمَ، نَسْتَهْدِي بالكِتَابِ
وانتَظَمْنَا صَفًّا بِمَعْهَدِ دِمْيَا ... طَ إِلَى فِتْيَةٍ وَضِيئِي الجَبِين
ومَنَحْنَا السَّمْعَ الشُّيُوخَ كَأَنَّا ... فِي صَلاةٍ مِنْ خَشْيَةٍ وسُكُون
وأَفَدْنَا مَعَ العُلُومِ سُلُوكًا ... كَنَسِيمِ الضُّحَى وبَوْحِ القَرِين
وتَنَاءَتْ بِنَا المَعَاهِدُ لَكِنْ ... كَتَنَائِي أَصَابِعِي فِي يَمِينِي
ومَضَى النَّدْبُ للزَّقازِيقِ لَكِنِّـ ... ـي لِطَنْطَا قَدْ جِئْتُ خَيْرَ مَعِين
ودَعَانا لِرَوْضِهِ أَزْهَرُ الخَيْـ ... ـرِ فَكُنَّا أَشْبَالَ ذَاكَ العَرِين
كانَ مُذْ كانَ وَهْوَ حِصْنٌ لِقَوْمٍ ... ولأُمِّ اللُّغَاتِ أَقْوَى الحُصُون
أَيْنَ يَمَّمْتَ خِلْتَهُ وَسِعَ الكَوْ ... نَ وأَرْوَاكَ بالعَطَاءِ الضَّمِين
وانْصَرَفْنَا عَنْهُ ولا مَا انْصَرَفْنَا ... وَهْوَ مِنَّا كَخَافِقِي ووَتِينِي

* من علماء الأزهر الشريف .

ويُرَىٰ فِي مَدَارِسِ الثَّغْرِ (عَبْدُ ... الحَقِّ) فِي حِكْمَةٍ وأَطْيَافِ لِين
وَاعِظًا فِي أُسْوَانَ -كُنْتُ- ... مَا فَطَابَا كَأَنَّنِي فِي سَفِين
خَطَرَتْ للشَّمَالِ تَجْرِي عَلَىٰ ... شَوْقًا إِلَىٰ المَصَبِّ الأَمِين
وَدَعَتْنِي مِنْ بَحْرِ يُوسُفَ للثَّغْـ ... ـرِ عَرُوسٌ تَغْرِيدُهَا يُشْجِينِي
فَحَطَطْتُ الرِّحَالَ فِيهَا أَصِيلاً ... بَيْنَ قَوْمٍ جَمِيعُهُمْ أَكْبَرُونِي
والأَخُ (الخَلْوَجِيُّ) فِيهِمْ أَرَاهُ ... ويَرَانِي كَقُرَّةٍ للعُيُون
كَصَفَاءِ القَنَاةِ عانَقَهَا البَحْـ ... ـرُ وأَوْلَتْهُ رَأْسَهَا فِي حَنِين
ورَأَيْتُ الجَمِيلَ يَزْدَادُ حُسْنًا ... وَهْوَ يَحْكِي أَيَّامَ أُسْدِ العَرِين
بِرِجَالٍ وفِتْيَةٍ ونِسَاءٍ ... أَوْرَدُوا مَنْ غَزَا حِيَاضَ المُنُون
غَيْرَ بَعْضِ الجُرْذَانِ جَرُّوا ... ذُيولَ الخِزْيِ فِي أَوْبَةِ الذَّلِيلِ المَهِين
وبَدَتْ (بُورْ سَعِيدَ) بَعْدُ هِزَارًا ... رَائِقَ الشَّهْدِ فِي رِطَابِ
وأُرَىٰ والصَّدِيقُ يُعْطِي ... بِوَفَاءٍ ومَا بِنَا مِنْ ضَنِين
فَجَزَانَا الرَّحْمَنُ خَيْرًا بِخَيْرٍ ... نَتَرَاءَاهُ فِي كِرَامِ البَنِين
ذَاكَ (عَبْدُ السَّتَّارِ) مُنْذُ سِنِينٍ ... قَدْ عَرَفْنَاهُ طَالِبًا فاسْأَلُونِي
عَنْ فَتًى يَسْتَضِيء حَزْمًا وعَزْمًا ... وأَنَاةً ومَنْطِقًا يَسْتَبِينِي
وأَرَاهُ الغَدَاةَ أَضْعَافَ هَذَا ... مَا لَهُ فِي اخْتِصَاصِهِ مِنْ قَرِين
رَجُلُ المَكْتَبَاتِ ذَاكَ الذِي أَثَّـ ... ـلَ مَجْدًا يَرْوِيهِ كُلُّ مُبِين
وعَلا صِيتُهُ وإِنْ لَمْ يُرِدْهُ ... وعَطَاءُ الرَّحْمَنِ فَوْقَ الظُّنُون
ورَأَتْنَا (الرِّيَاضُ) نُفْرِغُ وُسْعًا ... ونُفِيدُ الطُّلابَ شَتَّىٰ الفُنُون

أَظْهَرَتْ مِنْهُ (فَيْصَلٌ) لَمَحَاتٍ ... أَهَّلَتْهُ لِفَضْلِهِ المُسْتَبِين
وَهْوَ فَضْلٌ أَغْلَىٰ مِنَ المالِ لا ... ريبَ وَإِنْ كَانَ مِنْ جَلِيلِ
دُمْتَ (عَبْدَ السَّتَّارِ) تَنْصُرُ مِثْلِي ... مَنْ يَعِيشُونَ صَفْقَةَ المَغْبُونِ
وَعَرَاكَ الذِي عَرَانِيَ مِمَّا ... شَفَّ مَنْ قَدْ عَلِمْتَهُ يَعْنِينِي
لا لِقُرْبَىٰ قَرِيبَةٍ أَوْ جِوَارٍ ... أَوْ لِنَفْعٍ رَجَوْتُهُ أَيَّ حِين
فَلَقَدْ شَفَّهُ فِي الصِّبَا كُلُّ عِلْمٍ ... وارْتَضَاهُ مِنْ عالِمٍ مَجْنُون
هُوَ حَرْبٌ عَلَىٰ الحَصِيفِ المُعَنَّىٰ ... ونَصِيرٌ لِكُلِّ بَاغٍ دُون
فَلْتَكُنْ ولأَكُنْ لأَحْمَدَ ذُخْرًا ... فَهْوَ مِنَّا بِذَاكَ جِدُّ قَمِين
وأَرَانِي مِنْكُمْ أُسَائِلُ نَفْسِي: ... ما الذِي قُلْتُ فِي الوَفِيِّ الأَمِين؟
فِي (أَبِي أَشْرَفَ) الذِي زَانَهُ ... العلمُ وهَذِي شَهَادَتِي بِيَقِين
والأُلَىٰ كَرَّمُوا الذِي كَرَّمَ اللهُ ... خَلِيقُونَ بالثَّنَاءِ الرَّصِين
دُمْتَ (عَبْدَ السَّتَّارِ) كَوْثَرَ عِلْمٍ ... وجَلالٍ يُنِيرُ كُلَّ القُرُون

(وهناك علىٰ سفوح الجبال ينبعث صوت الزبيري من وراء الحياة يقول :

فإن سلمت فإني قد وهبت له ... خلاصة العمر ماضيه وآتيه
وكنت أحرص لو أني أموت له ... وحدي فداءً ويبقىٰ كل أهليه
لكنه أجل ما يأتي لموعده ... ما كل من يتمناه يلاقيه)

من كتاب « الزبيري شاعر اليمن » .

لزوميّة إلى شيخنا الجليل

أ. محمد أحمد المعصراني*

يَكْفِيهِ حُبٌّ فِي القَلْبِ ... وأُمَّةٌ مِنْ رُبَاهُ تَقْتَرِبُ

فَفِي سُوَيْدَاءِ القَلْبِ(٢) يَسْكُنُ حُبُّهُ ... ويَحْلُبُو كَأَنَّهُ الضَّرَب(٣)

وكَمْ لَهُ فِي أَعْنَاقِنَا مِنَنٌ ... فَمِنْ أَيَادِيهِ تَعْظُمُ القُرَب(٤)

وبَذْلُهُ الخَيْرَ مِنْ طَبِيعَتِهِ ... يَعْرِفُ ذاكَ الغَنِيُّ والتَّرِب(٥)

يَأْسِرُنَا فِي المَدَى تَوَاضُعُهُ ... قَدِ ابْتَلَى ذاكَ العُجْمُ والعَرَب

أُسْلُوبُهُ الفَذُّ يَسْحَرُ النَّفْسَ والـ ... ـجَنَانَ.. يَسْرِي فِي الرُّوحِ.. يَنْسَرِب

وكُلَّمَا يُبْصِرُ الفُؤَادَ سَجَا ... يَاهُ أَرَانِي أَدْنُو وأَقْتَرِب

مَنْطِقُهُ كالنَّسِيمِ أَحْرُفُهُ ... ونُبْلُهُ فِي الأَرْوَاحِ مُنْسَرِب

أَخْلاقُهُ فِي الآفَاقِ سَامِقَةٌ ... مَهْمَا يَضِلُّ السَّبِيلُ والسَّرَب(٦)

---

* باحث ماجستير بقسم البحوث والدراسات التراثية – معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة .

(١) ينسرب: يَسِيل .

(٢) سويداء القلب: أعمق أعماقه .

(٣) الضرب: العسل الأبيض .

(٤) القرب: جمع قُرْبَة .

(٥) الترب: الفقير .

(٦) السرب: الطريق .

تَمْلأُ كُلَّ النُّفُوسِ هَيْبَتُهُ ... يُعْجِبُهَا هذا المَنْطِقُ الذَّرِب(١)

حَدِيثُهُ تَقْصُرُ الثِّمَارُ عَنِ اخْـ ... ـضِلالِهِ(٢) والأزهارُ

وكَمْ أَرَاغَ(٤) العُلُومَ مُؤْنِسَةً ... فَهْوَ بِهَا عالِمٌ ومُدَّرِب

تُطْرِبُهُ المخطوطاتُ تَسْحَرُهُ ... لكنَّهُ لا يَهُزُّهُ الطَّرَب

تَأْسِرُهُ المخطوطاتُ يَعْشَقُهَا ... وهْوَ بِهَا نِحْرٌ(٥) حاذِقٌ أَرِب(٦)

مُتَيَّمٌ بالتُّرَاثِ أَجْمَعِهِ ... بِنَبْعِهِ كُلِّهِ لَهُ دَرَب(٧)

إِذَا أَصَابَ التُّرَاثَ نائِبَةٌ ... تَرَاهُ قَبْلَ التُّرَاثِ يَكْتَرِب(٨)

مُحْتَرِقٌ قَلْبُهُ بِأُمَّتِهِ ... يَحْمِلُ شَكْوَاهَا حِينَ يَغْتَرِب

فَأُمَّةُ العُرْبِ جِدُّ غافِيَةٍ ... لَكَمْ يُغَشِّي عُيُونَهَا التُّرُب(٩)

كَمْ مِنْ أَسِيٍّ(١٠) يَأْسَى ... لكِنَّ رَأْيَ الوُلاةِ مُضْطَرِب

---

(١) المنطق الذرب: الكلام الفصيح .

(٢) اخضلاله: نَدَاه .

(٣) الغرب: نوع من الشجر .

(٤) أراغ: طلب وأراد .

(٥) نحر: نحرير (عالم حاذق) .

(٦) أرب: أريب .

(٧) درب: لَهَجٌ .

(٨) يكترب: يَغْتَمّ .

(٩) الترب: التراب .

(١٠) أسي: مُدَاوٍ .

فِي لَيْلِهَا أَلْفُ أَلْفِ خائِنَةٍ ... وفِي ضُحَاهَا تَلْهُو وتَحْتَرِب[1]

تَدْخُلُ نَبْضَ التارِيخِ خانِعَةً ... وفِي دِيَارِ التغْرِيبِ تَنْزَرِب[2]

أَنْكَرَهَا الْحُلْمُ والزَّمَانُ العَصِيُّ ... وارْتَعَى أُمْنِيَاتِهَا الْجَرَب

وفِي حَنَايَاهَا تَعْصِفُ الرِّيحُ.. تَعْوِي ... .. يَتَغَشَّاهَا الْحَرْبُ والْحَرَب[3]

أَعْرَابُ هذا الزَّمَانِ قَدْ سَكِرُوا ... ومِنْ كُئُوسِ الْهَوَانِ قَدْ شَرِبُوا

كَمْ يَهْزِمُ[4] الرَّعْدُ فِي قُلُوبِهِمُ ... وحَالُهُمْ كالأمواجِ يَضْطَرِب

عَلَى رُبَاهُمْ تَمْتَدُّ أَغْرِبَةٌ ... وحَقْلُهُمْ قَفْرٌ مُجْدِبٌ خَرِب

قَدْ صَدِئَتْ فِي الشِّفَاهِ بَسْمَتُهُمْ ... وعَقْلُهُمْ مِنْ أَوْهَامِهِ وَرِب[5]

وشَمْسُهُمْ ضَلَّتْ وَجْهَ مَشْرِقِهَا ... وبَدْرُهُمْ فِي غُيُومِهِمْ سَرِب[6]

ويَمْتَطِي القَهْرُ كُلَّ أَظْهُرِهِمْ ... فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَنْجَاةُ والْهَرَب؟

ويَرْتَعِي اليَأْسُ فِي جَوَانِحِهِمْ ... وقَلْبُهُمْ مَكْرُوبٌ ومُكْتَرِب[7]

تُرَاثُهُمْ مَلَأَ الزَّمَانَ هُدًى ... لكِنَّهُ فِي الآفاقِ مُغْتَرِب

إِنْ طُرِدُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ شَجَبُوا ... أَوْ قُتِّلُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ ثَرَبُوا[8]

(١) تحترب: توقد نار الحرب .
(٢) تنزرب: تدخل .
(٣) الحرب: سَلْبُ المال .
(٤) يهزم: يُصَوِّت .
(٥) ورب: فاسد .
(٦) سرب: ذاهبٌ ماضٍ .
(٧) مكترب: مُغْتَمّ .
(٨) ثربوا: وَبَّخُوا .

عُذْرًا فَقَدْ ضاقَ الشِّعْرُ عَنه ... ورَدَّنِي عَنْ سَمَائِهِ الأَرَب

عُذْرًا فَقَدْ خانَ الشِّعْرُ قافِيَتِي ... وخانَ أَشْعَارِي الْهَمُّ والكُرَب

عُذْرًا فإِنَّ القَصِيدَ أَحْرَجَنِي ... فِي نَظْمِهِ بَيْدَ أَنَّهُ طَرِب[1]

(ومهمة البحث ، أي بحث ، أن يضيف جديدًا إلى المعرفة . ومن حق كل باحث أن يتعامل مع رصيد الإنسانية من هذه المعرفة ، وأن يستنطقه ويستثمره ويستفيد منه ، ولكنه في النهاية لابد أن يضيف شيئًا ما ، قلَّ هذا الشيء أو كَثُر . فالباحث أو المؤلف الحق صاحب رسالة يريد أن يبلغها لمن يتلقى عنه أو يقرأ له . وهو يتخذ من الكلمة المنشورة أو المسموعة وسيلة لإبلاغ هذه الرسالة إلى المتلقِّين ، ومن ثم ينبغي لمن ليس عنده شيء يقوله أن يحترم نفسه أولًا ، وأن يحترم قارئه ثانيًا فلا يتصدى للتأليف والكتابة) .

من مقال بعنوان : الكتابة عن المخطوط العربي بين الأصالة والادعاء .
نشر بمجلة « التوباد » . السعودية .
المجلد الأول ، العدد الرابع (شوال ١٤٠٨ هـ يونيو ١٩٨٨م) .

(١) طرب: طَرُوب.

مقالات

عبد الستار الحلوجي أستاذاً جامعياً

أ.د. مصطفى حسام الدين*

أكتب هذه السطور وفاءً لواحد من الأساتذة الأكاديميين الرُّواد من ذوي القامات العالية رفيعة المستوى في تخصص المكتبات والمعلومات ، الذين يزدان بهم هذا التخصص في مصر والوطن العربي ، عرفانًا وامتنانًا بما قدم من عطاءات وإسهامات ، وتأكيدًا لقيم نبيلة أتمنى أن تنتقل من جيل إلى آخر.

أكتبها وفاء للأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي بعد أن تجاوز هو السبعين ، مدَّ الله في عمره وبارك له فيه ومتعه بالصحة والسعادة ، وبعد أن تجاوزت أنا الستين ، لا أرجو منها سوى التسجيل والتوثيق لانطباعات وقرت في نفسي عن سلوك وأداء هذا الرجل كأستاذ جامعي .

وقد جسدت هذه الانطباعات ملامح الصورة التي تشكلت في ذهني عن أستاذ الجامعة ، وتمنيت أن أكون عليها عندما راودتني الأماني والطموحات أن أصبح أستاذًا جامعيًّا منذ تخرجي في عام ١٩٦٧ ، وتحقق ذلك عندما تركت وظيفتي المرموقة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عام ١٩٨٧ لكي ألتحق بالعمل الأكاديمي.

وسأحاول في هذه السطور تقديم ملامح هذه الصورة كما جسَّدها سلوك هذا الرجل وأداؤه كأستاذ جامعة ، من خلال شواهد حقيقية لاحظتها أو رأيتها بنفسي ، خلال رحلة طويلة بدأت منذ أن تعرفت إليه في عام ١٩٧٩ ، عندما تفضل سيادته مشكورًا بالمشاركة في لجنة تحكيم رسالة الماجستير التي قدمتها تحت إشراف أستاذي الدكتور

---

* أستاذ مساعد بقسم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب – جامعة القاهرة .

سعد الهجرسي ، وامتدت حتىٰ كتابة هذه السطور في نوفمبر ٢٠٠٨ ، يملؤها الحب والود والصداقة في الله ولله ، والتقدير والاحترام المتبادل رغم الفوارق في الدرجة العلمية والمناصب الأكاديمية التي لم يُشعرني يومًا بوجودها.

تتكون هذه الصورة من سبعة عشر ملمحًا استطعتُ أن أرصدها عن سلوك وأداء الدكتور الحلوجي كأستاذ جامعة ، وسأعرضها فيما يلي باختصار من خلال توزيعها علىٰ خمسة محاور :

المحور الأول

التدريس

١- تحويل قاعة الدرس إلىٰ ساحة للحوار والنقاش مع الطلاب وترك مساحة كافية لهم لإبداء الرأي ، وتقديم المعلومات وعرضها بأسلوب رشيق جذاب ، فضلًا عن إعطاء الفرصة للتدريب والتطبيقات العملية التي تعتمد علىٰ إثارة المشكلات وتشجيع الطلاب علىٰ تقديم الحلول. وشاهدي علىٰ ذلك كل من حضر محاضرات د. الحلوجي في مقرري « المراجع العامة » و « التصنيف » .

٢- استخدام لغة عربية رفيعة المستوىٰ كأداة لتوصيل المعلومات ، واتباع أسلوب متميز في الإلقاء يقترب من أسلوب عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين رحمه الله ، الأمر الذي يحدث أثرًا رائعًا في نفوس الطلبة المتلقين ويحببهم في لغتهم القومية. وشاهدي علىٰ ذلك الكثير من المحاضرات والمناقشات التي تمكنتُ من تسجيلها أو سجلها غيري ممن يعشقون طريقة أستاذنا في الحديث والإلقاء.

٣- تشجيع الطلاب علىٰ البحث والابتكار وارتياد آفاق جديدة خصوصًا فيما يتعلق بطرق التدريس باستخدام التقنيات الحديثة للمعلومات .

وشاهدي علىٰ ذلك تشجيعه وإشرافه علىٰ الطالب (في ذلك الوقت) الدكتور / عماد

عيسىٰ (الآن) عندما وافق علىٰ تسجيله لرسالة الماجستير في تحويل تدريس مقرر من أصعب المقررات في تخصص المكتبات والمعلومات ، وهو مقرر « **التصنيف** » إلىٰ التدريس باستخدام التعليم المبرمج المحسَّب من خلال منهج تجريبي علىٰ عينة من الطلبة في جامعتي القاهرة وحلوان[١]. وقد أثمرت التجربة نتائج جيدة لصالح التحويل إلىٰ التعليم المبرمج المحسَّب .

٤- صياغة الأسئلة التي يضعها لتقييم الطلاب بأسلوب يقيس مختلف المهارات وليس الحفظ فقط ، وذلك ليكشف بطريقة أقرب ما تكون إلىٰ الموضوعية عن مستويات الطلاب. وشاهدي علىٰ ذلك الكثير من أوراق الأسئلة التي وضعها للامتحانات في مختلف المقررات التي دَرَّسها ، والتي تتضمن علىٰ سبيل المثال صياغة بالغة الدقة وتقتضي الإجابة عنها في عدد قليل من السطور ، فيتبين مدىٰ استيعاب الطالب لما درسه، وقدرته علىٰ التعبير عن ذلك بأقل قدر من الكلمات .

المحور الثاني

البحث

١- تأصيل منهجي وتأسيس نظري لبعض المفاهيم والمصطلحات والقضايا في تخصص المكتبات والمعلومات وما يرتبط به من مجالات .

وشاهدي علىٰ ذلك دراساته عن : « الكتاب العربي المخطوط »[٢] ، و« نحو علم

---

(١) عماد عيسىٰ صالح. التعليم المبرمج بمساعدة الحاسب الآلي في تخصص المكتبات والمعلومات / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (ماجستير). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٩٩

(٢) المخطوط العربي. - ط١. - الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٧٨ / ط٢. - جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٩ / ط٣. - القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٣

مخطوطات عربي »[١] ، و« التحقيق وأدواته »[٢] ، و« فهرسة المخطوطات »[٣].

٢ - اختيار موضوعات البحوث التي يتولاها بنفسه أو تحت إشرافه استجابةً لمشكلات بحثية قائمة في الواقع الميداني تتطلب حلولًا أو بدائل لحلول مبنية على أسس علمية ، أو إلقاء الضوء على ظواهر أو قضايا في مجال التخصص وما يرتبط به من مجالات ، تتطلب الرصد والتصنيف بهدف التحليل والتفسير والخروج بمؤشرات .

وشاهدي على ذلك موضوعات مثل :

« **الخدمة المكتبية الريفية** »[٤] .

و « **المستفيدون غير المستفيدين من المكتبات**»[٥] .

و « **تأملات في إهداءات الكتب العربية** »[٦] .

(١) نحو علم مخطوطات عربي. - القاهرة : دار القاهرة ، ٢٠٠٤

(٢) التحقيق وأدواته في : فن تحقيق التراث / إشراف وإعداد محمد السيد الجليند ، القاهرة : مركز الدراسات والبحوث الإسلامية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة ، ١٩٩٨. - ص ص ٩ -٩٣

(٣) فن الفهرسة : المصطلح والحدود في : فن فهرسة المخطوطات : مدخل وقضايا / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان. - القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٩. - ص ص ١٩ - ٣١

(٤) الخدمة المكتبية الريفية : دراسة ميدانية . -- سرس الليان (مصر) : المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، ١٩٧٩

(٥) المستفيدون غير المستفيدين من المكتبات في الوطن العربي في : المستفيدون من خدمات المكتبات ومراكز التوثيق العربية / جمع وتقديم وحيد قدورة. - تونس : مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات ، ١٩٨٦. - ص ص ٥٣ - ٥٨

(٦) تأملات في إهداءات الكتب العربية. - « **عالم الكتب** » . - مج ٧ ، ع٣ (سبتمبر ١٩٨٦م) ، ص ص ٢٨٤ - ٢٩٨

و « **التوثيق في مجال العلوم الاجتماعية** »[١] .

و« **الفهارس الموحدة للدوريات** »[٢] .

و « **الخدمة المكتبية للمعوقين** »[٣] .

و« **كتب الأطفال في مصر**»[٤] .

و« **الاتصال القرائي بمكتبات البحث وعلاقته بالإنتاج الفكري**»[٥].

٣ -توظيف المعرفة النظرية والتطبيقية للتخصص في خدمة التراث العربي والإسلامي ، بهدف التعريف به ، وإلقاء الضوء على خصائصه بنيانًا ومحتوى، وإبراز الجوانب المضيئة فيه وتأثيراته على حضارة الإنسان وتقدمه.

وشاهدي على ذلك أعمال مثل :

(١) لوريس لويس يونان. التوثيق في مجال العلوم الاجتماعية : مع دراسة ميدانية لأهم مراكز التوثيق والمكتبات المتخصصة في مصر / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (ماجستير). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٠

(٢) سناء عبد المنعم المقدم. الفهارس الموحدة للدوريات بمكتبات البحث / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (ماجستير). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٣

(٣) أميرة عبد السيد غطاس. الخدمة المكتبية للمعوقين / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (ماجستير). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٤

(٤) سهير أحمد محفوظ. كتب الأطفال في مصر في ربع قرن (١٩٥٥ – ١٩٨٠) / إشراف عبد الستار الحلوجي. أطروحة (دكتوراه) - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٦

(٥) كمال عرفات نبهان. الاتصال القرائي وعلاقته بالإنتاج الفكري / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (دكتوراه). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٧

« أمير الشعراء أحمد شوقي : نشرة ببليوجرافية »[١] ، و« عباس محمود العقاد : نشرة ببليوجرافية »[٢] ، و« عمدة الكُتَّاب وعدة ذوى الألباب للمعز بن باديس »[٣] ، و« لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات »[٤] ، و« مصادر دراسة التاريخ الإسلامى »[٥] ، و«من تراثنا الببليوجرافي : ابن النديم وكتابه الفهرست »[٦] ، و«خزائن الكتب العباسية»[٧] ، و«المجموعات العربية والإسلامية بمكتبة

(٤) أمير الشعراء أحمد شوقي ؛ نشرة ببليوجرافية بما كتبه وما كتب عنه. - « **المجلة** » . - ع ١٤٤ (ديسمبر ١٩٦٨) ، ص ص ١٠٩ - ١١٦.

(٥) عباس محمود العقاد : نشرة ببليوجرافية بآثاره الفكرية. - القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٦٤.

(٦) عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب المنسوب للمعز بن باديس / تحقيق عبد الستار الحلوجي ، علي عبد المحسن زكي. - « **مجلة معهد المخطوطات العربية** » . - مج ١٧ (مايو ١٩٧١) ، ص ص ٤٣ - ١٧٢ .

(٧) لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. - ط١. - القاهرة : جمعية المكتبات المدرسية ، ١٩٧١ / ط٢. - القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ / ط٣. - القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩١

(١) جين سوفاجيه. مصادر دراسة التاريخ الإسلامي= Introduction to the History of the Muslim East :A Bibliographical Guide / تأليف جين سوفاجيه ، كلود كاهين ؛ ترجمة عبد الستار الحلوجي ، عبد الوهاب علوب. - ط٢. - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٨٨

(٢) من تراثنا الببليوجرافي : ابن النديم وكتابه الفهرست. - « **مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض**». - ع ٧ (١٩٧٧ م). - ص ص ٤٦١-٤٧٨

(٣) محمد مجاهد الهلالي. خزائن الكتب العباسية : دراسة في الموارد والنظم والخدمات / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (دكتوراه). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٨٧

الكونجرس»[١] ، و«الكتاب في العالم الإسلامي»[٢].

المحور الثالث

خدمة المجتمع وتنمية البيئة

١- إنشاء مؤسسات للبحث والتدريب أو لتقديم خدمات المكتبات والمعلومات ميدانيًا . وشاهدي على ذلك الجهد الذي بذله أثناء رئاسته لقسم المكتبات والوثائق والمعلومات في إنشاء مركز بحوث نظم وخدمات المعلومات كوحدة ذات طابع خاص في كلية الآداب جامعة القاهرة ، ليكون أحد المراكز التخصصية التي تمارس نشاطها في إجراء البحوث النظرية والتطبيقية ، وتقديم المشورة ، والتدريب والتنمية المهنية ، والنشر، وتنظيم المؤتمرات واللقاءات العلمية.

وكذلك جهده الكبير في إنشاء « مكتبة مبارك العامة بمدينة بورسعيد » ، ضمن مشروع إنشاء ٢٧ مكتبة إقليمية عامة كبرى في كل محافظات مصر ، وجهده أيضًا في إنشاء المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية التابعة لوزارة الأوقاف المصرية.

٢- المشاركة والإشراف على المشروعات الوطنية الكبرى التي تستهدف الإفادة من التكنولوجيات الحديثة للمعلومات في صيانة وإتاحة المخطوطات العربية والإسلامية في مصر. ولعل أهم هذه المشروعات : مشروع النظام الآلي لفهرسة وإدارة المخطوطات الذي أعده مركز المعلومات ودعم ا تخاذ القرار برئاسة مجلس الوزراء بمصر ، والذي

(١) فوزي ميخائيل تادرس. المجموعات العربية والإسلامية في مكتبة الكونجرس / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (دكتوراه). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٩٧

(٢) الكتاب في العالم الإسلامي : الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط= The Book in the Islamic World : The written word and communication in the Middle East. / تحرير جورج عطية ؛ ترجمة عبد الستار الحلوجي . - الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ٢٠٠٣. - (سلسلة عالم المعرفة ؛ ٢٩٧)

أعد بأيدٍ مصرية ، ومشروع رقمنة المخطوطات والكتب التراثية المصرية الذي يرعاه مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي بمكتبة الإسكندرية.

٣- تقديم الاستشارات العلمية للمركز الوطني المعني بتحقيق التراث العربي والإسلامي في دار الكتب والوثائق القومية ، ورئاسة تحرير مجلة « تراثيات » التي تصدر عنه ، فضلًا عن تقديم الاستشارات لبعض الهيئات المصرية المعنية بالتراث ، مثل المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ، ووزارة الأوقاف ، وجامعة القاهرة .

المحور الرابع

العمل كواجهة مشرِّفة للقسم وللجامعة

١ - تولي مناصب أكاديمية رفيعة المستوىٰ تعكس قدرات ومهارات إدارية عالية من جانب ، وكفاءة وفعالية في الأداء من جانب آخر ، مما أثمر نجاحًا مشهودًا لما تتطلبه هذه المناصب والمواقع من مسئوليات . وشاهدي علىٰ ذلك اختياره لتولي منصب وكيل الكلية لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة كأول وكيل يشغل هذا المنصب في الكلية ، وكذلك توليه منصب عميد كلية الآداب جامعة القاهرة – فرع بني سويف .

٢ - الحصول علىٰ جوائز وطنية وعالمية رفيعة المستوىٰ منها : جائزة الملك فيصل ، والجائزة التقديرية لجامعة القاهرة .

٣ - استعانة هيئات ومؤسسات عربية ودولية بخبراته المنهجية والمعرفية النظرية والتطبيقية ، في الإشراف علىٰ تنفيذ مشروعات للعناية بالتراث العربي الإسلامي فهرسةً وتنظيمًا وتحقيقًا ونشرًا . وشاهدي علىٰ ذلك الاستعانة به في كل من : معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ومركز جمعة الماجد للتراث ، مكتبة الكونجرس .

المحور الخامس

العلاقة الإنسانية النبيلة مع الزملاء والطلاب

١ - الوفاء والعرفان لأساتذته وزملائه ، وتقديم الامتنان لإسهاماتهم وعطاءاتهم . وشاهدي علىٰ ذلك القطعة الأدبية الرائعة التي كتبها في تأبين أستاذنا الدكتور السيد محمود الشنيطي[١] .

وما كتبه عن الأستاذ الدكتور أحمد أنور عمر« في ذكرىٰ الأربعين لرحيله »[٢] .

وما كتبه أيضًا في تأبين الأستاذ الدكتور « محمد المصري عثمان »[٣] ، وكلمته المسجلة والمتاحة علىٰ شبكة الإنترنت عن الأستاذ الدكتور سعد الهجرسي .

٢ - الموضوعية والبعد عن الأفكار المسبقة في الحكم علىٰ الناس أو التمييز بينهم علىٰ أساس العقائد والأديان .

وشاهدي علىٰ ذلك موقفان : موقف يتعلق بي شخصيًّا عندما سيقت إليه « معلومات غير صحيحة » عن بعض مواقفي الفكرية والاجتماعية والسياسية ، فلم يأبه بها واستند إلىٰ ملاحظاته المباشرة وتعاملاته الفعلية وما يلمسه بنفسه من سلوك وأداء الناس ، وما يؤمنون به من أفكار وعقائد . والموقف الثاني عندما قَبِل فورًا وبدون أي تعليق أو مناقشة بشأن التمييز في الدين لمن يتصدىٰ لموضوع مثل « دراسة وتقييم المجموعات

---

(١) الدكتور السيد محمود الشنيطي. - « **عالم الكتاب** » . - ع ٤٩ (يناير – مارس ١٩٩٦). - ص ص١٨– ٢٠

(٢) الدكتور أحمد أنور عمر. « **عالم الكتاب** » . - ع ٤١ (يناير ١٩٩٤). - ص ص ١٩٨ -١٩٩

(٣) الدكتور محمد المصري عثمان. « **عالم الكتاب** » . - ع ٢٦ (أبريل – يونية ١٩٩٠).- ص ص ٢٣– ٢٤

العربية والإسلامية في مكتبة الكونجرس » ، وهو الموضوع الذي تقدم به كرسالة للدكتوراه الأستاذ الدكتور فوزي تادرس[١] ، وأنجز تحت إشراف الدكتور الحلوجي.

٣ - مساندة الضعاف وذوي الحاجات. ولا أريد أن أطيل في ذلك وهو معلوم للكثيرين ، ولكن أود فقط أن أشير إلى ما هو معروف عن الدكتور الحلوجي من أنه «نصير الطلبة». كما أود أن أذكِّر بموقفه الإنساني الرائع من حادثة اختفاء الباحث الواعد «أحمد علي عبد الحميد» الذي كان يعمل معيدًا في القسم تحت رئاسته ، وظل أستاذنا داعمًا لأهله ومُقَدِّمًا لهم المساعدات على كل المستويات أملًا في العثور على هذا الزميل المختفي الذي لم يظهر حتى الآن.

٤ - الوفاء بالعهد ، فنحن أمام «أستاذ» و«إنسان» إذا قطع على نفسه عهدًا وَفَّى به والتزم بتحقيقه وذلل كل الصعاب حتى ينجزه ، وشاهدي على ذلك كثير من المواقف أذكر منها موقفًا يتعلق بي شخصيًّا. فقد قطع على نفسه عهدًا يتعلق بي وبمستقبلي في لحظة فاصلة في حياتي كادت تعصف بي على مستويات عدة نفسيًّا واجتماعيًّا ومهنيًّا ، وتمكن في النهاية من تحقيق العهد فأعاد التوازن إلى نفسي والبسمة إلى حياتي.

تلك كانت بعض ملامح الصورة التي جسدها سلوك وأداء الأستاذ الدكتور الحلوجي كأستاذ جامعة ، وستظل هذه الصورة مثالًا وقدوة أعتز بها وأتمنى أن أحذو حذوها ، والله من وراء القصد .

(١) فوزي ميخائيل تادرس. المجموعات العربية والإسلامية في مكتبة الكونجرس / إشراف عبد الستار الحلوجي. - أطروحة (دكتوراه). - جامعة القاهرة - كلية الآداب ، ١٩٩٧

أستاذنا الجليل: هل وفيناك حقك؟

أ.د. هاشم فرحات*

لأساتذتنا الأجلاء حقوق كثيرة معلقة في رقابنا ، وبقدر سعادتي بهذه المبادرة القيمة التي تبناها بعض الأوفياء للاحتفاء بأحد هؤلاء الأجلاء ، أجدني حائرًا في الكتابة عن هذا الأستاذ الفاضل والعالم والجليل المحتفى به - وهو شيخي وأستاذي الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي - لا لعجز عن التعبير عما له في مكنون القلب من محبة ومعزة ، بل لكثرة مآثر هذا الرجل ومناقبه ؛ فهذا العالم الجليل كان أول من تكحلت برؤيته مهجة عيني من أساتذة الجامعات عندما ولجت قدمي أبواب هذه الجامعة العريقة - جامعة القاهرة - وكان أول من رأيت فيه هيبة أستاذ الجامعة ووقاره ، وكان أول من تأكدت لي فيه حقيقة موسوعية أستاذ الجامعة ورقي أخلاقه ، وكان أول من تعلمت منه درسًا في كيفية أن يكون الأستاذ الجامعي والدًا وأبًا لتلاميذه ، وكان أول من استشعرت منه جمال نكران الذات ، وكان أول من تعلمت منه كيف يكون العطاء من غير حدود ، وكان أول من... ومن... ومن....

فكثيرة هي المناقب التي أنعم الله - تجلت قدرته - بها على أستاذنا الجليل ، وكثيرة هي المواقف النبيلة التي رأيتها رأي العين وأشهد أنها لم تكن عن زيف أو تملق ، بل كانت - ولا تزال - من ديدن حياته ومن سجاياه التي فُطر عليها ، ولو قُدر للمرء أن يسجلها لنفدت الأقلام ولناءت عن توثيقها صفحات المجلدات ، ولكن حسبي في هذا المقام أن

* أستاذ المكتبات والمعلومات بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، وكلية الآداب جامعة الملك سعود . الرياض .

أستأذنه في الإشارة إلى بعض اللمسات الراقية التي تتسطر بها حياته ، والتي أرى أن بعضًا ممن يتعاملون مع أستاذنا قد لا يعرفونها ، وهي لمسات أعتقد ـ من منطلق حبه لنكران الذات ـ أنه لا يقبل مني أن أبوح بها حتى تكون له ذخرًا وزادًا في الآخرة ، ولكن ـ وعلى قناعة بعدم نقصان أجره بإذن الله فعند الله لا تبلى وجوه البر ولا تنسى فضائل الأعمال ـ أجد لزامًا عليّ أن أسجلها لتكون وفاءً لهذا الرجل الوفي ، ولتكون كذلك درسًا لكثيرين ممن نراهم ، وقد تتعالى أعناقهم وتتشدق أفواههم بأستاذية مزيفة تملقوها ، إنها لمسات في الشهامة ، وفي التواضع ، وفي العطاء الخفي ، وفي الكرم ، وحسبي أن أسجلها للتاريخ ، ومصدري في ذكرها ليس عن سماع أو رواية أو قراءة ، بل عن وقائع حقيقة حدثت معي شخصيًا ، ومثلت علامات فارقة في مسيرة حياتي.

● **الحلوجي الأستاذ... نقطة التحول في حياتي .**

من أقاصي الجنوب الغربي لصعيد مصر وبعد توفيق الله تعالى وحصولي على شهادة الثانوية العامة بمعدل عال ، توجهت إلى جامعة القاهرة بعد أن رفض والدي الكريم ـ رحمة الله عليه ـ أن ألتحق بجامعة أسيوط الأقرب لبلدتي ، وبقدر مشقة الطريق وطول رحلة السفر كنت أحمل معي هم تحقيق حلمي في جامعة القاهرة ، وأن أصبح مترجمًا للغة الإنجليزية التي عشقتها من الصغر ، فتوجهت أتلمس سبل تحقيق هذا الحلم في كلية الآداب التي طرقت فيها باب قسم اللغة الإنجليزية ، غير أن هذا الباب أغلق في وجهي على درجتين في معدلي في مادة اللغة الإنجليزية في الثانوية العامة. وكانت تلك صدمتي الأولى ، فلم أكن أراني إلا مترجمًا ، فهممت بطرق أبواب كلية اللغات والترجمة ، لكنها أوصدت أمامي كذلك بحجة أنني لست خريج الثانوية الأزهرية ، فاستخرت الله تعالى واستشرت بعض أساتذتي الأفاضل من مدرسي الثانوية العامة ، فرأوا أن ألتحق بقسم المكتبات والوثائق (كما كان يسمى وقتها) باعتباره أقرب الأقسام التي يمكن أن تؤهلني لأعمل مدرسًا للغة الإنجليزية (وكما كان مألوفًا في وقتها) ، وبعد التخرج

يمكنني أن أرضي طموحي بالحصول على دبلوم الترجمة ، بعدها توكلت على الله وقدمت أوراقي لقسم المكتبات والوثائق ، وقبلت في القسم ، وكم كانت تهكمات زملائي في الثانوية وممن كنت متفوقًا عليهم وبمعدلات تفوقهم بكثير ، ومصدر هذه التهكمات تلك التسمية الوظيفية التي تلتصق بخريجي هذا القسم (أعني أمين مكتبة) والتي كان ينظر إليها عن جهل بأنها من قبيل وظائف أمناء الأرشيفات والمخازن ، ولم يكن بوسعي إهدار مزيد من الوقت لأبحث عن جامعة تقل معدلات القبول فيها في قسم اللغة الإنجليزية عن معدلات قسم جامعة القاهرة ، فتوكلت على الله ، وبدأت الدراسة بقسم المكتبات والوثائق متأخرًا أسبوعين أو ثلاثة عن الموعد المحدد لبدء الدراسة ، وانتظمت في المحاضرات أستمع من غير اهتمام كبير لأساتذة المواد التمهيدية ، وإذا بأستاذ لمادة «تاريخ الكتب والمكتبات» أراه وكأنه طاعن في السن ، يمشي بوقار وتؤدة ، ويتكلم بهدوء وبصوت خافت يجبر المستمع على الإنصات والمتابعة ، ويجذب الانتباه بجمال لغته وحسن أدائه ، ثم تستشعر مهابته في حزمه وتهذيبه لمن يخرج من بعض الطلاب المستهترين ـ إن صح التعبير ـ عن حدود وضوابط المحاضرة العلمية .

من هذه اللحظات الأولى رأيت أني أمام أستاذ ليس كغيره من الأساتذة الذين عرفتهم حتى هذه اللحظات ، إنه أستاذ فريد في منهجه وأسلوبه التعليمي ، فاستشعرت بعدها أن الأمور قد تتغير وتنبئ بخير ، وخصوصًا لطالب ريفي لم يأت من قريته إلا للتعليم والدراسة ، وتمضي السنة الأولى ، ولم تتح لي الفرصة أن أقترب كثيرًا من هذا الأستاذ الجليل ، وتبدأ رحلتي مع السنة الثانية وكلي شوق للقاء هذا الأستاذ والاطمئنان على وجوده ضمن قائمة مدرسي مقررات السنة الثانية ، وكلي انشغال بتحضير كلمات تليق لأن أحيي بها هذا الأستاذ الفاضل بعد فراق دام ما يقرب من ثلاثة أشهر ، ويشاء الله وإذا بالحلم يتحقق وتغمرني فرحة عجيبة عندما رأيته يدخل المحاضرة الأولى لمقرر «المراجع العامة» .

حقًّا كانت فرحة أعجزتني عن التعبير بأي كلمات كنت قد استجمعت لها قواي وأفكاري ، فتتبعت خطاه بعد انتهاء المحاضرة وتجرأت بالاقتراب منه لمصافحته والسلام عليه ، وإذا به يبادرني بمنتهى التواضع والتهليل بالسلام ، ولم أقل شيئًا سوى التمتمة بكلمات لم أعرف فحواها ولا معناها بل لم أعرف حقًّا ماذا قلت ، فإذا به يشد على يدي ويسألني عن معدلي في السنة الماضية ويدعو لي بمزيد من التوفيق ويشجعني لمواصلة جهدي ، وتتوالى المحاضرات وتقترب السنة من نهايتها .

وفي أحد الأيام وبعد انتهاء المحاضرة ، تبعت أستاذي وهو في طريقه لمكتبه وكنت وصلت لقناعة لا تردد فيها ، من شدة ما كان يؤثرنا من موسوعية علمه سواء في محاضراته أو وفي مناقشاته لرسائل الماجستير والدكتوراه لطلاب الدراسات العليا ، قناعة كنت أرى على أثرها أن هذا الرجل ليس أستاذًا في علم المكتبات فقط ، بل أستاذ في كل شيء ، وأكثر من ذلك كنت أراه عالم دين وشيخًا يُستفتى في أمور الدين كما في أمور الدنيا ، في ذلك اليوم تقدمت إلى أستاذي وسألته سؤالًا عن الفرق بين كلمتين وردتا في سياق آيتين كريمتين كنت قد سمعتهما في صلاة صبح هذا اليوم وشغلني معرفة الفرق بينهما ، ولم تتح لي الفرصة لأبحث عن الفرق بين معنيهما ، وهما الآيتان (١٧٢) و(١٧٣) من سورة النساء ، حيث يقول سبحانه وتعالي : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ { الآيات } ، فاقتربت من أستاذي وسألته عن الفرق بين كلمتي «يستنكف » و«يستكبر» ، فإذا به يجيبني بسرعة وبابتسامة رقيقة وبلغة بسيطة لن أنساها إلى هذا اليوم قائلًا : «أنت تعرف بالطبع معنى كلمة يستكبر! فقلت له : نعم ، فقال : أما كلمة « يستنكف » فتعني ببساطة وبالعامية «يستعيب» ، فأعجبت بسرعة الإجابة

وبساطتها ، فشكرته وقبل أن أحييه لأتركه يدخل إلى مكتبه إذا به يقول لي انتظر ، وبعد أن انصرف بقية الزملاء ، إذا به يسألني عن اسمي ، وعن بلدتي التي قدمت منها ، وعن أحوالي ، وعن محل إقامتي ، فأجبته بفرحة غامرة عن تساؤلاته ، فإذا به يشجعني على المذاكرة والدراسة وعدم التردد في مراجعته في أي سؤال أو أي طلب ، فودعته وانطلقت وأنا أكاد أطير ذهابًا لمكتبة الجامعة لألتهم جميع الكتب التي تقابلني وأريد أن أثبت له أنني عند حسن ظنه ، وكانت مكتبة الجامعة من يومها مقامي ، حتى كاد البعض يظنني لولا صغر سني أحد موظفيها ، وكنت أعشق مادة « المراجع» ليس ليسر محتواها العلمي ، وإنما لأن أستاذ هذه المادة هو هذا الرجل الجليل الذي أريد أن أثبت له أنني على العهد الذي أخذته على نفسي.

وتنقضي السنة الثانية بحلوها ومرها وأسافر إلى أهلي ، وأشعر بأنني قد قطعت النصف الأول من الطريق إلى التخرج ، وأعد الأيام لتبدأ السنة الثالثة لألتقي أستاذي الجليل مرة أخرى ، وتبدأ السنة الثالثة ، وأدور في ردهات الكلية وأحوم حول مكاتب قسم المكتبات والوثائق لعلي أمتع ناظري برؤية هذا العالم الجليل فلم أره ، ويمر اليوم الثاني والثالث والرابع ، وأشعر بأني غريب في واد مظلم ، وإذا بي أتوجه إلى « عم محمود العامل» بالقسم وأسأله عن هذا الأستاذ الجليل فيخبرني بأنه مسافر خارج مصر ، فاسودت الدنيا أمام عيني ورجعت القهقرى لألملم ثياب الحسرة ، وإذا بعم محمود يستشعر بما أصابني بحسرة فبادر بقوله لا عليك فقد عرفت أنه سيعود قريبًا ، وذهبت أعد الأيام حتى اقترب موعد اختبارات نصف العام وأنا لا أدري هل سيعود أستاذنا بالفعل أم سيطول به المقام خارج المحروسة ؟ ولم تتبق سوى أيام قلائل على اختبارات نصف العام وكأني غريق يتلمس قشة يتعلق بأهدابها ، وبعد انتهاء إحدى المحاضرات العملية تقدمت إلى إحدى المعيدات التي كانت تدرس لنا هذه المادة وسألتها عن موعد قدوم هذا الأستاذ الجليل ، فأجابتني : لقد وصل بالأمس القريب ، فدمعت عيناي من

شدة الفرح ورحت أتلمس مكان وجوده فلم أتمكن من رؤيته ، وانتهى اليوم وعدت لسكني وعددت الساعات لأعود في الغد لعلي أقابله ، وبمجرد انتهاء المحاضرات ذهبت قريبًا من الطرق المؤدية لقسم المكتبات ، وبعيد الظهر تقريبًا إذا به يهل من بعيد وتمتلئ الدنيا أمامي سعادة ونورًا برؤية هذا العالم الجليل ، وأتقدم لمصافحته وتهنئته بالعودة فيرد علي التحية بأجمل منها كعادته ، ويسألني عن أخباري وسيري في الدراسة ، وعن معدلي في العام الماضي ، ويطلب مني أن أمر عليه في الغد لأمر مهم ، فانصرفت مسرورًا بهذا اللقاء ، لكني عشت ليلتها مشغولًا بطبيعة هذا الموعد الذي أخبرني به .

وعدت في اليوم التالي لأقابله عند الثانية تقريبًا بعد انتهاء المحاضرات فإذا به يصحبني قريبًا من سيارته ، وأثناء السير يلمح لونًا أحمر تكاد أصابع يدي تصطبغ به فيسألني عن هذا اللون ، فحاولت التنصل من الإجابة عنه فلم أستَطِع لأنني لم أتربَّ على ذلك ـ بفضل الله ـ فأخبرته بأنه من آثار العمل الذي أعمله في نهاية الأسبوع يومي الخميس والجمعة ، حيث كنت أعمل لتدبير مصروفات الدراسة وتكاليف العيش بالقاهرة مع قريب لي في إحدى ورش النجارة الكبرى بمنطقة المنيل القريبة من الجامعة ، حتى احترفت مهنة دهان الأثاث الخشبي أو ما يعرف في اصطلاح الصناعات اليدوية « استورجي» ، فأبدى العالم الجليل إعجابه بذلك وحياني عليه وشجعني بعد أن سمع مني الكثير عن طبيعة هذا العمل ودوافع انخراطي فيه ، وقبيل أن أودعه تساءلت : لقد دعوتني أستاذي أن أقابلك اليوم لأمر مهم ، فما هو؟ ولعله خير ، فإذا به يتبسم ويعلن بدء ساعة الصفر لنقطة تحول في حياتي والتي لم تدر في خلدي ولو للحظة واحدة ، حيث يقول لي لقد رأيت فيك...

وظل يقدم بمقدمة مختصرة أظنني لا أستحقها ؛ ولذلك فأرجو أن تبذل كل جهدك في الدراسة وأعدك ـ وبهذا النص الذي أذكره وكأنه قيل في لحظتنا هذه ـ « إن حصلت على معدل تراكمي عال في السنة القادمة وبما يؤهلك لأن تكون أول دفعتك أو ثانيها

فسأسعى لتعيينك معيدًا بالقسم» ، فقلت له هل يمكن أن أصبح معيداً؟ فكرر مقولته ثم ركب سيارته وقال : فكر جيدًا فيما قلت لك ، ثم انصرف ، فأدرت النظر حولي لعل أحدًا يكون قد سمع هذه المقولة فلم أجد أحدًا ، وجهت قدمي نحو طريق عودتي لمسكني بالمدينة الجامعية للطلاب في منطقة « إمبابة » بالقاهرة ، وانتظرت الحافلة التي تقلني إلى هناك وأنا أكاد لا أرى سوى صورة هذا الرجل ، ولا أكاد أسمع سوى صدى هذه الكلمات التي وقعت على أذني موقع الطامة التي تطيش منها الأسماع ، فأنا أعد الأيام لحين الانتهاء من الدراسة الجامعية والعودة إلى أهلي في أقاصي الأرض من القاهرة ، وأفكر في طبيعة عملي بعد التخرج لأكتسب ما يعينني على مساعدة والدي في نفقات المعيشة ، ورد القليل مما تحمل ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في سبيل تعليمي وإقامتي في القاهرة ، وكان مصدر خوفي ورهبتي المصاريف الإضافية المرتفعة التي يجب أن أتحملها ، أو بالأحرى التي يجب على والدي أن يتحملها مرة أخرى بعد تخرجي .

ثم إن معنى أن أصبح معيدًا أن أنقطع للعمل في الجامعة ، وما يتبعه من الإقامة في القاهرة ولا أعود لبلدتي الريفية التي أحبها ، وأن أتلوث ـ على حد فهمي في ذلك الوقت ـ بأخلاق المدينة أو المدنيَّة ، وأن أترك عادات وتقاليد أهلي وعشيرتي القبلية ، بل أن أرجئ رحلة الزواج التي كانت تنتظرني فور تخرجي كأمثال كل شباب الريف لأجل غير معلوم قد يطول لما بعد الحصول على الدكتوراه ، وهذا يعني عقدًا من الزمان على أقل تقدير .

عشت أيامًا عجيبة أدرس الموضوع من كل جوانبه ، أندب حظي فيها حينًا ، وأسعد فيها حينًا آخر ، وطالت فترة التردد ، ولم أحسم أمري ، ولجأت إلى الله أستخيره ـ سبحانه ـ بعدها شعرت براحة نفسية دفعتني للسير في هذا الطريق وبذل قصارى جهدي ، ومن الله تعالى التوفيق ، فإن وفقت لما أراد أستاذي كان خيرًا ، وإن كانت الأخرى فإلى بلدتي سيكون المعاد .

وشددت العزم والهمة والتوكل على الله قبل كل شيء ، تقدمت لاختبارات السنة الثالثة ووفقت فيها توفيقًا باهرًا بحمد الله ، وتقدمت للسنة الرابعة وكلي همة ونشاط ، وتقدمت للاختبارات النهائية وكلي تحدٍّ لأثبت ما وعدت به ، وانتهت الاختبارات وعشت المرحلة الحاسمة ، وحاولت أن أبتعد عن همومها ، بل وأبعدها عن ناظري ومخيلتي ، ولكن كيف وهي تطاردني نهارًا وتقض مضجعي ليلًا .

قررت أن أبعد عن جو الجامعة ، وأنخرط في ذلك العمل اليدوي ـ الذي أشرت إليه من قبل ـ صباحًا ومساءً ، غير أن علامات الارتباك والتوتر كانت تطاردني ولم تكد تصرفاتي تخفيها ، وما هو إلا شهر ونصف الشهر تقريبًا وقبيل ظهور النتيجة رسميًّا بثلاثة أيام وإذا بروائح البشرى تفوح ، وبشائر الخير تهل ، وها هو صديق حميم (صابر الكيلاني) يبحث عني في كل مكان ، ولما لم تكن وسائل الاتصال متاحة على ما هي عليه الآن . فإذا به يذهب إلى منزل أقربائي الذين أقيم معهم في قلب القاهرة وفي أشهر مناطقها ازدحامًا واضطرابًا بكل شيء ومن كل شيء ـ وهي منطقة « العتبة » ، ويسأل عني ويدلونه على مكان عملي ، ويأتيني مسرعًا لا ليبشرني بالنجاح ـ فلم تكن النتيجة أعلنت رسميًا ـ ولكن ليبشرني بما هو أجمل وهو سؤال أستاذنا الحلوجي عني ، وإبلاغ الطلاب الذين كانوا متواجدين بالكلية انتظارًا للنتيجة بأنني وزميل آخر من أوائل الدفعة ، فسجدت لله شكرًا وبكيت من شدة الفرح ، وأخذت زميلي وانطلقنا إلى الكلية لعلي أرى شيئًا رسميًّا ، مع إلحاحه لإقناعي بعدم ظهور النتيجة رسميًّا ، لكن لم أصدقه وكان الوقت قبيل المغرب ، فاستجاب لي مكرهًا وذهبنا للجامعة فمنعنا من دخولها في هذا الوقت ، لكن بعد محاولات كثيرة مع رجال الأمن وبعد أن وعدناهم « بحلاوة النجاح» ـ كما كان متداولًا بين الطلاب – سمحوا لنا بالدخول فلم نجد شيئًا يدل على ظهور النتيجة ، وعدنا بخُفَّي حنين ، واستضافني زميلي في بيته لنبيت ليلتنا نتداول أمرنا ، ولم أكن قد صارحته بالذي دار بيني وبين أستاذي العزيز ، فإذا به يفرح لفرحتي مع

عدم معرفته بنتيجته .

وانقضت ليلتنا ونحن نخطط ونرسم مستقبلنا ، وقبل أن تشرق شمس اليوم التالي كنا أمام أبواب جامعة القاهرة ، لنلج بعدها إلى كلية الآداب نتلمس أي خبر عن ظهور النتائج رسميًّا ، أو نتفنن بحيل كثيرة مع بعض صغار المعيدين أو العمال لكي نعرف خبرًا يقينًا عن نتائجنا ، ولكن لا مخرج يهون علينا ، ومع قبيل الظهر ، نلمح أحد أساتذتي الأفاضل الذي كان يعرفني جيدًا ، فنتقدم إليه مسرعين فإذا به يتهلل في وجهي ويبشرني بأني وزميل آخر من الأوائل ، وأنني حاصل على الترتيب الأول على الدفعة من حيث درجات السنة الرابعة وزميلي الآخر هو الأول من حيث المعدل التراكمي فزادت فرحتي وبادرته بالسؤال عن نتيجة زميلي وصديقي العزيز « الكيلاني» فيعدنا أن يعرف نتيجته ويبلغنا بها حال عودته للجنة رصد النتائج ، وبالفعل يعود إلينا بعد نصف ساعة تقريبًا متهللًا ليبلغ زميلي بنجاحه بمعدل جيد ، ونتعانق عناق الناجحين الموفقين ، وبعد سؤالي عن أستاذي الحلوجي يبلغني بأنه مشغول جدًّا ولن أستطيع مقابلته لأنه رئيس للجنة .

وقضينا يومنا في فرحة غامرة نتجول بين جنبات مباني جامعة القاهرة وبين حدائقها إلى نحو الساعة الثالثة عصرًا ، ونحن أقرب إلى موقف سيارة أستاذنا نراقبها ونرقب مقدمه ، ثم يهل علينا من بعيد فإذا بي أسرع إليه مصافحًا وقد بدا وجهه متهللًا ليبشرني بالنتيجة المشرفة ، ولم نرد أن نثقل عليه لشدة ما رأينا عليه من إرهاق شديد ، لكنه بادرني بالقول « لقد صدقت في جهدك يا بني وأنا سأصدقك الوعد إن شاء الله » ، وانصرف على طلب مني أن أراجعه بعد ثلاثة أسابيع ، وبالفعل راجعته في الوقت المحدد ، فأخبرني بأن مجلس القسم اتخذ قرارًا بطلب تعييني والزميل الآخر معيدين ورفع الطلب لمجلس الكلية وجارٍ اتخاذ الإجراءات اللازمة من قبل الجامعة ، ومع بداية العام الدراسي يصدر بالفعل قرار التكليف بتعييني معيدًا بالقسم ، ومن هنا بدأت رحلة إقناع الأهل وبخاصة الوالد ـ رحمة الله عليه ـ فكان رافضًا للفكرة برمتها ويرى ضرورة

عودتي لفريتنا لمشاركته في رعاية شئون الأسرة وغيرها من الأمور التي تثقل كاهله ، ولكن سرعان ما تدخل كثير من أساتذتي لإقناعه ، وبروح الأبوة الحنون آثر ـ رحمة الله عليه ـ رغبتي على مصلحته ، ونزل عن حاجاته إرضاءً لي ، ووافق على تعييني معيدًا ومن ثم إقامتي بالقاهرة.

تلك كانت نقطة التحول الأولى التي وضعها أستاذي الجليل في مسيرة حياتي ، والتي تغيرت بها كل آمال عائلتي الريفية التي تجري عادتها دائمًا على لم شمل جميع أبنائها في بيت واحد وتحت إمرة عائلها الأكبر ، ومع ذلك سأظل أقول إنها كانت نقطة تحول حقيقية ـ ترتب عليها تغير جذري لمجرى مسيرة حياتي كلها ، لعل أبرز ما فيها أمران : أولها التنصل عن حياة الريف وما يتبعها من إدارة لشئون العائلة الريفية خلفًا للوالد الكريم ، وثانيها التخلي عن الرغبة الجامحة في أن أكون مترجمًا ، ولأصبح أستاذًا بالجامعة في تخصص لم أكن أعرف عنه شيئًا من قبل ، ولم تربطني به رغبة أو هواية .

● الحلوجي المعلم .

الإنسان كل لا يتجزأ ، ومهما حاول البعض أن يتملق موقفًا أو يسلك سلوكًا غير منشأ عليه أو غير مركوز في طبعه ، فستكشف الأيام مدى زيف مسلكه ، وعدم صدق نواياه ، وإذا كان شيخنا الجليل قد أفاء علينا بكثير من علمه التخصصي ، فقد أفدنا دروسًا كثيرة في الحياة من لقاءاته التي كنا نستمتع بها سواء داخل قاعات الدرس أو خارجها ، وفي كل مرة تثبت لنا المواقف أنه صاحب المبادئ التي لا تتغير ولا تتبدل ، وإذا كان أستاذًا جامعيًا في قاعات الدرس فهو معلم للأخلاق ، وقد وجدت صدق خصاله هذه ونبلها في مواقف كثيرة ، لعلي أذكرّ بواحد فقط منها ، وهو ما حدث معي شخصيًا ، وأنا على يقين أنه تواتر مع كثير من الزملاء خصوصًا أثناء أداء الاختبارات ، ففي أحد الاختبارات النهائية في السنة الثالثة ، وتحديدًا في مادة كنت أحببتها وأحببت أستاذها

(مادة التوثيق ، وكان يدرسها الأستاذ الدكتور أسامة السيد) ، وكنت حريصًا على أن أتفوق فيها بشكل خاص ، فلجأت إلى مكتبة الجامعة ـ كعادتي ـ واطلعت على قراءات كثيرة جدًا تتصل بالمحتوى الموضوعي لهذه المادة كما كان يوجهنا أستاذ هذه المادة ، بل أكاد أقول إنني استوعبت الغالبية العظمى من هذه القراءات لدرجة أنني كنت عندما أريد أن أتحدث عن قضية معينة من قضايا المادة كنت أناقشها باستفاضة مستشهدًا بآراء كثيرة بل بمواضع ورود هذه الآراء في مصادرها الأصلية التي قرأتها ، وأحدد الصفحات التي وردت فيها ، وعند دخول الاختبار النهائي لهذه المادة وأنا واثق بنفسي تمامًا ، وربما كان ـ والعياذ بالله ـ غرورًا لا ثقة ، وبعد تسلم ورقة الأسئلة وقراءتها لم أشعر بصعوبة في هذه الأسئلة ، لكن عندما بدأت الإجابة عنها فوجئت وكأنني لم أسمع عن هذه المادة من قبل ووجدتني في غاية الارتباك ، وعندما قرأت السؤال الأول لم أعرف كيف أبدأ ومن أين أبدأ ، ثم أنتقل للسؤال الثاني فأشعر بالشعور نفسه ، ثم أنتقل إلى السؤال الثالث ، فالسؤال الرابع ، إلى آخر الأسئلة ، وأعود من البداية وتزداد الحيرة ، وترتفع وتيرة الارتباك ، وتستمر الحالة معي على هذا النحو لنحو منتصف الوقت المخصص للاختبار .

وازدادت حدة الارتباك والخوف فلم أكتب حرفًا واحدًا ، وكدت أنسحب من الاختبار ، وانتابتني حالة من الرجفة صرت أفتح على أثرها الورقة وأغلقها مرة ومرات ، ثم وضعت يدي على رأسي لأتحسسها خوفًا من فقدان عقلي ، وأنا على هذه الحال إذا بأستاذنا الجليل – وكان رئيسًا للجنة الاختبارات وكان يراقبني من الخلف من فترة غير قصيرة وأنا لا أشعر به – يتسلم الورقة مني ويفتحها ويقول : ما بك يا بني ؟ فاضطربت قائلًا : لا أعرف من أين أبدأ وكيف ، فأنا أريد مجلدًا وليس هذه الوريقات لكي أجيب عن هذه الأسئلة ، فلدي الكثير والكثير ولكن لا أعرف من أين أبدأ ؟ فإذا به يقول : هون عليك ، ولا تجب إلا باختصار فأستاذ هذه المادة لا يحب الاستطراد وهو

يعرفك جيدًا حتى لو لم تكتب شيئًا فستنجح في هذه المادة ـ فكدت أصدق ما يقول مع أنه يقول هذا من قبيل التشجيع بالطبع للخروج من هذا المأزق ـ ثم يقول : استعن بالله ، ابدأ بإجابة السؤال الأول ، ولا تلتفت أبدًا للسؤال الثاني إلا بعد انتهائك تمامًا من إجابة السؤال الأول ، وسأمر عليك بعد ربع ساعة لأطمئن عليك ، وينصرف وبعد ثوان من انصرافه إذا بقارورة بيبسي مثلجة يحضرها أحد العمال ويقول لقد أمرني الدكتور الحلوجي بهذا ، ثم يتبعها بكأسين من الشاي والماء البارد ، وإذا بفتح من الله ينهمر عليَّ ، وتنفك عقدة لساني وينطلق قلمي ، وأتناسى البيبسي والشاي والماء ، وأنتهي من إجابة السؤال الأول ، وأنتقل إلى السؤال الثاني ، بعدها يدخل شيخنا مصطحبًا معه أستاذ المادة دون أن أشعر بهما كذلك ، وأنا في انطلاقة الكتابة يستوقفاني فجأة مبتسمين دون التعليق على الموقف ، ثم انصرفا مع الدعوات لي بالتوفيق ، وينتهي وقت الاختبار ويغادر الطلاب قاعة الاختبارات دون أن أشعر بما يدور حولي وأنا منهمك في الإجابة ، ويأتي أحد المراقبين لتنبيهي بانقضاء الوقت فرجوته في دقيقتين وكان كريمًا غير أنني طمعت في المزيد فاضطر آسفًا إلى سحب ورقة الإجابة بعد مماطلتي في أكثر من خمس دقائق ، وكنت أتمني لو تتاح لي فرصة أطول لأستمر ، فخرجت من قاعة لجنة الاختبار وكأني كنت في حلبة قتال يغمرني العرق ، وتعلوني حالة من الإرهاق الشديد ، وكان صديقي الحميم « الكيلاني » ينتظرني في خارج القاعة منزعجًا من تأخري على غير العادة ، ومتسائلًا عن سر تأخري فأخبرته بما أصابني ، فرد متهكمًا وكان كثيرًا ما ينزعج من شدة اهتمامي بالدراسة ، بقوله « هذا جزاء من يقرأ كثيرًا » .

فكم كان تصرف شيخنا في هذا الموقف حكيمًا بفضل خبرته وبدافع حرصه على أبنائه ، وما أجمل الدرس الذي يجب أن يتعلمه كل مربٍّ ومعلم ! فرفقًا بأبنائنا حين يكونون في جو امتحان أو قاعة اختبار ، وليت الكثيرين ممن يحوِّلون ـ ومن واقع خبرة في هذا المجال ـ كثيرًا من قاعات الاختبار إلى حلبات أو قاعات للإرهاب والتخويف والتنكيل

بالطلاب ومهما كان مستواهم الدراسي ، وليتهم يتعلمون من حكمة هذا الرجل في موقفي هذا ، فلولا هذا الفضل من الله الذي قيض لي هذا الرجل وبهذا التصرف الأبوي الحكيم لكنت تعرضت لمأزق لم تكن تحمد عقباه ، ولو حدث هذا لكانت مسيرتي تغيرت تمامًا .

● الحلوجي الإنسان .

عندما تتجلى معاني الإنسانية في شخص يصعب عليه أن يتخلى ولو للحظات عن هذه المعاني السامقة ، بل تظل هي المحرك لكل سكناته وحركاته ، هذا ما رأيته رأي العين في حياة شيخنا الجليل ، وفي مواقفه النبيلة التي تسامت فيها معاني الإنسانية وتجلت فيها آفاقها ، ولعل مما يحضرني شخصيًّا ـ وكما وعدت أن أسجل ما حدث معي شخصيًّا وأنا علي يقين بأن في جعبة الآخرين الكثير والكثير ـ أنه في منتصف شهر مايو من ١٩٨٥ تحديدًا ، أبلغ القسم بأن الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة سيحضر حفل تكريم كلية الآداب للخريجين ولطلابها المثاليين والمعيدين الجدد ، ويترتب على ذلك أن يأتي المكرمون ـ الذين كنت واحدًا منهم ـ بالزي الرسمي المناسب لمثل هذه الاحتفاليات ، والذي يتمثل في البذة (أو البذلة) والكرفتة ، وورد الخطاب للقسم ونحن جلوس في غرفة رئيس القسم (وكان شيخنا رئيسًا للقسم في هذا الوقت) ، وبعد اطلاعي على الخطاب علقت بعفوية وصراحة تعكس حالي ، ورددت بكلمة لم ألق لها بالًا ولم أحسب لها حسابًا قائلًا : « ومن ليس لديه بدلة ولا كرفته لا يحق له الحضور إذن! ، وأنا ليس لدي حتى الكرفتة ، ومن ثم فسوف لا أحضر هذا الحفل ! » ، وسمع مقولتي كل الحضور وعلق بعضهم باستنكار هذا المطلب أو باستهجان مقولتي ، ولم يعلق آخرون ، وتجاوزنا الموقف ، وانصرف الحضور ، واستأذنت بالانصراف من شيخنا فإذا به يطلب مني أن أنتظره لأمر مهم إلى حين الانتهاء من بعض الأعمال الخاصة بالقسم .

عدت إليه بعد أن انتهى من أعماله ، وخرجنا سويًا وهو يحادثني في بعض الأمور حتى وصلنا إلى سيارته فطلب مني أن أركب معه ليوصلني إلى مقر إقامتي بالمدينة الجامعية غربي الجامعة في منطقة « بولاق الدكرور» ، فركبت وإذا به ينطلق بسيارته إلى طريق غير طريق سكني فنبهته لكنه علق بقوله « سأوصلك من طريق آخر» فلم أجادله احترامًا وتبجيلًا ، فإذا به يتجاوز كل الطرق المؤدية لمقر سكني ، ويتجه صوب منزله وعندما أبديت تساؤلي رد قائلًا « أنا دعوتك لتناول الغداء معي اليوم » ، فما أصعب هذا الموقف الذي أشعر فيه بالخجل الشديد ، وخصوصًا أنه لم يكن لي شرف معرفة بيته أو زيارته فيه حتى تلك اللحظة ، فحاولت الاعتذار ولكن أنى لي ذلك وقد توقفت سيارته عند باب منزله ، وليس لدي كلمات اعتذار غير التي قلتها من قبل !

ترجلنا من السيارة وهو يصحبني إلى مدخل بيته ، ثم إلى غرفة الضيوف ، ويدعوني للجلوس وقد خيمت على رأسي كل أنواع الخجل والاضطراب ، ويستأذن للحظات غير طويلة يأتي بعدها ليصحبني إلى غرفة الطعام ، وعندها أشار علي بغسل يدي فهممت بذلك ولكن لسوء الحظ كانت ثمة مشكلة في هذا اليوم في وصول المياه إلى البيت ، وإذا بسعادته يستحضر إبريقًا ، وكأني أرى ذلك الإبريق حتى يومنا هذا وهو يعلي شعارًا للقيم الراقية التي تحيط بحياة هذا الرجل ، فماذا يتوقع شاب لم يكد يبلغ عمره نيفًا وعشرين عامًا من أستاذ جليل في هذا الموقف؟! إنها الإنسانية الحقيقية التي تتجلى في إقدام سعادته ليصب الماء على يد هذا الشاب الصغير!

عجبًا ، أيحدث هذا في عالم البشر؟ أقسمت ألا يحدث هذا ، لكنه أصرَّ بشدة ، فلم يكن مني إلا أن أغلظت الأيمان بأنني سأنصرف من البيت ، ولا يتم ذلك تحت أي ظرف ، وعلى مضض نزل على رغبتي ، وانفض الموقف ، وتناولت معه طعام الغداء ، ثم استأذنت بالمغادرة غير مستأنس لحديث ، فأذن لي ، ثم إذا به يقدم لي كيسًا مغلقًا ، ويطلب مني أن أقبله دون نقاش وألا أفتحه إلا في مقر سكني ، فاستجبت احترامًا

ومضيت إلى محل سكني وأنا أفكر في محتوى هذا الكيس ، وبمجرد دخول غرفتي فتحت هذا الكيس لأجد كرفتة من أجمل ما رأيت ! عجبًا لك أيها الرجل ! ألم أقل إن الإنسانية هي ديدنه ورمز حياته ، لقد سمع مني كلمة لم ألق لها بالًا ، ولم يعلق عليها ، بل تفاعل معها بحسه وإنسانيته المعهودة ، فعاتبت نفسي على تفوهي بهذه الكلمة التي أظهرت أني لا أملك كرفتة ، وأنا بالفعل لم أكن أملكها بل ولم يسبق لي أن ارتديتها في حياتي ، فكانت هي الكرفتة الأولى التي ارتديتها من يومها ، وتوجهت لحضور ذلكم الاحتفاء وتراودني نفسي أن أعلن أمام الجميع أن هذه الكرفتة من إهداء هذا الرجل الكريم ، لكني خشيت أن أغضبه أمام الحضور ، فأي إنسانية تلك التي تملكت قلب هذا الرجل ، وأي إنسانية تلك التي تدفعه للعطاء بلا حدود ولا قيود ، وبمنتهى إنكار الذات .

● الخلوجي المعلم .

حقًا من جُبل على الخير لا يمكن أن يفارقه ، ولا تثنيه الظروف الصعبة عن تغيير مسلكه وسعيه لإحقاق الحق والوقوف بجانب من هو في حاجة إليه ، ولعلي أذكر موقفًا آخر من مواقف أستاذنا النبيلة التي تعكس هذا المعنى ، فبعد تعييني معيدًا بالقسم ، لم أكن أملك سكنًا في القاهرة أقيم فيه بالقرب من جامعة القاهرة حتى أتمكن من التوفيق بين مهام العمل بالقسم ومهام البحث ، وكانت الجامعة قد أحسنت صنعًا وخصصت سكنًا للمعيدين بالجامعة كان يعرف بـ « بيت المعيدين » بمنطقة الدقي بالقرب من الجامعة ، وعندما لا يكون المكان كافيًا لاستيعاب جميع معيدي الجامعة كانت تخصَّص لهم شققٌ إضافية بالمدينة الجامعية للطلاب ، وقد طرقت أبواب هذين المرفقين لكن لم تفلح محاولاتي بحجة ازدحامها بالمعيدين بل وأوصدت الأبواب كلها أمامي ، غير أنني كنت على ثقة بأن سر ازدحام هذه الأماكن مرده إشغالها بمن لا يستحق ، فهناك كثيرون من المعيدين والمدرسين المساعدين والمدرسين الجدد كانوا يشغلون أماكن دون أن يستخدموها ولو لمرة واحدة في العام ، إما لقرب مقر أهلهم من الجامعة أو لامتلاكهم

سكنًا في القاهرة ، ولم يكن بحيلتي للظروف المادية غير المواتية تدبير المال الكافي لاستئجار سكن بالقاهرة ، وتيقنت أنه لا حل سوى عرض الأمر على مرجعنا وشيخنا ، فجلست معه في ظهيرة أحد الأيام وشكوت له مشكلة عدم التمكن من الإقامة بالمدينة الجامعية مع أحقيتي في الإقامة بها ، فإذا به وقد تغير لونه وقال هيا معي ، وإذا به يتوجه على الفور بخطى سريعة وواثقة إلى مكتب رئيس الجامعة مباشرة ، ويطرق بابه ويؤذن له بالدخول ، وأنتظر أنا لدى سكرتارية مكتب رئيس الجامعة لنحو ربع ساعة يخرج بعدها هذا الرجل الواثق من نفسه ويخبرني بأن أذهب في الغد لمكتب إدارة المدينة الجامعية وسأجد مكاني محددًا بإذن الله ، فما نمت ليلتها من شدة الفرح ، ولم أصدق أن يكون لي مكان بالمدينة الجامعية القريبة من الجامعة وينزاح من ثم عن كاهلي عذاب التنقل اليومي بين أقاربي المقيمين في القاهرة وضواحيها ، وبت أحلم بأن يكون لي حقًا مقام محدد في هذه المدينة يعينني على القيام بعملي في القسم وبين البحث للماجستير .

وصليت فجر ذلك اليوم وتوجهت قبل طلوع الشمس لأنتظر أمام باب المدينة الجامعية حتى يأتي المسئول عن الإسكان ، وتمر الثواني متثاقلة وأنا أرقب وجه كل من يدلف إلى أبواب المدينة الجامعية علَّه يكون ذلك المسئول ، ثم فتح باب الإدارة بعيد الثامنة صباحًا فأدخل مضطربًا سائلًا عن الموظف المسئول فيدلني عليه الحارس فأتقدم مرتبكًا وأساله عن موقفي وأن رئيس الجامعة وجهني إليك بالأمس ، فإذا به يقلب أوراقًا كانت أمامه ويسألني «هل أنت هشام؟» ، فأجبت بسرعة البرق : نعم ، متناسيًا أن اسمي هاشم وليس هشامًا ، وخوفًا من أن يرجع في كلامه ، فإذا به يقول بلهجة ساخرة تحملتها على مضض وبمثل عامي متداولة كلماته السطحية بين القوم : «ماشي ياعم إللي له ظهر ما ينضرب على بطنه» فقلت له : الحمد لله ، ثم يوجه أحد موظفيه بأن يذهب إلى مبنى «كذا» ويسلمني غرفة في إحدى الشقق التي يسكنها زميلان ، أحدهما في كلية الهندسة والآخر في كلية دار العلوم ، وتسلمت غرفتي وحمدت الله وصليت له

شكرًا ، وقد كانت غرفة مباركة ، عشت فيها جوًّا رائعًا في صحبة جميلة مع ثلة من الزملاء الآخرين من كليات مختلفة ، وكانت تجمعنا ليالٍ رائعة نتسامر فيها عن همومنا ومشكلاتنا حينًا وعن تطلعاتنا ومستقبلنا حينًا آخر ، وكلما شعرت بفضل قرب هذا السكن من الجامعة ، لم يغب عن خاطري أن هذا الفضل ينسب بعد الله تعالى إلى هذا الرجل العظيم. فكم كانت لك أيها الرجل العظيم كل تلك الأفضال ، فجزاك الله خيرًا عما قدمت ، ورزقت بإذنه حياة تعمها الراحة والاطمئنان أبدًا كما سعيت لراحة الآخرين.

● **الحلوجي العالم .**

يقولون في المثل العامي : «من يكبرك يومًا يعرف أكثر منك بعام» ، وهو يدل على أن الأيام عادة ما تكسب الإنسان خبرة في كل أموره ، والناصح من يعي التجربة ، ويتعلم من دروس الحياة ، وعندما بدأت رحلتي في طريق البحث العلمي ، بعد اجتياز السنة التمهيدية للماجستير التي تعلمت منها الكثير من أساتذتنا الأفاضل ، ولعل أكثر ما أذكره أن هذه السنة فتحت أعيننا على جمال البحث العلمي برغم صعوبته ، وكيف أن الإنسان يشعر بقيمة الإنجاز عندما يشعر بأنه قدم لتخصصه جديدًا ، ولمجتمعه وأمته ما يمكن الإفادة منه ، وما يمكن أن يعود عليه بالخير ، إلا أن أمرًا مهمًّا لم ننتبه إليه في مسيرة حياتنا العلمية ـ وخصوصًا في جامعة القاهرة ـ وربما كانت للعقلية الموسوعية لأساتذتنا الأفاضل دور في ترسيخ هذا الأمر الذي أرى أن جانبه السلبي قد يغلب على وجهه الإيجابي ، وهذا الأمر يتمثل في توسعة نقاط البحث في مشروعاتنا البحثية واتخاذ الشمولية منهجًا على حساب التعمق والتدقيق ، وعدم التركيز على نقاط محددة وإشباعها درسًا وبحثًا ، وقد حدث معي هذا الأمر عندما كنت في مرحلة اختيار موضوع لدراسة الماجستير ، فتعددت الموضوعات وتنوعت أمامي ، واستقر الأمر عندي على اختيار دراسة حركة الترجمة في مصر وتحديدًا دراسة ببليومترية للكتب

المترجمة في مصر من جميع جوانبها ، وكان من المنطقي أن يحدد هذا الموضوع تحديدًا زمنيًّا حتى يتمكن الباحث من المعالجة المتعمقة لكل جوانبه ، ولكن بدافع يثيره حماس الشباب والرغبة في المعالجة الشاملة ـ كما تعلمنا ـ رأيت أن تغطي الدراسة حركة الترجمة والكتب المترجمة في مصر خلال القرن العشرين كله ، أي أن تتسع حدود الدراسة لنحو خمسة وثمانين عامًا ، تبدأ من عام ١٩٠٠ حتى ١٩٨٥ (تاريخ التسجيل للدراسة) .

وقد شجعني على هذا التوجه بعض الأساتذة الفضلاء الذين يفضلون هذا التوجه ، وقمت بإعداد خطة البحث بالفعل ، وقبيل عرض خطة الدراسة في سيمنار الدراسات العليا بالقسم بنحو أسبوع ، وفي جلسة مع شيخنا ومناقشته في موضوع دراستي وسؤاله عن رأيه في هذا الاختيار ، إذا به يستحسن الموضوع ويثني على الاختيار لكنه يعلق علي الفترة الزمنية الطويلة التي تقيدت بها الدراسة تعليقًا طريفًا كان له صدى عجيب عليَّ لدرجة دفعتني لإعادة النظر في هذا التحديد تمامًا وتغييره ، فماذا قال شيخنا؟ ووقائع هذا الحوار كانت في نهاية عام ١٩٨٥ ، قال ـ وبهذا النص الذي لا أزال أذكره حروفه : «جميل ، لقد اخترت أن تكون دراستك للكتب المترجمة المنشورة في مصر خلال القرن العشرين ، وإن شاء الله ستنتهي من دراستك في القرن الواحد والعشرين» ، فبقدر ما في التعليق من مزحة ، إلا أن كلماته وقعت عليَّ وقع الوخزة المفاجئة على غافل ، فقلت له : ماذا؟ صحيح أنه يمكن أن أتأخر إلى هذا الحد؟ فناقشني وأقنعني ، وقال : يجب أن تقلل الفترة الزمنية ، بعدها جلست أفكر في الفترة المناسبة للدراسة ، ثم ذهبت إلى أستاذي الجليل الذي شرفت بإشرافه على موضوع هذه الرسالة لدرجة الماجستير وهو الأستاذ الدكتور محمد فتحي عبد الهادي ، وعرضت عليه الأمر فرحب به وساعدني في تحديد الفترة الزمنية ، وحددت بمنتصف القرن بدلًا من بدايته ـ أي بالفترة من ١٩٥٠ ـ ١٩٨٥ ، فكم وفرت علي خبرة هذا الرجل العالم وحكمته من سنين طوال كنت سأقضيها في دراسة هذا الموضوع المتعدد الجوانب ! وكم من جهد وفرته لمزيد من

التحليل والمعالجة لهذا الموضوع ! فجزاك الله خيرًا مرة أخرى ومرات أيها العالم الجليل على نصائحك الغالية وتوجيهاتك السديدة.

● **الحلوجي المربي الكريم .**

لمسة أخرى وليست أخيرة من لمسات التربية ، بل العز والكرم التي تتجسد في شخصية هذا الرجل الكريم وفي كيانه ، لمسة نادرة في زمن شعاره ومحرك مجريات أمور الناس ومصالحهم فيه هو المال أو المادة ، لمسة لا تنم إلا عن نفس نقية رضية ، هي تلك اللمسة الكريمة التي زرعت في نفسي ومكنون قلبي ووجداني حبًّا بعد حب وتقديرًا فوق كل تقدير لهذا الرجل العظيم ، هي تلك التي دارت أحداثها في صيف عام ١٩٨٦ ، حيث قدم المجلس الثقافي البريطاني منحة للقسم تفيد بإمكان منح معيدي القسم رحلة علمية ودورة تدريبية تتراوح مدتها بين ثلاثة إلى أربعة أشهر في قسم علم المكتبات والمعلومات بجامعة لافبرا التكنولوجية بالمملكة المتحدة .

وبعد دورة مكثفة في اللغة الإنجليزية واجتياز اختبار اللغة (ELTS) كنت واحدًا من المرشحين لهذه المنحة ، وكنت سعيدًا بذلك ؛ حيث كانت فرصة ذهبية للتعرف على العالم الخارجي وجمع كل ما يتصل برسالة الماجستير من إنتاج فكري أجنبي ، وأعد كل منا عدته لهذه الرحلة ، ولا شك أنه كان من أهم ما يجب تدبيره كمستلزمات أساسية للرحلة هو مبلغ مالي بالعملة الأجنبية (الجنيه الإسترليني أو الدولار الأمريكي) ، وأعانني المولى الكريم بتدبير مبلغ متواضع قدم لي الوالد الكريم ـ رحمه الله ـ جزءًا منه ، واقترضت الجزء الآخر من بعض الأقارب الميسورين ، وقنعت به ودعوت الله أن يطرح فيه البركة ، وقبل السفر بيوم ذهبت لأستاذي لأودعه في مكتبه ، ولكن يبدو أنني ذهبت لأتعلم درسًا من دروس الكرم والوفاء والإخلاص ، حيث سألني شيخنا عن موعد السفر ، وأخبرني أنه يرغب في توصيلي بسيارته إلى المطار ، فشكرته واعتذرت له مبررًا

بأني تدبرت الأمر مع بعض الزملاء ، فاقتنع تحت إصراري ، واقترب مني وظل يوصيني بآداب السفر ، ومسئولياته وتبعاته إلى غير ذلك من وصية الأب لابنه الذي سيفارقه ، ثم إذا به يخرج من حقيبته خطابًا مغلقًا ويعطينيه ، ويطلب مني ألا أفتحه أو أقرأه إلا في بعد وصولي للجامعة هناك في بريطانيا ، فوعدته بتلبية طلبه وكأني فهمت ـ بسجيتي ـ أنه ربما يكون خطابًا لأحد الأساتذة هناك يوصيه بي خيرًا ، أو طلبًا لإحدى المقالات أو الكتب من هناك ، وودعت أستاذي على موعد بالسفر صباحًا ، لكن نزعات الشيطان ورغبات النفس الأمارة بالسوء تطاردني وتسول لي أن أفتح هذا الخطاب لأعرف ما به ، لكن احترامي لهذا الرجل لا يزحزحه ـ بحمد الله ـ هوى نفس أو ضعف عزيمة .

ووصلنا إلى لندن ومنها إلى لافبرا ، وتسلم كل منا غرفة إقامته بسكن الجامعة ، ولم يكن يشغلني سوى هذا الخطاب المغلق فكان بالفعل هو أول ما بدأت به هناك ، وهنا تأتي المفاجأة بالنسبة لي وفي غربة ليس لك فيها إلا الله ، فماذا بداخل هذا المظروف المغلق ؟ إنه مبلغ من الدولارات ضعف ما دبَّرته ! وقفت مذهولًا ومتسائلًا : هل يوجد حقًّا في عصرنا وفي مجتمعنا رجل بهذه القيم النبيلة؟! هل حقًّا في هذا الوقت الذي ينظر فيه كثيرون ممن نعرفهم وممن لا نعرفهم إلى الجنيه وليس الدولار وكأنه أغلى من بنيه بل من مقلة عينه؟! وكثيرًا ما نعرف من شعارهم في الحياة مقولة «عض قلبي ولا تعض...» ، حقًّا إذا كنت قد تساءلت عن وجود أناس من هذا القبيل الذي تتسامى قيمه الأخلاقية فوق كل القيم المادية ، فبملء فيّ أقول : نعم ، هنالك بين ظهرانينا كثيرون ، وهذا الرجل الكريم هو قدوتهم ، فبارك الله له في رزقه وعمره وعمله.

● **يا صاحب هذه القيم.... هل وفيناك حقك ؟**

هل وفيناك حقك يا شيخنا ؟ سؤال دائمًا ما يراودني كلما تذكرت مآثر هذا الرجل

الكريم ، وعندما أتأمل هذا السؤال لا أملك إلا أن أقول : لا والله ما وفيناك حقك ، بل ما قدرناك حق قدرك ، فكيف لنا أن نوفي بحرًا زاخرًا بهذه القيم الراقية حقه ، ونحن لا نملك شيئًا لاستيفاء هذا الحق بل هذه الحقوق؟ ولا نملك أن نردها كلها أو حتى معشار معشارها؟ ، لكننا حسبنا أننا نملك ـ بفضل الله ، وكما علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم ـ شيئًا نعده عند الله عظيمًا ، إنه الدعاء...الدعاء حاضرًا وبظهر الغيب ، الدعاء سرًّا وجهرًا ، الدعاء من أعماق القلوب ومن رقائق النفوس بأن يسبغ على أستاذنا الكريم ـ الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي ـ من نعمه ما ظهر منها وما بطن ، وأن يلبسه دائمًا ثوب الصحة والعافية ، وأن يبارك له في عمره ، وعمله ، وولده ، وأن يحسن خاتمته في الأمور كلها ، وأن يجعل كل ما قدم وكل ما بذل وكل ما أعطى في ميزان حسناته ، وأن يجزيه عليه وعنا خير الجزاء ، إنه هو نعم المولى ونعم النصير.

وختامًا ليتني كنت شاعرًا لأقول في حقك أستاذي الكريم ما يعبر عن مكنون حبي وتقديري وإعزازي لك ، لكن حسبي هذه المشاعر التي أقتبسها من مشاعر محبين مثلي لأساتذتهم غير أنهم يملكون ناصية الشعر ويرزقون جمال التعبير ، فلك مني وكما قال بعض المحبين لأستاذه وبشيء من التصرف :

كريمُ المزايا في محياهُ طـــلّةٌ ... يهيلُ عليها من محاسنه النُّبْـــلُ

علومه عرفت كأمواجِ لجّـــةٍ ... وتصنيفه للكُتْبِ مُتسِقٌ جَزْلُ

ويُغدِقُ من علمٍ على الناس وابلاً ... فإن لم يصبْهم وابلٌ ناهَم طَلّلُ

تواضعُهُ جمٌّ فليس يسوؤهُ ... إذا عنَّ أمرٌ أنْ يكونَ لهُ سُـــؤْلُ

ترى سعْيَهُ إن كان للناسِ حاجَةٌ ... وليس لهُ جراءَ خدمتِهم جُعْلُ

فيخفِضُ للداني جناحَ مذلّـــةٍ ... ويبذلُ للقاصي وإن عزّهُ البذْلُ

ويحملُ همَّ طلابه بظـــــهرِهِ ... وإن أطّتِ الرجلانِ ما ساءَهُ الحِمْلُ

لذا ترىٰ طلابه من حولِهِ مثلَ خليّةٍ ... تطيرُ بها يعسوبةٌ حفَّها النحْلُ

ويكرمُهُم بالنصحِ من كنزِ وقْتِهِ ... علىٰ أنّ أهلَ العلمِ في وقتِهم بُخْلُ

ويشملُهُم بالحـــبِّ حتىٰ كأنما ... يفيءُ عليهم من جوانبِهِ الظِلُّ

فأسألُ ربي أن يُكحّلَ مُقْلتي ... بمرآهُ والعينانِ زينتُها الكُحْلُ

وأسألهُ مـــولايَ عِزّا لشيخِنا ... يُغيظُ العدا قهرا ويبتهج الخِلُّ

وعذرًا علىٰ تقصير « أبا أشرف » ... فمنك العطاء تعلمناه وليس البخل

ولك مني ومن كل المحبين دعوة تُفتح لها أبواب السماء بلا رد ولا منع .

(فليصمت اللسان ، ولتسكن الجوارح ، ولتنطلق الروح إلى سبع سماواتك تطرق أبوابها في إلحاح ، يمدوها الأمل في أن تفتح لها ولو ثقبًا صغيرًا ينفذ منه فيض من نورك يهديها الصراط المستقيم ، ونفحة من غفرانك تكفي لمحو ذنوبي وذنوب أهل الأرض أجمعين .

لا أمل إلا فيك يارب ، ولا رجاء لي ولغيري إلا أنت . أنت وحدك يا إلهي ، لأنك أنت الذي تفضلت علينا فخلقتنا ، وتفضلت علينا فرزقتنا ، ولم تقابل إساءتنا في حقك إلا بالإحسان إلينا . وهذا ليس بمستغرب منك ، لأنك أنت الله ، ولأننا عبادك وأبناء عبادك ، ولأنك تحب خلقك لأنهم صنعتك ، وتقدِّر ضعفهم لأنك أعلم بهم ، وتفرح بتوبة العصاة منهم ورجوعهم إلى كنفك وحماك كما أبلغنا رسولك المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ..) .

من مقال بعنوان : مناجاة ... واعتذار .

نشر بمجلة « منبر الإسلام » عدد جمادىٰ الآخرة ١٤٢٧ هـ - يوليو ٢٠٠٦ م .

الحلوجي كما عرفته

د. فوزي ميخائيل تادرس*

عرفت الدكتور الحلوجي أول ما عرفته عن طريق إشرافه علىٰ رسالتي للدكتوراه ، ومن خلال تجربتي معه أتيح لي أن أعرفه معرفة وثيقة ، وأن أتبين عظيم شخصيته وسمو صفاته قبل أن أكحل ناظري برؤية وجهه الصبوح ، والذي أستطيع أن أشبهه بوجه طفل عليه قناع نفس رقيقة نقية كالطهر ، رائعة كالشعر ، تكشف نفسَه الصادقة لمن يشاء ولا تكشف له الأشياء ، ينمّ ظاهره عن باطنه ، ويتمثل قلبه في لسانه العفيف ، ولو ألقينا نظرة سريعة إلى حقيقة اسمه : عبد الستار عبد الحق الحلوجي ، لوجدنا أن لكل لفظ من هذه الثلاثية الاسمية دلالات مميزة ، فكل اسم له معنىٰ فريد : عبد الستار « الكثير التغطية علىٰ كل ما يُستحب خفاؤه » والستار من أسماء الله ، وعبد الحق « الذي يعظم الحق ويتبعه » وما أحلىٰ اسم « الحلوجي » وما أشهىٰ حلاوته ، فهذه الثلاثية الاسمية تتجلىٰ فيها ظاهرة التناغم الصوتي ، ومشابهة الحروف للمعنىٰ الغالب ، وملامح ما يسميه النقاد العرب القدماء بـ « المناسبة » .

ولقد خصص ابن قتيبة في « أدب الكاتب » بابًا لشرح أصول أسماء الناس ؛ وعالجها أبو الفتح بن جني في كتاب « المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة » وخصص الأبشيهي في « المستطرف في كل فن مستظرف » بابًا كاملًا لتفسير الأسماء والكُنىٰ ، وحاول ذلك القلقشندي في « صبح الأعشىٰ » وعلاء الدين السكتواري البوسنوي المعروف بشيخ الترب في « محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر » . ومن الدراسات

* مكتبة الكونجرس الأمريكية - واشنطن .

الحديثة حول الأسماء تلك التي قام بها المستشرق الألماني أنو ليتمان حول أسماء البدو والدروز في ديرة حوران ، وكتب أمير بقطر في مجلة الهلال سنة ١٩٣٢ بحثًا عن فلسفة الأسماء ، ونشر إبراهيم اللحام في مجلة « الرسالة الجديدة » في سنة ١٩٥٧ محاولة لدراسة أسماء المصريين عامة .

وعود على بدء معرفتي به ، فقد كنت أسمع عنه ولم أكن أعرفه بعد ، وما كنت أسمعه أخذ يشوقني إلى التعرف إليه ، فخصال شخصيته ومنزلته العلمية في الوسط الأكاديمي كانت تؤهله لأن يكون مثار الاهتمام ، ولقد أثار اهتمامي بهذا الإنسان جوانب شخصيته ، وروافد ثقافته ومساربها المتعددة ، وأعجبني فيه خلقه وسجاياه ، فهي صفات لا يمكن أن يستوفيها الإنسان إلاّ بعد تربية رصينة وبناء قويم ، فهو قد نشأ في بيئة دينية وإسلامية صحيحة المعتقد والسلوك والقيم .

لقد سمعت أن كل من يتعامل ويتفاعل معه سرعان ما يجد نفسه أمام شخصية تشع بالفكر اللامع والبصيرة المستنيرة والرأي السديد والرؤية المستقبلية للأمور ، والحركة الذاتية البناءة ، والمبادرات الوثابة ، والمواقف الشجاعة ، والعلاقات الإنسانية الدافئة المليئة بكل القيم الخيِّرة والحس الأخلاقي العالي ، التي يستهديها في حياته وعمله وعلاقاته مع زملائه وطلابه وأصدقائه ، والحرص الشديد على دواعي الألفة ، والنفور من دواعي الفُرقة .

وما سمعته عنه جعلني أسعى لأن أسجّل لدرجة الدكتوراه تحت إشرافه ، لأغترف من نبع معلوماته وفيض معرفته ما يجعلني أفخر به في رسالتي للدكتوراه . ولقد كان يوم قبوله الإشراف على رسالتي يومًا سعيدًا أحسست فيه أن الدنيا قد عوضتني ما صبرت عليه ، وأكثر من هذا فقد كان ما سمعته عنه يجعلني أتمنى من أعماق قلبي ومن صميم فؤادي أن أنعم بالبقاء بالقرب منه . ومن حسن حظي أن السماء لم تضن عليّ بهذه الأمنية الغالية ، ولم تحرمني من العيش بالقرب منه ، فسعدت بمعرفة الإنسان

الكبير بعلمه ، الكبير بخلقه ، الكبير بمبادئه . ولم يكن الحلوجي كريمًا معي في قبوله الإشراف على رسالتي فحسب ، بل أكثر من هذا عندما عرف أنني ضيف في القاهرة ، تكرَّم بإعطائي مفتاح مكتبه عندما كان وكيلًا لكلية الآداب ، لكي أستكمل كتابة أطروحتي ومراجعة فصولها ، فمكثتُ شهرين كاملين قريبًا منه في مكتبه بكلية الآداب .

في هذه الفترة الوجيزة كنت أرقبه وإن لم يحس بي ، وبأن عينيّ كانتا تتبعانه ، وكانتا مصوبتين نحوه ، تلاحقانه في خطواته ، في رواحه وفي مجيئه ، في غدوه وفي ترحاله . وحقيقة الأمر أن عينيّ كانتا تحرسانه ، وتتمنى أن تفرش رموشهما لكي يخطو عليها بقدميه لأنهما أغلى من أن تسيرا على الأرض ! كنت أسترق السمع لأحس بنبضات قلبه عندما كان يدخل إليه الطلبة الذين يحتاجون إلى مساعدة أو مشورة أو نصيحة ، وكنت أرى الرحمة تجري في حديثه معهم ، عيناه ترحبان بهم في سلام وفي بشاشة . كنت أحس بشرايينه تنبض نحوهم بالعطف ، وبقلبه يخفق بالحنان ويفيض عطفًا يغدق الخير على الجميع بلا استثناء ، وبيده تمتد للبراعيم المتفتحة وتحنو عليها وتمهد لها طريق المستقبل ، كأنما آلى على نفسه أن يمسح دموع الألم من عيون طلابه ، لأنه يريد أن يراها تبتسم دومًا ، وأن يزهر فيها المستقبل . كان مثل الشمعة التي تعطي نورها في صمت ويكفيها أن ترى الطلبة سعداء بنورها . وكنت أرى الإخاء يسيطر على مجريات حديثه معهم ، وحتى في ثورة غضبه مع سكرتيرته عندما يفيض به الكيل في يوم عاصف ، كنت أرى الشفقة في عينيه ، وكانت ثورته ثورة أب نحو ابنته يبغي تعليمها ، ثورة الخوف عليها من كثرة الإهمال والأخطاء ، ثورة من أجل مصلحة العمل ، ثورة فاض بها الكيل فراح يصبها في قالب نصيحته لها من أجل مستقبلها ومن أجل مصلحتها ، ثورة حانية يهدهدها بعطفه ويحنو عليها بحنانه .

كانت هذه الشهور القليلة بساعاتها وأيامها بمثابة اللبنة الأساسية لصداقة خالصة لوجه الله ، ففي الله أحببته ، وفي الله جعلته أخًا لي في مصداقية تخلو من الشوائب ،

ملؤها العطر وعبيرها النور ! ومنذ ذلك الوقت ، وبعد عودتي للمهجر تبادلنا الرسائل وما زلنا نتبادلها ، وحفظ كل منا ملفًا خاصًّا بخطاباتنا المتبادلة ، وأصبحت كثيرة هي اللحظات التي أمسك فيها القلم لكي أكتب له ، وكثرة هي الأوقات التي أجلس فيها معه وأتخيله أمامي ممسكًا بيدي ، يقودني إلى الطريق السليم . وأستشيره في مجريات الأمور الأكاديمية والحياتية . وأصبحت كثيرة هي الساعات التي أسمع فيها صوته وأقرأ خطاباته وألتمس فيها الراحة بعد العناء ، والسعادة بعد الشقاء ، والأمل بعد الإحباط . وأصبحت لي معه ذكريات أتسأنس بهبوب أنسامها رغم المسافة الطويلة بيننا ، كلماته كأنها شعر مجدول بشعاع الأدب الأصيل ، ومطرز بوشاح الأسلوب الناعم الرقيق ، كلمات متضافرة المعاني ، متكاملة الرؤى ، منصهرة الجوهر ، تولد صورتها في لحظات فيملأ صداها رحاب النفس التي تقرأها ، ولذلك أعود لقراءتها مرة ومرة ومرات ، لا أريد أن أشبع منها ، فهو إنسان موهوب بالقدرة البلاغية ، يعرف كيف ينسج خيوطها الذهبية لأن لديه قوة حضور متصاعد ، وعطاء فكري للروح التي تسعى إليه . ولذلك يسعى الطلبة لحضور لجان الرسائل العلمية التي يشارك في مناقشتها للاستماع إلى تعليقاته الأدبية ، ففيها روعة الأسلوب ونصاعة البيان . وفي هذا قال بدفون « الإنسان هو الأسلوب » . فشخصية الكاتب تتضح من خلال صياغته الأسلوبية بما فيها من خصائص ، وأسلوبه أشبه بالبصمة التي تميزه عن غيره ، وذاتية الأديب تتضح من أسلوبه وسمات هذا الأسلوب وطريقة بناء الجملة .

والحلوجي يعتمد في تقاريره الأكاديمية وتعليقاته على الرسائل العلمية على سليقته العربية ، وعلى ذوقه العصري الأدبي المصفى في انتقاء المأنوس من الكلم والتنكب عن التراكيب المعقدة ، ولذا تجيء كلماته في هذه التقارير صالحة لأن يُترنم بها من غير تلحين لما فيها من التنسيق والتنميق الداعيين إلى طرب النفوس لها ، وأنسها بسماعها ، وشدوها باستعادة قراءتها .

أما عن ثقافته الدينية فهي واضحة كل الوضوح في كتاباته واستشهاده بالقرآن الكريم ، وفي الدعوات التي يلجأ بها إلى الله عز وجل ، وفي صياغة ما يكتبه متأثرًا بالأسلوب القرآني . وسمة أخرى من سمات ثقافته الدينية وهي حرصه على تأدية الصلاة في وقتها .

لقد كنت أراه عندما زارني لفترة قصيرة في واشنطن يرفع آيات التكبير لله الخالق العلي ، كنت أحس بأن صوته يتهدج في محراب صلاته وهو يدعو الله ، صوته كان هادئًا رقيقًا ، وكان هذا الصوت يجلجل في قلبي وأنا أسمع دعاءه . كنت فرحًا بأن أرى وجهه المنير وصوته المتهدج بالدعاء للموتى . كنت أرى إشراقة النور حوله وهو يسجد لله سبحانه في إيمان صادق ، وكنت أرى في هذا الصوت لحن الإنسانية المحبة للسلام . كلماته في صلاته كانت تذوب بين شفتيه كأنها لحن يعبر عن براءة الأطفال ، وصورته وهو يسجد لله لا تبرح خيالي ، ووجهه وهو يرفع عينيه في مناجاة المولى القدير كأنه في مهرجان الصوت والضوء والظل واللون والمطر ، تحتفل بولادة الصحو والزهر والثمر والقمر ، كانت هالة وجهه مشرقة تفيض بالإيمان وتحوي كل الرموز والدلالات الإنسانية ، وقد استطاعت هذه الهالة أن تحول منزلي إلى قطعة من السماء فيها ندى الفجر وعطر الربيع ، وبخور الصلاة في محراب الإيمان .

وما زلت أتخيله وهو يناجي ربه بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أما عن شخصيته الحلوة الجذابة فما عرفت قبله رجلًا كان له هذا العدد الوفير من الأصدقاء الشخصيين الذين يفاخرون حتى اليوم بأنهم من أصدقائه وخلانه ومريديه . وهذا يدل على أنه يملك إلى جانب عبقرية التأليف والكتابة والبحث عبقرية أخرى هي عبقرية الشخصية . والشخصية العبقرية ليست هي الشخصية المسيطرة كما يتوهم الناس ، وإنما هي الشخصية السوية المؤثرة التي يتسرب إشعاعها إلى القلب ولا يُعشي العين

ملؤها العطر وعبيرها النور ! ومنذ ذلك الوقت ، وبعد عودتي للمهجر تبادلنا الرسائل وما زلنا نتبادلها ، وحفظ كل منا ملفًا خاصًا بخطاباتنا المتبادلة ، وأصبحت كثيرة هي اللحظات التي أمسك فيها القلم لكي أكتب له ، وكثرة هي الأوقات التي أجلس فيها معه وأتخيله أمامي ممسكًا بيدي ، يقودني إلى الطريق السليم . وأستشيره في مجريات الأمور الأكاديمية والحياتية . وأصبحت كثيرة هي الساعات التي أسمع فيها صوته وأقرأ خطاباته وألتمس فيها الراحة بعد العناء ، والسعادة بعد الشقاء ، والأمل بعد الإحباط . وأصبحت لي معه ذكريات أتسأنس بهبوب أنسامها رغم المسافة الطويلة بيننا ، كلماته كأنها شعر مجدول بشعاع الأدب الأصيل ، ومطرز بوشاح الأسلوب الناعم الرقيق ، كلمات متضافرة المعاني ، متكاملة الرؤى ، منصهرة الجوهر ، تولد صورتها في لحظات فيملأ صداها رحاب النفس التي تقرأها ، ولذلك أعود لقراءتها مرة ومرة ومرات ، لا أريد أن أشبع منها ، فهو إنسان موهوب بالقدرة البلاغية ، يعرف كيف ينسج خيوطها الذهبية لأن لديه قوة حضور متصاعد ، وعطاء فكري للروح التي تسعى إليه . ولذلك يسعى الطلبة لحضور لجان الرسائل العلمية التي يشارك في مناقشتها للاستماع إلى تعليقاته الأدبية ، ففيها روعة الأسلوب ونصاعة البيان . وفي هذا قال بدفون « الإنسان هو الأسلوب » . فشخصية الكاتب تتضح من خلال صياغته الأسلوبية بما فيها من خصائص ، وأسلوبه أشبه بالبصمة التي تميزه عن غيره ، وذاتية الأديب تتضح من أسلوبه وسمات هذا الأسلوب وطريقة بناء الجملة .

والحلوجي يعتمد في تقاريره الأكاديمية وتعليقاته على الرسائل العلمية على سليقته العربية ، وعلى ذوقه العصري الأدبي المصفى في انتقاء المأنوس من الكلم والتنكب عن التراكيب المعقدة ، ولذا تجيء كلماته في هذه التقارير صالحة لأن يُترنم بها من غير تلحين لما فيها من التنسيق والتنميق الداعيين إلى طرب النفوس لها ، وأنسها بسماعها ، وشدوها باستعادة قراءتها .

أما عن ثقافته الدينية فهي واضحة كل الوضوح في كتاباته واستشهاده بالقرآن الكريم ، وفي الدعوات التي يلجأ بها إلى الله عز وجل ، وفي صياغة ما يكتبه متأثرًا بالأسلوب القرآني . وسمة أخرى من سمات ثقافته الدينية وهي حرصه على تأدية الصلاة في وقتها .

لقد كنت أراه عندما زارني لفترة قصيرة في واشنطن يرفع آيات التكبير لله الخالق العلي ، كنت أحس بأن صوته يتهدج في محراب صلاته وهو يدعو الله ، صوته كان هادئًا رقيقًا ، وكان هذا الصوت يجلجل في قلبي وأنا أسمع دعاءه . كنت فرحًا بأن أرى وجهه المنير وصوته المتهدج بالدعاء للموتى . كنت أرى إشراقة النور حوله وهو يسجد لله سبحانه في إيمان صادق ، وكنت أرى في هذا الصوت لحن الإنسانية المحبة للسلام . كلماته في صلاته كانت تذوب بين شفتيه كأنها لحن يعبر عن براءة الأطفال ، وصورته وهو يسجد لله لا تبرح خيالي ، ووجهه وهو يرفع عينيه في مناجاة المولى القدير كأنه في مهرجان الصوت والضوء والظل واللون والمطر ، تحتفل بولادة الصحو والزهر والثمر والقمر ، كانت هالة وجهه مشرقة تفيض بالإيمان وتحوي كل الرموز والدلالات الإنسانية ، وقد استطاعت هذه الهالة أن تحول منزلي إلى قطعة من السماء فيها ندى الفجر وعطر الربيع ، وبخور الصلاة في محراب الإيمان .

وما زلت أتخيله وهو يناجي ربه بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أما عن شخصيته الحلوة الجذابة فما عرفت قبله رجلًا كان له هذا العدد الوفير من الأصدقاء الشخصيين الذين يفاخرون حتى اليوم بأنهم من أصدقائه وخلانه ومريديه . وهذا يدل على أنه يملك إلى جانب عبقرية التأليف والكتابة والبحث عبقرية أخرى هي عبقرية الشخصية . والشخصية العبقرية ليست هي الشخصية المسيطرة كما يتوهم الناس ، وإنما هي الشخصية السوية المؤثرة التي يتسرب إشعاعها إلى القلب ولا يُعشي العين

فتصبح جزءًا خالدًا باقيًا في حياة الآخرين . وفي هذا المجال يحظى الحلوجي بالكثير من حب الناس ، استمع إليه يقول لي في إحدى رسائله « فأنا يا سيدي إنسان بسيط وفقير إلى رحمة الله ، ولكني أزعم أنني أمتلك ثروة كبيرة من حب الناس . وهذا الحب هو الذي يضيء طريقي وييسر أموري ويفتح أمامي الأبواب المغلقة ، ولعلك تتفق معي في أن حب الناس لا يُشترى بمال أو بسلطان ، وأنه نعمة من نعم الله علينا ، ولكنها نعمة لا يشعر بقيمتها إلاّ القليلون » ، فهو قد أحب الناس فمنحهم روحه وأعطاهم الشفافية والصفاء في معاملاته معهم ، في أخذه وفي عطائه .

● **مؤلفاته :**

لقد ألَّف الحلوجي مجموعة من الكتب المهمة في دراسة المخطوطات وعلم المعلومات والمكتبات ستظل باقية على الزمن . وستُضم إلى آثار الخالدين من العلماء والباحثين ، لأنها مؤلفات خصبة ومتعمقة ذات أثر فعَّال في ميدان تخصصها وفي ميدان اللغة العربية وآدابها ، وهو في هذا وذاك الأستاذ الرائد ، والمعلم النافع ، والباحث المجد ، وهو محقق ومؤرخ ، يغوص وراء الحقيقة العلمية ويبحث عنها في سطور المخطوطات ، ولا يثنيه عنها تعب أو مشقة ، والحقيقة العلمية عنده مقدسة ، والتفسير موضوعي لا ترى فيه أثرًا لذاتيته حتى في أشد ما يتصل بوجدانه من أحاسيس وعواطف ، وهو في تحقيق مخطوطاته يتعبد في محراب الآباء والأجداد الذين كتبوا سطورها منشدًا على قيثارة الزمن أعذب لحن في تاريخ التراث العربي الإسلامي .

● **الترجمة :**

وللحلوجي مساهمته القيمة في مجال الترجمة ، ومع الاعتراف بأن الترجمة ليست هي وحدها وسيلة الاتصال بالثقافات المختلفة ، فهو يعرف أن لها مقامًا خاصًّا لأن التأثير بوساطة الكلمة في عالم الفكر هو محور التأثير الثقافي مهما اختلفت درجاته وصفاته ،

فترجم كتاب « Book in the Islamic World : The written word and comuniction it the Middle East » الذي نشرته مكتبة الكونجرس بمناسبة مرور خمسين عامًا على إنشاء قسم الشرق الأوسط بالمكتبة وذلك في عام ١٩٩٤ ، ونُشرت الترجمة في الكويت بعنوان : « الكتاب في العالم الإسلامي : الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في الشرق الأوسط » وهذا الكتاب مجموعة من المحاضرات التي ألقيت في مكتبة الكونجرس في هذه المناسبة . كذلك ترجم مرجعًا مهمًّا هو « World Survey of Islamic Manuscripts » وقد نشرته مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بعنوان المخطوطات الإسلامية في العالم ، في أربعة مجلدات ضخمة .

يضاف إلى ذلك ترجمته لكتاب « Introduction to the History of the Muslim East : A bibliographical Guide» الذي ألفه « Claude Cahen & Jean Sauaget » وقد صدرت الترجمة بعنوان : « مصادر دراسة التاريخ الإسلامي » ونشرها المجلس الأعلى للثقافة بمصر .

● **الإدارة :**

لقد عرف الحلوجي المعنى الصحيح لكلمة الإدارة Adminiastration التي تعني النشاط الموجه نحو توفير التعاون المميز والتنسيق الفعال بين الجهود البشرية المختلفة العاملة ، من أجل تحقيق هدف معين بدرجة عالية من الكفاءة . وأيقن منذ بداية عمله الإداري وقت أن كان رئيسًا لقسم المكتبات والوثائق أن محور العملية الإدارية هو العنصر البشري والكيفية التي يمكن لها أن تحقق التعاون بين الأفراد ، فبذل جهده لكي يوفر أفضل مناخ إنساني ملائم لاستثمار الجهود واستخراج أفضل الطاقات . ويبدو أنه كان متأثرًا بقراءة كتاب ماكس فيبر (١٨٦٤ – ١٩٢٠) «The theory of social and economic organization» فراعى في عمله الإداري القواعد الخمسة المعروفة

للإدارة الناجحة وهي : التخطيط ، والتنظيم ، والتوظيف ، والتوجيه ، والضبط .

ولقد أتيح لي أن أتابع خطوات إدارته عندما كان وكيلًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة – فرع بني سويف ، فرأيت فيه تلك القيادة المسئولة والملتزمة التي نمت وتطورت لسنوات طويلة على أسس ثابتة من الفكر والتنظيم والخصوصية والقدرة على اتخاذ القرار ، والحفاظ على التقاليد الجامعية ، وأخيرًا إنسانيته الرائعة في التعامل مع مجتمع الكلية بل والجامعة ، والتي اتبع فيها حسن اختيار معاونيه واستشارتهم في كثير من الأمور .

● **المشاركة في المؤتمرات العلمية ، ومحاضراته في المكتبات والمنظمات العالمية :**

لقد شارك الحلوجي بكل خبراته في مؤتمرات المخطوطات العربية والإسلامية ، وشارك بثقافته الرفيعة وقيمه الأصيلة في العديد من الأنشطة العلمية العالمية داخل المنطقة العربية والأوروبية ، وحاضر وشارك في حلقات وندوات ومؤتمرات علمية ومراكز بحث مكتبية في الولايات المتحدة والدول العربية .

ولقد كان مهتمًا بمسيرة المكتبات في العالم الثالث ، وبارتباط هذه المسيرة بأزمات مجتمعاتها وما يصاحبها من صراعات بين الحنين إلى الماضي والتطلع إلى المستقبل ، وكان مشغولًا بالبحث عن الهوية والذاتية في تراث الماضي وأضابيره دون إغفالٍ لظروف الحاضر ومعطياته .

● **التعاون الدولي :**

وفي إطار التعاون الدولي عرف الحلوجي أن قنوات الفكر والخبرة ليست قنوات ناقلة للأفكار فحسب ، بل نوافذ على ما يدور في الساحات المكتبية ، ولذلك رحَّب بالمشاركة في [ذاكرة العالم The World Memory] وهو برنامج تشرف عليه اليونسكو ويهدف إلى

حفظ ونشر الوثائق الهامة ومجموعات الكتب النادرة في مكتبات العالم وجعل هذه النوادر يملكها العالم أجمع ، وتكون متاحة بدون عوائق عن طريق الإنترنت . ودعته مكتبة الكونجرس للمشاركة في مشروعها العالمي مع دار الكتب المصرية ومشروع البوابة العالمية ، وهو مشروع يتيح للعالم أن يقرأ على الإنترنت بدون مقابل المخطوطات العربية المتعلقة بميادين الطب والصيدلة والفلك والهندسة والرياضة وغيرها من المخطوطات العلمية التي تحتفظ بها مكتبة الكونجرس مع شريكتها دار الكتب المصرية .

● **الحلوجي الأديب التائه :**

لقد كتب الحلوجي كتابًا متميزًا عن علي محمود طه ، الشاعر الذي عُرف برقّته ورومانسيته ، وكان شعره مليئًا بالكئوس والدنان وخدود الغيد الحسان ، وقدود الغواني المختالة والعيون القتالة ! وكان أحد القلائل الذين أنصفوا هذا الشاعر ، فبرغم بلاغة شعره ورقة شعوره الذي سكبه في كل حرف من حروف أبيات شعره ؛ إلاّ أن الشاعر لم يظفر بما يستحقه من الدراسة والتحليل ، فلم يتجاوز عدد الذين قدموا دراسات مستقلة عنه أصابع اليد الواحدة برغم ما أتحفنا به من شعر رومانسي حالم ، مما جعل محمد عبد الوهاب يختار من شعره بعض أغانيه ليرددها المحب الواجد والعابد الزاهد ، ومنها أغنية « الجندول » التي مطلعها :

أين من عينيَّ هاتيك المجال ... يا عروس البحر يا حلم الخيال

أين عشاقك سُمَّار الليالي ... أين من واديك يا مهد الجمال

موكب الغيد وعيد الكرنفال ... وسرى الجندول في عرض القنال

وأغنية « ليالي كليوباترا » التي تقول :

كليوبترا !! أي حلم من لياليكِ الحسان

طاف بالموج فغنى ، وتغنى الشاطـــئان

وهفا كل فـؤاد ، وشـــــــدا كل لسان

هذه فاتنة الدنيا وحســـــــناء الزمان

وحقيقة الأمر أن صلة الحلوجي بالأدب العربي صلة دراسة أكاديمية وصلة طبيعية بشرية ، أما صلة الدراسة الأدبية فتتمثل في أنه تخرَّج في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفيها درس عيون الأدب العربي ومصادره المهمة ، وكتاباته تشهد له بمعرفة واسعة باللغة العربية وآدابها وبقدرة كاملة في التعرف على أمهات الكتب الأدبية . لقد تتلمذ على يد طه حسين ونهل من معين بلاغته وطريقة شرحه وتحليله للشعر العربي ، ولم تكن دراسة الحلوجي هي التي وجهته هذا الاتجاه الأدبي الفريد فحسب ، وإنما أضيف إليها طبيعة بشرية ومحسوس ذاتي جُبل عليه ، وتكوين مزاجي خاص طبع به ، واستعداد فطري أتاح له أن يجسد هذا كله ويصبه في كتاب عن واحد من أعظم الشعراء الرومانسيين الذين تأثروا بمدرسة المهجر وكان امتدادًا لها ، وهو الملاح التائه على محمود طه .

لقد بدأ الحلوجي كتابه عن علي محمود طه بفصل عنوانه « على أرباض المنصورة » ، واستطاع بذلك أن ينقل إلينا الجو الذي أراده علي محمود طه بأطيافه ودلالاته ، فقدم صورة للمنصورة عروس النيل وكأنها زهرة الدنيا وجنة المأوى ، مكانها في الوجود مكان « الخال » على صفحات الخدود ، وجعلنا في قراءتنا للكتاب نستمع إلى خرير الماء الدافق ونرى مناظر الطبيعة الخلابة .

وبعد ذلك تحدث عن مولد الشاعر وأنه نشأ في بيئة فقيرة فلم تساعده ظروف الحياة على أن يكمل تعليمه الثانوي ، فالتحق بمدرسة الفنون والصنايع ، وقست عليه الحياة ، وكُتب عليه الحرمان ، ولكنه شبَّ عن الطوق ورفض القيود ولم يخضع للأصفاد .

وكانت سنوات عمره الأولى تحمل روحًا دائمة الشكوى ، تضج من خيبة الرجاء ، ولكنه برغم هذه الإحباطات وقهر العيش كان يتطلع إلى الأفق البعيد ، وفي نفسه رهبة الخوف من المستقبل المجهول ، وقد انعكس ذلك على شعره الذي تحول إلى أنّات متصلة مفعمة بالدموع « ولم تلبث البقية الباقية من هذه النفس أن تحطمت على صخرة الحياة حين عاش الشاعر تجربة حب فاشل عصف به وأطار لُبَّه وأحرق قلبه بلظاه ، وفي قصيدة [انتظار] يحدثنا الشاعر عن النهاية الأليمة لهذا الحب البائس اليائس ، فيقول مخاطبًا صاحبته :

ولقد أتت بعدُ الليالي وانقضت ... وكأننا في الدهر لم نتزاور

بدّلت من عطفٍ لديك ورقة ... بحنين مهجور وقسوة هاجر

وكأنني ما كنت إلفك في الصبا ... يومًا ، ولا كنت الحياة مشاطري

ونسيت أنت وما نسيت وإنني ... لأعيش بالذكرى لعلك ذاكـري» (١)

ومرة أخرى نسمع خفقات القلب الجريح حين يعود ذات يوم إلى أماكن لقائه بصاحبته :

صخرة كانت الملاذ لقـــلبين ... حبيبين في الشباب النضـــير

جمعتنا بها الـحوادث في ظل ... هوى طاهـر وعـــــيش قرير

كم وقفنا العشيّ نرقب مـنها ... مغرب الشمس وانبثاق البدور

وجلسنا في ظلـــها نتمـــلى ... صفحة الماء في الضحى والبكور

ويفسر لنا الحلوجي في تحليل نفسي تجربة الحب الأولى التي مرّ بها الشاعر ويمرّ بها

(١) مع الملاح التائه . ص ٢٣ .

كل فرد منا متخذًا ما ألمّ بعلي محمود طه كمثال لتجربة الإنسان ، فيقول « وأكبر الظن أن الحب الذي يحدثنا عنه الملاح التائه هو حبه الأول ، فنحن نرىٰ فيه إخلاصًا وصدقًا قلما نظفر بهما في الدواوين اللاحقة .

ومن ثم كان إخفاقه فيه صدمة قاسية هزت كيانه كله ، وصبغت نفسه وشعره بلون الحزن والسواد . فنحن نراه في هذه الفترة من حياته مكتئبًا يائسًا يفرغ كآبته ويأسه في شعر مظلم حزين . وإذا كان من طبيعة الأيام أنها تصفي التجربة العاطفية التي يمر بها الإنسان وتخمد النار المتأججة في أعماقه ، فإنها مع ذلك لا تمحو ما يتخلف عنها من رواسب الألم ، وهي رواسب تثور بصاحبها من حين إلىٰ حين فتنغص عليه عيشه وتكدر صفو حياته » (١) .

وفي ثورة يأس الشاعر ، ومع كثرة الآلام التي تصيبه بما يمكن أن نسميه (ظلام الروح » كما يقول الحلوجي ، إلا أننا نرىٰ الشاعر آخر الأمر ضارعًا يبتهل إلىٰ الله لا يشك أبدًا في رحمته الواسعة :

يا رحمة الله اهبطي وانظري ... ما حصد الموت ودق العدم

أيستحق الناس هذا العقاب ... أم حانت الساعة من نقمتك

ما احتملوا يارب هذا العذاب ... إلا رجاء الغـوث من رحمتك(٢)

وذكر الحلوجي أن علي محمود طه كان يضع الفن بجانب الفكر والروحانية ، بينما يضع الجمال والحب بجانب الغريزة الجنسية ، وفي هذا يصف ليلة صاخبة من ليالي الملاح التائه فيقول « فالليلة حمراء ، والعرض دامي ، والطريق حرام ، والسحابة كأنها شبح الخطيئة ، والأنوار كأنها سرج الغواية » . تعبيرات كلها تهيئ السامع والقارئ لجوّ

(١) مع الملاح التائه . ص ٢٤ .

(٢) مع الملاح التائه . ص ٢٦ .

القصيدة الملبد بالإثم والعار ، وما هي إلاّ لحظات حتىٰ ينتقل بنا الشاعر إلىٰ بيت القصيد فيقول :

كم ليلة حمراء خلت ظلالها ... يد مارد سلّت خضيب حسام

وكأن كل سـحابة في أنفها ... شبح الخطيئة فوق عرض دامي

وكأن أنجمها نوافـذ حانة ... شرب الدخان بها بريق الجام

وكأن أنور المـدينة تحـتها ... سرج الغواية في طريق حـرام

ألفيتني جسدًا تسارق روحه ... قُبل عواصف ضُرِّجت بأثام

أجتاحها وأضج من لذعاتها ... فكأنها بدمي نقيع سهام

وعلىٰ يدي مسمورة مخمـورة ... ألتذّ كالمقرور حرّ حرام

ويتحول الشاعر وتتغير أفكاره عن المرأة ، ويمر بفترة فاصلة بين حياتين عاشهما الشاعر « وكانت فترة تحول خطير في نظرته للمرأة ، بل في نظرته للحياة كلها ، فبعد أن كان يرىٰ المرأة في (الملاح التائه) ملاكًا طاهرًا يعيش في أعلىٰ عليين ، أصبح يراها في دواوينه اللاحقة أفعىٰ خالدة وشيطانًا آثمًا يعيش في أسفل سافلين ، وبعد أن كان يطالب الشعراء في (الملاح) بأن يملأوا الأرض فنًّا وليس فتونًا ، وبألا يثيروا في الأرض هوىٰ ولا مجونًا :

أملأوها فنًّا ... وليس فتـونـا

لا تثيروا بها ... الهوىٰ والمجونـا

أمسىٰ في (لياليه) وقد نكص علىٰ عقبيه وأغرق في الهوىٰ والمجون ، حيث يقول :

ولو استطعت جعلت مسبحتي ... ثمر النهود ، وجلّ في السبح

ومن خلال التريض في كتاب الحلوجي عن « الملاح التائه » نجده يقول إن الشاعر كان مفتنًّا بتمجيد الطبيعة بشكل لم يسبقه أحد « ولطالما وقف الشاعر أمام البحر يسائله ويناجيه ويبثه خواطره وأشجانه ، كهذا الذي نراه حينما وقف ذات مساء عاصف على برزخ الرمال الممتد بين شاطئ البحر الأبيض وبحيرة المنزلة على مشارف أكواخ (أشتوم الجميل) ، مطرق الرأس شارد الفكر سابحًا في عوالم الذكريات منشدًا في حزن :

يا طول ما نغمت للصخر أنّاتي وشد ما رجّعت للموج آهاتي(١)

من قصيدة الأمسية الحزينة – الملاح التائه .

ويعود الحلوجي فيذكر لنا أن الشاعر كان يصف « الأمواج تداعب الشاطئ ، ولكنه لا يعرضها علينا عرضًا سطحيًّا سريعًا ، وإنما هو يستقصيها ويحللها ويستوقفنا عند كل جزئية من جزئياتها حتى لنكاد نرى الأمواج وهي تداعب الرمال وتعانقها ، وحتى لنكاد نسمع تلك الأشواق التي تبثها الأمواج رمال الشاطئ بعد الرحلة الطويلة .

وما نحسب أبرع الرسامين بقادر على أن يعطينا صورة أرق ولا أجمل من هذه الصورة المتحركة التي نراها رأي العين في قول الشاعر :

ولعٌ بتخطيط الرمال كأنه عرّافة تستطلع الأنباء

ومصوِّرٌ لبق الخيال يصوغ من فن الجمال السحر والإغراء

نسق الشواطئ زينة وأدقها صورًا بريّا صفحتيه تراءى(٢)

ونستطيع أن نميز بين مرحلتين في حياة الشاعر ، الأولى كان يعيش فيها حياة الصخب الذي يتضوع بأريج الورد والعطر ، ويترنم على الأفنان مع النسيم الرطب يصف جمال

(١) مع الملاح التائه . ص ١٣ .

(١) مع الملاح التائه . ص ١٦ .

الشاعر وفي يديه كأس صافية تتلألأ تحت شعاع القمر بين أطناب ليل دافئ يروي القلوب الضاوية ، والشراب المذاب بين شفتي الحبيب وخده يدعو إلى قبلة ، وعينه تهفو بغمزة ، وثغره يذوب في رشفة ، وشعره يدعو إلى شمة ، ويده تشتاق إلى ضمة ، وكان فيها يتفنن في وصف العيون والثغور واسترسال الشعور .

أما المرحلة الثانية فقد تبدل فيها حاله وأصبحت روحه تعتلج بالشعور الوطني وتختلج بالفخر القومي وتستنفر الهمم الواهية والنفوس الخانعة لمذلة الاستعمار ، وتكشف للقلوب الواهية عن معاني الرجولة ، فنراه ينظم في القضية الفلسطينية شعرًا كأنه أقراط اللؤلؤ في آذان الدنيا « وبقيت فكرة الأمة العربية الواحدة التي تشترك في الآمال والآلام ، وتجمعها اللغة والدين والتاريخ والمصير ، هذه الفكرة لا تلبث أن نراها تملأ جوانب نفسه وتفرض نفسها عليه :

أرض العروبة لا تخوم ولا صوى ما مصر غير الشام أو بغداد

وأخوة بالمسجدين وجيرة من آل طارق أو بني عباد»(١)

وفي مواجهة نكبة الأمة العربية كلها : « لم يكن يسيرًا أن يهرب الملاح إلى زورقه حيث يسلم نفسه للنوم الهادئ العميق حتى تنتهي المعركة ، وإنما كان من الطبيعي أن نراه يجري ويلهث وينذر ويتوعد ، ويقذف من فمه حممًا من جحيم بعد أن كان يسكب قطرًا من شهد ، ولم يخلف علي محمود طه ظننا به ، فسرعان ما اعتمد قيثاره وراح يتنقل من ربوع الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه .

فهو تارة على ضفاف النيل يسترجع ماضي مصر العريق ، ويأسى لما صارت إليه أحوالها على أيامه ، ويستنفر همم أبنائها لإعادة المجد التليد ويقول :

(١) مع الملاح التائه . ص ٤٨ .

فيـالك مصر ما لجلال أمـس ... علته غيرة وطوته حُجب

وأُبهم فهو رجع صدىٰ وطيف ... بعيد ليس يستجلبه قرب

ذوت ريـا ملامـحه وحالـت ... مناقبه فمن أذىٰ وسلب[1]

لقد كان علي محمود طه أحد الذين أعطوا الشعر العربي رونقًا وتجديدًا كما سبقه من قبل شوقي وحافظ ومطران ، ونبغ علي محمود طه وكان شعره رصينًا فياضًا بالألوان المحبوبة والثورات النفسية ، ولكن لم يتم رسالته لأنه مات في عنفوان شبابه « وما زالت موجات الأثير تحمل إلينا كلمات الملاح التائه بين الحين والحين رقيقة تتماوج في ظلال « الجندول » تارة ، وتحلق في عوالم كليوبترا تارة أخرىٰ ، ومازال صوته يطرق أسماعنا صاخبًا ثائرًا يكاد يشتعل وطنية وحماسة في مثل « نداء العزاء » الذي يقول :

أخي جاوز الظالمون المدىٰ ... فحق الجهاد وحـق الفدا

وليسوا بغير صليل السيو ... ف يجيبون صوتًا لنا أو ندا »[2]

ويصف الحلوجي نهاية الشاعر وقد غرب نجمه ، وظل شعره نغمًا شرودًا سجين الليالي يتلألأ بالأحلام ، مثل مقطوعة غنائية كُتب لها أن يبقىٰ صداها علىٰ مر الأجيال « ويعود علي محمود طه إلىٰ الشاطئ الذي بدأ منه رحلته الهائمة ، يعود محمولًا علىٰ الأعناق ليكفَّن في شراعه وليدفن في زورقه » وهناك ، علىٰ ضفاف النيل بالمنصورة ، توسَّد الملاح ثراه ، وبقيت القيثارة الحزينة ترجِّع همسًا رفيقًا يقول : هاهنا توارت جثة الملاح .. هاهنا رسا الزورق ، هاهنا طاب للملاح المقام .. هاهنا وجد الملاح الشاطئ

(١) مع الملاح التائه . ص ٤٧ .

(٢) مع الملاح التائه . ص ١١٥ .

الذي قضىٰ حياته تائهًا عنه .. هاهنا .. خاتمة المطاف »[1] .

وبعد .. هكذا عرفت الحلوجي ، وكما عرفته أستاذًا لي ، وعلمًا شامخًا من أعلام التراث العربي والإسلامي ، يعيش هموم المخطوطات وشئونها وشجونها ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، لا بعقله المتقد وفكره الزاخر فحسب ، بل بكل نبضات قلبه حتىٰ غدا رهينًا لها ، لا تبارحه لحظة ، فقد رفع علم المخطوطات إلىٰ مستوىٰ الرسالة والالتزام القومي بقضيتها ، وأصبح لهذا العلم كيانه في عالم الدراسات العربية والإسلامية . كذلك عرفته أديبًا تائهًا .

(علىٰ مدىٰ التاريخ كله كان للكلمة المكتوبة سحرها الذي لا ينتهي . ومن أجل هذا احتضنتها المعابد الوثنية والأديرة المسيحية والمساجد الإسلامية واتخذتها وسيلة لنشر المبادئ والأفكار العقائدية ، ولم تجد الدول الحديثة عنها بديلًا لنشر مبادئها السياسية والاجتماعية ... وعلىٰ مدىٰ قرون من الزمان عديدة لم يكن أمام الإنسانية من وسائل الثقافة والتسلية غير الكتب ، ومن أجل هذا كانت وسيلة تثقيف وترفيه معًا . وحينما ظهر الراديو والتليفزيون والسينما في العصر الحديث كأوعية للفكر وقنوات للاتصال ، لم تفقد الكلمة المكتوبة سحرها وتأثيرها ، لأن هذه الأجهزة جميعها تستقي مادتها التي تقدمها للسامعين والمشاهدين من الكلمة المكتوبة) .

من مقدمة كتاب « لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات » .

(١) مع الملاح التائه . ص ٦٨ .

رسالة لمن لا يعرفه

د. عماد عيسى صالح*

« إنني على قناعة بأننا إذا أردنا أن نتقدم ، فلابد أن يكون كل جيل أفضل من سابقه » عبد الستار الحلوجي

كثيرًا ما نسمع عن أزمة الجيل التي فسر البعض أسبابها في سياق غياب القدوة والمثل. لقد تاهت تلك القدوة في زحام المشاغل العلمية والحياتية ؛ فتراجع دورها في تقويم جيل جديد أسَّس فلسفته على التسرع وحب الذات وعدم احترام القيم والأعراف .

كان لا بد من تلك الاستهلالية لبيان الحالة التي وصل إليها جيل من الباحثين نتيجة لمحدودية العلاقة بينهم وبين أساتذتهم الذين يمثلون الجيل الثاني والثالث لمدارس علمية بارزة واضحة الملامح والمعالم ، تلك الملامح التي أخذت تبهت شيئًا فشيئًا تحت وطأة الانشغال من جانب ، والتساهل في العلم الذي قد يصل إلى حد الانفلات من جانب آخر ، وهو ما دفع الكثيرين للسعي وراء درجة علمية ليس إلا. ولطالما استطعنا ونحن في بداية حياتنا العلمية أن نحدد ونصنف الباحثين وفقًا لمدارسهم ، ليس فقط من الناحية العلمية وإنما على مستوى الأخلاق والمعاملة كذلك. وإنني لأعد نفسي من المحظوظين لأني لحقت برموز تلك المدارس وتتلمذت على أيديهم ، وحاولت أن أقطف من بساتينهم علمًا وخلقًا.

ولقد كانت وما زالت مدرسة الدكتور الحلوجي هي أولى المدارس التي تتلمذتُ فيها

* مدرس المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة حلوان .

سواء في سنوات الدراسة الجامعية الأولى أو الدراسات العليا. وفي رسالتي هذه محاولة لبيان نقاط لمستُها ومواقف عشتُها في هذه المدرسة ، ومحطات مررتُ عليها ، وهي قليل من كثير ، فأردتُ أن أبيِّنها وأبيِّن تأثيرها لعلها تكون شهادة حقٍّ لهذا الأستاذ الجليل ، وتوجيهًا لكل من يريد القدوة والمثل ، فهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي الذي عرفته :

- **الأمانة العلمية :**

لن أنسى أبدًا المسودة الأولى لرسالة الماجستير التي استلمتُها من الدكتور الحلوجي مخضبة بتعليق تكرر كثيرًا في الهوامش ، وهو «**هل هذا كلامك أم هو اقتباس من أحد المصادر**»؟ ، على الرغم من أني قمت بتوثيق كل ما نقلتُه عن المصادر في الهوامش. وعندما سألته مستفسرًا عما داخله من شك في أمانتي العلمية آنذاك ، أجاب بما معناه أن هذا للتذكير والتأكيد على أهمية احترام حق الآخرين ، لأن أهم ما في العلم أمانته.

- **احترام الذات :**

من المعروف أن الدكتور الحلوجي مقلٌّ إلى حد ما في كتاباته وإنتاجه العلمي ، وهو الأمر الذي عزمت أن أسأله عنه يومًا ما ، وحينما واتتني الفرصة سألته فأجاب : « **إما أن أكتب نصًّا محترمًا يُقرأ ، وإلا فلا**». وبصراحة – قد يستغربها هو نفسه حينما يقرأ تلك الكلمات – لم أقتنع بهذا الرد آنذاك ، إلا أن القدَر أراد أن يؤكد تلك الفلسفة حينما فاز الدكتور الحلوجي بجائزة الملك فيصل العالمية عن كتابه «المخطوط العربي » ، فقلت في نفسي يكفي المرء فخرًا أن يحصل على جائزة بمثل تلك القيمة عن عمل واحد ، أفضل من أن ينشر مئات الأعمال التي لا قيمة لها ولا إضافة.

● **الديمقراطية :**

حينما طلبت من الدكتور الحلوجي أن يتفضل بالإشراف عليَّ في الماجستير كاد يعتذر بحجة أن الموضوع من الموضوعات التقنية الحديثة وأنه لن يفيدني كثيرًا ، فتدخل الدكتور مصطفىٰ حسام الدين وأقنعه بأن المنهجية هي الأساس بغض النظر عن موضوع الرسالة ، فوافق حينها بشرط أن يوافق الدكتور مصطفىٰ علىٰ مشاركته في الإشراف ، وقد كان. وعند مراجعة الدكتور الحلوجي للنسخة النهائية طلب مني الحضور لمنزله لمناقشتي في بعض ما ورد بالرسالة ، وقد كنت متخوفًا من هذا اللقاء لمعرفتي بدقته الشديدة في القراءة ؛ إلا أن ما حدث في تلك المقابلة فاق كل تصوراتي ، إذ كان كلما ناقشني مستفسرًا عن بعض الأمور التقنية يشير إليَّ بما معناه : «**إذا كنتَ مقتنعًا بها ولديك المقدرة علىٰ الدفاع عنها أثناء المناقشة العلنية ، فدعها كما هي**» ، حتىٰ وإن لم يقتنع هو ذاته بجدواها! تلك هي ديمقراطية البحث العلمي ، وهكذا يُربَّىٰ الباحث علىٰ تحمل نتيجة أفكاره وجهده دون وصاية أو فرض للرأي ، طالما أن ذلك لا يخلُّ بأسس البحث ومنهجيته .

● **الدقة :**

كان لي شرف العمل مع الدكتور الحلوجي في عدد من المشروعات ، منها مشروع كتاب « المخطوطات الإسلامية في العالم » الذي شرُفتُ بإعداد كشافاته ، ولن أنسىٰ حين انتهيتُ من العمل وسلمته إياه لمراجعته ، واتصلت بعدها به لمعرفة رأيه ، فصُعقت من رده حين أشار لي هاتفيًا بـ « **ما هذا الذي فعلته؟** » ولم أنم تلك الليلة حتىٰ قابلته في اليوم التالي ، ولما قرأ في وجهي علامات القلق سألني : «**ماذا بك؟**» ، فاعتذرت له عن العمل الذي لم يرقَ للمستوىٰ المطلوب ، فقال مبتسمًا : « **إنه جيد بنسبة ٩٩٪** » ، وحينها تنفست الصعداء وقلت : « **وأنا لم أنم أمس من أجل هذا الواحد بالمائة؟!** » هنا قال كلمة ما زلتُ أضعها أمامي في كل عمل أقوم به : « **القلم يُخطئ.. أنت لا** ». فتذكرتُ حينها

تعليق أحد العاملين بالمكتب المكلَّف بكتابة هذا العمل : « **أستاذك لا يترك أي خطأ حتىٰ المسافة التي تسبق علامة الترقيم لا يتجاهلها** ».

● **الالتزام بمسئولية الإشراف :**

جملة يعرفها كل من حضر مناقشة علنية للرسائل التي أشرف عليها الدكتور الحلوجي ، هي : « **لو كان في الرسالة مزايا أو حسنات فمرجعها إلىٰ توفيق الله للباحث ، وإن كان فيها مثالب أو هنَّات فإني أتحملها وحدي**» تلك المقولة التي تعكس فكرًا أصيلًا وتفهُّمًا واضحًا لدور الإشراف ، ليس فقط في التوجيه والتدقيق والمراجعة ، بل وفي تحمُّل مسئولية الوصول بالعمل إلىٰ أقصىٰ درجات الاكتمال ، واعترافًا بأنه مهما بلغت مقدرة الباحث وقدراته إلا أنه في النهاية يحتاج للخبرة والمقدرة علىٰ حل المشكلات التي قد تواجهه أثناء بحثه ، والتي اعتاد الأساتذة علىٰ مواجهتها وحلها ؛ ومن هنا تأتي المسئولية والالتزام وتحمُّل العواقب.

ولا يتعجب قارئ هذه السطور ، بل عليه فقط أن يتذكر أو أن يسأل بعض الباحثين عن العلاقة بينهم وبين مشرفيهم ، وما إذا كانت تلك العلاقة مبنية علىٰ أدوار ومسئوليات واضحة ، ومن يتحمل المسئولية عن تدني مستوىٰ الباحثين والبحث العلمي؟ ولمن نوجه ذلك الاتهام؟

● **الوصايا الثلاث :**

في نهاية مناقشة الماجستير أوصاني الدكتور الحلوجي بثلاث وصايا أحسب أننا جميعًا في حاجة إلىٰ أن نضعها نصب أعيننا مهما بلغت درجاتنا العلمية :

أولها : « أن أستمر بهذا الحماس في البحث العلمي ، وألا تشغلني عنه شواغل الحياة وهمومها ، وألا ألتفت إلىٰ أي هجوم أتعرض له من أعداء النجاح وأرباب الفشل.

الثاني : ألا أفصل بين العلم والخُلق ، فعلم بلا خلق جسم بلا روح ، والعلم الذي لا يدعمه الخلق يدمر صاحبه قبل أن يدمر غيره.

الثالث : أن أسعىٰ من الآن للسيطرة علىٰ اللغة التي أكتب بها ، لأن اللغة وسيلة اتصال وتفاهم بين الناس ، والأُمة التي تفرط في لغتها كالإنسان الذي يفرط في شرفه.»

وفي نهاية هذه الرسالة يبقىٰ موقف يبرز ملمحًا مهمًّا من ملامح هذه المدرسة ، إذ حينما طلبت من أستاذنا أن يستمر في الإشراف علىٰ رسالتي للدكتوراه اعتذر بشدة متعللًا بأنني ينبغي أن أحتك بمدرسة أخرىٰ ومشرف آخر ، فهو من وجهة نظره قد أعطاني كل ما لديه. ورغم ذلك فقد انتظرته عدة شهور آملًا أن يغير رأيه ، لكنه أصر. وبالفعل انتقلت إلىٰ مدرسة أخرىٰ لعَلم من أعلام التخصص هو الدكتور محمد فتحي عبد الهادي.

وبعدها بدأت مرحلة جديدة من مراحل التعامل مع مدرسة الحلوجي ، لأعايش جانبًا لمستُه في مواقف عدة ، وهو الحلوجي الإنسان والأب ، ذلك الجانب الذي كنت أنا وغيري نركن إليه في حالة اليأس الشديد والحزن ، فيغمرنا بالعطف والحكمة ، ويستمع إلىٰ الآهات والصرخات بحيادية تامة وقلب كبير ، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من اللقاءات الشهرية التي كان يدعونا إليها.

● **أخيرًا وليس آخرًا ..**

تحيةً وتقديرًا وعرفانًا بالجميل إلىٰ أستاذ جليل وعَلَم من أعلام التخصص ، مهما كتبنا وروينا لن نفيه حقه ، ولن نبلغ بكلماتنا –مهما كانت – مكانته في القلوب ، ليس قلبي وحدي.. فأنا أتحدث بلسان كل من أحبوه لشخصه وذاته.

أدعو الله له بالصحة والعافية.. وأن يجزيه الله عنا خيرًا.

بين ضفتين

أ. إيناس عباس توفيق خضر*

لم تَزلْ الأقلامُ تُعانِدُ كلَّ من يُمسكُ بها ليكتُبَ عمَّن يحبّ..

ولم تَزلْ الكلماتُ عاجِزةً عن تَوصيفِ مشاعرَ لا يمكنُ أن تُوصَّف..

ولم أزَلْ رغمَ كلِّ ذلك أَجدُ في نَفسِي الجُرأةَ لكَي أكتُب..

فَسَامحني إنْ قصَّرتُ .

وأُدركُ تمامًا أنَّني سأفعَل..!

* * * *

كتبتُ إليك ذات مرة أستاذي أقول إنه ربما كان من اليسير عليك وأنت من أنت أن تجد لك تلاميذ يعشقون وجودك في حيواتهم ويسعدون بارتياد مدنك ، لكن من العسير علىٰ مثلي أن تجد لها أستاذًا بحجم بهائك . ولم تكن كلمة من ذلك إلا محاولةً لتسجيل شيءٍ – وإن كان ضئيلًا – من حقيقة ، يبدو إنكارها أو اتهام قائل مثلها بالمبالغة ظلمًا فادحًا أو نوعًا من قصور الفهم وضحالة الإحساس .

ولست أجد في نفسي –في هذا المقام – رغبة في اجترار ذكريات كثيرة وعزيزة لا تعني سوىٰ من عاشوها أو كانوا طرفًا في أحداثها وشهودًا عليها ، وماذا سيفيد قارئ هذي الكلمات إن عرف أو لم يعرف منذ متىٰ بدأت رحلتي مع الود والمحبة والأبوة النادرة والأستاذية الفذة ، وماذا كان عبر سنوات عشر أو أقل قليلًا من مواقفَ وأحداثٍ

* مدرس مساعد بقسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

وطُرف وحكايات.

لكن ربما يعنيهم شيئًا ما أن يعرفوا بعضًا مما تعلمتُه في مدرستك الفريدة ، أو يطلعوا على أنموذج راقٍ لما يجب أن يكون عليه الإنسان إن أراد أن يكون إنسانًا ، فما أعسر ذلك في هذا الزمن ، وما أحوج كل امرئ إلى وميض من أمل.. بارقة تسعفه إن ضاقت عليه الدنيا وجثمت بثقلها القاسي على أنفاسه! يبصرها فيتبدد بعضٌ من ظلامه ، ويتذكرها فيحمد الله.

وقد وجدتُ أن تحقيق ذلك ربما كان أجدى وأعمق أثرًا لو تمَّ من خلال أعمالك ومؤلَّفاتك ، تلك المؤلَّفات التي يعد كلٌّ منها علامة وعلمًا في موضوعه ومجاله ، ويحمل بعضها إشارات وأدلة على ذلك الوجه الآخر.. وجه الإنسان الممتلئ إنسانيةً ألِقة! وكم أرجو أن أفلح هونًا ما في تحقيق جزء يسير مما طمحتُ إليه أنا ، واستحققتَه أنت.

● أولًا : الإهداءات

ليس من قبيل المبالغة أن نقول بأن كتابة الإهداء فن ، بل لعله من أكثرها صعوبة واستعصاء على الراغبين ، ربما لأنه يتكئ أساسًا على دعامتين كلتاهما أهم من الأخرى وأبعد منالًا عن كثيرين ، الأولى حسٌّ أدبي ومقدرة لغوية عالية ، أما الثانية فصدق المشاعر وحيويتها وطزاجتها. وفي ظل انتشار ملفت لظاهرة إهداء الكتب والمؤلفات على اختلاف أنواعها ، ومع هذا الزخم المفرط في الإهداءات الذي يكاد أن يجرفنا ؛ تظل العين تفتش دومًا عن تلك الكلمات التي تعانق الإحساس وتتوطن القلب ، وهو الأمر الذي لم يعد يسيرًا بحال.

فما أكثر العبارات المعلَّبة المحفوظة التي يستدعيها الكثيرون في مثل تلك الحالات كي يودعوها الصفحاتِ الأولى من مؤلَّفاتهم ، وكأن الأمر أضحى مجرد عادة ، شيء هو إلى طقوس النشر ومعايير الإخراج الماديِّ للمطبوعات أقرب. لذا يبدو الوقوع على ذلك

النوع الصادق الرقيق من الإهداءات حدثًا سارًّا يتوجب الاحتفاء به وبصاحبه على حدٍّ سواء.

ومن الجميل أن أستاذي الدكتور الحلوجيّ كان من السابقين إلى تناول هذه الظاهرة ، ظاهرة الإهداء في الكتب العربية ، في مقاله الممتع الضافي «**تأملات في إهداءات الكتب العربية**» الذي نشرته مجلة عالم الكتب في منتصف ثمانينيات القرن الفائت ، وفيه تناول ملامح الظاهرة وألقى الضوء على بعض خصائصها من خلال عرضه لمجموعة من الإهداءات التي تزين مقدمات الكتب العربية. والطريف أنه أهدى هذا المقال ذاته إلى الدكتور محمد أمين البنهاوي الذي وصفه بأنه أول من طرق هذا الموضوع باللغة العربية.

واستمرارًا لذلك المسلسل الممتع حقَّ أن نلقي وميضًا من الضوء على انعكاسات تلك الظاهرة في كتب أستاذنا ومؤلفاته ، محاولين استشفاف بعضٍ ولو يسير من معالمها لديه، إذ يبدو أن تناوله لهذا الجانب لم يكن اعتباطيًّا أو عابرًا بحال ، بل لعله يعبر عن اهتمام وشغف بالغَين ، وأتذكر في هذا المقام مرات كثيرة تعرض فيها أستاذي لهذا الأمر خلال أحاديثه ولقاءاته ومحاضراته.

ودعونا إذن نخطو خطوة أولى على هذا السبيل بالتقليب والتصفح ، ولنبدأ بكتابه المركَّز فائق الإمتاع « **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات** »[1] ذلك المؤلَّف الذي تناول تاريخ الكتاب وخزائنه منذ نشأته مرورًا بعصور وأزمنة شتى بصورة تتسم بالتركيز الوافي في آنٍ معًا ، وقد صدَّر المؤلف طبعته الثانية بإهداء رقيق إلى والده :

إليه..

إلى النبع الدافق والبحر الزاخر بالحب والعطف والحنان..

(١) لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. – ط٢. – القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٩

إلى القلب الكبير الذي وسعني صغيرًا وكبيرًا..

إلى الصورة الكريمة التي تحتفظ بشبابها في القلب ، وتحتفظ للقلب بشبابه..

إلى أكبر حب عرفته في حياتي ، وأصفى نبع ارتويت منه في طفولتي وشبابي..

إلى من علَّمني حب الناس ، وحب الخير للناس..

إليه..

إليه في شبابه وشيخوخته ، في صحته ومرضه ، في رخائه وشدته..

إلى أبي

أهدي هذا الكتاب ، وفاءً وعرفانًا ، وإجلالًا وتقديرًا ، وتعبيرًا عن بعض ما يحمله له قلبي الصغير من حب كبير.

هذه كلمات قليلة العدد كبيرة المعنى والأثر ، كلماتٍ تُشعرك عند قراءتها بأنك ترى صاحبها ، بل لعلك استطعت أن ترسم له لوحة : شيخ رقيق.. مهيبة طلعته بقدر بهائها ، تنساب عيناه بنظرة تجمع إلى جوار القوة والعمق عطفًا ومحبة وحنانًا ، تقرأ في تجاعيد وجهه حيواتٍ وعوالمَ ضجَّت بالمواقف والحكايات والتجارب والخبرات ، يعانقك بإقباله ويأسرك بصفائه ويدهشك بحكمته .. رجل تحبه دون أن تراه ، وتدرك دون جهد لِمَ يحمل له ولَدُه كل تلك المشاعر وذلك الفيض من الود.

ولنتأمل أيضًا تلك اللغة البسيطة في عمقها ، العميقة في بساطتها ، لغة أدبية تضمنت أداءً بلاغيًّا متميزًا ، لكن أكثر الصور عذوبة ما قاله عن صورة أبيه بأنها « تحتفظ بشبابها في القلب وتحتفظ للقلب بشبابه » ، فهو تركيب آسر اعتمد على التناغم بين لفظتي الشباب والقلب ، ليصوغ صورة فنية اشتملت على أكثر من تشبيه واستعارة ، مع قدر هائل من الإكبار والصدق والمحبة .

ويبدو أن هذه الكلمات كُتبت في فترة مرضٍ عبرت بذلك الأب الجميل ، ويؤكد على ذلك أن الطبعة الأولى من الكتاب ذاته خلت من الإهداء ، فضلًا عن سياق الإهداء نفسه «في صحته ومرضه» ، بجانب ما ذكره المؤلِّف صراحة في إهداء آخر سيرد الحديث عنه ، ولعل ذلك السبب قد أثَّر في نفس الابن واستنفر مشاعره ، فحرص أن يكون هذا الإهداء بمثابة رسالة خالدة وشهادة واجبة يوجهها عبر الزمان والمكان إلى المقصود بها أولًا ، وإلى كل قارئ وأب وابن وإنسان ثانيًا وثالثًا ورابعًا وأخيرًا.

وقد حظي كتابه الممتع « مدخل لدراسة المراجع »[1] بإهداء رقيق هو الآخر ، حمل مذاقًا خاصًّا على مستوى العبارات والألفاظ ، بحيث بدت متعانقة متمازجة رقراقة على بساطتها :

إلى كل النفوس السمحة الطيبة التي لا تحمل للناس إلا الخير ولا تضمر لهم غير المودَّة

إلى كل القلوب النقية الطاهرة التي فتحت لي أبوابها ، وغمرتني بعطفها وحنانها ، وأفاضت عليَّ من نبع محبتها

إلى كل الذين أحبهم ويحبونني ، وأشعر بأنني بهم أغنى الناس

إليهم جميعًا.. أساتذة وآباء ، وأصدقاء وزملاء ، وتلاميذ وأبناء

أهدي هذا الكتاب .

وربما بدا هذا الإهداء مختلفًا قليلًا عن نظرائه ، فقد انتقل فيه الكاتب من التخصيص إلى التعميم ولم يقتصر على شخوص بعينها ، حيث خاطب الأساتذة والزملاء والتلاميذ باعتبار الصلة العملية والعلمية ، والآباء والأصدقاء والأبناء باعتبار الصلة الإنسانية . بل إنه توجه به لكل من عرفهم ممن يحملون قلوبًا نقية ونفوسًا صافية ، ممن بادلوه الحب

(١) مدخل لدراسة المراجع. - ط٢ ؛ مزيدة ومنقحة. - الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣

بالحب والمودة بأحسن منها ، كأنما قصد ألا يغفل أحدًا من المستحقين لهذا الخطاب والجديرين به .

إهداء آخر تضمنه كتابه الفريد « **قراءة في أوراق جامعية** »[١] الذي نُشر سنة ١٩٨٤ ، أما وجه تفرده فهو موضوعه المثير الذي يقوم على عرض وتحليل الأخطاء التي يقترفها طلاب الجامعة في أوراق إجابات امتحاناتهم! وقد وُجِّه هذا الإهداء إلى بعضٍ من أهم مستحقيه : الزوجة والأبناء ، رفقاء رحلة العمر وثماره الأغلى :

إلى رفيقة دربي وأم أولادي وربَّة بيتي

وإلى الزهور التي تفتحت في صحراء حياتي

والشموع التي أضاءت جوانب نفسي

إلى زوجتي وأبنائي...

أهدي هذه الدراسة التي كتبتها وأنا عنهم بعيد بالجسد ، قريب بالقلب والفكر والروح.

ويبدو أن هذا الكتاب قد أُنجز في فترة اغتراب أو سفر ، وهي من الفترات التي تتركز فيها المشاعر وتُعتَّق ، فتبحث عن وسيلة لتفوح وتنتشر ، ولا يكون أجمل ولا أرق من إهداء يعبر الأمكنة ويتجاوز الأزمنة.

أما رابع الإهداءات فقد فاز به كتاب « **المخطوطات والتراث العربي** »[٢] المنشور عام ٢٠٠١م ، وقد قدَّمه المؤلف إلى زميلين عزيزَين وصديقَين مقرَّبين وهبا قسطًا وافرًا من حياتهما للمخطوطات دراسة وبحثًا وتحقيقًا ونشرًا ، فاجتمع بهما أستاذي على هذه الأمر ،

(١) قراءة في أوراق جامعية. – الرياض : دار العلوم ، ١٩٨٤

(٢) المخطوطات والتراث العربي. – القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠١

وعلى الود والأخوة والمحبة الخالصة من قبل :

إلى روحين كريمين لعالمين جليلين وصديقين عزيزين..

اجتمعا على حب المخطوطات والاشتغال بها دراسةً وتحقيقًا..

وجمعهما معًا مكتب واحد في معهد المخطوطات العربية لسنوات طوال..

ثم تفرقت بهما السبل وبقي بينهما الود والحب والتواصل والاحترام..

كلاهما كان يتمتع بدماثة الخلق وغزارة العلم وخفة الظل وتواضع العلماء..

وكلاهما كانت له قدم راسخة في تراثنا العربي ، وكان حجة في علم المخطوطات..

إلى الراحلين العزيزين ..

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحلو .

والأستاذ الدكتور محمود الطناحي .

أهدي هذا الكتاب ، تقديرًا لعظيم عطائهما ، ووفاءً ببعض حقهما عليّ.

من هذه الأسطر القليلة تخرج بكنز من المعلومات لا يُلجئك إلى محاولات الفهم والاستقصاء ، فهما كما يبدو صديقان للمُهدي ، متخصصان في تحقيق ودراسة المخطوطات ، عملا متجاورين بمعهد المخطوطات العربية ردحًا من الزمن ، يتمتعان بقدر عزيز من الخلق الجميل والعلم الضافي ، أراد الله تعالى ألا يقرآ هذا الإهداء لأنهما كانا قد رحلا جسدين ، بينما مكثت روحاهما لتتلقيا هاتيك الكلمات النابضة بالحب والإجلال والاعتراف بالفضل .

وهذا النوع من الإهداءات يهيج في النفس بعض الخواطر الحزينة ، فتتمنى لو كان المُهدَى إليه على قيد الحياة لتمتلئ جوانحه رضاء وحبورًا ، ولا تملك إلا أن تدعو له

بالرحمة ، وترجو أن يكون بعضٌ من هذه المشاعر المكنونة قد تسرب إلى نفسه في حياته ليدرك عمقها وصدقها ، وتأملُ أن تُدرك أحبابك جميعًا فتعبِّر لهم عن ثنائك وحبك وإخلاصك قبل الرحيل .

وتبقى جوهرة الإهداءات والدرة الأغلى التي زيَّنت صفحات ذلك الكتاب البديع «**دراسات في الكتب والمكتبات**»[1] ، ولا أقول إنه أروع إهداء قرأته لأستاذي ، بل أزعم – دون مبالغة – أنه الأروع فيما قرأت من إهداءات أبدًا ، والحديث عن هذا الإهداء بالذات مرهق ومعجز حقًّا ، إذ من أعسر الأمور أن تتكلم عن شيء تحبه إلى هذه الدرجة ، فأنت مطالب حينها بالعرض والتحليل والتفسير والتدليل ، وكيف يدلِّل المرء على ما لا يمكن أن يُقاس؟ وكيف يُوزن الصدق والألم والوفاء والحب؟ كيف يُقنن المحسوس؟

حين تقرأه سيدهشك هذا الكم من الصور والتعبيرات والتراكيب ، ما بين تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وتقديم وتأخير ، حتى لتحتار في اختيار أكثرها جمالًا ورونقًا . هو إهداء يجمع بين الصور الجزئية والكلية في تناغم حقيقي ، فكل جملة صورة ، وكل فقرة صورة ، والإهداء كله صورة بديعة تأخذك معها لتتنقل عبر مواضع وأوقات شتى ، فكأنك تبصر وتسمع وتحس كلَّ تفصيلة من تفاصيل تلك اللوحة الإنسانية الرقيقة :

إليك ..

عندما بدأت رحلتك مع المرض أهديت إليك كتابي «لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات» حبًّا وإجلالًا ، وهأنذا أهدي إليك اليوم هذا الكتاب بعد رحيلك من عالم الفناء إلى عالم البقاء وفاءً وبرًّا .

ولقد وجَّهت إليك الخطاب يومها بضمير الغائب ، ولكنني أوجهه إليك اليوم بضمير

(١) دراسات في الكتب والمكتبات. – ط١. – جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٨

المخاطَب ، لأن الجسر الذي عبرتَه بين عالم الحياة وعالم الموت قد جعل حضورك في نفسي أقوى وأدْوَم .

ومع كل شروق شمس ، ومع كل سجدة في صلاة ، بل مع كل نَفَس يتردد بين جوانحي ، سترتفع إلى عرش الله دعواتي لك بالرحمة والمغفرة والرضوان . دعوات لن تنقطع إلا بانقطاع الحياة .

وهناك .. عند ملتقى البحر والبحيرة . هناك .. حيث تتعانق أمواج البحر المتوسط القادمة من بعيد ، مع أمواج بحيرة المنزلة القادمة من شواطئ الدقهلية ودمياط حيث مراتع طفولتك وصباك . هناك .. يرقد الرفات الطاهر ، يلفُّه جلال الموت ، وتحتضنه الأرض الطيبة التي أحبها حب العاشقين ، وترفرف حوله أرواح المحبين وأشواقهم .

أي أبي ..

لقد كان مصابي فيك فادحًا ، ولقد كان أكبر عزاء لي يوم رحلتَ عن هذه الحياة أن أرى مصيبتي ومصابي في عيون المئات بل الألوف من المشيِّعين والمعزِّين الذين عرفوك فأحبوك ، وفُجعوا برحيلك كما فُجعت .

ماذا أقول؟ لا أقول إلا ما يرضي الله . « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون »

أما أنت يا أبي ، يا حبي الكبير ، ففي القلب حيث كنت وأكثر مما كنت ، وسأظل أعيش مع ذكرياتي معك منذ بداية الوعي إلى آخر لقاء ، وهي ذكريات عزيزة وغالية ، تموج بالحركة والحياة ، وتتتابع حلقاتها مع قطار العمر حتى تركتني في محطة الوصول لأستكمل نصيبي من الأجل ، ولألحق بك في يوم لعله يكون قريبًا .

وسأظل أبكيك حتى نلتقي هناك ، في الدار الآخرة ، حيث تتنزل رحمات الله ، ويلتقي المحبون في دار الكرامة والنعيم .

ابنك الحزين إلى يوم يلقاك

يا إلهي ...! كم مرة قرأتُ فيها هذي الكلمات؟ كم مرة ضبطتُ دموعي وقد سالت لتغرق الصفحات؟ كم مرة أحسستُ بتلك القبضة تعتصر قلبي؟ كم مرة ارتجفتُ؟ كم مرة قرأتُها على آخرين أو أقرأتُها إياهم فأحدثت فيهم الأثر نفسه؟ وبِمَ يُفسَّر كل ذلك؟ أعتقد أن الجواب سيكون يسيرًا على كل من يطالع تلك القطعة الأصيلة النادرة .

ومن خلال الاستعراض السابق لتلك الباقة يمكن أن نستشفَّ أمرين :

الأول : قلة عدد الكتب والمقالات المهداة ، فهي لا تتجاوز الخمسة أو الستة من مجموع ما كَتَب ، وربما كان مرجع ذلك اهتمام المؤلف بأن يقترن الإهداء بمناسبة ملحة تستدعيه ، أو شعور صادق يمليه ويوجب كتابته ، وهو الأمر الذي يؤكده تباعد تواريخ نشر تلك الأعمال .

الثاني : تنوُّع المُهدَى إليهم بين الأب والزوجة والأبناء والأصدقاء أمر ذو دلالة ، يبدو فيه إعلاء لقيم إنسانية توشك على الانقراض ، وقد كان المؤلف موفَّقًا ومتوازنًا جدًّا في رأيي ، وبدا لي أن كل إهداءٍ من تلك رمزٌ لفئة بعينها كان لها أعمق الأثر في حياة المُهدي . فضلًا عن ذلك الإهداء العام الذي خاطب من خلاله جميع من عرفهم وأحبهم دون شخصنة أو تحديد .

وإذن ، فلم يكن ذلك إلا مرورًا سريعًا على جانب شديد الأهمية من جوانب شخصية أستاذي الإنسانية الفريدة ، فإهداءاته قطعة من ذاته وجزء من معالمه ، ويمكن للمرء من خلالها أن يلمح شيئًا مما يميز هذا الرجل : وفاء وإخلاص ، وتقدير واعتراف بالفضل والجميل ، وأدب جمٌّ وتواضع حقّ . وهو قليل من كثير يمكن معرفته عنه بالقرب والمصاحبة .

ثانيًا : الريـــادة

الريادة كلمة نرددها كثيرًا ونسمعها أكثر ، وهي مرادفة لمفردات أخرى كالأولوية

والسبق ، وتطلق للتعبير عن مفهوم المبادرة أو المبادأة إلى أمر لم يُسبق إليه ، ومنها يخرج كثير من أسماء الفاعلين كالروَّاد والأولين والسابقين وغير ذلك . وللريادة أسس ، فهي ليست قاصرة على السبق إلى الأمر فقط ، بل يجب أن تتمتع المبادرة وصاحبها بشيء من النضج والثقل والعمق ، وإلا فمن الجائز جدًّا أن يعلن كل إنسان نفسه رائدًا لو أراد .

والسبق العلمي من أرقى وأهم أشكال السبق عامة ، وحين يجتمع في إنسان ما علم حقٌّ وريادة حقَّة تميَّز واختلف ولفت إليه الأنظار والأفهام . ومعرفة الروَّاد تكون من خلال أعمالهم وإنجازاتهم لا من خلال ما يحدِّثون به عن أنفسهم ، إذ تصبح تلك الأعمال بمثابة أدلة دامغة على تمتعهم بتلك الصفة وإن أنكر منكر .

وأستاذي واحدٌ ممن نستطيع بضميرٍ مستريحٍ أن نطلق عليهم « روَّادًا » ، ويَعرف ذلك أي متخصص في حقل المكتبات والمخطوطات وعلومها . ولم يقتصر سبقه على مجال تخصصه ، بل لقد امتد إلى مجالات أخرى متميزة بدورها ، ولعل قراءه وتلاميذه ومحبيه يذكرون كتابه «**قراءة في أوراق جامعية**»[1] الذي تناول فيه بالحصر والتصنيف والتحليل أخطاء وخطايا طلاب الجامعة في أوراق الإجابات ، إذ كان يحرص على تجميع نماذجَ من تلك الأخطاء عبر رحلته مع التدريس والتصحيح ، وحين تكوَّن لديه قدرٌ وافٍ منها أعدَّ هذا الكتاب المتفرد المهم .

ولم يكتفِ فقط بالجمع والحصر ، بل قام بتصنيف تلك الأخطاء إلى لغوي وإملائي ونحوي وأسلوبي وموضوعي ، وعرضها في شكل جداول ، وخرج منها بنتائج ومؤشرات مهمة ، ومساهمةً منه في القضاء على تلك الظاهرة المؤسفة أو تقليصها قدَّم باقة قيمة من التوصيات والمقترحات لو أُخذ ببعضها لتحسَّن الحال ولو قليلًا . ويعد هذا الكتاب من الكتب السابقة حقًّا إلى تناول هذا الموضوع الحيويّ ، كما أنه يدلل على

(١) قراءة في أوراق جامعية. – الرياض : دار العلوم ، ١٩٨٤

اهتمام كبير من قِبل المؤلِّف بالجانب التربوي ، وهو اهتمام ليس بمُستغرَب على من دَرَس التربية وقضى عمره في حقل التدريس .

وفي مجال المكتبات وعلومها نلمح أكثر من سبق ومبادرة ، نبدأها بتلك المقالة التي نشرتها مجلة « الدارة » في عددها الصادر في أكتوبر ١٩٧٦ تحت عنوان «**نشأة علم الببليوجرافيا عند المسلمين**»(١) ، هذه المقالة صغيرة المقدار كبيرة القدر ، احتوت على سبق علميٍّ كبير ، هُدمت عن طريقه مسلَّمة مفادها أن كتاب «الفهرست» لابن النديم المؤلَّف في أواخر القرن الهجري الرابع هو أول جهد ببليوجرافيٍّ عربيٍّ إسلاميٍّ يرد إلينا ذكره ، حيث استخرج من قلب «الفهرست» نفسه ومن مصادر تراثية أخرى أعمالًا ببليوجرافية تم إنجازها قبل ذلك التاريخ بما يقارب قرنين من الزمان .

أما مقالتاه «**المستشرقون والعمل الببليوجرافي**»(٢) و «**جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي**»(٣) فقد سبقتا إلى التعريف بإسهام المستشرقين في حقل الضبط الببليوجرافي للمؤلَّفات العربية وتكشيف النصوص الإسلامية ، وألقتا الضوء على نماذج من تلك الأعمال متناولةً إياها بالعرض والتحليل .

(١) نشأة علم الببليوجرافيا عند المسلمين. - «**الدارة**». - س٢ ، ع٣ - ٤ (شوال ١٣٩٦ هـ / أكتوبر١٩٧٦م). - ص ص١٧٦ - ١٨٣

(٢) المستشرقون والعمل الببليوجرافي. - «**مكتبة الإدارة**». - س٣ ، ع٣ (المحرم ١٣٩٥ هـ / مارس ١٩٧٥م). - ص ص ١ - ١٠

(٣) جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي. - « **مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض** » . - ع٦ (١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م). - ص ص ٧٢٣ - ٧٤٩

وقد سبقت الإشارة إلى مقالته «**تأملات في إهداءات الكتب العربية**»(١) ، التي كانت أحد الأعمال السابقة إلى تناول ظاهرة إهداء الكتب العربية ، حيث قام فيها بعرضٍ لنماذجَ من تلك الإهداءات ، وحرص على أن تتنوع بين إهداءات لكتب متخصصة في الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية والإنسانية وأخرى في العلوم البحتة والتطبيقية ، واهتم إلى جانب العرض بالتحليل ومحاولة التفسير ، وأخيرًا أثار مجموعة من التساؤلات المهمة وحاول الإجابة عن بعضها . وهي مقالة مفيدة وممتعة حقًّا بجانب أسبقيتها في تناول هذا الموضوع .

أما ريادته في حقل المخطوطات والتراث العربي فلا جدال حولها ، فهو واحد من المؤصلين لهذا العلم ، وعَلَم من أعلامه الثقات دون مبالغة ، إذ كان ممن سبقوا إلى الدراسة الفاحصة المدققة الموسعة المتعمقة للكتاب المخطوط من كافة جوانبه ، تأريخًا وصناعةً وفهرسةً وتصنيفًا ونشرًا وتحقيقًا وحفظًا وصيانةً وترميمًا وتقييمًا ، وتشهد على ذلك عشرات الكتب والمقالات والبحوث المتميزة ، يأتي على رأسها مؤلَّفه الفذ «**المخطوط العربي**»(٢) الذي اكتسى بالصبغة العالمية بعدما صار أحد أهم الأسباب التي سوَّغت مَنْحه جائزة الملك فيصل العالمية .

والحق أن مؤلَّفات أستاذي جميعها تتمتع بقدر وافرٍ من الأصالة والتميز ، حتى الموضوعات التي طرقها خلفًا وعقِبًا لآخرين ، أكسبها بعمق التناول ودقته وأمانته صبغة التفرد والسبق ، واستخرج من العاديِّ المألوفِ المتعارفِ عليه الجديدَ المختلفَ

(١) تأملات في إهداءات الكتب العربية. - «**عالم الكتب**». - مج٧ ، ع٣ (المحرم ١٤٠٧ هـ / سبتمبر ١٩٨٦م). - ص ص ٢٨٤ - ٢٩٨

(٢) المخطوط العربي. - ط١. - الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٧٨ / ط٢. - جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٩ / ط٣. - القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٣

المدهش . وهي الحقيقة التي يؤكدها كل من قرأ له أو اطَّلع على شيء من أعماله .

* * *

كانت هذه محاولةً هزيلةً للإبحارِ بين شاطئَيْن كلاهما أكثرُ ثراءً وبهاءً من الآخر ، بزورقٍ صغيرٍ مُتهالك ، سائقُهُ قليلُ الخبرةِ والحيلة ، لكنَّه يحملُ حبًّا بقدرِ الأمل ، وأملًا بقدرِ الحب ، فلعلَّ الله قد أعانه ، وعسَاه أفلحَ فيما إليه سَعى .

(خوفي منك شديد يارب . وكيف لا أخاف وأنت تحذرنا من شدة عذابك حيث تقول في محكم كتابك : « نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم » ، وتقول أيضًا : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » .

كيف لا أخاف وأنا أرى كَفَّتيْ الميزان منصوبتين ، إحداهما فيها الرحمة والمغفرة والأخرى فيها العقاب والعذاب ؟ ولكنني أشعر بأن كفَّةَ الرحمة والمغفرة ترجح الأخرى بكثير . ربما لأن الآيات تقدمها على العقاب والعذاب ، وربما لأنني أستبشر بقول الحق سبحانه : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرًا عليمًا » ، وربما لأنني أجد باب الرحمة يُفتح بلا مواربة في آيات أخرى كثيرة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » ، « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

إنني أشعر أن هذا الفضاء العريض يزدحم بحبال تنزل من السماء ليجد كل مسيء حبلًا يتعلق به ، ويظل يرتقي صعُدًا إلى السماوات العُلَى فيتلقاه رب العزة مبتهجًا بعودته ، مقدِّرًا ضعفه ، ويتقبله القبول الحسن الذي يليق به) .

من مقال بعنوان : مناجاة ... واعتذار

نشر بمجلة « منبر الإسلام » عدد جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ - يوليو ٢٠٠٦ م .

شذرات إبداعية من مؤلفات الحلوجي الفكرية

أ. سعيد ضامن الجومَاني*

إنَّ توارث معلوماتٍ ردحًا من الزمن على أنها مُسَلَّمات ، إضافة إلى الركون لكتاباتِ ونظرياتِ علماء مشاهير عملةٌ ذات وجهين ؛ فهي من ناحية - إذا ما كانت صحيحة - تُجنِّب الباحثين الجدد مغبة التنقيب في أصداف انتُزعت لآلئها ونُظمت في مكانها ؛ فتحثهم بذلك على الغوص نحو أعماق أبعد خلف جديد غامض ، ومن ناحية ثانية إذا ما أُخذت دون تبصر تُسدل على أعينهم غشاوة تنأى بهم عن الحقيقة ، وتغريهم بتشييد صرحهم على أساس هشٍّ ليكون كزرع في أرض محجرة .

وكلما امتد الزمن بنظرية خاطئة يصبح من الصعب التخلص منها والانقلاب عليها ، وعملية التمرد على المألوف العلمي مهمة جريئة و خطيرة ، تكمن خطورتها في مخالفة عرفٍ اصطلح عليه كوكبة من العلماء ، إضافة إلى أن نسفها يحتاج إلى إعادة بناء في ضوء جملة من البراهين والحجج الدامغة ، وهذا كله بحاجة إلى عقلية اصطفائية ، وملاحظة نقدية ، وبديهة متوقدة ، وهمة عالية تكون خير معين في رحلة التصبؤ هذه.

وفي علم المكتبات والمعلومات عاشت معلومة مفادها : أن ابن النديم هو الأب الشرعي لعلم الببليوجرافيا العربي ، وكتابه **الفهرست** هو أول عمل ببليوجرافي في اللغة العربية ؛ فكانت هذه المعلومة ضخمة بحجم كلمة (أب) ، وتواترت على أقلام المصنفين وألسنتهم لتمر على حواجزهم بتذكرة دبلوماسية دون تفتيش ، مع فائق التقدير والانبهار ، هكذا حتى وصلت إلى إحدى محطات الدكتور عبد الستار الحلوجي ؛ فانتظرت بجلالها على حاجزه طويلًا ، يرقبها من كل الزوايا فلا تستقيم عنده ، يطوف حولها حائرًا : لا يمكن أن يكون هذا الشيء (أبًا) ، إنما هو ...

* باحث دكتوراه بقسم المكتبات والمعلومات - كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

وبدأ العملُ بالملاحظة النقدية ، ثم قاده حوذي العقلية المُحللة المقارنة في كل صفحة من كتاب **الفهرست** ، و لم يلجأ الدكتور الحلوجي إلى قطع شجرة الكتاب ليقف على عمرها ، بل أبقاها كمنطلق متفق عليه بين العلماء وانسل في نسغها برحلة شاقة عكس الاتجاه إلى أطراف جذورها الضاربة في التاريخ ؛ ليقف عند أبعد نقطة وكانت فهرس جابر بن حيان (المتوفى في نهاية القرن الثاني الهجري) مارًّا بالعديد من المحطات الببليوجرافية الهامة كالثبت الذي جمعه ابن أبي يوسف لكتب الإمام الشافعي ، وفهرس كتب جالينوس وترجماتها إلى العربية الذي صنعه حنين بن اسحق لعلي بن يحيى المنجم في القرن الثالث الهجري ، وفهرس تسمية كتب أبي سليمان داود بن علي(ت ٢٧٠هـ) ، وأيضًا فهرس كتب عبدان الإسماعيلي ، وفهرس مصنفات الرازي ، وفهرس محمد بن مسعود العياشي السمرقندي (المتوفى نحو ٣٢٠هـ) ، والقائمة الببليوجرافية التي وضعها يحيى بن عدي (ت ٣٤٠هـ) لمؤلفات أرسطو. كما خرج من محيط دائرة **الفهرست** والجًا عمقه الثقافي المركزي ليكشف عن أعمال ببليوجرافية مستقلة أيضًا سبقته بالزمان منها فهرست كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ضمن كتابه **الحيوان** ، وكتب التراجم السابقة على ابن النديم والمعاصرة له ، حيث كانت تذكر أسماء كتب المؤلفين أو أهم مؤلفاتهم ببيانات ببليوجرافية مختصرة غير كاملة مثل كتاب **مراتب النحويين** لأبي الطيب اللغوي(من رجال القرن الرابع الهجري).

وبعد هذه الرحلة التحقيقية العلمية يخرج الدكتور الحلوجي على الجميع بأن هذا العمل الضخم ليس إلا امرأة حاملًا بكمٍّ من الببليوجرافيات الصغيرة ؛ ليقلب الطاولة ويعيد ترتيب الأوراق في بحثه عن **نشأة علم الببليوجرافيا عند المسلمين**[١] ، ويغدو صاحب الريادة والسبق في هذا الكشف العلمي ، خادمًا هذا التخصص بتحصين جبهة مهمة منه والتأريخ لها ، ولتصبح مُنطلقًا قويًا لدراسات أخرى تبني على أساسه.

---

(١) نشر في مجلة « الدارة » ، ع ٣ – ٤ ، س ٢ (شوال ١٣٩٦ هـ / أكتوبر ١٩٧٦م) ، ص ص ١٧٦ – ١٨٣. كما نشر في كتاب المخطوطات والتراث العربي ص ص ١٣١ – ١٤٢.

دراسات

وبدأ العملُ بالملاحظة النقدية ، ثم قاده حوذي العقلية المُحللة المقارنة في كل صفحة من كتاب **الفهرست** ، و لم يلجأ الدكتور الحلوجي إلى قطع شجرة الكتاب ليقف على عمرها ، بل أبقاها كمنطلق متفق عليه بين العلماء وانسل في نسغها برحلة شاقة عكس الاتجاه إلى أطراف جذورها الضاربة في التاريخ ؛ ليقف عند أبعد نقطة وكانت فهرس جابر بن حيان (المتوفى في نهاية القرن الثاني الهجري) مارًّا بالعديد من المحطات الببليوجرافية الهامة كالثبت الذي جمعه ابن أبي يوسف لكتب الإمام الشافعي ، وفهرس كتب جالينوس وترجماتها إلى العربية الذي صنعه حنين بن اسحق لعلي بن يحيى المنجم في القرن الثالث الهجري ، وفهرس تسمية كتب أبي سليمان داود بن علي(ت ٢٧٠هـ) ، وأيضًا فهرس كتب عبدان الإسماعيلي ، وفهرس مصنفات الرازي ، وفهرس محمد بن مسعود العياشي السمرقندي (المتوفى نحو ٣٢٠هـ) ، والقائمة الببليوجرافية التي وضعها يحيى بن عدي (ت ٣٤٠هـ) لمؤلفات أرسطو. كما خرج من محيط دائرة **الفهرست** واجًا عمقه الثقافي المركزي ليكشف عن أعمال ببليوجرافية مستقلة أيضًا سبقته بالزمان منها فهرست كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ضمن كتابه **الحيوان** ، وكتب التراجم السابقة على ابن النديم والمعاصرة له ، حيث كانت تذكر أسماء كتب المؤلفين أو أهم مؤلفاتهم ببيانات ببليوجرافية مختصرة غير كاملة مثل كتاب **مراتب النحويين** لأبي الطيب اللغوي(من رجال القرن الرابع الهجري).

وبعد هذه الرحلة التحقيقية العلمية يخرج الدكتور الحلوجي على الجميع بأن هذا العمل الضخم ليس إلا امرأة حاملًا بكمٍّ من الببليوجرافيات الصغيرة ؛ ليقلب الطاولة ويعيد ترتيب الأوراق في بحثه عن **نشأة علم الببليوجرافيا عند المسلمين**[١] ، ويغدو صاحب الريادة والسبق في هذا الكشف العلمي ، خادمًا هذا التخصص بتحصين جبهة مهمة منه والتأريخ لها ، ولتصبح مُنطلقًا قويًا لدراسات أخرى تبني على أساسه.

---

(١) نشر في مجلة « الدارة » ، ع ٣ – ٤ ، س ٢ (شوال ١٣٩٦ هـ/ أكتوبر ١٩٧٦م) ، ص ص ١٧٦ – ١٨٣. كما نشر في كتاب المخطوطات والتراث العربي ص ص ١٣١ – ١٤٢.

دراسات

العطاء الفكري للدكتور الحلوجي

د. عايدة نصير*

● مقدمة :

سعدت بدعوتي للمشاركة في الكتاب التذكاري للأستاذ الجليل الدكتور عبد الستار الحلوجي بمناسبة بلوغه سن السبعين أمد الله في عمره ومتَّعه بالصحة والعافية وجزاه خيرًا على ما أعطى لتراث مصر والعرب ، ووفقه فيما بذل وما زال يبذل من جهد لتلاميذه، وللمتخصصين ، وللمهنة .

عرفته منذ أصبح مدرسًا بقسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠ ، هذا القسم الذي لم تنقطع صلتي به منذ تخرجي حتى الآن .

عرفته الدمث في الأخلاق ، الوقور في تواضع ، الحليم في التصرف ، الحكيم في الأقوال ، المنصف في القرار ، والخبير في التخصص .

ويشاركني التأكيد على تميزه في مجال التخصص بجانب ما تحلى به من خصال حميدة ، ما جاء على لسان زميل وصديق مشواره الأكاديمي ، الذي حرص على المشاركة في تحرير كتاب بمناسبة حصول عالمنا كأول مكتبي مصري وعربي على جائزة عالمية يستحقها عن جدارة .

فقد أكد على عمله في صمت ودون ضجيج على مدى سنوات ، واقتحامه مجالًا من أصعب مجالات التخصص وهو « المخطوطات والتراث الإسلامي» ،وتقديمه العديد

---

* مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

من الأعمال العلمية التي حظيت بكل احترام وتقدير .(١)

ويشرح واحد من تلاميذه شعوره تجاه أستاذه ، حيث يؤكد أن قراءة كلام الحلوجي يشعرك أنك أمام نهر عظيم يتدفق ، وأمام سيل لا ينتهي . فهو إنسان مرهف الإحساس رقيق الشعور ، يعتز بإنسانيته ويحب الاستغراق في كل شيء ، والأدب عنده اكتناز إنساني ، وكنز حضاري .(٢)

ولأستاذنا الريادة في المجالات الآتية :

- أول من رأس قسم فهرسة المخطوطات – كمتخصص في المجال - بدار الكتب المصرية ، بعد حصوله على الماجستير من جامعة لندن سنة ١٩٦٣ .

- أول من شغل منصب وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة من التخصص .

- أول من عُين عميدًا لكلية آداب جامعة القاهرة ، فرع بني سويف من التخصص .

- أول متخصص في مجال المكتبات والمعلومات يحصل على جائزة الملك فيصل العالمية .

● **مشاركتنا المشوار الأكاديمي :**

رغم عطائه المخلص للتكوين المهني لطلابه داخل قاعات المحاضرات ، وخدمتي لتطبيق الجانب العملي بجانب الأكاديمي بالمكتبات والجامعات ؛ شاءت الظروف أن تجمعنا مواقف سأعرض أهمها في عجالة : -

- تخرجنا في نفس العام سنة ١٩٥٨ وفي نفس الجامعة ، حيث حصل هو على

(١) رجل لجائزة عالمية / محمد فتحي عبد الهادي . في : جائزة الملك فيصل العالمية بين الحلوجي وبن جنيد / محمد فتحي عبد الهادي ، وأمين سليمان سيدو .- الجيزة : مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، ١٩٩٩ . – ٢٣٩ ص . ص ص ٨٦ – ٩٤ .

(٢) الملاح التائه والملاح العائد / فوزي تادرس . في : المصدر السابق . ص ص ١٢٦ - ١٢٩ .

ليسانس الآداب في اللغة العربية ، وحصلت على نفس الدرجة في المكتبات و الوثائق .

- حصلنا على درجة الدكتوراه من نفس القسم بكلية الآداب جامعة القاهرة .

- جمعنا مؤتمر إقليمي لمعاهد المكتبات والتوثيق العربي سنة ١٩٧٦ في بغداد ، حيث مثلت العراق حين كنت أدرس بجامعة المستنصرية ببغداد ، مثل الدكتور الحلوجي السعودية حين كان يقوم بالتدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

- قمت بالتدريس لطلبة الدراسات العليا بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب جامعة القاهرة على فترات امتدت من سنة ١٩٨٣ إلى سنة ١٩٩٧ ، وقد سبقني بالتدريس لنفس المرحلة الدراسية من ١٩٧٥ إلى الآن .

- استدعيت للتدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فرع بني سويف لطلبة مرحلة الليسانس والدراسات العليا من سنة ١٩٨٨ إلى سنة ١٩٩٧، واعتذرت عن عدم الاستمرار للتعيين بمجلس الشورى . وفي السنة التالية في يونيو سنة ١٩٩٨ عين الدكتور الحلوجي عميدًا بنفس الكلية حتى أكتوبر سنة ١٩٩٩ .

- شاركت أكثر من مرة – من خلال دعوات – في « اللجنة العلمية الدائمة لتخصص المكتبات والوثائق » بالمجلس الأعلى للجامعات ؛ والدكتور الحلوجي عضو دائم في اللجنة منذ إنشائها سنة ١٩٨١ حتى الآن .

- مشاركتنا في عضوية «لجنة الكتاب والنشر» بالمجلس الأعلى للثقافة لسنوات عديدة .

- تم اختيارنا في اللجان العلمية بالإدارة المركزية للمراكز العلمية بدار الكتب وإن اختلفت اللجان .

- اختيارنا لفحص الإنتاج المقدم لنيل جوائز الدولة للتفوق لعام ٢٠٠٧ بتكليف من وزير الثقافة .

وذلك بالإضافة إلى العديد من المؤتمرات والمناسبات التي جمعتنا في مجال التخصص .

وإذا كان مشوارنا لم يُتِح لي التلمذة على يديه ؛ فقد أسعدتني الظروف بالمشاركة معه في العطاء لمهنة نعتز جميعًا بالانتساب إليها .

● **المؤهلات العلمية والعطاء المهني :**

تخرج الدكتور الحلوجي في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حيث حصل على ليسانس اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٥٨ ، وفي السنة التي تليها مباشرة (١٩٥٩) ؛ حصل على دبلوم عام من كلية التربية بجامعة عين شمس ، ثم على دبلوم خاص من نفس الجامعة سنة ١٩٦٠ .

عمل مدرسًا للغة العربية بوزارة التربية والتعليم خلال السنة الدراسية ١٩٦٠ – ١٩٦١ ، وبعدها حصل على ماجستير في المكتبات من جامعة لندن سنة ١٩٦٣ .

وعند عودته إلى مصر عُين رئيسًا لقسم فهرسة المخطوطات بدار الكتب المصرية وذلك في الفترة من ١٩٦٤ – ١٩٦٧ ، ثم رئيسًا لقسم إرشاد الباحثين في المخطوطات بنفس الدار من ١٩٦٧ – ١٩٦٩ ، ثم عُين أمينًا لمركز تحقيق التراث من سنة ١٩٦٩ ، وهي نفس السنة التي حصل فيها على الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة في تخصص المكتبات والوثائق ، وقد ظل يعمل بالمركز في دار الكتب حتى سنة ١٩٧٠ .

ثم ترك دار الكتب – ليلتحق مدرسًا بقسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب بجامعة القاهرة في الفترة من ١٩٧٠ – ١٩٧٣ حيث تركها إلى حين ليدرِّس بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧ ، بجانب تكليفه برئاسة قسم المكتبات بنفس الجامعة خلال السنة الأكاديمية ١٩٧٦ – ١٩٧٧ .

وفي سنة ١٩٧٧ عاد إلى جامعته القاهرة أستاذًا مساعدًا بقسم المكتبات والوثائق حتى

سنة ١٩٨٠ ، حيث حصل على رتبة أستاذ وأصبح أستاذًا متفرغًا بنفس القسم من يوليو ١٩٩٨ حتى الآن .

وخلال الثمانينيات والتسعينيات شغل عدة مناصب داخل جامعته وخارجها ، حيث شغل منصب أستاذ ورئيس قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٨٢ – ١٩٨٣ ، ورأس قسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب بجامعة القاهرة من ١٩٨٤ – ١٩٨٥ ، وبعدها من ١٩٨٥ – ١٩٩٠ عمل أستاذًا بقسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة . وعاد إلى جامعته القاهرة ليرأس قسم المكتبات والوثائق من سنة ١٩٩٠ إلى ١٩٩٤ ، وعُين وكيلًا لكلية الآداب من سنة ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨ . ثم عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فرع بني سويف من يونيو ١٩٩٨ إلى أن استقال من العمادة في أكتوبر ١٩٩٩ .

ومن خلال مصاحبتنا للدكتور الحلوجي في رحلته العلمية والعملية نلاحظ ما يلي : –

١ – اكتساب الناحية التطبيقية في التخصص من خلال عمله بدار الكتب الوطنية في الستينيات .

٢ – التنقل بين مصر والسعودية كأستاذ مساعد أو مشارك ثم أستاذ .

٣ – تولي مناصب إدارية عليا بجامعته الأم جامعة القاهرة ، وبجامعات المملكة العربية السعودية .

● **الحدود الزمنية للإنتاج :**

تغطي الدراسة الإنتاج الفكري للحلوجي منذ تقديمه أطروحته للماجستير في جامعة لندن سنة ١٩٦٣ حتى أوائل سنة ٢٠٠٨ ، وذلك بسبب الاحتفاء ببلوغه سن السبعين – أطال الله في عمره ومتعة بموفور الصحة والعافية – وكذلك بمناسبة مرور نصف

قرن من حصوله على الدرجة العلمية الأولى سنة ١٩٥٨ من جامعة القاهرة .

وقد آثرت أن تشمل الدراسة كل الإنتاج برغم الدراسة المتميزة التي سبق أن قدمها الزميل الدكتور محمد جلال غندور [١] ، وذلك حتى يمكن الوقوف على كل الإنتاج الفكري للأستاذ حتى تاريخه . والجدول التالي بين حقبات هذا الإنتاج :

جدول رقم (١) يبين حقبات الإنتاج الفكري وأشكاله

الحقبات / نوع الإنتاج	الستينيات	السبعينيات	الثمانينيات	التسعينيات	أوائل القرن ٢١	المجموع
كتب مؤلفة ومترجمة	٢	٦	٧	٤	٧	٢٦
عروض لإنتاجه			٣		٣	٦
فصول في كتب				٢	٣	٥
مقدمات لكتب الغير		٢	١			٣
عروض لكتب الغير			٢	١	١	٤
أبحاث المؤتمرات		٦	١	٦	٥	١٨
مقالات	١	٦	١٢	٩	٩	٣٧
أطروحات دكتوراه	١ *		٧	٤	٤	١٦
رسائل ماجستير	١ *		٥	٣	٨	١٧
المجموع	٥	٢٠	٣٨	٢٩	٤٠	١٣٢

(١) أ.د. عبد الستار عبد الحق الحلوجي : دراسة تحليلية لإنتاجه الفكري من ١٩٦٣ – ١٩٩٧ . في : جائزة الملك فيصل العالمية بين الحلوجي وابن جنيد / محمد فتحي عبد الهادي ، أمين سليمان سيدو . – الرياض : مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، ١٩٩٩ . – ص ص ٩٥ – ١٢٥ .

* أطروحة الدكتور الحلوجي للدكتوراه سنة ١٩٦٩ ورسالته للماجستير سنة ١٩٦٣ .

ويتضح من الجدول السابق :

أن الإنتاج وصل إلى ذروته في أوائل القرن الواحد والعشرين ، وقد يرجع هذا لعمله كأستاذ متفرغ بجامعة القاهرة بعيدًا عن ضغوط المناصب الإدارية ، حيث بلغت أعماله ٤٠ عملًا من بين ١٣٢ عملًا بنسبة ٣٠ ٪ من مجموع أعماله ، يليها سنوات الثمانينيات حيث بلغت ٣٨ عملًا بنسبة ٢٩ ٪ حيث قضى بعض سنوات هذه الحقبة بالمملكة السعودية . وكانت أقل سنوات الإنتاج هي الستينيات ، حيث كان يدرس للماجستير والدكتوراه بجانب عمله بدار الكتب المصرية . وبرغم هذا استطاع أن ينتج ٥ أعمال .

● **الحدود الشكلية للإنتاج :**

تنوعت وتعددت أشكال اللإنتاج الفكري للأستاذ الجليل من كتب ، واختلف موقعه منها : بين تأليف وترجمة وجمع ومشاركة في التأليف وكتابة للمقدمات وعرض وتحليل لكتب الغير .

وكذلك ما صدر له من مقالات ، وما قدم من أبحاث في مؤتمرات ، وما أُنجز تحت إشرافه من رسائل للماجستير وأطروحات للدكتوراه . فقد ساهم الدكتور الحلوجي في تسعة من أشكال الإنتاج العلمي هي : –

١ – كتب مؤلفة ومترجمة ؛ بلغ عددها ٢٦ كتابًا .

٢ – فصول في كتب ؛ بلغ عددها ٥ كتب .

٣ – مقدمات لكتب الغير ؛ بلغ عددها ٣ مقدمات .

٤ – عروض وتحليلات لكتب الغير ؛ بلغ عددها ٤ عروض .

٥ – عروض لإنتاجه قام بها الغير ؛ بلغ عددها ٦ عروض .

٦ – أبحاث مؤتمرات ؛ بلغ عددها ١٨ مؤتمرًا .

٧ – مقالات في دوريات ؛ بلغ عددها ٣٧ مقالة .

٨ – أطروحات دكتوراه أشرف عليها وأجيزت ؛ ويبلغ عددها ١٦ دكتوراه .

٩ – رسائل ماجستير أشرف عليها وأجيزت ؛ بلغ عددها ١٧ رسالة (١) .

ويتضح أن أكبر شكل استحوذ على نسبة ٢٨ ٪ من الإنتاج هو المقالات البالغ عددها ٣٧ مقالة من ١٣٢ عملًا ، يلي هذا الشكل الأطروحات ورسائل الماجستير التي بلغت نسبتها ٢٥ ٪ وعددها ٣٣ أطروحة دكتوراه ورسالة ماجستير ، كذلك وصل حجم الإنتاج من الكتب ٢٦ كتابًا بنسبة ٢٠ ٪ ، ثم الأبحاث المقدمة إلى المؤتمرات والبالغ عددها ١٨ بحثًا بنسبة ١٤ ٪ .

أما المقدمات والعروض لكتب الغير وما كتبه من فصول في كتب وما كُتب من عروض لأعماله ، فقد تراوحت بين ٣ إلى ٦ أعمال وبلغ مجموعها ١٨ عملًا بنسبة ١٤٪ .

● **سمات الإنتاج الفكري من الكتب :**

الكتب المؤلفة :

حظي كتابه « مع الملاح التائه علي محمود طه » بشعبية بين المتخصصين والعامة ، حيث قامت بطبعه الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر في سلسلة الكتب الثقافية سنة ١٩٧٠ ، وأعقبتها بطبعة ثانية سنة ١٩٨٥ ، ثم الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٠ ضمن سلسلة « مكتبة الأسرة » . وقد عرَّف الدكتور الحلوجي بحياة الشاعر من الميلاد إلى الوفاة ، ثم تناول شعره بالشرح والتقييم .

هذا وقد سبق أن درس شاعر اليمن الكبير محمد محمود الزبيري حيث صدر له كتاب

(١) أضيفت رسالته للماجستير ضمن رسائل الماجستير وكذلك أطروحة للدكتوراه .

بالقاهرة بعنوان « الزبيري : شاعر اليمن » وذلك سنة ١٩٦٨ .

وبالإضافة إلى حرصه على التأليف في مجال الأدب ، فقد ألف أيضًا في مجال اللغة العربية عندما هالته الأخطاء الشائعة في اللغة العربية في أوراق امتحانات طلبة الجامعة ، فجاء كتابه بعنوان « قراءة في أوراق جامعية » سنة ١٩٧٤ ليصنف الأخطاء التي كشفت عنها إجابات طلاب الجامعة من أخطاء لغوية ، ونحوية ، وإملائية بجانب سوء التعبير . وقد وضع يده على أسباب تدني مستوى الطلاب في اللغة ، ووضع بعض الحلول للارتقاء بالعملية التعليمية والارتفاع بالمستوى اللغوي للطلاب ، وربما يرجع حرصه على الدراسة والتأليف في مجال اللغة العربية وآدابها اختياره لها كأول تخصص في حياته الأكاديمية .

وبعد حصوله على الدكتوراه في تخصص المكتبات و الوثائق سنة ١٩٦٩ صدر له أول كتاب في التخصص بعنوان « لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات » أصدرت طبعته الأولى جمعية المكتبات المدرسية سنة ١٩٧١ . تلتها الطبعة الثانية عن دار الثقافة للنشر والتوزيع سنة ١٩٧٩ وأعيدت طباعته سنة ١٩٨٢ ، ثم الطبعة الثالثة من نفس الدار في سنوات ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩١ ؛ حيث تناول في فصوله تاريخ الكتب والمكتبات في مصر والشرق القديم ، ثم في اليونان والإمبراطورية الرومانية ، وفي الدول الإسلامية ، بجانب أوربا في العصور الوسطى والعصر الحديث .

كذلك نشرت له مكتبة مصباح في جدة سنة ١٩٨٨ كتابًا بعنوان « دراسات في الكتب والمكتبات » يضم قسمه الأول ١٦ دراسة في موضوعات متخصصة في مجال المكتبات ، والقسم الثاني يضم نقدًا لثلاثة أعمال ببليوجرافية .

وآخر ما صدر في مجال الكتب والمكتبات ما نشرته الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة سنة ٢٠٠٣ تحت عنوان : « الكتب والمكتبات بين القديم والحديث » .

ولم ينسَ الحلوجي وضع الكتب المنهجية لطلابه ، فجاء كتابه بعنوان : « مدخل لدراسة المراجع » ، الذي نشرته دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٧٤ ، وصدرت طبعته الثانية في الرياض عن دار العلوم سنة ١٩٨٣ ، ثم الطبعة الثالثة سنة ١٩٩١ عن دار الثقافة للنشر والتوزيع .

ونظرًا لأهمية الناحية التطبيقية العملية في تخصص المكتبات والمعلومات ، قام الدكتور الحلوجي بدراسة ميدانية لاستكشاف نمط الخدمة المكتبية المناسبة للمجتمع الريفي ، والتعرف على ميول القراء من واقع ما يقرأونه ، وطبق الدراسة في محافظة المنوفية سنة ١٩٧٨ ونتج عنها صدور كتاب تحت عنوان : « الخدمة المكتبية الريفية : دراسة ميدانية » والذي قام بنشره المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي بسرس الليان سنة ١٩٧٩ .

وفي أثناء إعداده لأطروحة الدكتوراه ، اكتسب الدكتور الحلوجي خبرة متميزة في مجال المخطوطات ، حيث عمل في المجال بدار الكتب المصرية لفترة ٦ سنوات ، بدأ فيها رئيسًا لقسم فهرسة المخطوطات ، ثم رئيسًا لإرشاد الباحثين في المخطوطات ، وأخيرًا أمينًا لمركز تحقيق التراث .

لذلك جاءت مؤلفاته في مجال المخطوطات لتجمع بين الدراسة والخبرة . ومن أهم المؤلفات التي حاول بها تحديد ماهية وطبيعة المخطوطات كتابه بعنوان : « نحو علم مخطوطات عربي » ، الذي نشرته دار القاهرة سنة ٢٠٠٤ ؛ حيث عرَّف في مقدمته بالمخطوط العربي وأهميته ومظانه ومجالات دراسته ، ثم تناول تاريخ المخطوط العربي وصناعته وحفظه وصيانته وكيفية فهرسته وتحقيقه ونشره وعناصر تقييمه .

فصاحبنا من أوائل الباحثين والعاملين في مجال علم المخطوطات ، وهو الذي أصَّل هذا الفرع الحيوي من فروع التخصص ، ونقَّب في تاريخه ووضع معاييره وقوانينه .

وقد كان أول إنتاجه في مجال المخطوطات العربية كتاب بعنوان «المخطوط العربي » ؛ صدر في الرياض سنة ١٩٧٨ ، حيث نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . وصدرت طبعته الثانية في جدة عن مكتبة مصباح سنة ١٩٨٩ ، وصدرت الطبعة الثالثة في القاهرة سنة ٢٠٠٢ عن الدار المصرية اللبنانية التي سبق أن نشرت للمؤلف كتابًا بعنوان : « علم المخطوطات والتراث العربي » وذلك سنة ٢٠٠١ .

● **الكتب المترجمة :**

سَاهم الدكتور الحلوجي في مجال الترجمة وأثرى تخصص المكتبات والمعلومات بترجمة المصادر ، فقام بترجمة كتاب : World Survey of Islamic Manuscripts ، الذي صدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن بين عامي ١٩٩٧ – ٢٠٠٢ في أربعة مجلدات بلغ عدد صفحاتها ٣٤٥٨ صفحة .

كذلك قام بترجمة دليل ببليوجرافي لتاريخ الإسلام في الشرق ، تحت عنوان : « مصادر دراسة التاريخ الإسلامي » بمشاركة عبد الوهاب علوب .

ولأهمية موضوع المؤتمر الدولي الذي عقدته مكتبة الكونجرس في نوفمبر سنة ١٩٩٠ تحت عنوان :

The Book in the Islamic Word : The Written Word and Communication in the Middle East .

حرص الدكتور الحلوجي على ترجمة البحوث التي قدمت للمؤتمر ، ونُشرت الترجمة في سلسلة « عالم المعرفة » بالكويت سنة ٢٠٠٣ .

تؤكد مساهماته في مجال الترجمة على دقة الاختيار لما يقوم بترجمته ، وتركيزه على مدى الإفادة التي ستعود من جراء هذه الترجمات على الباحثين والمتخصصين من العرب .

● **الببليوجرافيات :**

من أهم أعماله التي قام بها أثناء وجوده بدار الكتب المصرية ، تجميع ببليوجرافية شارحة عن عباس محمود العقاد قامت دار الكتب بنشرها سنة ١٩٦٤ . حيث شملت كل ما ألفه العقاد من كتب وما نشر له من مقالات ، مع استثناء ما نشر له في الصحف اليومية .

كذلك من الأعمال الببليوجرافية المهمة التي شارك معه فيها حبيب الله عظيمي : « فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا » وقد قامت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن بنشره سنة ١٩٩٧ .

● **المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية التي شارك فيها :**

(١) الدولية خارج مصر :

١ / ١ الحلقة الدراسية « للخدمات المكتبية والوراقة والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية » نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مع الجمهورية السورية بدمشق سنة ١٩٧١ ، وشارك فيها ببحث بعنوان : « فهارس المخطوطات » ، ونشرته وزارة التعليم العالي السورية ضمن أعمال الحلقة سنة ١٩٧٢ .- ص ص ٢٨٢ – ٣٠٠ .

١ / ٢ مؤتمر « الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي » الذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالرياض في نوفمبر ١٩٧٣ ، وشارك فيه ببحث عنوانه : « التصنيف العشري والمكتبة العربية » ، ونشر بمجلة « مكتبة الجامعة » بالكويت ، مج ٤ ؛ ع ١ (يناير ١٩٧٥) . – ص ص ٣٤ – ٤٥ .

١ / ٣ مؤتمر « رسالة الجامعة » الذي عقد بجامعة الرياض في نوفمبر ١٩٧٤ ، وشارك فيه ببحث بعنوان : « مسئولية جامعاتنا تجاه تراثنا المخطوط » ، نشر بمجلة

« الفيصل » ، عدد (ديسمبر ١٩٧٩) . - ص ص ٦٧ – ٧٠

١ / ٤ حلقة « حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها » التي عقدت في بغداد في نوفمبر ١٩٧٥ ، وشارك فيها ببحث عنوانه : « نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط » ، نشر في مجلة « المورد » العراقية ، مج ٥ ، ع ١٤ (١٩٧٦) . ص ص ١٣٣ – ١٣٩ .

١ / ٥ « المؤتمر الإقليمي لمعاهد المكتبات والتوثيق في العالم العربي » سنة ١٩٧٦ ، نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في بغداد ، وشارك فيه ببحث عنوانه : « الوضع الراهن لدراسة المكتبات في المملكة العربية السعودية » ، نشر في مجلة الدارة مج ٧ ، ع٢ (١٩٨٠) . – ص ص ٣ – ٢١ .

١/ ٦ مؤتمر « الفقه الإسلامي » الذي نظمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٩٧٧ ، وشارك فيه ببحث عنوانه : « تراثنا الفقهي وقضاياه الببليوجرافية » نشر في مجلة « الدارة » ، س ٣ ، ع ٢ (١٩٧٧) . – ص ص ١٦٣ - ١٧٥

١ / ٧ ندوة بعنوان « المستفيدون من المكتبات » عقدت بالمعهد الأعلى للتوثيق بتونس في أبريل ١٩٨٥ ، وشارك فيها ببحث عنوانه : « المستفيدون غير المستفيدين في الوطن العربي » ، نشر ضمن أعمال الندوة التي جمعها وحيد قدورة ونشرها مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات بتونس ، ع ١٥ (١٩٨٦) . – ص ص ٥٣ – ٥٨ .

(٢) الدولية والوطنية داخل مصر :

٢ / ١ ندوة « إعداد أخصائي المكتبات والوثائق والمعلومات » التي نظمتها كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٠ .

٢ / ٢ مؤتمر : « المكتبة الوطنية في مصر » سنة ١٩٩٣ ، وقد نشر بحثه في عالم الكتاب سنة ١٩٩٤ .

٢ / ٣ مؤتمر « الجامعات في خدمة المجتمع وتنمية البيئة » الذي نظمته جامعة القاهرة في مارس ١٩٩٧ وكان عضوًا في اللجنة المنظمة للمؤتمر .

٢ / ٤ ندوة « قضايا المخطوطات » ، التي نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وعقدت في القاهرة في ديسمبر ١٩٩٧ ، وشارك فيها ببحث عنوانه : « تجربة مؤسسة الفرقان في حصر المخطوطات الإسلامية في العالم » نشر في كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٨ بعنوان : التجارب العربية في فهرسة المخطوطات / تنسيق وتحرير فيصل الحفيان .– ص ص ٣٢١ – ٣٣٢ .

٢ / ٥ « قضايا المخطوطات » الندوة الثانية ، نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة في سبتمبر ١٩٩٨ ، وشارك فيها ببحث عنوانه : « فن الفهرسة : المصطلح والحدود » ، نشر ضمن أعمال الندوة في كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية بعنوان : فن فهرسة المخطوطات : مدخل وقضايا / تنسيق فيصل الحفيان ، ١٩٩٩ . – ص ص ١٩ – ٣١ .

٢ / ٦ ندوة « تدريس اللغة العربية في كليات الجامعات المصرية » التي نظمها المجلس الأعلى للجامعات في مايو ١٩٩٩ وشارك فيها ببحث عنوانه : « واقع الأداء اللغوي عند الطلاب الجامعيين » نشر ملخصه ضمن ملخصات أبحاث الندوة التي نشرتها لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات . – ص ص ٥٣ – ٥٧ .

٢ / ٧ ندوة « الفكر الفلسفي في مصر في مائة عام » نظمتها كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ ، وشارك فيها ببحث عنوانه : « تحقيق المخطوط الفلسفي » ، ونشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . – مج ٦١ ، ع ٣ (أبريل ٢٠٠١) . – ص ص ١٦٣ – ١٦٨ .

٢ / ٨ مؤتمر « خمسون عامًا على تخصص المكتبات والوثائق والمعلومات في مصر » ،

الذي نظمته كلية الآداب بجامعة القاهرة في أكتوبر ٢٠٠١ ، وشارك فيه ببحث عنوانه « رائدان » .

٢ / ٩ الاجتماع الخامس « نحو تأسيس علم مخطوطات عربي » للهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي الذي عُقد بالقاهرة في أكتوبر ٢٠٠٢ وشارك فيها ببحث عنوانه : « نحو تأسيس علم مخطوطات عربي » .

٢ / ١٠ مؤتمر : « المخطوطات الألفية » الذي عقد بمكتبة الإسكندرية في ديسمبر ٢٠٠٤ .

٢ / ١١ مؤتمر « المخطوطات الموقعة » الذي عقدته مكتبة الإسكندرية في أبريل ٢٠٠٥ وشارك فيه ببحث عنوانه : « المخطوطات الموقعة بمكتبة الأوقاف بالقاهرة » ، ونشر في : المخطوطات الموقعة – الإسكندرية : مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٨ . – ص ص ٣١٤ – ٣٢١ .

والجدول التالي يبين تاريخ انعقاد الحلقات الدراسية والندوات والمؤتمرات ، مع تحديد الموضوع والتاريخ واسم الناشر ومكانه .

جدول رقم (٢) يبين تواريخ وموضوعات المؤتمرات والجهة الناشرة وتاريخ النشر

مسلسل	تاريخ المؤتمر	المكان	الموضوع	تاريخ نشر البحث	جهة ومكان النشر
١	١٩٧١	دمشق / سوريا	الخدمات المكتبية والوراقة والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية	١٩٧٢	وزارة التعليم العالي السورية / دمشق
٢	١٩٧٣	الرياض / السعودية	الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي	١٩٧٥	مجلة مكتبة الجامعة / الكويت
٣	١٩٧٤	الرياض / السعودية	رسالة الجامعة	١٩٧٩	مجلة الفيصل /

مسلسل	تاريخ المؤتمر	المكان	الموضوع	تاريخ نشر البحث	جهة ومكان النشر
					الرياض
٤	١٩٧٥	بغداد / العراق	حماية المخطوطات العربية	١٩٧٦	المورد العراقية / بغداد
٥	١٩٧٦	بغداد / العراق	معاهد المكتبات والتوثيق في العالم العربي	١٩٨٠	مجلة الدارة / الرياض
٦	١٩٧٧	الرياض / السعودية	الفقه الإسلامي	١٩٧٧	مجلة الدارة / الرياض
٧	١٩٨٥	تونس	المستفيدون من المكتبات	١٩٨٦	مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات / تونس
٨	١٩٩٠	الجيزة / مصر	إعداد أخصائي المكتبات والوثائق والمعلومات	١٩٩٠	كلية الآداب جامعة القاهرة / الجيزة
٩	١٩٩٣	الجيزة / مصر	المكتبة الوطنية في مصر	١٩٩٤	عالم الكتاب / القاهرة
١٠	١٩٩٧	الجيزة / مصر	الجامعات في خدمة المجتمع وتنمية البيئة	–	–
١١	١٩٩٧	القاهرة / مصر	قضايا المخطوطات	١٩٩٨	معهد المخطوطات العربية بالقاهرة في كتاب بعنوان التجارب العربية في فهرسة المخطوطات
١٢	١٩٩٨	القاهرة / مصر	قضايا المخطوطات	١٩٩٩	معهد المخطوطات العربية بالقاهرة في كتاب بعنوان : فن فهرسة المخطوطات

مسلسل	تاريخ المؤتمر	المكان	الموضوع	تاريخ نشر البحث	جهة ومكان النشر
١٣	١٩٩٩	الجيزة / مصر	تدريس اللغة العربية في كليات الجامعات المصرية	١٩٩٩	المجلس الأعلى للجامعات المصرية/ ملخصات الأبحاث
١٤	٢٠٠٠	الجيزة / مصر	الفكر الفلسفي في مصر في مائة عام	٢٠٠١	مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة
١٥	٢٠٠١	الجيزة / مصر	خمسون عامًا على تخصص المكتبات والوثائق والمعلومات	٢٠٠٢	كلية الآداب جامعة القاهرة
١٦	٢٠٠٢	القاهرة / مصر	نحو تأسيس علم مخطوطات عربي	٢٠٠٢	معهد المخطوطات العربية
١٧	٢٠٠٤	الإسكندرية / مصر	المخطوطات الألفية		
١٨	٢٠٠٥	الإسكندرية / مصر	المخطوطات الموقعة	٢٠٠٨	مكتبة الإسكندرية

والمتأمل في عدد المؤتمرات التي شارك فيها الدكتور الحلوجي يلمس حرصه على الحضور والمشاركة في تلك المؤتمرات داخل مصر وخارجها :

- ففي الفترة التي عمل فيها مدرسًا بقسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب بجامعة القاهرة شارك ببحث في مؤتمر بدمشق .
- وفي الفترة التي كان فيها أستاذًا مساعدًا بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٧٣ – ١٩٧٧ شارك في ثلاثة مؤتمرات في الرياض ، وفي مؤتمرين ببغداد .
- شارك وهو رئيس قسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٤ – ١٩٨٥ في مؤتمر عقد في تونس .

• منذ سنة ١٩٩٠ حتى الآن لم تنقطع مشاركته في المؤتمرات التي تُعقد في مصر ، سواء كان موضوعها في تخصصه الأكاديمي أو المهني أو الاهتمام الاجتماعي والبيئي .

● **الناشرون للإنتاج الفكري :**

تنوعت طبيعة الناشر وصفته حيث بلغ عدد الدوريات الناشرة لمقالاته ١٤ دورية ، قام بنشر إنتاجه ١٠ من الناشرين التجاريين وساهمت المؤسسات الأكاديمية البالغ عددها ٨ مؤسسات في نشر الإنتاج ، بجانب ٥ مؤسسات ثقافية ، و ٥ مؤسسات مهنية . والجدول التالي يبين أسماء وعدد الناشرين وصفتهم وما قاموا به من نشر لإنتاج الدكتور الحلوجي .

جدول رقم (٣) يبين الناشرين وما قاموا بنشره وأمكنة النشر

مسلسل	اسم الناشر	المكان	عدد الأعمال	طبيعة الناشر
١	مجلة آراء	المنوفية	٢	دورية
٢	مجلة مكتبة الإدارة	الرياض	١	دورية
٣	مجلة تراثيات	القاهرة	٤	دورية
٤	مجلة التوباد	الرياض	١	دورية
٥	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية	الرياض	١	مؤسسة أكاديمية
٦	الجامعة الأمريكية / قسم النشر	القاهرة	١	مؤسسة أكاديمية
٧	جمعية المكتبات المدرسية	القاهرة	١	مؤسسة مهنية
٨	دار الثقافة للنشر والتوزيع	القاهرة	٦	ناشر تجاري
٩	دار العلوم	الرياض	٢	ناشر تجاري
١٠	دار الكتب المصرية	القاهرة	١	مؤسسة ثقافية
١١	دار المريخ	الرياض	١	ناشر تجاري

مسلسل	اسم الناشر	المكان	عدد الأعمال	طبيعة الناشر
١٢	دار القاهرة	القاهرة	١	ناشر تجاري
١٣	الدار المصرية اللبنانية	القاهرة	٣	ناشر تجاري
١٤	مجلة الدارة	الرياض	٣	دورية
١٥	دراسات عربية في المكتبات وعلم المعلومات	القاهرة	١	دورية
١٦	عالم الكتاب	القاهرة	٥	دورية
١٧	عالم الكتب	الرياض	٧	دورية
١٨	عالم المعرفة	الكويت	١	ناشر تجاري
١٩	الفيصل	الرياض	٢	دورية
٢٠	الكتاب العربي	القاهرة	١	دورية
٢١	كلية الآداب جامعة القاهرة	الجيزة	١	مؤسسة أكاديمية
٢٢	كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن مسعود	الرياض	٤	مؤسسة أكاديمية
٢٣	مجلة المجلة	القاهرة	١	دورية
٢٤	المجلس الأعلى للثقافة	القاهرة	١	مؤسسة ثقافية
٢٥	المجلس الأعلى للجامعات . لجنة الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية	الجيزة	١	مؤسسة أكاديمية
٢٦	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية	القاهرة	١	مؤسسة ثقافية
٢٧	مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات	تونس	١	مؤسسة أكاديمية
٢٨	المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في	المنوفية	١	مؤسسة مهنية

مسلسل	اسم الناشر	المكان	عدد الأعمال	طبيعة الناشر
	العالم العربي			
٢٩	مجلة معهد المخطوطات العربية	الجيزة	٦	دورية
٣٠	مجلة المكتبات والمعلومات العربية	الرياض	٢	دورية
٣١	صحيفة المكتبة	القاهرة	١	دورية
٣٢	مكتبة الإسكندرية	الاسكندرية	١	مؤسسة ثقافية
٣٣	مجلة مكتبة الجامعة	الكويت	٢	مؤسسة أكاديمية
٣٤	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية	الرياض	١	مؤسسة أكاديمية
٣٥	مكتبة مصباح	جدة	٢	ناشر تجاري
٣٦	مجلة منبر الإسلام	القاهرة	٣	ناشر تجاري
٣٧	مجلة المورد العراقية	بغداد	١	ناشر تجاري
٣٨	مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي	لندن	٤	مؤسسة ثقافية
٣٩	المؤلف	القاهرة	١	
٤٠	الهيئة المصرية العامة للكتاب	القاهرة	٣	مؤسسة ثقافية
٤١	وزارة التعليم العالي	دمشق	١	مؤسسة مهنية
٤٢	Journal of Education For Library & Information Science	الولايات المتحدة	١	دورية
المجموع	٤٢		٨٥	

وقد بلغ عدد الناشرين للإنتاج الفكري ٤٢ ناشرًا ، واستحوذت مجلة « عالم الكتب » بالرياض على أعلى رقم ، حيث نشرت ٧ أعمال ، ونشرت كل من دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، ومجلة معهد المخطوطات العربية ٦ أعمال في كل منهما ، ونشرت

مجلة « عالم الكتاب » بالقاهرة ٥ أعمال . وتساوى إنتاج كل من مجلة « تراثيات » بالقاهرة ، ومجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، ومؤسسة الفرقان بلندن بنشر ٤ أعمال في كل منهما . كذلك نشرت الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة ، ومجلة الدارة ، ومجلة منبر الإسلام ، والهيئة المصرية العامة للكتاب ٣ أعمال في كل منها .

واقتصر الإنتاج على عملين في كل من مجلة « آراء » بالمنوفية ، ودار العلوم بالرياض ، ومجلة « الفيصل » بالرياض ، ومجلة المكتبات والمعلومات العربية بالرياض ، ومجلة « مكتبة الجامعة » بالكويت ، ومكتبة مصباح بجدة .

كذلك شارك ٢٤ ناشرًا بعمل واحد نشره كل منهم .

● أماكن النشر :

تنوعت أماكن النشر داخل مصر والوطن العربي والدول الأجنبية . والجدول التالي يبين مكان الناشر وعدد الإنتاج المنشور في كل قطر حيث رتب تنازليًا بحسب الإنتاج .

جدول رقم (٤) يبين إنتاج كل ناشر ومكانه

المكان	القطر	الإنتاج المنشور	ما نشر في كل قطر	النسبة المئوية
القاهرة	مصر	٣٤	مصر ٤٧	٥٥ %
الجيزة		٩		
المنوفية		٣		
الإسكندرية		١		
الرياض	المملكة العربية السعودية	٢٥	المملكة العربية السعودية ٢٧	٣٢ %
جدة		٢		
لندن	المملكة المتحدة	٤	المملكة المتحدة ٤	٥ %

المكان	القطر	الإنتاج المنشور	ما نشر في كل قطر	النسبة المئوية
الكويت	الكويت	٣	الكويت ٣	٤ %
بغداد	العراق	١	العراق ١	١ %
تونس	تونس	١	تونس ١	١ %
دمشق	سوريا	١	سوريا١	١ %
نيويورك	الولايات المتحدة	١	الولايات المتحدة ١	١ %
المجموع ١٢	٨	٨٥	٨٥	%١٠٠

ويتضح من الجدول السابق أن مصر من أهم الأقطار التي استحوذت على النصيب الأكبر من نشر الإنتاج الفكري بمجموع ٤٧ من ٨٥ عملًا بنسبة ٥٥ ٪ ، حيث بدأ إنتاجه من أواخر الستينيات من القرن الماضي حتى الآن ، ولم يتركها إلا إلى السعودية ولفترة عشر سنوات متفرقة ، ونشر له بها ٢٧ عملًا بنسبة ٣٢ ٪ من الإنتاج المنشور ، وامتد مجال نشر الإنتاج إلى المملكة المتحدة وإلى الدول العربية في الكويت والعراق وسوريا وتونس بجانب المملكة العربية السعودية .

هذا استعراض سريع للإنتاج الفكري بحدوده الزمنية وباختلاف الأشكال التي ظهر فيها ، والسمات التي ميزت الإنتاج ، والمتابعة والنشاط الواضح ، والحرص على حضور وتقديم أوراق الأبحاث في المؤتمرات داخل مصر وخارجها ، بجانب الحرص على متابعة قضايا المهنة من خلال النشر في الدوريات العلمية ، وطبيعة الناشرين واختلاف فئاتهم .

● نهاية البداية :

لا يسعني إلا أن أدعو للأخ والزميل والصديق العالم الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي بمزيد من الإنتاج والعطاء ، فما زال لديه الكثير من الإنتاج ، وبالاتساع في نشره وقبل كل شيء أن يمتعه الله بالصحة والعافية وراحة البال ، وأن يزيد من أصدقائه ومحبيه .

المصـــــادر :

١– أ .د . عبد الستار عبد الحق الحلوجي : دراسة تحليلية لإنتاجة الفكري من ١٩٦٣ – ١٩٩٧ في : جائزة الملك فيصل العالمية بين الحلوجي وابن جنيد / محمد فتحي عبد الهادي ، أمين سليمان سيدو . – الرياض : مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، ١٩٩٩ . – ص ص ٩٥ – ١٢٥ .

٢– الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات / محمد فتحي عبد الهادي . – ط ٢ . – الرياض : دار المريخ ، ١٩٨١ .

٣– الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات في عشر سنوات ١٩٧٦ – ١٩٨٥ / محمد فتحي عبد الهادي . – الرياض : دار المريخ ، ١٩٨٩ .

٤– الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات ١٩٨٦ – ١٩٩٠ / محمد فتحي عبد الهادي . – الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٥ .

٥– الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات ٢٠٠١ – ٢٠٠٤ / محمد فتحي عبد الهادي . ــ الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ٢٠٠٧ .

٦– السيرة الذاتية للدكتور الحلوجي .

الصورة المادية للمخطوط عند الحلوجي

د. مصطفى طوني*

لا أريد أن أسقط مفهوما فتيًّا لعلم المخطوطات مبلورًا على أنقاض المثاقفة على إسهامات الدكتور عبد الستار الحلوجي ، فارتباطه بالتراث العربي الإسلامي أقدم من هذا الأمر ، وإسهاماته العلمية أسبق من ظهور علم المخطوطات بصيغته الغربية في الوطن العربي . وهو مرجع بدون منازع في دراسة وجمع شوارد هذا التراث الموزعة في بطون الكتب ، والاقتراب من هذا التراث المكتوب بشكل لافت للنظر . وهو مرجع في تجاوز النظرة الضيقة للتراث ، التي تقرنه في المكتوب بالمحتويات فقط ، إلى عالم فسيح يسمح بتبصُّر هذه الأوعية الكثيرة والمختلفة التي حملت لنا هذا التراث طيلة المئات من السنين .

فالأستاذ عبد الستار الحلوجي يعد مرجعًا لثقافة الكتاب والمكتبة بدون منازع . ولا أعتقد أن أحدًا ساوره الاشتغال بهذا التراث الإسلامي ، وأزمع السير في هذا الطريق بنبراس الصبر والعزيمة ، لا توقفه كتابات الحلوجي الغيورة على تراثنا المكتوب ، وعلى مكتباتنا المفرقة في العالم الإسلامي برمَّته ، والتي أخنى عليها الدهر ، وباتت على مرمى من حدثانه بسبب الإهمال والتلاشي وانتفاء الصيانة ، وقس على ذلك من مصائب المكتبات والكتب التي نَعُدُّ منها ولا نعددها ، إذ يشعر الإنسان بالخجل وهو يكتشف تراثًا لا يقدر بثمن يضم في بعض الأحيان أعلاق الكتب ونفائس الدفاتر مدفونًا في

* أستاذ الترجمة وعلم المخطوطات – كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة بن زهر بأغادير – المغرب .

الصناديق والدواليب القديمة المغبرة والمتلاشية .

ثم إن الحلوجي قد عانى الأمرَّين في معاشرة هذا التراث المكتوب ، ومعاينته أحقابًا طويلة ، ودوَّن لنا في كتبه ما من شأنه أن يشكل نبراسًا للاشتغال بهذا التراث المديد الفسيح .

وأريد هنا أن أشتغل قليلًا بتركيب هذا الاهتمام المادي الظاهر للعيان في كتابات الحلوجي ، كما أريد أن أظهر ريادة الرجل في هذا الضرب من البحث . علمًا بأن اهتماماته التراثية تكبرني كثيرًا ، فهي تمتد لتشمل أمورًا أخرى مهمة في هذا التراث ، ومن ذلك الحديث عن المكتبات التي تعتبر امتدادًا طبيعيًّا للكتاب ، ورديفًا متصلًا به[١] ، حتى إنه كان يزاوج الحديث عنهما معًا مرتبطين .

ولم يكن يكتفي في المكتبة أو الكتاب بالجانب التقني الصميم ، بل كان يتعدى ذلك إلى أمور أخرى مهمة جدًّا في معالجة الظاهرة ، مثل التاريخ والمنهجية وحتى الجانب الببليوجرافي أيضًا[٢] .

فقد انتهى به الأمر مثلًا في حديثه عن المكتبات إلى أن يتعقب هذه المؤسسات العلمية

(١) ينظر :كتاب لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات عبد الستار الحلوجي . – ط٢ .– القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩.

(٢) من الأمور اللافتة للنظر في كتابات الحلوجي عن الظواهر المادية المرتبطة بالمخطوط أنه يولي الجانب الببليوجرافي أهمية قصوى ، ففي حديثه عن المداد والأقلام في كتابه : « نحو علم مخطوطات عربي » يكاد الحلوجي يقصر حديثه عن الجانب الببليوجرافي ذاكرًا تصانيف عدد من أعلام هذا المجال من مثل ابن السيد البطليوسي ، وابن مقلة ، وابن البواب ، وابن باديس ، وعبد الرحمن بن أبي حميدة ، وإبراهيم شبوح ، ومحمد بن ميمون بن عمران المراكشي الحميري ، وعبد الرحمن بن الصائغ ، ومحمد بن محمد بن إدريس القضاعي المعروف بالقلوسي ، والصولي ، والقلقشندي ، وغيرهم كثير . ينظر : نحو علم مخطوطات عربي . – القاهرة : دار القاهرة ، ٢٠٠٤ .– ص ص ٦٦ -٧٣

منذ زمن اليونان ، ثم الرومان ، فالزمن الإسلامي ، والمكتبة عند الأوربيين . والأمر نفسه نقوله عن الكتاب ؛ إذ تعقب الوراقة منذ لحظات التأسيس حتىٰ ظهور علم المخطوطات . وهو ، في كل هذه الأمور ، كان حريصًا كل الحرص علىٰ أن يؤطِّر هذه الظواهر المكتبية إبستيمولوجيًّا ؛ كأن يتحدث عن العلم في ظل الحديث عن علوم أخرىٰ مثل الببليوجرافيا ، وعلم المكتبات ، وعلم المخطوطات .

وفي إطار الحديث عن الكتاب نفسه ، يعالج المسألة من كل جوانبها ؛ فهو يتحدث عن مواد الكتابة وأدواتها ومكوناتها ، وعن الزخرفة والتصوير ، وعن الترميم والتجليد ، وعن الحفظ والصيانة وأمور أخرىٰ مادية صميمة ، فقد آنس فقرًا في شروط الصيانة عند الأفراد والمؤسسات مثلًا في حديثه عن هذا الأمر في الوطن العربي ، فأقبل من هذا المنطلق ينعي المهتم العربي بافتقاد جزء وفير من هذا التراث الكبير بسبب هذه الشروط غير المناسبة لصيانة المخطوط .

يقول في هذا الباب : « فالذي يدخل مخازن أي مكتبة عربية يشعر بأسىٰ عميق لما تلقاه المخطوطات من إهمال ، بعد أن تحولت في نظر الكثيرين من المسئولين عنها إلىٰ مواد متحفية ، تعرض منها النسخ التي تتحلىٰ بألوان من الفن في كتابتها أو زخرفتها أو تجليدها ، ويكدس الباقي أكوامًا في المستودعات ليكون طُعمًا أم طعامًا للآفات والحشرات »(١) .

وأنا لا أتأسف فقط علىٰ هذه الآفات والمصائب التي أشعرنا بها ، بل أتأسف بالدرجة الأولىٰ علىٰ تكلس مشاعرنا وافتقادنا للهم التراثي ، وجهلنا الكبير الذي جعلنا لا نعبأ بهذه الأمور ، حتىٰ إن البعض أصبح يقرن بين المخطوطات والتخلف من منطلق انبهاره الأعمىٰ بالغزو المعلوماتي البراق .

ثم إن الحلوجي لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يستمر في وصف الإهمال والإتلاف

(١) دراسات في الكتب والمكتبات . – جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٨ . – ص ١٧٢ .

اللذين يتعرض لهما تراثنا من جراء العوامل المناخية أو انعدام الصيانة المتمثلة في التعقيم والترميم(١) وهذه ، في الحقيقة ، أهم مأساة تجترح خوالج كل غيور علىٰ هذا التراث وخاصة أننا نرىٰ بأم أعيننا مآسيه المتكررة . ولست بحاجة إلىٰ أن أذكر الانتهاكات الإبستيمولوجية التي يقترفها أولئك المتعالمون في جميع الحقول المعرفية ، فيحجبون ببضاعتهم الزائفة المعرفة العلمية الصميمة علىٰ الباحثين .

وقد أخذ الحلوجي علىٰ عاتقه محاربة مثل هذه الحملات غير المدروسة لمجموعة من المتطاولين علىٰ الانشغال بمادية المخطوط . بالرغم من أننا ، في هذا الباب ، لا نتحدث عن علم المخطوطات بمفهومه الصميم ، وإنما نلامس الاهتمام بمادية المخطوط علىٰ اعتبار أن الصورة المادية لهذا الكتاب القديم تعتبر في ذاتها جزءًا من النظرية .

وقد عَنَّ لنا في ثقافة عبد الستار الحلوجي ما يشفي الغليل في هذا الباب ، و سيكون من المجدي أن نظهر فلسفتنا نحن للمخطوط لتسويغ اهتمامنا بماديته علىٰ أساس أن الوعي المادي بالمخطوط ، والفقه بهذا المجال الفسيح ، يشكلان أُسَّ البحث في علم المخطوطات .

وسيكون من التنطع أن يلج الباحث علم المخطوطات وهو لا يعرف شيئًا عن تاريخ الكتاب ، أو صناعة الكتاب ، أو عناصر النساخة فيه ، أو شروط صيانته . وقس علىٰ ذلك أمورًا لا تدرك إلا بالمعاشرة الطويلة والشاقة مع التراث المكتوب ، حتىٰ إن بعض الباحثين قد جعل التاريخ الثقافي وعاءً للكوديكولوجيا(٢) .

(٢) دراسات في الكتب والمكتبات . ص ١٧٢ .

(٢) مثال ذلك رأي ألبيرت دورلز في كتابه : Codicologie des manuscrits en écriture humanistique sur parchemin وينظر كتابنا : مقالات في علم المخطوطات . – الرباط : دار القلم ، ٢٠٠٠ . ص ٧٩ .

ولن يجدي العلم بصفته نظرية ومنهجًا في شيء ، إذا كان العالم حديث العهد بالتراث المكتوب بحثًا في تاريخ الكتاب ومواد كتابته ، وتنقيبًا في أمِدَّته وخطوطه وأدواته وتاريخه وتقاييده وتزاويقه ونمنماته وتصاويره وتجليداته وصيانته وفهرسته ، وغير ذلك من أمور نَعُدُّ منها ولا نُعَدِّدها .

إننا مقتنعون بأن الصورة المادية للسِّفر القديم كانت مجهولة من لدن الكثير من الباحثين ، ومقتنعون أيضًا بأن الألى تصدوا لهذا المجال هم زمرة قليلة من المجدِّين في باب التراث ، من أمثال أستاذنا عبد الستار الحلوجي ، ومحمد المنوني ، وعصام الشنطي ، وأحمد شوقي بنبين ، وقاسم السامرائي ، ونظرًا لكون هذه الصورة المادية للسِّفر هي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها علم المخطوطات ، فإننا نرى من الصائب أن نسوق مفهومًا وجيزًا لعلم المخطوطات بحسب ما هو متعارف عليه في العصر الحديث ، وذلك للاستئناس بهذا العلم في مسيرة وقوفنا على أحد أعلام المخطوطات في العصر الحديث .

● **مفهوم علم المخطوطات :**

علم المخطوطات أو علم المخطوط Codicologie مجال معرفي جديد نظريًّا في العالم العربي ، قديمٌ في الممارسة في تراثنا القديم ، وإن بشكل جزئي . وقد عرفناه في «معجم مصطلحات المخطوط العربي» بما يلي : « علم المخطوط بالمفهوم الحديث هو دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية ، والمصطلح من وضع العالم الفرنسي ألفونس دان (A .Dain) والكلمة مركبة من اللفظة اللاتينية «كوديكس» أي كتاب ، ومن اللفظة اليونانية « لوجوس » بمعنى « دراسة » وقد دخلت المعجم الفرنسي سنة ١٩٥٩م»[١]

(١) معجم مصطلحات المخطوط العربي : قاموس كوديكولوجي / أحمد شوقي بنبين ، مصطفى طوبي . – ط ٣ . – الرباط منشورات الخزانة الحسنية ، ٢٠٠٥ . ص ٣٠٢ .

واستعملها القدامى ، أحيانًا ، بمفهوم الوراقة[١] ، أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة وصناعة وتجارة وترميم وما إلى ذلك . وقد بقي هذا العلم في العصر الحديث منحصرًا في الاهتمامات التاريخية والفهرسية . وإذا نظرنا إلى أدبيات علم المخطوطات في بداية القرن العشرين ألفينا « ألفونس دان : A .Dain » مثلًا يقدم تعريفًا مختلفًا لما هو معروف ومتداول عندنا اليوم ، بيد أنه يشكل الإرهاصات الأولى لهذا العلم في صورته المنظمة .

فهو يُدخِل في هذا العلم تاريخ المخطوطات ، وتاريخ مجموعات المخطوطات ، والبحث عن المواقع الحديثة للمخطوطات ، ومشاكل الفهرسة ، وسجلات الفهارس ، وتجارة المخطوطات واستعمالها .. إلخ[٢] .

ويستمر أحمد شوقي بنبين في هذه الصورة العلمية التي تحرص على إدخال عناصر مدعمة للعلم بمفهومه الصميم . فلا يفوته في حديثه عن علم المخطوط العربي أن يتحدث عن الهوامش النصية والفهارس في فهم هذا العلم ، إذ يعرفه بما يلي : «الكوديكولوجيا هي دراسة كل أثر لا يرتبط بالنص الأساسي وبالتالي بحث العناصر المادية للمخطوط ، وبعبارة أخرى هو علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات ، وما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه أو نسخوه أو قرأوه أو استعملوه أو وقفوه ، ثم الجهة التي آل إليها ، والمصدر الذي جاء منه ، ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط من ترتيب وتوريق وترقيم وغير ذلك ، ثم تاريخ المجموعات ووضع القوائم والفهارس العلمية ، والكشافات

(١) هي عملية الانتساخ والتصحيح والتسفير وسائر الشئون المكتبية والدواوين بلغة ابن خلدون في المقدمة . – بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م . ص ٣٣٤ .

(2)- Dain, A. Les manuscrits .- " les Belles Lettres" .- Paris , troisième édition , 1975 p.p : 76 - 93 .

وفهارس الفهارس ، وغيرها » .(١)

أما قاسم السامرائي فيضيق ذرعًا بالمثاقفة العمياء ، ويفكر في علم صميم من طبيعة المخطوطات العربية ، فيتملص من مفهوم « الكوديكولوجيا » ، ويقترح مصطلح « علم الاكتناه » ، إلا أنه يعود إلى الثقافة الأجنبية ، ويوسع هذا المجال العلمي ليبتلع علومًا عديدة مثل علم الخط العربي ، والتحقيق العلمي ، وعلم المخطوطات ، والفهرسة ، والتاريخ .. ومع ذلك فهو يذهب إلى أن هذا العلم يشمل فنين في اللغات الأوروبية ؛ أولهما باليوجرافي وهو الفن الذي يُعنى بفك الخطوط القديمة ورموز الكتابات الأثرية والنقوش والمسكوكات ، وثانيهما كوديكولوجي وهو علم دراسة الكتاب المخطوط وصناعته(٢) .

ويذهب « ألبيرت دورلز » إلى أن علم المخطوطات هو مجال تاريخي « إن الكوديكولوجيا أو أركيولوجيا الكتاب المخطوط هي المجال التاريخي الذي يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعًا ماديًا أو بعبارة أحسن بوصفه وعاء للنصوص »(٣) .

وأما «جاك لومير» فقد استوعب الصورة الأثرية لعلم المخطوطات ، فركز على الجانب المادي أو الصناعي في تعريفه لهذا العلم . يقول : « فيجب أن يهتم هذا العلم في نظرنا بدراسة مختلف مظاهر الصناعة المادية الأولية للكراس قبل أن يهتم بأي شيء آخر »(٤) .

ويكون «جاك لومير» من هذا المنطلق مخلصًا بشكل كبير للحفر المبني على الملاحظة ،

(١) دراسات في علم المخطوطات. ص ٢٥

(٢) علم الاكتناه العربي الإسلامي . – الرياض ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م – ص ١٧ وما بعدها .

(٣) مقالات في علم المخطوطات . ص ٨١ .

(٤) مدخل إلى علم المخطوط / ترجمة مصطفى طوبي .– الرباط : الخزانة الحسنية ، ٢٠٠٦ .

وهذا التوجه الأركيولوجي الصميم نجده حاضرًا عند « ليون جلسان » في كتابه « تمهيد لعلم المخطوطات »(١) أكثر منه عند جاك لومير ، إذ أنه أخلص في كتابه المذكور إلى أركيولوجيا صناعة الكراريس . ويقترح الباحث الواعد محمود محمد زكي مفهومًا لعلم المخطوطات مقتربًا إلى حدٍّ ما من مفهوم الحلوجي ، وذلك في معرض عرضه لكتاب الحلوجي « نحو علم مخطوطات عربي » قائلًا : « فنخلص من ذلك كله إلى أن محاور علم المخطوط الإسلامي حسب ما ارتأيته – والله أعلم – هي :-

١ـ تاريخ المخطوط ٢ – صناعة المخطوط

٣ – النصوص المصاحبة ٤ – الصيانة والترميم

٥ – وسائل إتاحة المخطوط ٦ – الفهرسة والضبط الببليوجرافي

٧ – التوثيق والتقييم والتحقيق »(٢) .

هكذا تختلف مفاهيم هذا العلم بحسب المرجعيات الثقافية التي ينطلق منها هذا الباحث أو ذاك . وصورة علم المخطوطات بحسب ما نرى إنما هي أساسًا الاهتمام بالجوانب المادية في الكتاب المخطوط في إطار تصور شمولي يركِّز على الحفر ، أي أنه العلم الذي يتناول الكتاب المخطوط من حيث مكونات الورق أو المادة المكتوب فيها ، والطي ، وصناعة الكراريس ، والترتيب (أي مسألة كتابة النص في علاقته الزمنية بطي الفرخة أو صناعة الكراسة) ، وتركيب الصفحات (أو دراسة التناسبات الممكنة بين

(1)Prolégomènes à la codicologie , Léon Gilissen , Editions scientifiques , story scientia S.P.R.L.Gand, 1977.

(٢) نحو علم مخطوطات عربي للدكتور عبد الستار الحلوجي / عرض ومناقشة محمود محمد زكي .– « مجلة الفهرست » .– (أكتوبر ٢٠٠٦) . ص ١٣٤ .

درج أو أدراج النص وطرر الصفحة)[١] ، والحزم ، والتسطير ، والنمنمة ، والزخرفة ، والتذهيب ، والتسفير أو التجليد . وهو من جهة أخرىٰ العلم الذي يُعنىٰ بجزئيات النِّساخة التي يقابلها باللغة الفرنسية[٢] Transcription إذ أن هذا المصطلح يعني بداية نص ونهايته ، وحرد المتن ، والوقف ، والإجازة ، والقراءة ، وقيد التملك ، وقيد البيع ، وقيد الشراء ، والأدعية ، والعبارات الشاردة ، والرقاص أو التعقيبة ، والفوائد ، وقيود الصيانة ، والسرلوحات أو الفضاءات الاستهلالية المزخرفة والمكتوبة ، وعناوين الأبواب ، وعناوين الفصول ، وما سار في هذا المنحىٰ من أمور نساخية نعد منها ولا نعددها . وتشكل هذه الأمور جميعها مادة لافتة للنظر في دراسة مادة المخطوط في إطار نسق معرفي يسلكها ، فتتحصل المعرفة الأركيولوجية من المادة المكتوبة في كل أبعادها[٣] .

وأخيرًا ، فلستُ أريد أن أوازي بين علم المخطوطات بالشكل الذي استقر عليه رأينا في نسج هذا العلم في العالم العربي والاجتهادات التي قدمها عبد الستار الحلوجي في مجال التراث . فيجب أن نعترف بأن هذا العلم هو ثمرة الاشتغال بالتراث ، وهو تتويج لجهبذية العالم وإحاطته بالتاريخ الثقافي ، والفهرسة ، والتصنيف ، والببليوجرافيا ، وعلم الحديث ، والأعلام والتراجم ، والعلوم اللغوية ، وما سار في هذا المنحىٰ ، أي أن

(١) عادة ما تكون الطرة الداخلية petit fond هي الطرة الصغرىٰ ضمن طرر النص ، تليها طرة الرأس ثم الطرة الخارجية وأخيرًا طرة الذيل أو الطرة التحتانية بتعبير الرفاعي في كتابه : « حلية الكتاب » .

(٢) يقصد بالنساخة في علم المخطوطات كل ما كتب في المخطوط وليس من النص بمفهومه الدقيق. ويقابله باللغة الفرنسية مصطلح : Transcription .

(٣) وضحنا تصورنا في مقال « من أجل دراسة حفرية للمخطوطات » المنشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث ، ٢٠٠٨ م .

علم المخطوطات هو تتويج لمعرفة موسوعية شاملة لكل ما يرتبط بالمخطوط .

وإذا كان هذ العلم ينشد فعلًا الموسوعية فقد أصابها العالم وأخطأها المتنطعون المتشدقون بالمصطلحات الإفرنجية ظنًّا منهم أنها « افتح يا سمسم » فينفتح الكنز التراثي أمامهم ! هيهات لهم ذلك ، فالطريق طويل وشاق ، وأنىٰ لنا أن نتطاول علىٰ شيوخ أفنوا أعمارهم في البحث والتحصيل ، فالتحصيل في التراث كَمِّي وليس كيفيًّا إلا بنسبة ضئيلة .

و الرجل ، من جهة أخرىٰ ، لم يتبجح بعلم من العلوم . وهو مخلص غاية الإخلاص للعناوين التي يضعها لكتبه . وغاية ما يمكن أن أقول إن روح الاهتمام المادي بالمخطوط أو الأوليات الأساسية لعلم المخطوط محصَّلة في كتابات الحلوجي ، كامنة فيها أو ظاهرة بشكل جلي كما في كتابه « نحو علم مخطوطات عربي»[١] .

وهو لا يكتفي بهذه الأمور المادية الصميمة ، وإنما يتعدَّىٰ ذلك إلىٰ ملحمة الكتاب والمكتبة ، حتىٰ إن القراء ليجدون فيه ثقافات وعلومًا كثيرة . فالرجل يتحدث عن الخط والخطاطين ، وعن مواد الكتابة وأدواتها ، وعن الوراقة ، وعن تاريخ الكتاب وعن تاريخ المكتبة ، وعن الببليوجرافيا ، وعن التجليد والتصوير والزخرفة ، وعن شروط الصيانة إلخ . أي أن الحلوجي قد اهتم بصنعة المخطوط في مهايع كثيرة ، وفي فترة سابقة عن هذه المثاقفة التي جعلتنا نعيد النظر في ذواتنا . وهو من جهة أخرىٰ قد اهتدىٰ إلىٰ أهمية الصنعة المادية للمخطوط بدون إملاءات خارجية أو داخلية ، وإنما أصواؤه الكبرىٰ تجليات التراث في كل أشكاله .

وأنا الآن مطمئن في حديثي عن إسهامات الرجل في هذا الباب من منطلق أنني تتلمذت عليه منذ أن فتحت عيني علىٰ التعامل مع التراث ، وأذكر أنني كنت في فترة

(١) نحو علم مخطوطات عربي . – القاهرة : دار القاهرة ، ٢٠٠٤ .

الإعداد لرسالة الماجستير[١] أنقب عن المؤلفات المرتبطة من قريب أو بعيد بموضوع الدراسة (مادية الكتاب المخطوط) ، فألفيت كتب الحلوجي إجرائية جدًّا في مجال دقيق ومحدود ، فهو سبَّاق إلى اقتحام أغلب العناصر أو المباحث التي تشكل في مجموعها معاقرة صريحة لوعاء الكتابة ، ويجب أن أذكر أنه أحسن من أجاد في التعرض للصورة المادية للمخطوط .

● **الحلوجي وعلم المخطوطات :**

لسنا بحاجة إلى أن نركن إلى التأطير الإبستيمولوجي الحديث لعلم المخطوطات بحسب ما جاء به العلماء الأجانب بطريقة حرفية دون الحوار مع طبيعة تراثنا المكتوب ، ودون تفهم الاختلافات النوعية في تعريف علم المخطوطات بين هذا الباحث وذاك ، وفي مقابل ذلك لا أظن أننا سنكون محتاجين كثيرًا لعدد من المبادرات العربية المتنابزة بالعلم والمفتقدة إلى جذور التراث ، وإنما يتوجب علينا أن ننمي خطابنا للتراث من داخله أولًا ، دون أن نغض الطرف عن المستجدات العلمية لدى الآخر إن كان فيها نفع لنا .

ينتهي بنا الأمر بحسب هذه الرؤية إلى أن الحلوجي قد أنصت إلى التراث بشكل لافت للنظر ، وهو من جهة أخرى قد أحاط بعلم المخطوط بحسب مفهومه الحديث ، و اطمأن إليه ، واحترم انشغالاته الخاصة ومنهجه الخاص في التعامل مع التراث دون تلميع أو استعارة عناوين مستوردة ، وانشغل طويلًا في مسيرته العلمية بالمجهودات التراثية التي تصبُّ في هذا الباب ، دون أن تبتعد عنه من قريب أو بعيد . ونشير إلى أن

(١) « مدخل إلى علم المخطوط » لـ « جاك لومير » ترجمة وتقديم في الكودكولوجيا رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب / إعداد مصطفى طوبي ؛ إشراف أحمد شوقي بنبين . ــ كلية الآداب / الرباط (٢٧ - ١٠ - ١٩٩٧).

هذه الأعمال التراثية جاءت مجزأة وعرضية في بعض الأحيان ومجموعة ومنسقة في أحيان أخرى .

وقد استطاع أن يكوِّن تصورًا خاصًّا لهذا المجال العلمي مبنيًّا أساسًا على فهمه الدقيق لخصائص المخطوط العربي ، ويظهر ذلك جليًّا أولًا في كتابه « نحو علم مخطوطات عربي » ، وثانيًا في مجموعة من القراءات النقدية لمجموعة من الباحثين في هذا المجال . إنه يحصر علم المخطوطات في ستة عناصر هي تاريخ المخطوط ، والكيان المادي للمخطوط ، وتقييم المخطوطات ومعايير تقييمها التي قد تعتمد على التقاييد النصية الموجودة في النسخ ، والحفظ والصيانة ، وأساليب التعقيم والترميم والتصوير ، والفهرسة والضبط الببليوجرافي ، والتحقيق والنشر[١] .

وهذه العناصر الستة هي الركائز الأساسية المكونة لعلم المخطوطات . يقول : « وفي تقديري أن علم المخطوط العربي يقوم على دعائم ست ، ويدخل تحت مظلته ستة موضوعات أو محاور أساسية »[٢] .

ويبدأ هذه العناصر بتاريخ المخطوط . ثم يتبعه بالاهتمام المادي للمخطوط ، وذلك يشمل في نظره « الحديث عن المادة التي يكتب عليها ، والأدوات التي يكتب بها من أقلام وأحبار»[٣] . ثم يتبع ذلك بالحديث عن العنصر الثالث وهو تقييم المخطوطات « ويدخل في هذا الموضوع توثيق النسخ المخطوطة ومظاهره المتعددة ، كالتملُّكات والسماعات والإجازات ، فهذه الأنماط المختلفة تعد عناصر أساسية للحكم على صحة

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ص ١٦ ،١٧

(٢) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١٦

(٣) المصدر السابق . ص ١٦

المخطوط وتقدير قيمته »[١] .

والعنصر الرابع في هذا النسق العلمي هو الحفظ والصيانة وأساليب التعقيم والتصوير والترميم ؛ وهي عنده طرائق حماية المخطوطات ، وتجنيبها عوامل البلى والفساد ، أو كما يقول : « كيف نتيح هذه المخطوطات في أشكال يسهل التعامل معها والاستفادة منها دون يكون لذلك أي أثر سلبي على الأصول المخطوطة »[٢] . أما العنصر الخامس فهو الفهرسة والضبط الببليوجرافي ، « ويدخل تحت هذا الموضوع تقنينات فهرسة المخطوط ومشكلات الفهرسة ، وفهارس المخطوطات العربية في العالم ، وأدوات حصر تلك المخطوطات»[٣] .

ويتحدث في العنصر السادس والأخير عن التحقيق والنشر ؛ ويشمل هذا العنصر «بدايات التحقيق على أيدي علماء الحديث ، ومناهج العلماء المحدثين من العرب والمستشرقين ، وخطوات التحقيق ومراحله ، والأدوات التي يستعين بها المحقق على أداء عملية التحقيق »[٤] . وهذه هي الصورة العامة لعلم المخطوطات عند الحلوجي وهي – كما نرى – تستوعب كل قضايا المخطوط العربي بدءًا من تاريخه الذي يُعدُّ ضربة لازب لكل باحث في التراث ، وانتهاء بتحقيقه وإخراجه إلى القراء في الصورة النموذجية المتوخَّاة من السواد الأعظم من المهتمين . وقد تنبه الحلوجي إلى أن هذا الاقتراح قد يلقى نقاشًا من قبل المهتمين ، فاستبق الأمر إلى استعداده للنقاش برحابة صدر قائلًا : « وأنا أعرف أن جدلًا قد يثور حول محور أو أكثر من تلك المحاور ، وهو

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١٧

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) المصدر السابق والصفحة .

(٤) المصدر السابق والصفحة .

جدل أرحب به وأحمده لأهله لأنه يمكن أن يثري هذه الدراسة »[١] .

وقد عمل الحلوجي على توسيع هذه النقاط الجوهرية في كتابه «نحو علم مخطوطات عربي » . أما موقفه من الباحثين الآخرين فهو طبعًا ينطلق من تصوره الخاص لهذا العلم . ومثال ذلك موقفه من التصور الخاص لعلم المخطوطات عند أيمن فؤاد سيد من خلال كتابه : « الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات »[٢] حيث يلاحظ قصورًا في إدراك هذا العلم من قبل هذا الأخير ، وتفكُّكًا في تصور المنهج . وهو ينطلق في هذا التقويم من أمور مرتبطة بالموضوع والمنهج .

يقول : « عنوان الكتاب هو : الكتاب العربي وعلم المخطوطات ، وهو عنوان جيد ولا شك ، ولكنه لا يعبر تعبيرًا دقيقًا عن محتويات الكتاب ، ففي حديثه عن صناعة الكتاب نراه يتحدث عن الرق والمداد والتجليد والخط ، ولكنه لا يذكر شيئًا عن أساليب كتابة المخطوط ، والاختصارات والرموز التي كانت تستعمل ، وكيفية تصويب الأخطاء ، والإلحاق بالحواشي ، وغير ذلك من الأمور التي يصعب فهم النص واستيعابه بدون معرفتها . يضاف إلى ذلك أن من يقرأ الكتاب لا يخرج بتصور واضح أو باهت عن علم المخطوطات »[٣] .

ويقول أيضًا في انتقاده للصورة المادية للمخطوطات عند أيمن فؤاد : « هذا الكتاب محاولة لدراسة كوديكولوجيا الكتاب العربي المخطوط في الشرق على وجه خاص . وعرَّف الكوديكولوجيا بأنها « علم خاص بدراسة الشكل المادي للمخطوطات » ، فهل الفهرسة والتحقيق والنشر والصيانة والترميم والمكتبات الإسلامية وهواة الكتب

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١٧ .

(٢) الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٧ .

(٣) المخطوطات والتراث العربي ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠١ . ص ١٠٩ .

ومجموعات المخطوطات في تركيا وأوروبا ، وفهارس جامع القيروان والتربة الأشرفية ، من دراسة الشكل المادي للمخطوطات ؟ »[١] .

إنه ينكر أن يكون علم المخطوطات أو الدراسة المادية للمخطوطات جمعًا عشوائيًّا لكل المعطيات التراثية ، ويتتبع خيوط الأمر من أوله حينما ينطلق من التعريف ، ومعنىٰ هذا أنه يقترح – وإن بطريقة جوانية – الدقة والسلامة النظرية في تصور العلم أو في جمع مباحثه ، لا سيما أنه هو أيضًا يُدخِل التاريخ والفهرسة والصيانة في علم المخطوطات .

إن هذا التقويم يكشف عن المفهوم الذي بلوره الحلوجي عن علم المخطوطات . فهذا العلم عنده لا ينحصر في الحديث عن الرق والمداد والتجليد والخط ، ،وإنما يتعدىٰ ذلك إلىٰ أمور أخرىٰ دقيقة في هندسة المخطوط العربي مثل طرق كتابة المخطوط ، والاختصارات والرموز ، والتصويبات ، والحواشي ، وتاريخ المخطوط وصناعته أو الكيان المادي للمخطوط الذي يقول فيه : « وإذا كانت الدراسة التاريخية للمخطوط العربي تمثل الضلع الأول من أضلاع علم المخطوطات ، فإن الضلع الثاني هو دراسة المخطوط باعتباره وعاء من أوعية المعلومات ، أو بعبارة أخرىٰ دراسة الحالة المادية للمخطوط ، مم صنع ؟ وعلىٰ أي شيء كتب ؟ وبأي الخطوط والأقلام كتب ؟ وما الذي أضيف إليه من وسائل التوضيح ومظاهر التجميل ؟ وكيف استوىٰ في صورته النهائية التي وصلت إلينا ؟ »[٢] .

ويستوعب علم المخطوطات عنده أيضًا التوثيق والتقييم وهو ما يترجمه بقوله : « وفي تعاملنا مع المخطوط العربي ينبغي أن نتنبه إلىٰ أن النسخ المخطوطة تتفاوت فيما بينها تفاوتًا شديدًا . فهناك المسودات والمبيضات ، وهناك نسخ مملاة ونسخ بخطوط المؤلفين ، ونسخ

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١١١

(٢) المصدر السابق . ص ٥٩

كتبها علماء ثقات ، ونسخ أخرىٰ كتبها وراقون يتفاوتون في درجة الدقة والإتقان . وهناك نسخ موثقة ، ونسخ مزيفة أو مزورة ، ونسخ نادرة وأخرىٰ لا تساوي أكثر من الورق الذي نسخت فيه وتلك مسألة تدخل في صميم علم المخطوط العربي »[١] .

ويستوعب العلم أيضًا الصيانة والترميم والتصوير . وإذا كانت الصيانة والترميم عمليتين معروفتين ومألوفتين ، فإن التصوير عنده : « إما أن يكون علىٰ ورق حساس أو علىٰ ورق عادي أو علىٰ أفلام أو علىٰ أقراص مضغوطة أو مكتنزة CD أو باختزان النصوص المخطوطة في الحاسب ، أو نقلها إلىٰ شبكة المعلومات العالمية »[٢] . ويستوعب العلم أيضًا الفهرسة والضبط الببليوجرافي والتحقيق والنشر .

ونحن نقول إن هذه الأمور ليست جديدة علىٰ الأستاذ الحلوجي ، فقد اهتم بها ردحًا طويلًا من الدهر ، ولكن الجديد عنده هو التنظيم المحكم لهذه الأبواب ، ولذلك فهو لم يكن مندفعًا بشكل انبهاري في الحديث عن هذا العلم ، إذ أنه كان متأكدًا أنه بإزاء أمور مألوفة ، انبجس في الحديث عنها عقودًا كثيرة ، قبل أن يتشدق بها زمرة من المتعالمين .

ثم إننا لا نفهم من ذلك أنه قد تحدث أو قد استوعب علم المخطوطات بطريقة مفككة لا يعروها رابط يلحمها . فهو ، علىٰ العكس من ذلك ، يركز علىٰ هذا الرابط . يقول عن كتاب أيمن فؤاد سيد الآنف الذكر : « إن الكتاب يجمع أشتاتًا متفرقة من المعلومات ، ولكنه يفتقر إلىٰ وضوح الرؤية في عرض هذه المعلومات بطريقة منطقية تتسلسل فيها الأفكار وكأنها حلقات متصلة يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويستبعد منها ما يشذُّ بها عن السياق »[٣] .

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ٨٥

(٢) المصدر السابق . ص ١١٧

(٣) المخطوطات والتراث العربي . ص ١٠٩ .

ويقول أيضًا في انتقاده للكتابات العربية في علم المخطوطات ، وأعني بها كتابات أحمد شوقي بنبين وقاسم السامرائي وأيمن فؤاد سيد : « وكل واحد من تلك الكتب يستحق التقدير لما فيه من جهد وعلم ، ولكن أيًّا منها لا يقدم تصورًا كاملًا لما يمكن أن نسميه « علم المخطوط العربي » ، فمنها ما يتناول أشتاتًا متفرقة لا يحكمها منطق في العرض ، ولا يربطها خط فكري واضح في تسلسله ، فجاءت فصوله متناثرة يصعب نظمها في عقد كامل متصل الحلقات ، ومنها ما يتناول موضوعات ليست من المخطوط العربي ولا من علم المخطوط ، مثل المسكوكات ، وطباعة الكتاب الإسلامي ، والأنباط وتاريخهم السياسي والحضاري في كتاب علم الاكتناه العربي الإسلامي ، والمكتبات الإسلامية ، وهواة الكتب في كتاب « المخطوط العربي وعلم المخطوطات » ، والمخطوط العبري في كتاب « المخطوط العربي وعلم المخطوطات » ، وموقف العرب والمستشرقين من إحراق مكتبة الإسكندرية ، وابن يوسف جامع أو جامعة في « دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوجرافي »[1] .

إن الحلوجي في تقويمه لرأي هؤلاء الباحثين قد أفصح بشكل جليٍّ عن مفهوم علم المخطوطات ، إنه مجموعة من العناصر الصناعية في المخطوط العربي الإسلامي منتظمةً في إطار كونها خارجة عن محتوى المخطوط العربي . وهذا ما عكس مادته الأساسية في كتابه : « المخطوط العربي » حينما استهله بالحديث عن أدوات الكتابة وموادها ، ثم انتقل إلى الحديث عن الخط أو الكتابة ، ثم تحدث عن الوراقة ، وهي الصنعة الوراقية الأكثر شهرة في العصر القديم ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن عناصر النساخة ضمن حديثه عن كتابة المخطوط ، فتناول ضبط الكتب في القديم ، وصفحة العنوان ، وبداية المخطوط ، وعناوين الفصول ، والعناوين الجانبية ، والهوامش ، والتسطير ، وعلامات

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ٧

الترقيم ، والاختزال في الكتابة ، والتصويبات والإضافات ، ونهاية المخطوط ، وأحجام أوراق المخطوطات ، وترقيم الأوراق والصفحات والتملكات ، والسماعات والإجازات والفوائد[1] ، وما أعلن عنه أيضًا بشكل واضح في كتاب « نحو علم مخطوطات عربي » الذي أتينا على ذكر محاوره الأساسية ، والذي يعد بحق إعادة تنظيم لاهتماماته التراثية السابقة . ولعله حينما تحدث عن الانتظام في المباحث قد أخلص حقًّا لهذا الانسجام الذي حققه هو نفسه في هذا الكتاب .

● الصورة المادية للمخطوط عند الحلوجي

حينما نتحدث عن الصورة المادية للمخطوط فنحن نقصد أصلًا هذا الوعي العلمي الرائد بأهمية الوعاء الذي يحمل إلينا المعلومات ، إلى جانب الاهتمام بالمعلومات في ذاتها فقد بشمنا من الحديث المستفيض عن العلوم في ذاتها ، وإهمال ما سواها ، حتى أننا نلاحظ أن هناك ندوات متخصصة في هذا المجال العلمي المهتم أصلًا بالجانب المادي للمخطوط ، لم يلتزم فيها ذووها إلا بالعنوان ، وانهمكوا في الأمور التي يعرفونها عن المخطوط ، وربما يعود هذا الأمر إلى عدم اكتمال الصورة الدقيقة لعلم المخطوطات في أذهان الباحثين نظرًا لحداثة العلم في الوطن العربي . وأذكر بهذا الخصوص الندوة الدولية التي نظمت بالرباط سنة ١٩٩٢ م ،[2] ولم يكن لها من علم المخطوطات إلا الاسم ، إذ أن أغلب الأبحاث التي قدمت فيها كانت ترتبط بمحتويات الكتاب أكثر من ارتباطها بالوعاء ، مثل بحث جورج عطية عن « المخطوطات العربية والإسلامية في

(١) ينظر المخطوط العربي .ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) المخطوط العربي وعلم المخطوطات / ندوة بتنسيق أحمد شوقي بنبين ، كلية الآداب / الرباط ، ١٩٩٤ م

مكتبة الكونجرس الأمريكية »[١] ، وبحث الأستاذ محمد بن شريفة الذي عنوانه «نظرة حول الخط الأندلسي »[٢] ، وبحث الناجي الأمجد عن « الخط المغربي والهوية المفقودة »[٣] . وأرى أن هذا الأمر من أكبر العوائق الإبستيمولوجية التي تقف دون نمو العلم ، ليس فقط في هذا الباب ، بل في جميع العلوم الإنسانية التي لا تحترم فيها المؤهلات العلمية للعلماء ، ويفتح الباب على مصراعيه لزمرة من المتطفلين والمتعالمين .

ولعل الاهتمام بالصورة المادية للمخطوط هو من انشغالات علم المخطوطات ، وتبقى نوعية هذه المادية مختلفة من باحث إلى آخر . ولذلك رأينا أن نتطرق لهذا الباب عند الحلوجي عِوَض علم المخطوطات بمفهومه الصميم لسببين رئيسين :-

أولًا : لأن الاهتمام بمادية المخطوط هو أمر سابق للتنظير لعلم المخطوطات عند عبد الستار الحلوجي . وأكبر دليل على ذلك نوعية الأبحاث الموجودة في كتابه القيم « المخطوط العربي » .

وثانيًا : لأن فضاء علم المخطوطات عند الحلوجي هو فضاء واسع يتجاوز مادية المخطوط بمفهومه الدقيق ، إلى جانبٍ من التاريخ الثقافي ، وجوانبَ من الصيانة والفهرسة ، والتحقيق والنشر . وهكذا يمكن القول إن الاهتمام المادي بالمخطوط عند الحلوجي يتمثل في مجموعة من الأبواب ؛ نتطرق ضمنها إلى باب مواد الكتابة ، وباب الوراقة ، وباب كتابة المخطوط ، وباب الزخرفة والتذهيب والتجليد .

(١) نحو علم مخطوطات عربي . ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق . ص ٧٣.

(٣) المصدر السابق . ص ٨٧.

● **باب مواد الكتابة .**

إن الاشتغال بهذا الباب يعد لبنة رئيسة في معاينة الجانب المادي في الكتاب المصنوع بطريقة تقليدية ، إذ أن هذه المعاينة تعدُّ همًّا من الهموم التي يجب على الباحث أن يتصدى لها . وقد قدم لنا عبد الستار الحلوجي في هذا الباب ما لا يدع لنا مجالًا للبحث في أمهات الكتب التي تناولت هذا العنصر ، لاسيما أننا نعرف أن كثيرًا من فقهاء الوراقة القديمة قد ناقشوا هذا العنصر ، وخاصة في علاقته بعلم الحديث . ولم يكتف الحلوجي بالحديث عن مواد الكتابة هذه التي عَدَّ منها العسب ، والكرانيف ، والأكتاف ، والأضلاع ، واللخاف ، والرق ، والأديم ، والقضيم ، والمهارق ، والكرابيس ، والرقاع ، والأقتاب ، والبردي ، والقباطي ، والورق ، وإنما ساق شواهد من القرآن الكريم أو من الشعر القديم تؤكد استعمال هذه المواد في العصور المذكورة ، واعتمد بشكل كبير على كبار المؤلفين الذين تناولوا هذا الباب من أمثال الصولي والقلقشندي وآخرين .

وبالشكل الذي تحدث به عن مواد الكتابة تحدث عن أدوات الكتابة ، وهو باب ما زال أيضًا ، في أغلبه ، مجهولًا في أدبيات الكتابات الحديثة . وقد أفاض الحديث عن الأقلام وطرائق صناعتها ، وعن الأمِدَّة وأنواعها ، والمواد الأولية المستعملة في صناعتها ، والدويِّ وأنواعها .

كما بحث بشكل مستفيض أيضًا في علاقة الأحبار بمواد الكتابة ، يقول في هذا الباب : «وكان المداد يُجلَب من الصين ، كما كان يصنع في بلاد العرب ، إما من العفص والزَّاج والصمغ ، وإما من الدخان . والنوع الأول يناسب الرَّق ، ويسمى الحبر المطبوخ أو الحبر الرأس ، ويتصف بالبريق واللمعان ، أما النوع الثاني ، وهو حبر الدخان ، فيناسب الورق ولا يصلح للجلود والرق ؛ لأنه كما يقول ابن السيد البطليوسي « قليل اللبث

فيها ، سريع الزوال عنها »[1]. وحديثه هذا نقطة جوهرية في بنيان الصورة المادية للمخطوطات ، فهذا المجال مؤسس على التاريخ بشكل كبير . ولا يمكن أن نقول في أثرية الكتاب ، ونحن نجهل الواقع الاجتماعي والاقتصادي لهذه المواد التي حملت لنا هذه الآثار عبر العصور ، ونعرف الأزمنة التي هيمن فيها البردي على مواد الكتابة ، وأزمنة الرق والورق ، وأنواع الورق ومكوناته ، وأنواع الأمِدَّة ، ومقاسات الورق . فهذه الأمور مرتبطة في عمومها بالتاريخ الثقافي ، ومع ذلك فنحن نرى أنها أساسٌ ضروري لعلم المخطوطات ، لا يستقيم البحث في هذا المجال دون أن يحصل تقاطع بينها وبين التاريخ الثقافي لأمة من الأمم .

ونحن نقول إذن إن ما جاء به الحلوجي من تركيز على الصورة التاريخية للكتاب والمكتبة هو أمر صحي لا يستطيعه إلا الراسخون في جزئيات الكتاب التي تَنْشُدُ هذا الأمر . ولا يمكن أن تقوم للعلم الصميم قائمةٌ إلا على أنقاض هذه المعطيات المهمة ، فهي ، بحق ، شرايين مغذية للعلم ، ويجب أن نتصورها كذلك .

● **باب الوراقة .**

لم يفت الحلوجي أن يتحدث عن الوراقة أو صنعة الأسفار في القديم ، بل إنه أفاض في هذا الباب مرتكزًا على المفهوم الخلدوني المشهور للوراقة التي يصفها ابن خلدون بأنها عملية « الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين »[2] . وقد حاول الباحث أن يفسر الوراقة على ضوء مستجدات العصر قائلًا : « وبتعبير العصر

(١) المخطوط العربي . ص ٤٠ .

(٢) جاء في مقدمة ابن خلدون « وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمر المكتبية والدواوين ، واختصت بالأمصار العظيمة العمران..» الكتاب طبعة بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م . ص ٣٣٤ .

الحديث نستطيع أن نقول إن الوراقة هي عملية النشر والتحقيق بكل ما تستتبعه من تجليد وتوزيع ، وإن حوانيت الوراقين كانت تقوم مقام دور النشر في هذه الأيام ، وكانت تقوم إلى جانب ذلك بما تقوم به المكتبات الآن من بيع الورق والأدوات الكتابية كالمداد والأقلام »[1] .

وتميز الحلوجي في حديثه عن الوراقة بكونه قد أرهص بتأسيس مونوغرافية لمشاهير الوراقين في التاريخ العربي من أمثال مالك بن دينار ، وخالد بن أبي الهياج ، وعلي بن المغيرة الأثرم ، وسهم بن إبراهيم ، ومحمد بن أبي الليث الخوارزمي ، وموسى الحامض، ومحمد بن حمدون الغافقي ، وغيرهم كثير ممن سعى الحلوجي في التماسهم من مصادر التاريخ ، وتحديد أزمانهم ، وظروف الوراقة على عهدهم .

ونرى أنه طالعنا بمشروع موسوعي ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث والإثراء . وهو يشبه إلى حدٍّ ما المشروع الذي كان بدأه الأستاذ المنوني في إقليم واحد من الأقاليم العربية هو المغرب[2] ، وما فعلته الباحثة هالة شاكر في فترة محددة من تاريخ الثقافة العربية وهو العصر العباسي[3] ، وهو باب مكملٌ للاشتغال ببادية السِّفر القديم . وصورة ذلك أن اهتمام الحلوجي بالوراقة لم يجعله يتوقف عند الأوجه المشرقة فيها ، وإنما تعدَّى ذلك إلى معاينة دقائقها و مجاهلها ، ومن ذلك ما عرفه التراث من نَحْل وتزوير ، وتلفيق القصص والأساطير ، واختلاق الكتب وإضافتها للعلماء . وكل هذا

(١) المخطوط العربي . ص ١١٩ .

(٢) ينظر كتابه : تاريخ الوراقة المغربية صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة / محمد المنوني ـ الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ١٩٩١ م .

(٣) الورق والوراقون في العصر العباسي / هالة شاكر ـ الجيزة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٤ م .

الأمر مرتبط بالوراقة ، وهي تجعلنا من هذا الباب حذرين إزاء ما ينقل إلينا من كتب ، وما نعاينه من خطوط .

ويذهب الحلوجي إلى أنه بالرغم من تذمُّر فئة كبيرة من الوراقين من هذه المهنة ، فإنها كانت مهنة شريفة تؤمن قوت شريحة عريضة من الناس .

والحق أن مجال الوراقة العربية الإسلامية ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث والتدقيق ، وهو من المجالات الهامة جدًّا التي يمكن أن تكون الشريان الأساس لعلم المخطوطات . وكنت دعوت إلى الاشتغال بمونوغرافيات واسعة للوراقة في جميع الأقاليم العربية ، على غرار المونوغرافيات التي يشتغل بها الغربيون في العلامات المائية ، وأنواع الملازم ، وأثمنة الورق عبر العصور ، وقس على هذا الأمر . وأتمنى أن يتحقق هذا الرجاء بالاهتداء بهذه المجهودات التي أرهص لها عبد الستار الحلوجي .

● **باب كتابة المخطوط .**

يتحدث الحلوجي عن بداية المخطوط مفككًا إياها إلى العناصر التي تكون عادة منضوية تحتها . يقول : « وكان المخطوط يبدأ عادة بالبسملة ، تليها مقدمة للمؤلف يستهلها بحمد الله والاستعانة به والصلاة والسلام على رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر اسم كتابه وموضوعه والغرض منه »[١] ويتحدث عن نهاية المخطوط ذاكرًا أن نهاية المخطوط تتميز عادة بوجود عبارة تفيد الحرد من الجزء أو الكتاب ونحوه[٢] . ويتحدث عن صفحة العنوان من خلال معاينته للمخطوطات قائلًا : « وتدلُّ أقدم المخطوطات التي بين أيدينا على أن العرب لم يعرفوا

(١) المخطوط العربي . ص ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٧٣ .

صفحة العنوان في أول عهدهم بصناعة الكتاب ، وأن العنوان كان يأتي في المقدمة وفي نهاية المخطوط »[١] .

ويتحدث الحلوجي أيضًا في هذا الباب عن عناوين الفصول والعناوين الجانبية موضحًا أن هذه الأمور كانت في البداية لا تتميز عن النص ، ثم بدأت تتميز عنه إما بالحجم أو باللون[٢] . وأشير بهذا الصدد إلى أن العناوين ونحوها في المخطوط الغربي هي من الأمور الأساسية جدًّا في النساخة .

وتحدث أيضا عن الهوامش ، وعن التسطير ، وهو من المجالات التي لم يتم الحديث عنها في تراثنا العربي بما فيه الكفاية . وهذا مجال بِكْرٌ عالجه الباحثون بالفرضية في غالب الأحيان ، ويندرج أصلًا في إطار الترتيب ، ويقول الحلوجي في الموضوع المذكور : « وليس بين أيدينا ما يدل على أنهم كانوا يسطرون الصفحات قبل أن يكتبوا فيها حتى يتحكموا في عدد السطور ويضمنوا عدم اعوجاجها ، ومع ذلك فنحن نرجح أنهم كانوا يفعلون ذلك في المصاحف ذوات الأحجام الكبيرة ويغفلونه في غيرها من المخطوطات العادية »[٣] . وهذا الكلام هام جدًّا بالنسبة لمبحث الترتيب Imposition في علم المخطوطات .

وتحدث ، من جهة أخرى ، عن علامات الترقيم مثل النقطة ، والدائرة ، والدائرتين ، وعلامات أخرى قريبة من هذا الأمر . وعرض للاختزال في الكتابة مما هو معروف خاصة في علم الحديث والتاريخ ، وينتقل من هذا إلى الحديث عن التصويبات والإضافات ، وهذه العناصر تعتبر هامة جدًّا في المعاينة الأركيولوجية للمخطوط .

(١) المخطوط العربي . ص١٥٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٦٥ .

● **باب الزخرفة والتذهيب والتجليد .**

على الرغم من أن الحديث عن هذه العناصر الثلاثة يكون في غالب الأحيان مفكَّكًا داخل الأبحاث المخطوطية ، فإنها تجتمع في جانبها التقني في صنعة المخطوط العربي ، وإبراز جزء من صورته المادية التي يمكن أن نعيد بناءها بوساطة التحليل . وكان الأستاذ الحلوجي واعيًا بهذا الأمر . وهو ما يؤكد غيرته على التراث المخطوط ، ودعوته إلى الاهتمام الشمولي بمباحث هذا التراث وجمعها في رابط يلحمها . وقد فصَّل في فنية المخطوط العربي في ثلاثة مستويات ؛ هي : مستوى الصور والرسوم التوضيحية ، ومستوى الحِلْيات والزخارف الجمالية ، ومستوى التذهيب[1] ، منطلقًا من بسط موقف الإسلام من التصوير ، الأمر الذي انعكس بشكل واضح على نوعية الصور و الزخارف في المخطوطات العربية التي بدأت بدايات ساذجة وبسيطة ومتواضعة ، ولم تتجاوز الصور التوضيحية ، والأشرطة الهندسية والنباتية الملونة ، والحِلْيات المستديرة ، وعلامات التعشير ، وارتبطت هذه الأشكال في أغلبها بالمصاحف .

ولم يخف الحلوجي علاقة الفن العربي بالفنون الأخرى ، يقول : « والنتيجة التي نخلص إليها من كل ما تقدم هي أن فن الرسم والتصوير في المخطوط العربي كان وليد الفن الفارسي والقبطي بصفة خاصة ، وأنه اكتسب من هذين الفنين بعض سماتهما ، ولكنه احتفظ بخصائصه وسماته العربية والإسلامية »[2] .

وإذن فإن الحلوجي قد ذكر بشكل واضح تبعية الفن التصويري العربي لمدارس فنية غير عربية ، ولكنه رَكَّز على النمو التدريجي لهذا الفن واكتسابه لمميزاته الخاصة على مر الزمن . ومن جهة ثانية أوضح المستوى البسيط الذي بقي عليه هذا الفن العربي على

(١) المخطوط العربي . ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢١٠ .

خلاف الفنون التصويرية الأخرى ، من منطلق أن بقايا الصور في المخطوطات العربية التي تعود إلى القرون الإسلامية الأولى قليلة جدًّا بالمقارنة مع غيرها في الثقافات الأخرى .

ومن جهة ثالثة بَيَّن الأستاذ أن الزخارف الجمالية بدورها قد بدأت بدايات متواضعة ، وتدرجت إلى الاستقرار في صفحة من صفحات المخطوط أو الصفحات الأولى من المخطوط ، وبيَّن في باب آخر أن الزخارف التي تفرد بها العرب هي الزخارف الخطية ، وذلك لأسباب تحدث عنها أهل المجال بما فيه الكفاية ، وذكر أيضًا أن التذهيب رافق الزخرفة في هوامش الصفحات ، وجلود الأسفار ، وبلغ فيه الفنانون العرب شأوًا كبيرًا في أواخر العصور الوسطى .

وبخصوص التجليد والترميم يذهب إلى أن التجليد هو أقدم المهن المرتبطة بالكتاب ، وأنه يعود إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . و قد أخذ العرب هذه الصنعة عن الأحباش . وركز الحلوجي على وصف هذه الصنعة في مصر عبر التاريخ ، منتهيًا إلى الحديث عن خصائص التجليد العربي من خلال مجموعة من العينات ، أو من خلال العودة إلى مجموعة من الأبحاث في هذا الباب ، مثل الأبحاث التي قام بها « جروهمان » .

وأما عن الترميم ، فالحلوجي يشير إلى شبه غياب هذه الصنعة في القديم ، اللهم إلا إذا استأنسنا ببعض الطرق البدائية في هذا الباب . يقول : « إننا لا نكاد نجد شيئًا عن الطرق التي كان العرب يتبعونها في ترميم مخطوطاتهم ، وإن كنا نرجح أنها كانت طرقًا بدائية تقوم أساسًا على استعمال الصمغ أو النِّشا في لصق ما يتمزق من الأوراق »[1] .

هذا غيض من فيض . وما هدفنا قط أن نعيد ما قاله الحلوجي ، أو أن نسترسل في أقواله وتصوراته ، وإنما غايتنا تسويغ محتويات العناوين التي اختارها الباحث لمؤلفاته .

(١) المخطوط العربي . ص ٢٥٩ .

وإلا ، فكتبه أشهر من نار علىٰ علم . وهي منتشرة بين الناس . وقد حصل بها صاحبها علىٰ جوائز عالمية طارت بذكرها الركبان[١] .

وما هدفنا أيضًا أن نسقط علم المخطوطات بحسب الصورة التي بلورناها له علىٰ مجهودات الباحث وتقويمه علىٰ ضوئها لأن الرجل أسبق من علم المخطوطات ، ولأن اشتغالاته التراثية هي ، علىٰ وجه الصواب ، اهتماماتٌ موسوعية بحسب ما تحمله الكلمة من معنىٰ ، فهي تحمل مادية المخطوط التي تعدُّ ركيزة أساسية في علم المخطوطات ، وتحمل تاريخ الوراقة ، وتاريخ الخط والخطاطين ، والببليوجرافيا ، والمكتبات ، وغير ذلك كثير من المعارف المضمنة في كتاباته ، وإنما هدفنا الإشادة والافتخار بعَلَمٍ من أعلام التراث العربي الإسلامي الذي تتلمذنا علىٰ يديه من خلال كتبه الرائدة . وما أرىٰ أنه إطنابٌ قط ، بل أشعر بالغبطة في الحديث عن هذا العالم الجليل . ويطيب لي أن أفعل ذلك لكون الحلوجي لا يشكل مدرسة تراثية في مصر فقط ، بل في العالم العربي الإسلامي كُلِّه . وأتمنىٰ أن تكون منزلًا للباحثين في التراث الذين أصبحوا يتراجعون عن هذا المبتغىٰ لاعتبارات علمية ومؤسساتية .

(١) كتاب « المخطوط العربي » حصل به الحلوجي علىٰ جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٨ .

فهرسة المخطوطات عند الحلوجي بين النظرية والتطبيق

أ. فاطمة محمد عبد السلام *

بين المخطوطات والدكتور الحلوجي صلة وشيجة ، سببها ميله للتراث بحكم نشأته الأولي في بيتٍ أزهري ، ودراسته الجامعية لآداب اللغة العربية . وكانت معايشته للتراث في مرحلة تالية دافعة ليعدّ بحثه للدكتوراه عن طور النشأة للمخطوط العربي وهو أكثر الأطوار صعوبة وأشدها غموضًا ، فقد طمس الزمان آثاره وأدركت ما تبقىٰ منه عوامل البلىٰ والفساد ، وتجاهلته مصادر التاريخ اللهم إلا النزر اليسير الذي لا يقيم أود الدراسة ، فشكل بحثه هذا علامة بارزة علىٰ الطريق توضحه وتُعبِّده أمام السائرين فيه . وتظل المخطوطات مجاله الأثير ويظل هذا البحث نصب عينيه يتعهده بالتصحيح والتعديل والإضافة ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا .

وتبقىٰ كتاباته في مجال فهرسة المخطوطات من أفضل الكتابات في هذا المجال . وضعها بعين خبيرة ، ولم يترك فيها مشكلة إلا ووضع لها حلًّا ، ولا قضية إلا وناقشها . بدءًا من تعريف فهرسة المخطوطات لغةً واصطلاحًا ، ومرورًا بالمحاولات السابقة لوضع بطاقة لفهرسة المخطوطات وملاحظاته عليها ، ليخلُص للاستمارة التي وضعها بنفسه ويناقش ما قد يكتنف بعض بيانات الفهرسة من مشكلات ويقترح لها الحلول . ويتطرق لقضايا ذات صلة بعملية الفهرسة ككل ، كَمَنْ الأقدر علىٰ فهرست المخطوطات ؟ هل هم خريجو أقسام المكتبات أم المتخصصون في الدراسات التاريخية والعربية والإسلامية ؟ فضلًا عن قضية تكاليف الفهرسة ومبرراتها ؟

* باحث ماجستير بقسم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب – جامعة القاهرة .

ولعلمها بقيمة ما أعطى الدكتور الحلوجي ، وقيمة ما ستأخذه منه ، أسندت إليه عدة مؤسسات - من بينها مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بالقاهرة – إعداد استمارة بيانات لفهرسة المخطوطات الموجودة بالمساجد التابعة لوزارة الأوقاف ، وبمكتبة الجامع الأزهر ، وبدار الكتب المصرية . كما أسندت إليه مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي – بلندن – الإشراف على مشروعها الحالي لفهرسة مجاميع دار الكتب المصرية . وعهدت إليه نفس المؤسسة بتحرير فهرسين من فهارسها ، وهما :

١- فهرس المخطوطات الإسلامية في المكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا في عام ١٩٩٧ ، بالاشتراك مع حبيب الله عظيمي (١) .

٢- وفهرس مخطوطات علوم القرآن في مكتبات العراق الصادر في في عام ٢٠٠٨ (٢) بالإضافة إلى ترجمة عملها الأضخم « المخطوطات الإسلامية في العالم » الصادر في أربعة مجلدات بين عامي ١٩٩٧ و٢٠٠٢ (٣)

وفي الورقات التالية عرض لأهم قضايا فهرسة المخطوطات التي تناولها الدكتور الحلوجي في مؤلفاته ، مع التطبيق على المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب المصرية(٤)

---

(١) فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا / تحرير عبد الستار الحلوجي ؛ حبيب الله عظيمي . – لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٧ .

(٢) علوم القرآن في مكتبات العراق / إعداد أسامة ناصر النقشبندي ، تحرير عبد الستار الحلوجي . – لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ٢٠٠٨ .

(٣) المخطوطات الإسلامية في العالم / تحرير جيوفري روبر ؛ ترجمة وتحقيق عبد الستار الحلوجي . – لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٧ – ٢٠٠٢ . – ٤ مج .

(٤) المخطوطات العربية بدار الكتب المصرية (المجاميع) / تحرير ومراجعة عبد الستار الحلوجي . – القاهرة : دار الكتب المصرية ؛ لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ٢٠٠٨ م .

الذي أُعِّد تحت إشرافه ، وقام بتحريره ومراجعته ، لنرى كيف أرسى الدعائم بوضع النظرية ، وكيف تابع البناء بإشرافه على ذلك المشروع . يلي ذلك بيان لمنهجه ودوره في تحرير فهارس المخطوطات مع التطبيق على فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا ، وفهرس مخطوطات علوم القرآن في مكتبات العراق .

أولًا : فهرسة المخطوطات في كتابات الدكتور الحلوجي مع التطبيق على المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب المصرية :

ولأن التطبيق سيكون على المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب المصرية فأول ما سنعرض له :

● **قضية المجاميع :**

والمجاميع : « هي عدة مباحث أو رسائل جُمع بعضها إلى بعض في كتاب واحد » (١)

وقد أشار الدكتور الحلوجي إلى أن هناك طريقتين للتعامل معها (٢) :

١ – أن يُعتبر كل مبحث كتابًا مستقلًا ، فتُعمل له البطاقات اللازمة له في الفهرس ، ويذكر أنه « ضمن مجموع من صفحة كذا إلى صفحة كذا »

٢ – أو أن يعتبر كيانًا واحدًا ، فتُنشأ له بطاقة رئيسية تتضمن محتوياته بالتفصيل ، ثم يُحال من عناوين الرسائل الموجودة بداخله إلى عنوان المجموع .

وقد اختيرت الطريقة الأولى للتعامل مع مجاميع دار الكتب ، فاعتبرت كل رسالة داخل المجموع عنوانًا مستقلًا يذكر عنه البيانات التالية :

---

(١) المخطوطات والتراث العربي .– القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠١ . ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٦ .

١ – العنوان

٢ – المؤلف وتاريخ وفاته بالتقويم الهجري

٣ – اسم الناسخ

٤ – تاريخ النسخ ومكانه إن وجد

٥ – الوصف المادي ، ويشمل : عدد الأوراق ، ورقم الورقتين الأولىٰ والأخيرة ، مقاس المخطوط (الطول × العرض) ، نوع الخط والمسطرة ، وما قد يكون بالمخطوط من حليات وزخارف ، أو ما علىٰ هوامشه من تعليقات أو حواشي أو شروح ، وما قد تحمله أوراقه من فوائد أو نقول أو إجازات أو سماعات أو قراءات أو معلومات عن تاريخ التأليف ومكانه .

٦ – فاتحة المخطوط .

٧ – خاتمة المخطوط .

٨ – التملكات والتوقيفات .

٩ – الحاجة إلىٰ الترميم .

١٠ – موضوع المخطوط .

١١ – رقم الاستدعاء المخزني : ويتضمن رقم المجموع ورقم الرسالة داخله .

١٢ – رقم الميكروفيلم .

١٣ – رقم التسجيلة .

وبعض البيانات السابقة شكلَّت قضايا تناولها الدكتور الحلوجي في مؤلفاته ، وهي :

١ – العناوين وتوثيقها :

وهي تثير ثلاث إشكاليات[١] :

أولها : أن يشتهر المخطوط بغير عنوانه الأصلي . ورأىٰ الحل في استعمال العنوان الأصلي والإحالة إليه من العنوان المشهور .

ومثال ذلك في المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب :

– أم البراهين[٢] وشهرتها السنوسية الصغرىٰ في العقائد .

فجعل المدخل بأم البراهين وتمت الإحالة من السنوسية الصغرىٰ في العقائد .

وثانيها : أن يكون للمخطوط أكثر من عنوان ؛ ومن ثم لا بد من تحديد العنوان الأصلي والإحالة إليه من العناوين الأخرىٰ غير المستعملة . ومثال ذلك :

– « الفرائض السراجية »[٣] التي عنونت بعض نسخها بـ « فرائض السجاوندي » وقد اختيرت الفرائض السراجية كعنوان ، وتمت الإحالة من فرائض السجاوندي .

وثالثها : أن تحمل النسخة الواحدة أكثر من عنوان ، واحد علىٰ الغلاف ، وآخر في المقدمة ، وثالث في الخاتمة . وقد جعل الأفضلية لعنوان المقدمة ، علىٰ أن يُحال إليه من العناوين الأخرىٰ .

ومثال ذلك : شرح المقنع في علم الجبر والمقابلة (عنوان صفحة العنوان) .

القول المبدع في شرح المقنع[٤] (عنوان المقدمة) .

---

(١) المخطوطات والتراث العربي . ص ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢) مجموع رقم ١٧.

(٣) رقم ١٩٢.

(٤) رقم ٢١٢ .

وهنا لم يحذف عنوان صفحة العنوان وإنما أُحيل منه إلى عنوان المقدمة .

٢- مداخل المؤلفين القدماء :

وثمة صعوبة في تقنين مداخل المؤلفين ، فبعضهم يعرف باسمه والبعض الآخر بكنيته والبعض الثالث بلقبه . وعلى الرغم من أن الشهرة باللقب هي الغالبة إلا أنه لا يمكن تعميم تلك القاعدة خاصة مع من لم يشتهر بلقب معين . لذا فالأفضل أن تكون المداخل بأسماء المؤلفين دون تقديم اسم الشهرة ، مع الإحالة من اسم الشهرة إلى الأسماء العادية للمؤلفين[١] .

ويرتبط بتلك المسألة مشكلة عدم وجود قائمة استناد متفق عليها في توثيق أسماء المؤلفين ، فما زال المكتبيون العرب يعتمدون على كتابي « الأعلام » و « معجم المؤلفين » ولكنهما لا يحلان المشكلة ، لأن الغرض منهما كان الترجمة للأعلام وإحالة الباحثين للمصادر التي ترجمت لهم . ولا بد لمن يتصدى لتلك المشكلة « أن يكون تراثيًا صحيحًا في ثقافته ، وأن يكون على علم واسعٍ بالتراث ، وألا يكتفي بجمع الأسماء من كتب التراجم ، فذلك عبث واستهتار بالتراث والمتعاملين معه »[٢] . وقد أشار الدكتور الحلوجي إلى أن استخدام الحاسب الآلي في الأعمال الفنية التي تقوم بها المكتبات قد وضع حدًّا لهذه المشكلة وسهَّل الوصول إلى الاسم من أي جزء فيه ، ولكن الحاسب لم يحقق الوحدة لمداخل الأعلام العرب ، بأن يكتب الاسم بشكل واحد في كل المكتبات[٣] .

(١) المخطوطات والتراث العربي . ص ٣٢ .

(٢) نحو علم مخطوطات عربي ـ ط١ ـ القاهرة : دار القاهرة ، ٢٠٠٤ ـ ص ص ١٥٠ – ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٥٢ .

قضية أخرى تخص أسماء المؤلفين القدماء وهي الاستطراد في ذكر أسماء المؤلفين بلا حدود ، فلا بد من وضع حد أقصى لا تتجاوزه ، وليكن الاسم الثلاثي للمؤلف مضافًا إليه اللقب أو اسم الشهرة[١] .

أما مداخل المؤلفين في المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب ، فجميعها كانت بأسماء شهرة المؤلفين سواء كانت ألقابًا كصدر الشريعة الأصغر ، أو كنى مثل أبي حنيفة ، وأبي شجاع ، أو أسماء كعلي بن أبي طالب ، وخالد بن يزيد بن معاوية .

أما قائمة الاستناد أو المراجع المستخدمة لتوثيق أسماء المؤلفين فهي : [الأعلام ، هدية العارفين ، معجم المؤلفين] . مع ملاحظة أنه لم يتم التقيد بالمداخل الموجودة في تلك المراجع ؛ فمثلًا السيوطي مدخله في الأعلام الجلال السيوطي[٢] ، وفي المجلد التجريبي كان المدخل (السيوطي)[٣] ، والإحالة من جلال الدين السيوطي في كشاف المؤلفين . والكميت بن زيد بن خنيس الأسدي مدخله في الأعلام الكميت الأسدي[٤] ، وقد عُدِّل ذلك المدخل وجُعل بالاسم الكامل للمؤلف[٥] .

٣- التاريخ :

وهي مشكلة لها أكثر من وجه :

(١) المخطوطات والتراث العربي . ص ص ٣٢ – ٣٣ .

(٢) الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين / خير الدين الزركلي – ط ٧ .– بيروت : دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢ .– مج ٣ . ص ٣٠١ .

(٣) في الأرقام : ٨ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٦٣ ، ١٩٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٨.

(٤) الأعلام . ج ٥ ، ص ٢٣٣.

(٥) في رقم : ١٦١ .

١ – فبعض المخطوطات غير مؤرخة .

٢ – وبعضها الآخر يحمل تواريخ خاطئة ؛ فقد يسقط الناسخ رقم الألف من التاريخ ، وقد ينقل تاريخ النسخة التي ينسخ عنها دون أن ينبه إلى أن هذا التاريخ هو تاريخ الأصل[١] وتلك الأخطاء تكشفها الخصائص المادية للنسخة كالورق والخط .

٣ – وبعض التواريخ تكتب بطريقة غامضة أو مُضلِّلة تجعل المفهرس يبذل جهدًا كبيرًا لترجمة التاريخ المذكور إلى لغة الأرقام ، أو لوضع تاريخ تقريبي للنسخة بدراسة ورقها وخطها وما تحمله من تملكات أو إجازات أو سماعات[٢] .

وفي مجاميع دار الكتب تمثلت مشكلة التاريخ في تناقض تواريخ ميلاد أو وفاة بعض المؤلفين مع ما قد يُذكر ببعض المخطوطات من تواريخ للنسخ أو تواريخ للتأليف ، فمثلًا في : « عمدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت» [٣] . وردت في خاتمة الرسالة عبارة : « كان الفراغ من تعليق هذه المبيضة سنة ٨٠٦ » [٤] وهذا التاريخ يسبق ميلاد المؤلف (المولود في سنة ٨٤٦ هـ) .

وفي : « منظومة في الموافقات العمرية للقرآن »[٥] ذكر في المقدمة : « فهذا نظم الموافقات السيدية العمرية والكلام على ذلك مختصرًا يسره الله عليه في بعض يوم من

(١) المخطوط العربي ـ ط ١ ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٢ . ص ٢٨٢ .

(٢) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١٥٤ .

(٣) رقم . ١٧٧ .

(٤) ميكروفيلم رقم : ٤٥٩٢ .

(٥) رقم : ٢٩١ .

شهر رمضان المعظم سنة ستين وثمانمائة بالمسجد الأقصى[١] » والتاريخ السابق بعد وفاة المؤلف بخمسة وأربعين سنة (المتوفى في ٨١٥ هـ) . وقد تم حذف تلك التواريخ من بيانات الوصف .

٤- الوصف المادي :

وقد بَيّن أن الوصف المادي يقصد به « ما بالمخطوط من تلويث أو ترميم أو أكل أرضة أو خروم (أي نقص) ، كما يدخل في الوصف التجليد وذكر ما قد يحمله المخطوط من السماعات والإجازات والمقابلات وما شابهها » [٢] .

وحدد أول عناصره بعدد الأوراق ، وجعل مسئولية المفهرس في ذلك مزدوجة ، فعليه عدّ أوراق المخطوط والتأكد من اكتمال النسخة[٣] .

والخط عنصر آخر من عناصر الوصف المادي ، إذ لا بد من تحديد نوع الخط أو الأنواع المختلفة من المخطوط المستخدمة ، والأمر نفسه ينطبق على الزخارف ، فلا يكتفي بذكر أن « بالنسخة زخارف ملونة ومذهبة »[٤]

وفي المجلد التجريبي لمجاميع دار الكتب كانت أول العناصر المذكورة في الوصف المادي هو إجمالي عدد الأوراق ، ثم يحدد بين قوسين بداية ونهاية أوراق الرسالة ليُعرف موضعها في المجموع ، ثم نوع الخط وغالبًا ما يشار إلى نوع واحد من الخطوط (فيما عدا رقمي ٦٠ ، ١٦٣ فقد ذكر فيها نوعان من الخطوط) ، يلي ذلك المسطرة (متوسط عدد

(١) ميكروفيلم رقم : ٤٥٩٥ .

(٢) المخطوط العربي . ص ٢٧٩ .

(٣) نحو علم مخطوطات عربي . ص ١٥٥ .

(٤) المصدر السابق . ص ص ١٥٤ – ١٥٥ .

السطور في الصفحة) . وتلك البيانات الأربعة هي الحد الأدنى لما يذكر في الوصف المادي لكل عنوان .

أما الزخارف والحليات فقد اخْتُلِف في وضعها ، فأحيانًا تحدد (كما في رقمي ٣٦ ، ٢٣٥) وأحيانا يُكتفى بذكر « به زخارف » فقط (كما في رقمي ٣٤ ، ١٦٦) .

أما اكتمال النسخة واتصال النص ، ففي المجلد التجريبي عنوان واحد فقط « به خرم »[١] وخصص للترميم عنصر مستقل ضمن بيانات الوصف ، فإذا كانت حالة النسخة رديئة ينُص على أنها بحاجة إلى ترميم .

٥- فاتحة المخطوط وخاتمته :

ويقصد بفاتحة المخطوط : « أول النص بعد الديباجة حتى تكون البداية مميزة له عما سواه من مخطوطات تبدأ عادةً بالبسملة والحمدلة والصلعمة »[٢] ، أما الخاتمة فهي « آخر النص قبل ذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ »[٣] لكي لا تكرر تلك البيانات التي تملك موضعها بالفعل في بطاقة الفهرسة .

والتحرير وإن كان جهدًا مكملًا للجهد الأصلي إلا أنه لا يقل أهمية عنه ، خاصة تحرير فهارس المخطوطات ، وذلك لتعذر الرجوع إليها لاستكمال ما بالنص من نقص ، وإصلاح ما به من عيب ليخرج النص مُصححًا تصحيحًا تامًّا . يضاف إلى ذلك إعداد الكشافات باختيار المداخل أولًا ، وترتيبها ثانيًا ، والتأكد من دقة واكتمال التغطية فيها ثالثًا . وحين يكتمل العمل على المحرر أن يُقدِّم له بمقدمة تكشف عن أهميته ، وتوضح منهجه ، وتشرح كيفية استخدامه .

(١) رقم : ٧٩ .

(٢) المخطوط العربي . ص ٢٧٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة

وقد قام الدكتور الحلوجي بتحرير فهرسين أصدرتهما مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - بلندن - وهما :

١ – فهرس المخطوطات الإسلامية بالمكتبة الوطنية الألبانية في تيرانا . وهذه المكتبة من أقدم المكتبات في ألبانيا ، حيث يعود تاريخ تأسيسها لعام ١٩٢٠[١] . ويضم الفهرس ٤١٦ عنوانًا منها ٣٥٩ عنوانًا باللغة العربية ، و ٥٧ عنوانًا باللغة الفارسية .

٢ – علوم القرآن في مكتبات العراق . ويضم ٨٨٨ عنوانًا جُمعت من ٤٥ مكتبة (وإن كانت أكثر العناوين فيه تنتمي لدار المخطوطات ببغداد – ٤٨٣ مخطوطًا – أي ٥٤ر٣ ٪ من العناوين في الفهرس ، تليها أوقاف بغداد بمجموع ١١٦ مخطوطًا بنسبة ١٣ر٠٦ ٪ من العناوين ، ثم أوقاف الموصل – ١٠٤ مخطوطًا بنسبة ٧ر٧ ٪ من العناوين) في تسع محافظات وأحياء عراقية مختلفة : (بغداد ، النجف ، الموصل ، كربلاء ، السليمانية ، بابل ، الكاظمية ، البصرة ، أربيل) .

وفي الصفحات التالية استعراض لدور التحرير في هذين العملين :

أولًا : التقديم للعمل بمقدمة علمية توضح منهج العمل وأهميته وكيفية استخدامه :

وقد اختلفت العناصر التي اشتملت عليها مقدمة الفهرسين ؛ فهي في فهرس تيرانا تعريف بالفهرس وتوضيح لطريقة ترتيبه وكيفية التعامل مع نسخ الكتاب المتعددة ، والتنبيه على بعض النقاط لتيسير استخدام الفهرس ، وهي :

١ – وضع بعض الحروف في الترتيب مثل « ب » التي تسبق « پ » في الترتيب ، وچ التي تأتي بعد ج ، و ك التي تسبق گ ، مع إهمال « ال » التعريف و (أبو) و (ابن) في

(١) المخطوطات الإسلامية في العالم / تحرير جيو فري روبر ؛ ترجمة عبد الستار الحلوجي .ـ لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٧ ـ مج ١ . ص ١١٣.

الترتيب الهجائي ، إذ وردا في وسط اسم الشخص ، أما إذا جاءا في أول الاسم فيرتب بها في كشاف المؤلفين .

٢ – المخطوطات المذكورة في الفهرس كلها مكتوبة على ورق وبمداد أسود . لذا لم تكرر تلك المعلومة عن كل عنوان .

٣ – جميع التواريخ الواردة في الفهرس هجرية ، وإذا ذكر تاريخان بين هلاليتين فأولهما الهجري والآخر الميلادي .

٤ – تواريخ وفاة المؤلفين توضع بين هلاليتين وتُسبق بشرطة .

٥ – عند تعدد نسخ الكتاب ترتب حسب تسلسل أرقامها في المكتبة ، وتأتي النسخ مجهولة المؤلف في نهاية الترتيب .

٦ – إذا اتفق عنوانان واختلف المؤلفان لا تطبق القاعدة السابقة .

٧ – الحفاظ على الرسم الإملائي المُستخدم في كتابة المخطوط .

٨ – إضافة كلمة بين معقوفتين إلى بداية أو نهاية المخطوط ليستقيم المعنى .

٩ – تصحيح الأخطاء الإملائية للنساخ في الهامش وتمييزها بكلمة [كذا] بعد الخطأ مباشرة .

١٠ – المراجع التي كثر الرجوع إليها في الفهرس هي : الأعلام ، معجم المؤلفين ، كشف الظنون ، إيضاح المكنون ، هدية العارفين ، معجم المطبوعات العربية والمعربة . وذكر عن كل عنوان : مؤلفه ، الطبعة ، مكان النشر ، تاريخ النشر . وهذه المراجع ترد بهذا التسلسل في الفهرس . كما ذكرت عناوين بعض المراجع التي وردت بقلّة في الفهرس .

١١ – طريقة كتابة المراجع حين تتعدد أجزاؤها بذكر رقم الجزء والصفحة ، وعندما

يتصل الترقيم يُستغني عن رقم الجزء ويُكتفى برقم الصفحة .

١٢ – الكشافات وطريقة ترتيبها ؛ وهي ثلاثة كشافات ، أولها رُتّب بعناوين المخطوطات وثانيها مرتب بأسماء المؤلفين ، وثالثها مرتب بأسماء الناسخين . وأمام كل اسم يُذكر الرقم أو الأرقام المسجلة في آخر بيانات المخطوط .

أما فهرس العراق فقد بدأت مقدمته بالحديث عن أهمية التراث الإنساني عامةً ، وتميُّز التراث العربي المخطوط زمانيًّا ومكانيًّا وفضله على الحضارة التي كان « خير مُعبر عنها » . وما تعرض له هذا التراث من محن أتت على الكثير من نفائسه في أقطاره المختلفة . ثم خصَّ العراق بالحديث عن مكانته في تاريخ الكتب والمكتبات وسبقه في اختراع الكتابة ، وإقامة المكتبات وصناعة الورق في بداية عصر العباسيين ، وتأسيس بيت الحكمة في بغداد وتدمير المغول له ، وما سنَّته العراق في العصر الحديث من قوانين لحماية المخطوطات ، وتعرُّض العراق لغزو جديد نبَّه المخلصين من أبنائها إلى رصد هذا التراث ، ومنهم الأستاذ أسامة ناصر النقشبندي الذي حرص على تسجيل مخطوطات المكتبات العراقية في سجلٍّ شامل بدأه بعلوم القرآن ثم كتب التفسير ، على أن يتبع ذلك الموضوعات الأخرى ، مع الثناء على عمله هذا خاصة أنه تم في ظروف صعبة . وسيبقى ما سجله من بيانات عن المخطوطات دليلًا على ما يُفقد منها .

وأرجع أهمية هذا العمل لما يضمه من مخطوطات نادرة ، منها الموغل في القدم ومنها ما قرئ على مؤلفه أو كُتِب في حياته أو نسخ عن نسخته أو قوبل عليها ، ومنها نسخ خزائنية .

وتعرض لمميزات العمل مثل الرجوع لقرابة أربعين مصدرًا ، والحرص على ذكر المصادر التي رجع إليها عن كل عنوان ، وذكره لمعلومات قيمة عن كل مخطوط ، وقد يفند نسبة بعضها لمؤلفيها . وفي المقابل سجل الملاحظات التالية على الفهرس :

١ – أنه لم يخضع النسخ المتعددة للكتاب الواحد لأي نوع من الترتيب .

٢ – أنه فصَّل في الحديث عن بعض المخطوطات ، وأعطى عن بعضها الآخر معلومات مختصرة .

٣ – رجوعه لكتاب « تاريخ الأدب العربي » وذيوله لبروكلمان في طبعته الألمانية تارة ، ومترجمًا للعربية تارة أخرى ، ونبَّه إلى ذلك بذكر كلمة « عربي » أو « ألماني » ، وفي بعض الأحيان لا يحدد ذلك . وكان الأفضل أن يرجع إلى طبعة واحدة للكتاب . ثم لخص ما قامَ به من جهد في تحرير الفهرس في النقاط التالية :

١ – مراجعة النص وتصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية والطباعية وإضافة علامات الترقيم اللازمة .

٢ – ضبط الترتيب الهجائي للمخطوطات الواردة في الفهرس .

٣ – تصويب عناوين بعض المخطوطات .

٤ – تصحيح أسماء بعض المؤلفين .

٥ – استكمال بيانات بعض المخطوطات من الفهارس .

٦ – استكمال ما سقط من بيانات بعض المصادر ، وتصويب ما فيها من أخطاء ، وإضافة بعض المصادر .

٧ – فض الاشتباك بين التواريخ المتعارضة ، كأن يكون تاريخ النسخ سابقًا لعصر المؤلف ، أو أن يكون تاريخ قراءة النسخة على المؤلف بعد تاريخ وفاته .

٨ – إعداد كشافين أحدهما للمؤلفين والآخر للنسَّاخ يشار فيها إلى رقم المخطوط .

وختامًا ، فقد أشار إلى صعوبة لم يستطع التغلُّب عليها وهي ما يوجد في بعض بدايات المخطوطات من غموض لأن المخطوطات لم تتوافر له . وقد برهن على كل ما

ذكره من مميزات أو ملاحظات على العمل ، أو جهد قام به بالإحالة إلى أرقام المخطوطات في الهامش .

ويُلاحظ من العرض السابق ما يلي :

١ – الدقة الشديدة في الوصف ، والتنبيه على أمورٍ قد يغفلها البعض كالترتيب الهجائي .

٢ – أن المقدمتين وإن اتفقتا في التنبيه على أشياء تقع ضمن عمل المحرر كتصحيح الأخطاء الإملائية للنساخ ، وذِكر الكشافات والتنبيه على أن الإشارة فيها تكون لأرقام المخطوطات لا أرقام الصفحات ، فقد اختلفت عناصرهما باختلاف الفهرسين في المنهج ، فبينما اقتصرت مقدمة فهرس تيرانا على طريقة ترتيب الفهرس والتنبيه على أمور لازمة لتيسير استخدامه ، نجد الحديث في مقدمة فهرس علوم القرآن في العراق يتناول مجموعة المخطوطات الواردة في الفهرس ، ومميزات العمل وعيوبه ، والدور الذي قام به المحرر . وفي مقدمة فهرس علوم القرآن في العراق ، عاب على عمل معد الفهرس عدم ترتيب المخطوطات حسب تاريخ كل نسخة ، وهذا الترتيب لم يكن مُتبعًا في فهرس المكتبة الوطنية الألبانية الذي رتبت نسخ المخطوطات فيه حسب تسلسل أرقام المخطوطات .

ثانياً : ترتيب عناوين المخطوطات الواردة في الفهرس بما يلائمها :

وزعت مخطوطات فهرس المكتبة الوطنية الألبانية على قسمين : أولهما للغة العربية ، وثانيهما للمخطوطات الفارسية . ثم رتبت مخطوطات كل قسم ترتيبًا موضوعيًّا ، وانتظمت العناوين داخل كل موضوع في ترتيبٍ هجائي .

أما فهرس علوم القرآن في مكتبات العراق فقد رتبت عناوينه ترتيبًا هجائيًّا يبدأ بحرف الألف وينتهي بحرف الواو .

وإن اختلفت طريقة الترتيب بين الفهرسين ، فقد رتب كل عمل بما يلائمه . فبينما

اقتصر فهرس علوم القرآن في مكتبات العراق على موضوع واحد وكانت مخطوطاته بلغة واحدة وهي العربية ، ضم فهرس المكتبة الوطنية الألبانية لغتين ، وتنوعت موضوعات كل لغة واختلفت العناوين في كل موضوع ، فطبيعي أن يُرتب الفهرس باللغات التي يضمها أولًا ويتبعها بالترتيب الموضوعي ثم الترتيب الهجائي للعناوين .

ثالثًا : ضبط مداخل المؤلفين وتحديد الأشكال المختلفة من المداخل :

اتحدت طريقة كتابة المداخل في الفهرسين ، واتفقت على كتابة الاسم بشكله العادي تسبقه كنيته أو لقبه أو كلاهما معًا ، وفي ذلك ما يمثل منهج الدكتور الحلوجي وما رآه في كتاباته حلًا لمشكلة مداخل المؤلفين القدماء ، وعلى ذلك المنهج كانت المداخل في الفهرسين (فيما عدا رقم ٤٩ في مخطوطات علوم القرآن في العراق ، فقد كان المدخل باسم شهرة المؤلف) .

ويلاحظ أن بعض الأسماء عندما تتكرر أكثر من مرة في الفهرس قد تختلف طريقة كتابة الاسم ، فمثلًا في فهرس المخطوطات الوطنية الألبانية : ٢٢١ – جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب .

وحذفت الكنية من نفس الاسم في : ٢٤٩ – جمال الدين عثمان بن عمر بن الحاجب .

وفي فهرس علوم القرآن في مكتبات العراق : ١٣ – عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنان الأماسي المعروف بيوسف أفندي .

وقد ذكر نفس الاسم ولكن بطريقة مختلفة في : ٦٨٦ – عبد الله حلمي بن محمد بن يوسف بن عبد مناف الأخفة وي الأماسي المعروف بيوسف أفندي زاده .

رابعًا : تصحيح النص والتدقيق فيه تدقيقا جيدًا وخاصةً القرآن الكريم والحديث الشريف :

وهو ما أشار إليه في مقدمة فهرس المكتبة الوطنية الألبانية من تصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية للنساخ في الهامش ، ووضع كلمات بين معقوفتين ليستقيم النص ، ونجد ذلك في الفهرس في الأرقام : ٣٠٨ ص ٢٣٥ ، و ٣٣٩ ص ٢٦٠ . أما في فهرس مخطوطات علوم القرآن في مكتبات العراق فقد امتد التصحيح ليشمل : عناوين المخطوطات كما في رقمي (١١٨ ، ٤٥٢) ، وأسماء بعض المؤلفين كما في الأرقام : (١٥٨ ، ٥٩٩ ، ٦٢٥) ، وبيانات بعض المصادر كإضافة رقم الجزء في معجم المؤلفين في رقم ٢٥٠ وتصحيح الخطأ في أرقام الأجزاء والصفحات في المصادر المذكورة في رقمي ٣٦٤ ، ٧٧٦ . ويلاحظ على الفهرس قلة الأخطاء الطباعية واللغوية والنحوية وخاصة في فهرس المكتبة الوطنية الألبانية .

خامسًا : إعداد الكشافات اللازمة للعمل :

اختلف الفهرسان في عدد الكشافات ، فقد ذُيل فهرس تيرانا بثلاثة كشافات أولها للعناوين وثانيها للمؤلفين وثالثها للنساخ ، أما فهرس مخطوطات علوم القرآن فله كشافان ، أولهما للمؤلفين ، والثاني للنساخ ، وقد تشابه المنهج المتبع في إعداد تلك الكشافات ، ففي كشاف المؤلفين في الفهرسين كانت المداخل بأسماء شهرة المؤلفين (وإن لم تكن كذلك في الفهرسين) أما كشاف النساخ فقد وردت فيه المداخل بالأسماء المعتادة دون تقديم . مع استخدام الإحالات وخاصة في كشاف المؤلفين في الفهرسين .

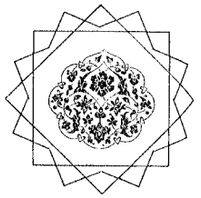

لَهُ

التراث العلمي العربي ودوره في حل المشكلات المعاصرة

أ.د. كمال الدين حسن البتانوني *

كلما ألمَّ بخاطري موضوع المخطوطات العلمية العربية ، تذكرت الأخ العزيز الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي ، قد يكون ذلك لأسباب عديدة ، لارتباطي به كمحقق أو عالم في علوم المكتبات ، أو كخبير في المخطوطات ، أو لزمالتنا في عضوية اللجنة العلمية بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية ، أو عضويتي في لجنة يرأسها ، هي لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، أو لأنه الذي ربط بيني وبين قسم المكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، حينما انتدبني لتدريس مقرر عن العلوم البحتة والعلوم التطبيقية في قسم المكتبات وقت أن كان رئيسًا لمجلس القسم ، أو لأني كنت أستشيره بخصوص وضع مكتبتي الشخصية وترتيبها وإهدائها .

أغلب الظن أن كل هذا يمثل جانبًا مهمًّا في الرابطة بيني وبين الدكتور الحلوجي ، وبين التراث العلمي العربي ، ونشره لبعض بحوثي في هذا التراث في المجلة التي يرأس تحريرها « تراثيات » التي تصدر عن دار الكتب . لكن – ويعلم الله – أن أهم ما يربطني بالدكتور الحلوجي دماثة خلقه ، وطيبة قلبه ، واستعداده الدائم لتحمل أية مسئولية علمية في تخصصه . كما أن صفاته الشخصية تقع ضمن ما استقر في وجداني من أن قيمة المرء فيما يتقنه . ولا شك أن الدكتور الحلوجي يتقن عمله ويجوِّده ، بل ويساعد الآخرين على ذلك .

هذه الخواطر دارت في ذهني عندما أردت أن أكتب مقالة عن التراث العلمي العربي

---

* أستاذ بقسم النبات – كلية العلوم – جامعة القاهرة .

ودوره في حل المشكلات المعاصرة ، لأسهم بها في الكتاب التذكاري للأخ الصديق العالم الدكتور عبد الستار الحلوجي . وهذه المقدمة أسجلها دعاء للدكتور الحلوجي بطول العمر ودوام العطاء .

● **التراث العلمي العربي الإسلامي بين المنكرين والمدافعين :**

عندما يتحدث المرء عن هذا التراث بمسمياته المختلفة هل هو إسلامي أم عربي أم الاثنين معًا ؟ يجد نفسه بين عقليتين : واحدة تتنكر لهذا التراث ، وتنكر على المهتمين به إضاعة الوقت في أمر غير مجدٍ ، وأخري تهتم بالتراث ، وتؤمن بدوره . المتنكرون يقولون إننا نلوي عنقنا للوراء ، ونتشبث بماضٍ انتهى زمنه ، ودرست أفكاره ، وإن الباحثين في التراث يضيعون وقتهم في البحث عما دبَّجه القدماء ، وإنه من العبث أن نعقد مقارنة بين كيمياء ابن حيان والكيمياء الحديثة بما وصلت إليه من الفيمتوثانية ، ومن غير المعقول أن نتحدث عن الطب السريري عند الرازي ، والطب الحديث الذي يملك من الوسائل والآلات ما يفوق الوصف ، مما يعطي نتائج مختلفة في التحاليل عما كان يلجأ إليه الأقدمون من فحص البول مثلًا بالنظر ، والتعرف على اللون والرائحة والكمية .

ونعلم أن التنكر للتراث العلمي الإسلامي ودوره في خدمة الحضارة العلمية أمر قائم منذ زمن بعيد ، وله المدافعون عنه . ولعلي أذكر ما قاله الدكتور توفيق الطويل « ومرد ذلك إلي أسباب في مقدمتها أن علم الباحثين بهذا التراث ناقص أشد النقص ، لأن المخطوطات العربية العلمية لا تزال دفينة في بطون المكتبات في الحواضر الإسلامية والغربية على السواء ، وما يعرفونه من كنوزها في هذه الفترة الخصيبة الغنية نزر يسير مما بقي من تراث العرب ، وليس الذي بقي منه إلا شطر ضئيل مما نجا من غارات المغول والأتراك الذين أتوا على كنوزه وهم في غمرة حماستهم للتخريب والتدمير . بالإضافة

إلى أن ما نقل من هذا التراث إلي أوروبا انتحل المترجمون كثيرًا من مصادره لأنفسهم ولم يردوه إلى أصحابه ، واختفى الكثير منه في غمرة التعصب الذي استبد بالفرنجة في جنوب أوروبا الغربية » .

وردَّ الدكتور توفيق الطويل تنكر العرب للتراث العلمي الإسلامي إلى أسباب منها : شعور الجيل الحاضر بالضيق للتدهور الذي أصاب العرب في الآونة الأخيرة من تاريخهم ، فداخله شعور بمقت التفاخر بمجد الآباء والأجداد ، ومنها افتتان الكثيرين من العرب بالمدنية الغربية مع جهل بماضي تراثهم ، أو مجرد إلمام بقشوره . ومنها أن ما نشر من هذا التراث لا يزال بكرًا لم تصل له دراسات علمية مفصلة .

أما المؤمنون بالتراث والمخلصون له ، فلهم آراء تُناقض ما يراه المتنكرون له . وبعضهم يسرف على نفسه ، ويدافع عن التراث كله ، بما ضم من غث وسمين . وأعتقد أنَّ دور العلماء الآن هو تصفية هذا التراث ، والاهتمام بالثمين منه ، وبذل الجهد في تحقيق ما يضيف إلى معارفنا ، وما يعد تأصيلًا للمعارف الحديثة ، وما يوضح ويساعد على التعرف على العقل الذي أنجز هذا التراث ، في وقت كان أجداد مبدعي الحضارة الغربية في دياجير الظلمة والظلام .

ما هو التراث العلمي ؟

نقصد بالتراث العلمي ، ما خلفه لنا المسلمون الأوائل من آثار جليلة في مجالات العلوم الطبيعية الأساسية من معارف ، من رياضيات وطبيعة وكيمياء ، وفلك ونبات وحيوان وجيولوجيا ، وتطبيقات هذه المعارف في الطب والزراعة والهندسة والصيدلة والبيطرة وما إليها .

وقد لا تكون هناك أمة من الأمم لها ما للأمة الإسلامية من تراث خالد ، ذي أثر بعيد الغور في تطور العلوم . حتى قيل وبحق ، إنه لولا أعمال علماء المسلمين من أمثال

ابن الهيثم وابن سينا والبيروني والرازي والخوارزمي والبتاني والكندي وابن النفيس والزهراوي وغيرهم ، لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدينة عدة قرون .

فقبل الاسلام لم يكن للعرب ذلك التراث العلمي العظيم ، الذي يحوي العديد من المعلومات والمعارف العلمية ، وكذا الآراء والنظريات والمشاهدات والتجارب . ولما أفاء الله عليهم بالإسلام ، تغيرت الأوضاع تمامًا ، فطلبوا العلم وأعانوا على البحث فيه ، فالإسلام دين يحض على طلب العلم ، دينٌ معجزته كتاب ، وأول آية فيه «اقرأ» ، دين يوصي بإمعان النظر في ملكوت السماوات والأرض ، والتفكر في خلق الله ، والإمعان في معرفة الكون والكائنات .

والمسلمون في دورهم في النقل والترجمة والدراسة ، لم يكونوا كالنمل يجمع غذاءه ويحفظه كما هو حتى وقت الحاجة إليه ، إنما كانوا كالنحل ، يجمع الرحيق ، بل يصفي ما يجمعه ، ويهضمه ويقدمه للإنسانية عسلًا سائغًا ، فيه شفاء للناس . وفي ظل الإسلام الوارف ، أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلم ، وأنتجوا تراثًا علميًّا إسلاميًّا ، وظهر عدد من العلماء المسلمين يزدهي بهم العلم ، شاركوا مشاركة فعالة في بناء النهضة العلمية الإنسانية ، وخطوا بالإنسانية خطوات فسيحة في سبيل الرقي والتقدم .

ويجمل بنا أن ننقل ما ذكرته الدكتورة سيغريد هونكه عن موقف أوروبا تجاه التراث الإسلامي ، فتقول : « وفي مراكز العلم الأوروبية ، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يده إلي الكنوز العربية هذه يغرف منها ما شاء الله له أن يغرف ، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب ، ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي صدرت في أوروبا آنذاك إلا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الحضارة العربية ، فالكتب التي درسها الدارسون ، واستند إليها الباحثون ، كانت كتب ابن سينا وأبي القاسم الزهراوي وابن زهر وحنين بن اسحق واسحق الإسرائيلي ، وكما كانت

الثقافة اليونانية كانت الثقافة العربية منهلًا للأوروبيين المتعطشين للعلم والمعرفة » .

وبالرغم من أن بعض علماء الغرب قد أعماه التعصب والحقد ، فلم يعترف لعلماء المسلمين بالفضل ، تظل هناك حقيقة واحدة ، وهي أن كثيرًا من النظريات والآراء العلمية الحديثة إنما تمتد جذورها إلى التراث الإسلامي ، الذي قدم ألوف المؤلفات والكتب والمصنفات التي ظلت العمدة التي يعتمد عليها علماء الغرب طيلة قرون وقرون .

● **مبادئ قام عليها التراث العلمي العربي الإسلامي :**

(١) الملاحظة الحسية :

لعل الملاحظة تعد أهم ركن في منهج البحث العلمي ، فقد حرص المسلمون على ممارسة الملاحظة في بحوثهم ، واستعانوا بها في تمحيص أقوال أسلافهم والكشف عن أخطائهم ، ثم اهتمامهم بالملاحظة باستخدام الآلات التي تعوضهم عن قصور الحواس .

يقول جابر بن حيان (ت ١٩٨ هـ / ٨١٣ م) في المقالة الأولى من كتاب الخواص الكبير : « يجب أن نعلم أنا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط ، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه . فما صح عندنا - بالملاحظة الحسية - أوردناه ، وما بطل رفضناه ، وما استخرجناه نحن أيضًا وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم » .

ويعرض الحسن بن الهيثم (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) في مقدمة كتابه « المناظر » لمراحل المنهج التجريبي ، فيقول : « ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ما يخص البصر في حال الأبصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاء المقدمات ، والتحفظ من الغلط في النتائج » .

وفي الرسالة الأولى عن العلوم الطبيعية ، يقول إخوان الصفا : « إن حقائقها تحصل في نفوس العقلاء باستقراء الأمور المحسوسة شيئًا بعد شيء » .

وتحدث الطبيب موفق الدين البغدادي (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) في كتاب « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » عن عظم الفك الأسفل ، فقال إنه عظم واحد كما أثبتت مشاهداته ، رافضًا ما قاله جالينوس .

وابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م) رئيس العشابين والنباتي الرحالة . يقول في مستهل كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لبيان منهجه في البحث : « إني توخيت صحة النقل فيما أنقله عن الآخرين وأحرره عن المتأخرين ، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر ، وثبت لدي بالخُبر لا بالخبر ، ادخرته كنزًا سريًّا ، وعددت نفسي عن الاستغناء بغيري فيه –سوى الله – غنيًّا ، وما كان مخالفًا في المشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق ، أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق ، نبذته ظهريًّا ، وهجرته مليًّا ، وقلت لناقله أو قائله : لقد جئت شيئًا فريًّا ... ولم أحاب في ذلك قديمًا لسبقه ، ولا محدثًا اعتمد غيري على صدقه » .

ولقد استعان المسلمون بالتجربة العلمية ، مكملين للملاحظة الحسية ، وفيما قام به جابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني والمجريطي وابن سينا وغيرهم أمثلة عديدة على دور التجربة العلمية فيما وصل إليه هؤلاء العلماء من معرفة وعلم .

ومن المهم أن نعلم أن المسلمين فطنوا إلى التجربة العلمية قبل المحدثين من الغربيين بمئات السنين ، فقد سماها « جابر بن حيان » التدريب ، ويقول في كتاب السنين : « فمن كان دربًا (مجربًا) كان عالمًا حقًّا ، ومن لم يكن دربًا (مجربًا) لم يكن عالمًا ، وحسبك بالدربة (إجراء التجارب) في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل » .

كما سمى ابن الهيثم التجربة العلمية بالاعتبار . وقد زاولها وكانت مكملة للملاحظة

الحسية . ولا شك أن البيروني يعد من أئمة رواد البحث التجريبي من المسلمين .

والتراث مفعم بالنماذج التي تشهد بحرص المسلمين على الدعوة إلى الملاحظة الحسية والتجربة العملية كأداة لكشف الحقائق .

(٢) التكميم :

إن العلوم التي أمكن لأصحابها تكميم دراساتها ، واصطنعت لذلك المعامل والأدوات والأجهزة وتحولت قوانينها إلى دلالات رياضية ، أصبحت تحتل مكان الصدارة في البحث العلمي .

ولقد رأينا في التراث نزوع العلماء إلى استخدام الآلات ، كما اخترعوا آلات تستخدم في تحويل الكيفيات إلى كميات عددية توفيرًا للدقة في نتائج البحوث العلمية .

ولعل أدق الآلات والأجهزة التي اصطنعها علماء المسلمين في بحوثهم كانت تلك التي استخدموها في دراساتهم في علوم الفلك والجغرافيا والفيزياء .

وكان أول مسلم صنع إسطرلابًا هو (إبراهيم بن حبيب الفزاري بين سنتي ٧٩٦ و ٨٠٨ م) . وأقدم رسالة عربية في الإسطرلاب هي رسالة « علي بن عيسي » الذي سمي بالإسطرلابي .

وكان من الآلات التي استخدمها علماء المسلمين في المراصد التي أنشئت في بغداد ودمشق والقاهرة ومراغة وسمرقند وغيرها من حواضر الإسلام ، الحلقة الاعتدالية ، وذات الأوتار ، وذات السمت ، والارتفاع وذات الجيب والمزولة والإسطرلاب .

وأدى استعمال هذه الآلات إلى الحصول على قياسات دقيقة وتكميم للنتائج . وساعدت العلماء المسلمين على استبدال الجيوب بالأوتار ، وإدخال خطوط التماس في حساب المثلثات وحل المعادلات التكعيبية .

وقد استطاع الفرغاني (كان حيًّا عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م) في أرصاده أن يحدد المسافات بين الكواكب بعضها والبعض الآخر ، وتقدير أحجامها بدقة . كما قدر غيره من العلماء الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة .

وإني لأدعو زملائي ذوي التخصصات العلمية الحديثة أن يهتموا بهذا الأمر لدراسة ما أسهم به العلماء المسلمون من أرقام أنارت الطريق للبحوث العلمية الحديثة ، وألا نكتفي بالسرد دون أرقام .

(٣) موضوعية البحث ونزاهة الباحث :

يلاحظ أن مقدمات الكتب التي سطرها العلماء المسلمون توضح بجلاء اهتمامهم بالموضوعية في البحث والتزامهم بالنزاهة ، فابن الهيثم في مقدمة « الشكوك على بطليموس » يقول : « الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته ليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر ، والحقائق منغمسة في الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس » . ثم يطالب الباحث بأن يمحص ما يقرأه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضًا نفسه عند خصامه ، فلا يتحامل عليه ولا يتسامح فيه ، فإنه إذا سلك هذه الطريقة كشفت له الحقائق ، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدم من التقصير والشبه » .

ويربط ابن الهيثم وجهة نظره بالدين في مقدمة كتابه « المناظر » فيقول : « ونجعل غرضنا في جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا إيقاع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننفذه طلب الحق لا الميل مع الآراء ... وليس ينال من الدنيا أجود ولا أشد قربًا إلى الله من هذين الأمرين » .

(٤) موسوعية العالم المسلم :

لا شك أن العصور الحديثة تميزت بالتخصص الدقيق ، لكننا نجد العلماء المجيدين

يتميزون بالموسوعية ، ولهم إلمام بأطراف الفروع العديدة من العلم . وهذه الموسوعية التي تهيأت للعلماء المسلمين ، جعلت تراثهم دائرة معارف تشمل كل ما عرف في عصورهم من علوم طبيعية وطب وفن وفلسفة وعلوم شرعية .

● دور التراث في حل المشكلات المعاصرة :

تحوي المخطوطات العلمية العربية الكثير من الحلول لمشكلات وقضايا علمية ، ولا يمكن إنكار دور التراث العلمي في العلوم الأساسية والتطبيقية عبر القرون ، ولقد ترجمت المخطوطات العربية إلى اللغة اللاتينية منذ قرون ومثلت المصدر الوحيد لحلول المسائل العلمية والطبية والهندسية والزراعية وغير ذلك من القضايا . وفيما يلي أوضح جانبًا من هذا الدور العظيم ، مما يحتم علينا تحقيق المخطوطات العلمية العربية ، ودراسة ما أتت به من علم ومعارف علمية . وسأكتفي ببعض الجوانب التي يمكن للتراث العلمي العربي الإسهام فيها حتى الآن وفي المستقبل .

أولًا : الطب والصيدلة :

مكابر من يقول إن الطب الحديث ليس في حاجة للمعارف التراثية عن الطب التي وردت في المخطوطات العربية التراثية . ففي دراسة أجريتها حول النباتات الطبية التي ذكرها ابن البيطار في جامعه وجدتُ أن هناك خمسًا وتسعين نوعًا نباتيًّا ذكرها لعلاج أمراض الكبد المختلفة ، ولا شك أن التعرف على هذه النباتات يفتح بابًا واسعًا للدراسات الكيميائية والصيدلية والأقربازينية والطبية على هذه النباتات ، ولافت للنظر أن ما نعرفه عن النباتات الطبية معظمه من كتب التراث . كما أن أمراض الكبد المنتشرة هذه الأيام تحتاج مجالات جديدة من البحث والدراسة حول النباتات التي يمثل مكنونها من المواد الفعالة مصدرًا للدواء لعلاج الأمراض المستعصية ، وما زال التراث يفيض علينا بمعارفه في هذا الصدد .

ثانيًا : استخراج المياه وتنمية مواردها وحسن استغلالها

منطقتنا العربية معظم أراضيها جافة ، فثلثا مساحة الوطن العربي لا يتلقى أكثر من مائة ملليمتر مطر في العام . وبذلك فإن التنمية في الوطن العربي مهددة بالنقص في الموارد المائية ، ولكن في التراث ما يمكن أن يحل جانبًا من مشكلات نقص الماء وشحه ، ونضرب مثلًا لما قام به الأنباط من تدبير موارد المياه ، وما نجحوا فيه من زراعة المناطق القاحلة ، حتى كان لديهم ما يعرف بالزراعة النبطية ، وما زالت الشواهد الباقية دالة على إمكان الاعتماد على ما فعله الأنباط . ولعلي لا أبالغ عندما أذكر أن ما فعله الإسرائيليون في النقب بالأرض المحتلة ليس إلا إعادة لبناء ما خلفه الأنباط من مزارع اعتمدت على ما نعرفه اليوم بحصاد المياه في المناطق الجافة . كما أن ما جاء في الزراعة الأندلسية من طريقة الري باستعمال جرار من الفخار ، يعد نوعًا من الري بالتنقيط ، بل إنه أقل عيوبًا من الري بالتنقيط الذي يزعم الغربيون اكتشافه .

ثالثًا : صون الموارد ونظام الحمى :

إن التراث يوضح لنا سبق العرب في صون الموارد الطبيعية ، ولعل نظام الحمى في المراعي يعد أقدم نظام مؤسسي لإدارة المراعي ، وما زالت آثار بعض الأحمية باقية في شبه الجزيرة العربية ، بل امتدت إلى شمال إفريقيا . وفي كتابات العرب عن الرعي والكلأ والعشب ما يغيب عن علمنا اليوم ، فحديثهم عن الحمض والخلة قد سبق علماء العصر الحديث عن النباتات الملحية (الحمض) ، وما حلا من النبت أي النباتات غير الملحية (الخُلَّة) .

رابعًا : علم التصنيف والعلاقات التطورية :

من الطريف أن العرب في كتبهم عن النبات قد أوردوا أسماء ومسميات ومعايير لتصنيف النباتات ، ولعل ما ذكره أبو عبيدة في كتاب « الشجر » المنسوب لابن خالويه

من تصنيف للأشجار والنباتات الصحراوية ما يمثل قواعد علمية سليمة للتصنيف ، كما أن ما ذكره إخوان الصفا عن تطور الكائنات يعد من الأمور المهمة في تطور الكائنات والعلاقات التطورية بينها .

خامسًا : التوزيع الجغرافي للكائنات ورصد وجودها واندثارها :

يزخر التراث العربي بالعديد من الكتابات التي يمكننا من خلالها التعرف على التوزيع الجغرافي للنباتات واندثار بعضها ، فالشاعر النجدي يتحدث عن الأرطى والغضا ، أما الشاعر الحجازي فيتحدث عن السلم والسمر .

سادسًا : علوم الأنواء والفلك :

إن المخطوطات التي دبجت في هذين المجالين كانت دعامة قوية للمعارف عنها في العلم الحديث ، ولا نشك أن هناك الكثير من المعارف عن هذه العلوم مطوي في بطون مئات المخطوطات التي لم تلق حظها من التحقيق والنشر .

سابعًا : الأسماء والمسميات العربية :

لعل القائلين بعدم إمكان تدريس العلوم باللغة العربية ، لا يعلمون ما في التراث من كنوز لغوية ومسميات علمية ، وأذكر في هذ الصدد ما جاء في الجزء الثاني من كتاب « القانون » لابن سينا عن صفات الدواء ، وهي صفات كثيرة تختلف باختلاف نوع العقار ، وبدهي أن المترجمين نقلوا هذه الأسماء إلى اللاتينية ، واستفاد الغرب منها ، وعندما أخذنا العلم عن الغرب عجزنا عن ترجمة هذه المصطلحات التي ظل بعضها على نطقه بالعربية ، وحاولنا -فاشلين - استعمال الكلمات الأجنبية التي كانت في الأصل عربية . وهذ الأسماء والمسميات تراث عربي نجهله ، وفي بطون المخطوطات مورد عظيم لهذه المصطلحات العلمية .

إن الحديث عن دور التراث العربي القابع بين دفاف المخطوطات في أنحاء المعمورة

طويل وذو شجون ، وأرجو أن يتاح تدارس هذا الموضوع بتوسع وإفاضة .

وإذا كنت أقدم هذه الخواطر المتواضعة في العيد السبعيني لأخي وصديقي الدكتور عبد الستار الحلوجي ، فإن هذا لا يمثل في بحر علمه إلا بلالة . داعيًا العلي القدير أن يطيل عمره ويديم عطاءه ، وينفع الأمة بعلمه .

(أرجو ألا يجنح الفهم بأحد فيتصور أنني بهذه الدراسة أحاكم الجامعة أو أُدين التعليم الجامعي . فأنا واحد من أبناء الجامعة طالبًا وأستاذًا ، وأنا واحد من الذين يحبون التدريس في الجامعة ويرضونه لأنفسهم ولا يعدلون به أي منصب آخر مهما علا . وحبي للجامعة وللتعليم الجامعي هو الذي يجعلني أدق ناقوس الخطر منبّهًا إلى هذه الأخطاء التي أحب لأبنائي الطلاب أن يتدبروها ويتجنبوا الوقوع فيها . وهي أخطاء ساعدت على وجودها وتأصُّلها ظروف وعوامل كثيرة أرجو أن يهتم بدراستها علماء اللغة والتربية في وطننا العربي ، في محاولة منهم لتلمُّس أسبابها ووسائل علاجها) .

من كتاب « قراءة في أوراق جامعية » .

حضارة الكتاب
نظرة في التأثيرات الحضارية للطباعة والثقافة السطرية القرآنية

أ.د. كمال عرفات نبهان*

ملخص :

تَعْرض الدراسة أفكار « ماكلوهان » الأستاذ الكندي في علوم الاتصال فيما يتعلّق بتأثيرات القراءة والكلمة المكتوبة على المجتمع والإنسان ، ومن ثمّ تتناول الأُسس التي يقيم عليها ماكلوهان نظريته ، وأهمها علاقة الوسيلة بالإنسان ، حيث الوسيلة امتداد للإنسان ، وكيفية تأثير الوسيلة في الإنسان ، حيث الوسيلة هي الرسالة . وتتحدّث الدراسة بعد ذلك عن المطبوع كوسيلة في نظر ماكلوهان ، وتأثيرات المطبوع والقراءة حسب نظريته ، سواء التأثيرات النفسية أو التأثيرات الثقافية والاجتماعية .

تمهيد :

الكتاب قديم منذ سجل الإنسان أفكاره كتابةً على الأحجار والبردي وألواح الطين وجلود الحيوان وغيرها ، ولكنه لم يُصْبح وسيلة اتّصال جماهيرية إلا بعد اختراع جوتنبرج للمطبعة والحروف المنفصلة منذ خمسة قرون ، حيث بَدأ عصر جديد للإنسان ، وظل الكتاب أهم وسيلة لنقل الأفكار ، يتخَطَّى بها حدود المكان والزمان ، حتى القرن العشرين ، حين ظَهَرت وسائل اتّصال جديدة ، وأصبح على الكتاب أن يحدد علاقاته مع كل مُنَافس جديد ، وتنبأ البعض بانتهاء عصر الكتاب بعد ظُهور وسائل الاتصال التكنولوجية ، كالسِّينما والراديو والتليفزيون ، وظلَّ الكتاب قائمًا ، ولكن قضية استمراره كوسيلة اتصال أَصْبحت موضع نقاش ونظريات وأبحاث كثيرة حول الورقية

* أستاذ المكتبات والمعلومات ، وعميد المكتبات بجامعة مصر بـ ٦ أكتوبر .

واللاورقية ، أو قضية الكتاب الورقي بين البقاء والزّوال[١] .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت نظرية جديدة أثارت جدلًا عظيمًا ، حتىٰ اعتبرها البعض أخطر نظرية في الفكر الإنساني بعد نظرية النسبية ، وإن كانت هذه المرة في مجال العلوم الإنسانية ، هذه النظرية هي « نظرية مارشال ماكلوهان » ، وهو أستاذ كندي في علوم الاتصال . وتكتسب نظريته خُطورتها من أنها تحاول أن تضع تفسيرًا جديدًا لمراحل حضارة الإنسان وتطوراته الاجتماعية علىٰ أساس نوع وسيلة الاتصال التي تَسُود في كل مرحلة منها ، وما تَفْرِضُه من نِسَب إدراكية وشعورية وانفعالية ، فكل تَغْيير يَحْدُث في وسائل الاتصال يَحْدُث في مقابله تغيير اجتماعي ، وكل وسيلة اتصال لها حضارتها التي تقوم عليها . فقد انتقلت الحضارات من الحضارة السمعية الشفهية إلىٰ الحضارة الكتابية منذ اختراع الإنسان للكتابة ، إلىٰ الحضارة الطباعية بعد ظهور المطبعة ، حتىٰ وَصَلت إلىٰ حضارة الوسائل التكنولوجية الحديثة ، وهي وسائل الاتصال المسموعة والمرئية كالتليفون والسينما والراديو والتلفزيون . ويُهمّنا أن نتناول من هذه النظرية ما تذهب إليه بخصوص « حضارة المطبوع » ، فـ « ماكلوهان » يُقَيِّم كل التراث العقلي والحضاري الغربي علىٰ فرضٍ واحد ، هو أن التجربة الرئيسية للإنسان الغربي قامت أساسًا علىٰ اختراع الطباعة منذ القرن الخامس عشر حتىٰ القرن العشرين ، ويتحقّق هذا الجانب من ناحية ، ونظرًا لأهمية المنهج الذي يستخدمه « ماكلوهان » في التفسير الاتصالي للحضارة من ناحية أخرىٰ .

نظرية ماكلوهان :

يمكن القول بأن أعمق الدراسات التي تناولت بالتفسير والتحليل تأثيرات القراءة

(١) انظر في هذا الموضوع الكتاب التالي : حسني الشمي : الورقية واللاورقية : أو الكتاب بين البقاء والزوال . – القاهرة : [د . ن] ، ١٩٩٢ . – ١٩١ ص .

والكلمة المكتوبة علىٰ المجتمع والإنسان ، هي دراسات « مارشال ماكلوهان : Marshall Mc Luhan » الذي اهتم بالتفكير النظري القائم علىٰ الدراسات التاريخية والتأملات الحضارية من أجل فهم طبيعة الاتصال الجماهيري وأثره علىٰ العلاقات الإنسانية [١] .

وقد جَمَعت دراسات « ماكلوهان » كمًّا هائلًا من الأبحاث العلمية المتنوعة ، أفاد منها في الوصول إلىٰ نظراته الثاقبة المدهشة التي لفتت انتباه الباحثين والعاملين في مجالات الإعلام ورجال الأعمال والمثقفين [٢] إلىٰ أهمية تفسيراته ومنهجه في الربط بين الوسيلة وتأثيراتها الحضارية والاجتماعية والنفسية والتكنولوجية .

وليس الاهتمام بتأثيرات الكلمة المكتوبة – خصوصًا بعد ظهور الطباعة – قاصرًا علىٰ « ماكلوهان » فَحَسَب ، فقد انتبه كثيرون إلىٰ ذلك ، ومنهم « ول ديورانت : Will Durnt » المؤرخ الأمريكي ، الذي قال « إنَّ الطباعة كانت ضمن الأسباب التي وضعت نهاية للعصور الوسطىٰ » [٣] .

كما أوضح أوزوالد شينجلر أن القرون الخمسة الأخيرة شهدت الدور الذي لعبه استخدام المطبوع في نقل حضارة الغرب بالتدريج إلىٰ ما أسماه « حَضَارة الكتاب والقراءة » .

(١) إبراهيم إمام . نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير . – القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ . ص ٦٣ .

(٢) أونج ، والتر . الشفاهية والكتابية / ترجمة حسن البنا عز الدين . – الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٦٤ . ص ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) ديورانت ، ول . قصة الحضارة . مج ١٦ (٢٢) / ترجمة عبد الحميد يونس . – القاهرة : جامعة الدول العربية ، ١٩٦٨ . ص ٢٧٦ .

وحسب عبارته الألمانية [١] (Buch und lessen Kulture) كما ظهرت في وقت مبكر اكتشافات « ميلمان باري Milman Parry » بالغة الأهمية في رسالته التعلمية للدكتوراه بالفرنسية عام ١٩٢٨ ، حول الخصائص المميزة للفكر الشفاهي كما درسه في شعر هوميروس اليوناني القديم الذي يقال إنه عاش حول ٨٥٠ ق . م ، [٢] وهي خصائص تُلْقي الضوء على الجوانب المقابلة في الفكر الكتابي المَقْرُوء .

كما ظهرت دراسات كثيرة تهتم بهذا الجانب أو ذاك من تأثيرات الاتصال الشفهي أو الكتابي ، مثل هافلوك ولورد وجاك جودي ومايلز فولي ، وأونج الذي ألف كتابًا عن تأثير الطباعة في عمليات الفكر في القرن السادس عشر ، وأَصْدَرَهُ عام ١٩٥٨ ، وكانت هذه الدراسات تنتمي إلى مجالات مختلفة كالأدب والأنثروبولوجيا وغيرهما [٣] .

ومن الدراسات الهامة في هذا المجال أيضًا ، دراسة ميدانية مبكرة (١٩٤٠) قام بها ويبلز وبيرلسون وبرادشو بعنوان « ماذا تفعل القراءة بالناس ؟ : What reading does to people » [٤] ودراسة هوارد وينجر H. Winger « الأبعاد التاريخية لدور الكتاب في المجتمع » ، والتي رَصَد فيها بعض التغيرات الاجتماعية الحيوية التي تنتج عن الأفكار التي ينشرها الكتاب والقراءة [٥] .

ولكن دراسات « ماكلوهان » لتأثيرات المطبوع والكلمة المقروءة قد اكتملت في إطار

(١) Spengler , Oswald (1880 – 1936) . The decline of the West , N.Y. , A. A. Knopf , 1932 Vol. 2, p.p. 461 – 463 .

(٢) أونج ، والترج . الشفاهية والكتابية . ص ص ٧٣ – ٧٤.

(٣) المصدر السابق . ص ٨٦.

(٤)Waples, D., B. Berelson & F.R. Bradshaw : What reading does to people : A summary of evidence on social effects of reading . – Chiago: Chicago . Univ, 1940.

(٥)Winger , Howard W. ((Historical perspectives on the role of the book in society)) .- (L.Q. Vol 25, 1955 . p. p.295 – 305).

منهج تحليلي شامل يتناول القراءة كوسيلة اتصال ، كما يتناول وسائل الاتصال الأخرى وتأثيراتها المختلفة ، مما جعلنا أمام رؤية متكاملة لأحداث الماضي والحاضر وما يتوقَّعُهُ في المستقبل مع تطور وسائل الاتصال الجماهيرية الإلكترونية ، والصِّراع بين خصائص كل نوع من الوسائل ، وما تُحدثه من عالم جديد يقوم على أنقاض عالم سابق خلقته وسيلة سابقة تمت أو تتم إزاحتها .

كوكب جوتنبرج :

ويبدأ « ماكلوهان » تَنَاوله لتأثير القراءة والكلمة المكتوبة منذ اللحظة التي أنجز فيها « جوتنبرج » ابتكاره للحروف المتحركة وللمطبعة ، باعتبار أن وسيلة اتصال جديدة في شكلها وطبيعتها وانتشارها قد ظهرت لكي تلعب دورها كعامل مُؤَثِّر في التاريخ والحضارة وتغيير الإنسان والمجتمع ، وبالرغم من أن الجميع قد أدركوا أن ظهور المطبوع كان إيذانًا بظهور تغيرات خطيرة ، إلا أن هذه التغيرات تأخذ في نظرية ماكلوهان شكل ثورة كاملة في جميع المجالات ، غيَّرت ملامح المجتمع الإنساني ، وبَدَّلت خصائص نفسية كثيرة لدى الإنسان ، وشكَّلت علاقات جديدة ، وخَلَقت أشكالًا اجتماعية جديدة من خلال تَرَاكم التأثيرات والتفاعلات ، ومن خلال عمليات البناء والهدم معًا .

وقَليلٌ مِن الناس كان لهم هذا التأثير الفعَّال الذي أحدثه « ماكلوهان » في عقول متنوعة كثيرة ، حتى في عقول أولئك الذين لم يوافقوه أو اعتقدوا أنهم لم يُوافقوه ، وقد استمر تيار البحث في هذا المجال حتى وصل إلى مراحل متطورة ، منها ما ذهب إليه « جوليان جينس » عام ١٩٧٧ ، من الربط بين مراحل الشفاهية والكتابية ، وبين تغيرات عصبية وفسيولوجية في عقل الإنسان [١] .

(١) أونج ، والترج . الشفاهية والكتابية . ص ٨٧.

ولكن تَفسيرات ماكلوهان تظل محتفظة بجدتها وديناميتها ، وقدرتها على العصف الفكري ، تَارة بدقة ومعقولية التفسير والطرح ، وتارة بغرابة الفكرة ومُخَالفتها للمألوف ، وملامح الإبداع التي تتبدى في كل أفكاره ، حتى لو تحفَّظنا أمام بعضها ، أو خالفناه في بعضها الآخر ، فإنه في كل الأحوال ينقلنا من غرفة التفكير التقليدي ، إلى ساحة التفكير الإبداعي .

وبداية يرى « ماكلوهان » أننا نفتقر إلى فَهْم التأثيرات النفسية والاجتماعية للمطبوع ، مما يُحَيِّر أي دارسٍ للتاريخ الاجتماعي للكتاب المطبوع ، فمن النادر على مدى الخمسة قرون الماضية – على حدّ قوله – وُجُود ملاحظة أو فهم واضح لتأثيرات المطبوع على وَعْي وإدراك الإنسان (Sensibiliy) ، كما يرى أن نفس الملاحظة يمكن أن تصدق بالنسبة لكل وسائل الاتصال الأخرى [١] .

وقد تناول « ماكلوهان » تأثيرات الكتاب المطبوع في معظم مؤلفاته ، ولكن أهمها في هذا المجال مؤلفاته التالية :

Mc Luhan Marshall :

-The Gutenberg Galaxy : The making of typographic Man

-Understanding media : The extensions of Man[٢]

-The mediun is the message .

-The cool medium .

(١) Mcluhan , M. Understading media : The extensions of man – N.Y. , The New Am. Lib., 1966 . – p.156.

(٢) ظهرت ترجمة عربية لهذا الكتاب بياناتها : (ماك لوهان ، مارشال : كيف نفهم وسائل الاتصال / ترجمة خليل صابات وآخرين . – القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ . – ٤١١ ص) .

ومن الواضح من عنوان الكتاب الأول « كوكب جوتنبرج » ، نسبة الكوكب الأرضي في رأيه إلى جوتنبرج في المرحلة التالية على اختراع الطباعة ، لأن الكوكب قد أُعِيد ترتيبه (The galaxy reconfigurated) [١] نتيجة للنُّسب الجديدة التي أَوْجَدَها المطبوع في بنية الإنسان والمجتمع وسائر مظاهر الحياة والمؤسسات بأنواعها ، وقد ظلّت مملكة « جوتنبرج » مُتَسَيِّدة على الكوكب حتى هزّت عرشه وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة ، وهذا موضوع آخر يحتاج إلى دراسته بالتفصيل .

ولا يمكن فَهْم ما يذهب إليه « ماكلوهان » في تفسيره للتأثيرات التاريخية والحضارية للمطبوع والقراءة ، إلا بعد التعرف على القواعد أو الأسس التي يقيم عليها نظريته وينطلق منها ، والتي بدُونها تبدو استنتاجاته غامضة مبهمة ، وأهم هذه الأسس :

أولًا : علاقة الوسيلة بالإنسان ، حيث « الوسيلة امتداد للإنسان » .

ثانيًا : كيفية تأثير الوسيلة في الإنسان ، حيث « الوسيلة هي الرسالة » .

وفيما يلي عَرْض لهاتين القاعدتين كما يُحَدّدهما « ماكلوهان » .

أولًا : الوسيلة امتداد للإنسان :

يتناول « ماكلوهان » كل الوسائل التي يستخدمها الإنسان في حياته ، باعتبارها امتدادات Extensions لقدرات بشرية معينة سواء كانت قُدرات نَفْسِيّة أو مادية [٢] « فكل الأشياء المادية والوسائل التي يبتكرها أو يكتشفها ، هي توسُّعات وإمكانيات تضاف إلى قدراته الطبيعية . ويبدو الامتداد كما لو كان تضخيمًا لعضو أو حاسّة أو

(١) Mcluhan M. The Gutenberg galaxy : The making of typographic man. To ronto , Univ. of Toronto pr. , 1962 . – P.265.

(٢) Mc Luhan M.: The medium is the message . London , Routledge & Kegan Paul , 1973 .– P.26.

وظيفة (Organ sense, or function) لدىٰ الإنسان [١] ، فالعجلة تعتبر امتدادًا للقَدَم[٢] ، وتؤدي شبكات النقل الآن ما تعودنا أن نؤديه بأقدامنا وظهورنا »[٣] والملابس هي امتداد للجلد[٤] . كما تعتبر الملابس والمنازل امتدادًا للعلميات البيولوجية التي تضبط حرارة جسم الإنسان ، والمال هو امتداد واختزان لطاقة العمل ، والأسلحة التي تتطور حتىٰ تنتهي بالقنبلة الذرية هي امتداد للأسنان وقبضة اليد[٥] والدائرة الكهربائية هي امتداد للجهاز العصبي المركزي[٦] ، أما الكتاب فيعتبر امتدادًا للعين[٧] ، ولذلك فإن ظهور الطباعة والكتاب المطبوع قد فجر طاقة هائلة وامتدادًا عظيمًا ، أتاح للإنسان الرُّؤية والمعرفة في أبعاد لا حدود لها ، متخطّيًا بذلك حدود الزمان والمكان .

وهو يعْتَبر أن توسُّع أو امتداد أية حاسة يزيح Diplaces أو يغيّر Alters أهمية الحواس الأخرىٰ ، ويغيّر الطريقة التي نفكر بها ، والطريقة التي نرىٰ بها العالم ونرىٰ أنفسنا ، حيث يلاحظ مثلًا أن اختراع الحروف الهجائية قد خلق الثقافة الكتابية (literate culture) ، التي كانت مختلفة تمامًا عن الثقافة القَبَلِيَة الشفهية ، كما سوف نرىٰ في هذه الدراسة .

وهكذا نجد « ماكلوهان » في نظريته يُعالج وسائل الاتصال بالجماهير من حيث هي أدوات تكنولوجية بصرف النظر عن المضمون الذي تحتويه أو تُوَصِّله ، « فالناس يتأثرون لا شعوريًّا بوسائل الاتصال ، ولا يلبث هذا التأثير أن يُصْبح السِّر الحقيقي

(١)Mc Luhan M. : Understanding media : The extensions of man.. P. 165.
(٢)Mc Luhan M. : The medium is the message . P.P.31 – 32.
(٣)Mc Luhan M. : The Gutenberg galaxy . P.4.
(٤)Mc Luhan M. : The medium is the message . P.P. 38- 39.
(٥)Mc Luhan M. The Gutenberg galaxy . P.4.
(٦)Mc Luhan M. The medium is the message . P. 40.
(٧)Ibid., P. P. 34-37

الكامن وراء السلوك الإنساني » [١] ، ووسيلة الاتصال عند « ماكلوهان » هي جزء من العملية التكنولوجية التي يحتمل أن تُغَيِّر وجه المجتمع كله ، شأنها في ذلك شأن التطورات الفنية الأخرىٰ ، والاهتمام حينئذ مركز علىٰ تأثير الوسيلة بصرف النظر عن مضمونها أو طريقة استخدامها ، سَواء لنشر المعلومات أو للتَّرفيه أو للتعليم ، وبذلك يمكن التمييز بين منهجين في النظر إلىٰ وسائل الاتصال :

أ – منهج مُخَالف لمنهج « ماكلوهان » ، يرىٰ أن الوسيلة تنقل مضمونًا وأن المضمون هو الذي يُؤَثِّر ، بما يحمل من أفكار أو وسائل جيدة أو رديئة .

ب – منهج « ماكلوهان » الذي يَرتكز علىٰ أن الوسائل هي جزء من سلسلة التطور التكنولوجي ، وهي تؤثر بطبيعتها كوسائل لها آلية معينة ، وبذلك فإن مضمون وسيلة الاتصال لا ينفصل عن تكنولوجية الوسيلة ذاتها ، وطبيعةُ الوسيلة التي يتصل بها الإنسان سواء كانت شفهية أو مقروءة أو سمعية بصرية ... إلخ هي التي تُشَكّل الأفراد والمجتمعات ، أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال أو الرسائل والأفكار التي تَصِل إلىٰ مستخدم الوسيلة [٢] .

ثانيًا : الوسيلة هي الرّسالة :

ومن أهم الأُسُس التي يُقيم عليها « ماكلوهان » نظريته ، ومن أكثرها غرابة وإثارة للجدل معًا ، مقولته الشهيرة بأن « الوسيلة هي الرسالة The medium is the message » ، فوسيلة الاتصال هي وسط يُحيط بالإنسان ويُؤَثّر في كل جوانب الحياة ، وكل الوسائل تؤثر فينا تأثيرًا كاملًا ، فهي بَالِغة الشُّمول في تأثيراتها الشخصية

(١) إبراهيم إمام . نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير . ص ٦٤.
(٢) جيهان رشتي . الإعلام ونظرياته في العصر الحديث . – القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧١ . ص ص ٣٣ – ٣٣١

والسياسية والاقتصادية والجمالية والنفسية والأدبية والأخلاقية والاجتماعية ، حتىٰ أنها لا تترك جانبًا فينا بغير أن تلمسه وتُؤَثّر فيه وتغيره ، فالوسيلة هي الرسالة ، وأي تَفَهُّم جديد للتغيير الاجتماعي والثقافي هو أمر مُتَعَذِّر بدون معرفة الطريقة التي تعمل بها الوسائل كوسط Environment يحيط بنا (١) . « والوسيلة بما تحدثه من تغيير في الوسط ، تُثير فينا نِسبًا استثنائية Unique ratios من الإدراكات الشعورية Sense perceptions ، والتوسُّع في أي حاسَّة بعينها يغير من الطريقة التي نفكر ونفعل بها ، ومن الطريقة التي نُدرك بها العالم ، وحينما تتغير هذه النِّسب يتغير الإنسان » (٢) .

وهكذا يحدث تأثير وسيلة الاتصال نتيجة لخصائصها الآلية كوسيلة مادية وليس بمضمونها الذي توصله ، فالأثر يحدث عن طريق الوسط الذي تخلقه ، وهكذا « فعندما يخترع الإنسان الوسيلة ، فإنَّ الوسط الذي يَخْلُقه هذا الاختراع يُصْبح هو ذاته وسيلة ، ويتحدّد دور الإنسان من جديد من خلال هذا الوسط » (٣) .

« والوسيلة هي الرسالة » ، تعني أيضًا أن لكل وسيلة جمهورًا من الناس الذي يَفُوق حبهم لهذه الوسيلة اهتمامهم بمضمونها ، فكما يحب بعض الناس أن يقرأوا من أجل الاستمتاع بممارسة تجربة القراءة ، فإن البعض كذلك يحب التليفزيون بسبب الشاشة التي تتحرك عليها الصورة المُصَاحبة للصَّوت (٤) .

وعلىٰ هذا الأساس يرىٰ « ماكلوهان » أن تشكيل المجتمعات يتوقف علىٰ طبيعة الوسيلة السائدة نفسها وليس علىٰ مضمونها ، وأن الكتاب قد يتضمّن مادة تافهة أو قيمة ، ولكن ليس لهذا دخل في عملية قراءته ، وكذلك فإن مضمون التليفزيون ،

(١)Mc Luhan , M. . The medium is the message . p. 22
(٢) Ibid. P. 41.
(٣) Ibid. p. 154 .

(٤) جيهان رشتي . المصدر السابق . ص ٣٤٦.

ضعيفًا كان أو قويًّا ، لا دخل له في التغيرات الحقيقية التي يسببها التليفزيون ، فالرسالة الأساسية في الكتاب هي الاتصال السطري أو « المطبوع » ، وفي التليفزيون هي « التليفزيون » نفسه ، هي العملية نفسها ، ولا يهم إذا عرض التليفزيون عشرين ساعة يوميًّا من أفلام رُعاة البقر التي تنطوي علىٰ عنف وقَسْوة ، فالمضمون غير مهم ، ولكن التأثير العميق لعملية مشاهدة التليفزيون هو الرسالة الحقيقية (١).

وينبغي أن نُشِير إلىٰ أن مقولة « الوسيلة هي الرسالة » هي من أكثر مَقُولات « ماكلوهان » إثارة للجدل ، لأنها من ناحية تُفَسِّر لنا جوانب كثيرة من تأثير وسيلة الاتصال علىٰ سلوك وإدراك الإنسان ، الذي يُمكن أن نُسَمِّيه **إنسان الوسيلة** ، سواء كان إنسان الاتصال الشَّفهي ، أو إنسان الطباعة ، أو إنسان التليفزيون ... إلخ ، ولكنها من ناحية أخرىٰ تَنْفي جانبًا هامًّا من الحياة الفكرية للإنسان ؛ لأنها ليست مجموعة من الاستجابات الآلية للوسيلة ، بل إن لها غاياتها وقيمها ، وذلك يؤكد أيضًا أهمية المضمون الذي تُوصله أداة الاتصال ، فلا نستطيع أن نتجاهل ما تحتويه الرسالة من مضمون جيد أو رديء ، بنَّاء أو مدمِّر ، سواء في القراءة أو التليفزيون أو بأي وسيلة أخرىٰ .

المطبوع كوسيلة في نظر « ماكلوهان » :

ومن هذا المنطلق يُفَسِّر « ماكلوهان » تأثير الحروف المتحركة والطباعة كوسيلة تحمل رسالتها في طبيعتها المادية وتأثيراتها النفسية والاجتماعية في الإنسان والمجتمع ، التي تَحْدُث أساسًا نتيجة لشيء واحد وعملية واحدة هي (المطبوع – الوسيلة – الرسالة) ، أو (القراءة – الوسيلة – الرسالة) . وحينما ينظر « ماكلوهان » إلىٰ التاريخ ، يأخذ موقفًا يمكن أن يُسَمَّىٰ « بالحتمية التكنولوجية Technological determinism »

(١) جيهان رشتي . المصدر السابق . ص ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .

حيث يُؤمن بأن الاختراعات التكنولوجية المهمة هي التي تؤثر تأثيرًا أساسيًا على المجتمعات » [١] . وهذه الحتمية التكنولوجية التي تكاد تُوحي بها نظرة «(ماكلوهان » ، تقف في مواجهة حتميات أخرى في تفسير السلوك والتاريخ والحضارة .

ويستمر « ماكلوهان » في مَقُولاته وتفسيراته المُبْهِرة التي تُشْبه الصَّدمَات الكهربائية ، حيث يرى « أن أعظم إنجازات التَّقَدُّم الحضاري ، إنما هي عمليات حَطَّمت المجتمعات التي تحققت فيها » [٢] .

وعلى هذه الأُسس يمكن فهم ما يذهب إليه « ماكلوهان » من أن المطبوع بما له من خصائص هي جزء من طبيعته ومن طبيعة الحروف التي تتكون منها سطوره ، قد خلق أشكالًا ثقافية وحضارية واجتماعية هي بحق ثقافة وحضارة المطبوع ، سواء بالمعنى الاجتماعي أو المعنى المعرفي لمصطلح الثقافة ، وبكل مَا يَعْنيه مصطلح الحضارة من أبعاد ، كما يمكن من خلال نظريته أن نجد ما يسمى : ثقافة سطرية أدبية .

وبتتبع تأثيرات « الامتداد الطباعي للإنسان Typographic extension of man » والتي حدثت نتيجة لبعض خصائصه منفردةً أو متحدةً ، يمكن أن نعرض هذه التأثيرات التي يقسمها « ماكلوهان » إلى تأثيرات نفسية (Psychically) ، وتأثيرات اجتماعية (Socially) وهو يضع تحت التأثيرات الاجتماعية كل التأثيرات الاقتصادية والسياسية والفنية والأدبيّة والثقافية والتعليمية والتكنولوجية والإدارية والاتصالية ... إلخ ، وإن كنا نلاحظ صعوبة التفرقة الحاسمة بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي ، نظرًا لشدّة الارتباط وحَمِيميّة التفاعل بينها ، كما سيتضح في التأثيرات التي أقوم بعرضها فيما يلي ، بعد أن قُمت بتتبعها مُتَفَرّقة في بعض مؤلفات « ماكلوهان » ، مع ملاحظة أنه

(١) جيهان رشتي . المصدر السابق . ٣٣١.

(٢)Mc Luhan M. . The medium is the message .. P.5.

يعرض أفكاره بطريقة مكثفة وتقترب أكثر إلى التلميح ، وهي أقرب إلى لغة الشعر ، وهذا هو الأسلوب المميز لـ « ماكلوهان » ، إلى جانب صياغته لمصطلحات وتركيبات جديدة ، وقد حَرصت على إثبات كثير منها بالإنجليزية داخل النص ، تحقيقًا للفائدة .

تأثيرات المطبوع والقراءة حسب نظرية « ماكلوهان » :

أولًا : التأثيرات النفسية :

١ – فَصْل الفِكْر عن الانفعال وتجزئة الحواس :

يتَّصف الإنسان البدائي بأنه يُفَكّر وينفعل في آنٍ واحد ، ولا يستطيع الفصل بين الاثنين ؛ لأنه متأثر بالاتصال الشفهي الذي تنتقل فيه الأفكار مَصْحُوبة بتأثير صوت المتكلم وانفعالاته وحركات وجهه أثناء الكلام ، فالموقف الشَّفهي موقف كُلِّي مُوحَّد ساخن ، ويلاحظ « ماكلوهان » عكس ذلك في الاتصال القرائي السَّطري الكتابي « فقد كانت الطباعة على وجه الدِّقة ، هي القوة التي تُؤدي إلى فَصْل الفِكْر عن الشُّعور ، أو الفَصْل بين التفكير والانفعال ، وإلى قدرة الفرد على الفعل المستقل ، أو أن يستطيع الإنسان أن يفعل بغير أن ينفعل ، أي أن يفعل بدون أن يَتَأَثَّر ، أن يتصرَّف مُتَحرّرًا من رَدّ الفِعْل ، والطباعة هي التي فَصَلت الإنسان القارئ عن المجتمع التقليدي القبلي ذي الروابط الأُسَرية المتماسكة في كل مظاهر الحياة الشخصية والاجتماعية [١] ، فالطباعة جعلت الإنسان يخرج عن الجماعة التقليدية وعن أفكارها وصياغاتها المُحْكَمة ، لكي يتَّصِل بأفكار واردة من بعيد ، فهو يَنْفَصل لكي يَتَّصِل ، ينفصل عن روابطه وإطاره لكي يَتَّصل بآخرين ليسوا من جماعته أو من إطاره ، وهي أفكار لا تأتيه شفاهية ساخنة بل باردة على صفحة من الورق ، وهو لا يستقبل أصواتًا بل يقرأ كتابة صوتية وهي الحروف ، وهذه « الكتابة الصوتية هي وَحْدَها القادرة على فَصْل وتجزئة الحواس ،

(١)Mc Luhan M. . The medium is the message . P.5.

والتَّخَلُّص من التعقيد في دلالات الألفاظ الذي هو من خواص الاتصال الشَّفهي ، وهذه العملية الكتابية تحدث التجزيء التحليلي للحياة الشعورية » (١) فالاتصال القرائي يحدث نوعًا من الفَصْل بين عناصر الاستجابة في العملية الاتصالية ، مما يمكن أن نُسَمِّيه بـ « الشيزوفرانيا القرائية » .

٢ – الموضوعية واستقلال الرأي والمنهج العلمي :

وربما كانت أعظم هبات الطباعة للإنسان في نظر « ماكلوهان » هي ذلك التَّجَرُّد أو الاستقلال في الرأي (detachement) ، وعدم الانضواء أو التبعية (Non – envolvement) كما وَهَبَتْهُ القدرة على الفِعْل المستقل ، ومنذ عصر النهضة (الأوروبية) ، فقد مجَّد العلم هذه الهِبة (٢) .

وتتضح هذه الفكرة إذا تابعنا أفكار « ماكلوهان » حيث يقول : « ولقد أَوْجَدت الطِّباعة الكتاب الذي يمكن حمله ، والذي يستطيع الناس قراءته على انفراد وبمعزل عن الآخرين .. وقد أضاف المطبوع الشيء الكثير إلى مبدأ الفَرْدية الجديد (cult of individualism) ، وأَصْبحت وجهة النَّظر الخاصة والمحددة أمرًا ممكنًا ، كما أن الإلمام بالقراءة قد مَنَح القدرة للفرد على استقلال الرأي وعدم الانضواء » (٣) .

وعلى عكس ذلك يعني فعل التعلم أو التعرف في الثقافة الشفهية إنجاز انتماء حميم ومشاركة وجدانية جماعية مع « المعروف » ، ويتضمَّن ذلك أشكالًا من الاحتواء ، أما الكتابة فتفصل بين العارف والمعروف ، وتبني شروطًا للموضوعية ، بمعنى عدم

(١)Mc Luhan M. . Understanding media . p. 157.
(٢)Ibid.
(٣)Mc Luhan M. . The cool medium . in (Cantor , Norman F. and Michael S. Werthman (eds.) . The history of popular calture. – N.Y., Macmillan , 1968.

الارتباط الشخصي والابتعاد (١) ، بل وَيَصِل الأمر إلى المقابلة الحادة التي يضعها « جاك جودي » (١٩٧٧) بين خصائص الشفاهية والكتابية ، تصل إلى الانتقال من السِّحر إلى العلم ، أو مما يُسَمَّى « ما قبل المنطقي » إلى حالة الوعي التي تزداد عقلانية ، أو من « العقل المتوحش » إلى الفكر المستأنس (٢) .

ولقد حَفَل تاريخ الفكر الإنساني بمجالات عديدة لتأكيد القيمة الأخلاقية للتجرد والموضوعية ، وهي أساس المنهج العلمي في التفكير ، ويرى « ماكلوهان » أن الذي مَكَّن لهذه القيمة من الازدهار ، هي تلك الصفات التي اكتسبها إنسان الطباعة ، « فهو يتَّصف بالاستقلال في الرأي Loftiest detachement ، والتَّجَرُّد الأخلاقي ethical integrity ، ذلك التَّجَرُّد الذي يجعله غير متحيز ، وكل ذلك يقف علامة على المزاج العلمي للمجتمع القارئ المستنير entightened ، وعلى التَّخَصُّص sepcialization ، وتجزيء fragmentation المعرفة والإدراك sensibility (٣) .

« تلك كانت الهبة عظيمة الأثر التي وهبتها القراءة والطباعة للإنسان ، وهي القدرة على الفعل المستقل ، وعدم الانضواء ، وفَصْل الفِعْل عن الشعور والانفعال ، والذي بدونه يُصبح الإنسان مُشَوَّشًا متردّدًا hampered & hesitant » (٤) .

وجدير بالتنويه أن الحياد والموضوعية والمنهج العلمي لم تكن كلها نسبًا إدراكية وخَصَائص حَضَارية غائبة فَأَوْجَدَها المطبوع ، بل كانت موجودة وتأسست جذورها في الفكر الإسلامي منذ قرون بعيدة ، ولكن الذي نفهمه أن « ماكلوهان » يشير إلى قوة التدعيم التي خلقها المطبوع لهذه الخصائص ، والتمكين لها مما أدى إلى ازدهارها وتحولها

(١)Mc Luhan M. . Undersanding media. P. 158.
(٢)Ibid. P. 157.
(٣)Mc Luhan M. . The medium is the message. P. 50.
(٤) أونج ، والتر . المصدر السابق . ص ١١٠ .

إلى صفة غالبة نسبيًّا في الفكر والحضارة المتأثرة بالمطبوع .

٣ – التفكير الخطي والترتيب :

ويرى « ماكلوهان » أنه ليس هناك ما يفوق ثقافة الطباعة من حيث خاصيتها : « مكان لكل شيء ، وكل شيء في مكانه Place for everything and everything in its place [١] » ، والطباعة هي أعظم الوسائل التي تحقق الاستمرارية والخطية Linearity بالتكرار المجزأ »[٢] . وهي خواص الحروف المتتابعة للطباعة ، وكان ذلك هو الوسط environment الذي فرضته الوسيلة المطبوعة نفسها ، كلمة بعد أخرى ، وجملة بعد أخرى ، وفقرة بعد أخرى ، وشيءٌ واحد في الوقت الواحد ، في خط منطقي مُتَّصل ، وذلك بعكس المجتمع الشفاهي الذي يعتمد على الأذن ear – oriented ، الذي يميل إلى استقبال خبرات كثيرة في نفس الوقت والتعبير عنها [٣] . « ولا يلبث الوسط الذي يخلق الإنسان أن يُصْبح هو وسيلة نحو تحديد دوره من خلاله ، وقد أدى اختراع الحروف المطبوعة إلى التفكير الخطي (linear thinking) أو المتتابع (sequential) وأدى إلى فَصْل الفكر عن العقل » [٤] .

٤ – التركيز البصري والمنظور (في الرسم المجسم) :

« ولقد كان تحصيل المعلومات اعتمادًا على حاسّة السَّمع عند الرجل الأُمِّي ، لا يُتيح له التَّركيز ؛ لأن الأُذُن لا يمكنها أن تركز ، ولكن العَين يمكن أن تُرَكِّز في عملية القراءة، وهي عملية استخدام لعيوننا لتعلُّم الأشياء التي لا تستطيع أن تراها ، وهذه

(١) المصدر السابق . ص ٨٦.

(2) Mc Luhan M. . The Understanding media. P. 157 .

(3) Ibid. P. 162.

(4) Mc Luhan M. . M. Understanding media. P. 156.

المَقْدِرة الفريدة تعتمد على العين ؛ لأنها تركز وتتتبع الأشياء بتوال » [١] .

ومن الاستمرارية والتماثل والترابط في عملية القراءة ، ينبع التركيز البصري « Visual Stress » [٢] وقد أكد اختراع الطباعة التركيز البصري الجديد ، وَوَسَّع من إمكانياته [٣] .

ونفسيًّا ، فإن الكتاب المطبوع ، وهو امتداد لحاسة الإبصار ، قد كثَّف المنظور والنقطة الثابتة للرؤية ، واتَّحد ذلك مع التركيز البصري الذي يقع على نقطة الرؤية Point of view ، ونقطة الزوال ، التي تخلق وهم المنظور Perspectivev (وهو تَمْثيل الأشياء ذات الأبعاد الثلاثة على سطح ذي بعدين فتبدو وكأنها نافذة إلى العمق) ، ومن خلال ذلك ، تَحقَّق خداع آخر ، وهو أن الفراغ مَرْئي Visual ومنتظم مُتَّسِق Uniform ، ومستمر Continuous [٤] . وذلك شكل جديد من التصور الثلاثي الأبعاد ، الذي يختلف عما سبقه من تصوير ذي بُعدين ، والذي يُسَمِّيه « ماكلوهان » بالموزايكو ، وهو المنهج المتبع في التصوير الإسلامي القديم كما نلاحظه عند بهزاد وغيره من عباقرة التصوير الإسلامي .

٥ – الأبعاد الثلاثة في الكونتَربُنط (في الموسيقى الغربية) :

ولم تقتصر تأثيرات الطباعة على تكثيف المنظور في فن التصوير ، بل تخلَّلت كل وجه في الفنون والعلوم في القرون الخمسة الماضية من حضارة المطبوع ، حتى لنستطيع أن نُفَسِّر أسباب تطور الموسيقى الغربية كنتيجة لحضارة المطبوع ؛ فالموسيقى الغربية فيها كونتربنط Counterpoint (أو طباق) ، « وهو يعتمد على صوت ، وعلى تَعَدُّدُ الخطوط

(1) Mc Luhan M. > The cool medium. P. 723.

(٢) جيهان رشتي المصدر السابق . ص ٣٤٠ – ٣٤١.

(3) Mc Luhan, M. . The medium is the massage. P. 157.

(٤) جيهان رشتي . المصدر السابق . ص ٣٤٠ .

اللحنية في أنماط متعددة ، بحيث يكون لكل تركيب نغمي تركيب يُقَابله ويوازنه وإن لم يشابهه ، ويتقابل صوت غنائي من طبقة ما مع صوت غنائي من طبقة أُخرىٰ ، وتنقلب المسافات أو الأبعاد الموسيقية اللحنية الفاصلة بين أصوات اللحن فتتحول كل مسافة صاعدة إلىٰ هابطة والعكس صحيح ، مع تَفَاصيل فنيّة أخرىٰ تحكم الكونتربنط (١) ، وهو ذُو ثلاثة أبعاد ويشبه في ذلك التصوير المُجَسَّم الذي خلقه المنظور الناتج عن تأثيرات المطبوع ، وذلك بعكس الموسيقىٰ الشرقية التي لا توجد فيها الأبعاد الثلاثة بل تشبه التصوير بالموزايكو ذي البعدين .

٦ – تنمية التعبير الذاتي والإبداع :

وتبدو تفسيرات « ماكلوهان » لتأثيرات حضارة المطبوع متواصلة في نفس الاتجاهات السابقة ، ومرتكزة علىٰ نفس الأُسُس ، وإن امتدت إلىٰ مجال آخر من مجالات الحياة النفسية والانفعالية لإنسان الطباعة ، وهو مجال الفن والأدب .

ونُلاحظ هنا أنه يربط بين بعض خصائص المطبوع والحروف المقروءة مثل التجزيئية والتحليلية ، وبين حُدوث الانفصالية في الإدراك ، كما يربط بين خطية وتماثل ودقة ترتيب الحروف ، والامتداد الطباعي للإنسان وبين ظُهور أشكال ثقافية عظمىٰ منذ القرن الأول للطباعة ، وهو في نفس الوقت بداية عصر النهضة في أوروبا .

كما نلاحظ أنه يذكر تفسيراته واستنتاجاته هذه في جمل خاطفة سريعة شديدة التركيز تشبه صيغة القوانين . ففي كتابه : « كيف نفهم وسائل الاتصال » يقول : « ولقد كان للقوة التجزيئية fragmentary والتحليلية analytic للكلمة المطبوعة ، تأثيرها في حَياتنا النفسية ، فقد أَحدثت تلك الانفصالية في الإدراك dissociation of sensibility التي في الفنون والأدب ، منذ سيزان Cezanne وبودلير Baudelaire ، وقد أَصبحت من

(1) Mc Luhan, M. . The cool medium . P. 723.

أهم العوامل في كل برنامج إصلاحي من أجل ترقية الذوق والمعرفة » (١) .

« وليست خطية linearity ودقة precision واتساق أو تماثل uniformity ترتيب حُروف الطباعة ، أَمرًا منفصلًا عن تلك الأشكال الثقافية العُظمىٰ أو عن تجربة الابتكار في عصر النهضة » ... وقد أصبح التعبير الذاتي ممكنًا بظهور الامتداد الطباعي للإنسان في القرن الأول للطباعة » (٢) .

وهكذا يرىٰ أن ذلك التحرر والانفصال قد سَاعَدا علىٰ تنمية القُدْرة علىٰ التجربة الذاتية والإبداع في الفن والأدب ، وأصبح إنسان الطباعة مُتَسَلِّحًا بروح المغامرة الشخصية (private enterprise) التي شجَّعت المؤلّفين والفنانين علىٰ تنمية التعبير الذاتي ، وهي نفس الرُّوح التي قادت الآخرين لكي يخلقوا المؤسسات العملاقة سواء في التجارة أو غيرها .

ومن الطريف هنا أن نُلاحظ الربط بين ظهور المشروع الفني والأدبي المنطق من روح الإبداع والمغامرة الشخصية ، وبين المشروع أو المؤسسة العملاقة في مجال التجارة أو الصناعة ، المتأثرة بنفس الروح المتسمة بانطلاق الدوافع الذاتية ، وهي روح المشروع الرأسمالي في أُوروبا عصر النهضة التي خَلَعت أثواب الإقطاع وأشكال التبعية سواء للإقطاعي أو للكنيسة .

ثانيًا : التأثُّرات الثقافية والاجتماعية للمطبوع :

٧ – تغيير طبيعة التأليف :

وكان لهذا التأثير الفَضل في تأكيد الوحدة الموضوعية للعمل الأدبي ، وأصبح الأديب والجمهور قادرين علىٰ ذلك : « فلقد أثرت خاصية الاتساق Uniformity أيضًا في مجال

(1) Mc Luhan, M. . The medium is the message. P. 50.
(2) Mc Luhan, M. . Understanding media . P. 157.

الحديث والكتابة ، مما أتاح أمام القارئ أسلوبًا واتجاهًا مميزين ، وأصبح هناك موضوع يتخلّل كل تكوين العمل المكتوب » (١) .

« وهكذا فإن ظُهور المعالجة المتجانسة homogeneous التي تَتَّصف بكل من التَّمَيُّز والعُمق ، قد مَكَّنَت الكاتب من الوصول إلى الجمهور العريض Masspublic ، وأصبح ما يتعيَّن عليه تقديمه إلى الجمهور ، هو عمل متجانس ينبع من تجربة مشتركة » (٢) .

ونلاحظ أن « جون ديوي » قد تَوَصَّل إلى هذه الملاحظة قبل « ماكلوهان » حيث يرى أن الطباعة قد عملت على تعديل مادة الأدب تعديلًا عميقًا بالغ الأثر ، ولم تكن اللغة المنطوقة في يوم من الأيام لغة « أدبية » إلى أن ظهرت الطباعة ، وعمَّ استخدام القراءة .. ولقد عَمِلت الطِّباعة على تحقيق امتداد ضخم ليس فقط في الحجم أو المقدار ، بل في التَّنَوُّع الكيفي والدِّقة الوصفية . فضلًا عن أنها قد أَوْجدت منظمة لم يكن لها وجود من قبل(٣).

وثمة ملاحظة أخرى شديدة الأهمية ، يذكرها ديورانت في « قصة الحضارة » ، وهي أن الطباعة قد أثرت في نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لجيوب الطبقات الوسطى وأذواقها بدلًا من إخضاعهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية (٤) ، وذلك يعني مجالات جديدة للأدب ، ومَذَاهب جديدة في التعبير وتجارب جديدة في اللغة والأسلوب .

(١)Okasham, Sarwat . An encyclopaedic dictionary of cultural tersm. Cairo, Egypt. Intern. Publishing Co. Longam. , 1990 . P . 101.

(٢)Mc Luhan, M. . Understanding media . P. 157 – 158.

(٣) Ibid.. P. 157.

(٤)Ibid.

٨ – ظهور الجمهور :

وقد خلقت الطباعة بواسطة الحروف المتحركة بيئة جديدة وغير متوقعة تمامًا ، خلقت الجمهور Public . ذلك أن تكنولوجيا المخطوط لم تكن لها قوة الامتداد الضرورية لخلق جمهور على مدى قومي (١) . ولكن تكنولوجيا المطبوع ، بإمكانياتها الجديدة ، أتاحت « التكرار الآلي لنفس النص ، الذي خَلَق جمهورًا قارئًا » (٢) وخرجت صفحة الكتاب في شكل صورة متكاملة للحياة العادية ، فحدث التحول الحاسم من الزبون إلى الجمهور (٣) As the crucial shift from patron to public .

وخرج الكاتب من الدائرة الضيقة للزبون الخاص الذي كان يستطيع الحصول على المخطوط باهظ التكاليف ، « وَوَصَل الكاتب إلى الجمهور العريض المتجانس بطريقة دائمة وكافية في مجتمع السوق Market society (٤) الذي أوجده المطبوع ، وتحولت صورة انتقال الفكرة من إطارها الضيق قبل ظهور الطباعة إلى جمهور القراءة الواسع ، الذي يعتمد على النظرة ذات الثبات الآلي في حالة الاعتماد على الرؤية بدلًا من جماعة المستمعين auditoy » وقد أتاح ذلك الروح الاستقلالية لدى الجمهور في مُوازاة التعبير الذاتي لدى الأديب .

٩ – ظهور الأديب :

وبهذا التطور الذي خلق التَّحَرُّر والانفصال والقُدرة على التجربة الذاتية والإبداع في

(١)Ibid. P. 162.

(٢)Mc Luhan, M. . The Gutenberg Galaxy ... P . 273 .

(٣) ديوي ، جون . الفن خبرة/ ترجمة زكريا إبراهيم . – القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ . ص ٤٨٥.

(٤) ديورانت ، ول . المصدر السابق . ص ص ٢٨١ – ٢٩٢.

الفن والأدب ، والذي خلق الجمهور العام بعد الامتداد الطباعي الجديد ، والتطور الجديد في شكل التأليف والكتابة وظهور الوحدة الموضوعية في عملية التأليف ، والعلاقة الجديدة بين الكاتب وجمهور أو جماهير واسعة ليست بينهما معرفة بالتحديد .

بهذا التطور « وُلد الأديب أو رجل الأدب Man of letters » (١) ، (الذي يتفرغ للتأليف في موضوعات أدبية) ، والذي أَصْبَح يكتب للجمهور بدلًا من مخاطبة الزُّبون (ملكًا أو غنيًّا أو صاحب جاه) في عصر المخطوط المُتَّصِف بالنُّدرة والخصوصية وارتفاع التكلفة ، وحسب تعبير « ماكلوهان » فقد شهد عصر المخطوط وجُود المؤلّف author أما الأديب Man of letters فهو نتاج عصر المطبوع ، حيث استطاع أن يَصِل إلى جمهور عريض مُتَجَانس مع الإنتاج الواسع للمطبوع (٢) .

١٠ – ظهور أشكال جديدة من الأدب :

ولقد تَرَاكمت كل هذه التطورات في طبيعة التأليف ، والكتابة ، وفي العلاقة الجديدة بين الكاتب « وجمهوره » ، وفي نُمو روح التعبير الذاتي ، والمهارات والخصائص الذهنية التي اكتسبها إنسان القراءة ، حتى هيَّأت الظروف لظهور أشكال جديدة من الأدب والفن . ويذكر « ماكلوهان » أنه « تُوجد إشارات غير مباشرة ، عن التأثيرات التي أَحْدَثها الكتاب المطبوع بِوَفْرة ، في الأعمال الأدبية لكل من رابليه Rabelain (1495 – 1553) وسرفانتس Cervantes (1547 – 1616) ومونتيني Montaigne (1533 – 1592) وسويفت Swift (1667 – 1745) وبوب Pope (1688 – 1744) وجويس Joyce (1882 – 1941) ، الذين استخدموا الطباعة لكي يخلقوا أشكالًا جديدة من

(١)Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy. P. (A).

(٢)Mc Luhan, M. . The medium is the message … P. 122.

الفن » (١) .

وكانت الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية جذرية في مجتمع السوق في القرن ١٨ ، وكان قد سبقها النثر الموزون Equiton prose… وهذا التقدم المفاجئ في النثر الموزون ، هو الذي مَكَّن – فجأة – مُجَرَّد مؤلّف author من أن يصبح أديبًا Man of letters ، يستطيع أن يصل إلى جمهور عريض متجانس في مجتمع السوق (٢) .

١١ – تطوير فروع جديدة في العلم :

« ولقد تحلَّلت الطِّباعة كل وَجْه من الفنون والعلوم في القرون الخمسة الماضية ، ومن السهل أن نتبين العمليات التي أصبحت بها خصائص الاستمرارية Continuity والاتساق Uniformity والتكرارية هي الأَساس لحساب التفاضل والتكامل Calculus والترفيه والعلم » (٣) .

١٢ – تغيير نظم التعليم والاتصال العلمي :

ولقد كان التعليم كله تقريبًا قبل جوتنبرج في يد الكنيسة في أوروبا ، وكانت الكتب المخطوطة باهظة الثمن ، وكان النَّسخ مُجْهدًا وغير معتنى به أحيانًا ، واستطاع عدد قليل من الكُتَّاب الوصول إلى جمهور كبير ولكن بعد زمن من وفاتهم (٤) . وأَسْهم ظهور الطباعة في انتشار تعلُّم مهارة القراءة Literacy والتعليم العام (٥) ، كما غيَّرت الطباعة

(١)Mc Luhan, M. The Gutenberg galaxy . P. 274.

(٢)Ibid. P. 273.

(٣)Ibid.

(٤)Mc Luhan, M. . Understanding media . P. 162 .

(٥)Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy . P . 273.

من نظام الدراسة والتعليم ، فكان الكتاب أول آلة تعليمية بعد أن أصبح أول سلعة تنتج بالجملة [١] في تاريخ الإنسان .

وقد أشرنا إلى أن عصر المخطوط كان هو عصر الزبون حيث كان يتم تفصيل الطلب وهو (المخطوط) حسب إمكانيات الزبون ورغباته ، أما عصر المطبوع فهو عَصْر الجمهور ؛ لأن المطبوع ينتج بالجملة وبشكل متماثل في الطبعة الواحدة .

وهكذا فَقَبْل الطباعة كما يلاحظ « ماكلوهان » كانت ثقافة المخطوط تُسَاند عملية شفهية في التعليم ، سُمِّيت بالمدرسية أو الإسكولائية Scholastisim (التي امتدت بمعناها الواسع من القرن التاسع الميلادي إلى نهاية القرن ١٤ أو بداية القرن ١٥ الميلادي) ، ولكن بعد أن وَفَّر المطبوع نفس النص أمام أي عدد من الطلاب أو القراء ، سُرْعان ما انتهى النظام الإسكولائي (المدرسي) للمناظرة الشفهية ، وقد وَفَّر المطبوع ذاكرة جديدة واسعة (أي ذاكرة ورقية) تحفظ كتابات الماضي ، مما جعل الذاكرة الشخصية غير كافية أو لا يُعَوَّل عليها [٢] .

وقد هيَّأت الطباعة لدعوة « لوثر » بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الاحتكام إلى الإنجيل ، وسَمَحت بعد ذلك بدعوة العقليين إلى الاحتكام إلى العقل ، وقَضَتَ على الاحتكار الكهنوتي للتعليم ، ويَسَّرت الاتصال والتعاون بين العلماء على مستوى دولي [٣] .

١٣ – ظهور وتحديد الوظائف والتَّخَصُّص الدقيق :

ويلاحظ « ماكلوهان » أنه نتيجة للخصائص التجزيئية والتحليلية للطباعة والحروف ،

(١)Mc Luhan, M. . Understanding media . P . 157 .

(٢)Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy . P. 237.

(٣)Mc Luhan, M. . Understanding media . P. 161.

حَدَثَت عملية انفصال Separation أو انفجار Explosion للوظائف ، بدرجة سريعة وعلى جميع المستويات وفي جميع المجالات [١] .

فعالم الطباعة عالم مجرّد جدًّا ومُتَخَصّص جدًّا ومجزأ جدًّا ، وحتى فكرة الوظائف Jobs هي نتيجة لتكنولوجية المطبوع وتجزيئاته ، فلم تَكُن هناك وظائف في العالم القديم أو في العصور الوسطى ، بل كانت هناك « أدوار » فَحَسْب ، ومع المطبوع جاءت الوظائف والتنظيم البشري شديد التخصص [٢] .

وقد ساعدت القوة التجزيئية لحضارة المطبوع على تطوير الاتجاه نحو تحديد « الفئات » . أي وضع كل شيء بنظام في فئات ، مثل المهن والأسعار والأقسام والمكاتب والتخصصات ... إلخ .

ويُشير « ماكلوهان » إلى « أن أكثر من لاحظ الظاهرة التجزيئية وعَلَّق عليها ، هو شيكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦ م) في مسرحياته ، وبوجه خاص في مسرحيته (الملك لير King Lear) ، التي أخرجت عام ١٦٠٦ م ونشرت عام ١٦٠٦ م ونشرت عام ١٦٠٨م ، حيث أَوْرَد فيها شكسبير نموذجًا أو صورة لعملية التفتيت والتحديد Quantification التي اقتحمت عالم السياسة وحياة الأسرة [٣] .

والمعروف أن « لير » شخصية أسطورية لملك إنجليزي خَلَّدها شيكسبير في هذه المسرحية التراجيدية ، وتحكي قصة الجحود والوفاء حين لقي الملك الإهانة من ابنتين له بعد أن أكرمهما ، فَوَاسَتْهُ الابنة الصغيرة الثالثة ، التي كان قد تَنكَّر لها .

(١) ديورانت ، ول . المصدر السابق . ص ٢٧٦.

(٢)Ibid. P. 157.

(٣)Ibid. P. 158.

١٤ – ظهور التصنيع والإنتاج بالجملة والسلعة :

وكان للامتداد الطباعي للإنسان نتائج اجتماعية أخرىٰ متعددة تولَّدت عنها ظواهر جديدة ، من أهمها التصنيع والأسواق العامة ، فقد وفرت الطباعة أول سلعة Commodity قابلة للإنتاج المتكرر المتماثل Uniformity repeatable وأول إنتاج بالجملة Mass Production يتبع نظام التجميع Assembly Line ، حيث يقوم كل عامل بإنجاز عملية خاصة في السلعة ، ولم يكن ذلك موجودًا في إنتاج أية سلعة سابقة علىٰ المطبوع ، وقد تحقَّق ذلك نتيجة لما وفَّرته الطباعة من الاستمرارية Continuity ، والتماثل Uniformity ، والتكرارية ، وهي من أسس الإنتاج الصناعي والتسويق (١) .

كما أن الطباعة غيَّرت من عمليات التسويق (٢) ، حيث كان الكتاب أيضًا أوّل سلعة يمكن أن تحمل سعرًا محدّدًا ، وهكذا وجد شكل محدد لنظام السعر ، ولم يكن غريبًا أيضًا أن يظهر في هذه البيئة الجديدة مفهوم العجلة والآلة وخط الإنتاج المتتابع ، وكلها أفكار ميكانيكية تتمشىٰ تمامًا مع وَسِيلة الطباعة بحروفها المرصوصة جنبًا إلىٰ جنب في شكل أَسْطُر محتوية علىٰ كلمات متتالية (٣) .

١٥ – ظهور القومية :

تحتل مسألة ظهور القومية Nationality لدىٰ أُمم العالم اهتمام كثير من المؤرخين وعلماء السياسة والاجتماع ، ومن بين التفسيرات الهامة للعوامل التي أدت إلىٰ ظهور القومية ، تفسير « ماكلوهان » الذي نَعْرضه هنا ، فبعد أن اتضح كيف أتاح الامتداد الطباعي للإنسان فُرصة وجود جُمهور قارئ ، وظهرت صورة الجمهور التي بدأت تتسع

(١)Ibid.

(٢) ديورانت ، ول . المصدر السابق . ص ٢٨١ – ٢٨٢.

(٣)Mc Luhan, M. . Understanding media... P. 159 – 160.

بمرور الزمن ، أصبح من الممكن « ظهور جماهير علىٰ مدىٰ قومي ، بعد أن كانت تكنولوجيا المخطوط عاجزة عن ذلك » (١) .

« ولقد مكَّنت الحروف الهجائية ، (وامتدادها عن طريق الطباعة) ، من امتداد قوة المعرفة ، وحطَّمت روابط الإنسان القَبلي ، وبذلك جَزَّأته داخل تَكَتُّل يتكون من الأفراد » (٢) . « وأصبح الإنسان ، الذي خَلَقت لديه القراءة القُدرة علىٰ التفكير المُنْفَصل عن الانفعال أو الشعور ، يمتلك القدرة علىٰ الفعل المستقل ، وانفصل عن العالم القبلي ذي الروابط الأسرية القوية التي تتحكم في الحياة الشخصية والاجتماعية » (٣) .

وهكذا فإن تحطم العلاقات والروابط التقليدية القَبَلية ، وظهور استقلال الفرد وعدم انضوائه في هذه الإطارات القديمة الضيقة ، نتيجة للقوة الانفصالية التي تنمي ذاتية الفرد ، حيث أَوْضَحْنَا ما تقوم به القراءة من انفصال ثم اتصال ، أي انفصال عن العلاقات الضيقة في الجماعة التقليدية ، واتصال بآفاق أوسع وأفكار واردة من الآخرين علىٰ اتِّساع رقعتهم وانتماءاتهم ، في إطار ذلك ظهرت نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة ، حيث يلاحظ « ماكلوهان » « أن ما أطلقنا عليه اسم أمم Nations في القرون المعاصرة، لم يَسبِق ولم يكن من الممكن أن يَسبِق مجيءَ تكنولوجيا جوتنبرج »(٤) فقد أَوْجد المطبوع أشكالًا جديدة تمامًا لتوسيع وامتداد الطاقات الاجتماعية ، وبَعَث طاقات نفسية واجتماعية هائلة في عصر النهضة ، كما هو الآن في اليابان أو روسيا ، وذلك بإخراج

(١) جيهان رشتي . المصدر السابق . ص ٣٣٦ – ٣٣٨.

(٢)Mc Luhan, M. . Op. Cit., P.P. 159 – 160.

(٣)Mc Luhan, M. . The medium is the message ... P. 50.

(٤)Mc Luhan, M..

الفرد من جماعته التقليدية ، وظُهور شكل جديد من العلاقات ينضم فيه فرد إلى فرد ، في تكتل جماهيري عظيم من القوة Massive agglomeration of power (١) .

ويستند مَا يَرْصُده « ماكلوهان » من نتائج اجتماعية أَدَّت إلى ظهور القومية إلى أساسين :

١ – تأكيد استقلال الفرد ونظرته الموضوعية المتجردة ، التي تُمَكِّنه من فَهْم الآخرين والاقتراب منهم نفسيًّا وفكريًّا .

٢ – إمكانية ظهور جماعة أكبر يرتبط بها الفرد ، وهي الأمة ، مما يَعْني ظهور القومية .

وفي دراسة عن المجتمعات النامية ، أشار ليرنر Lerner إلى أن صفة التفتح السّمح والاستشعار بالغير Empathy ، هي الصفة الأساسية الهامة في تطور المجتمع النامي ، ... والاستشعار بالغير بكل بساطة هو القُدْرة على أن يرى الإنسان نفسه في مَوْضع الشخص الآخر ، وهذه مَهَارة لا غنى عنها لمن خرجوا من حجرة المجتمع التقليدي .. والاستشعار بالغير هو الأسلوب الشخصي الغالب في المجتمع العصري وَحْدَه ، فهذا المجتمع يتميّز بكونه صناعيًّا ، وحضريًّا ، متعلمًا ، ومشاركًا ، والمجتمع التقليدي لا مُشَاركة فيه ، فهو يُوسِّع نطاق الناس عن طريق القرابة ، ويجعل منهم مجتمعات معزولة بعضها عن بعض ، ومعزولة عن مركز ما (٢) .

ولعل ذلك يلقي الضَّوء على كثير من المشاكل التي تعترض تطور المجتمعات التي ما زالت في طريق النمو ، وتعطي تفسيرًا لأَوْضاعها الاجتماعية يُعَالج جذور المشكلة من الناحية النفسية والاجتماعية ، فمعظم النتائج الاجتماعية التي ينسبها « ماكلوهان » إلى

(١) Ibid. P. 158.

(٢) إبراهيم إمام . المصدر السابق . ص ٦٤ .

حضارة الطباعة والقراءة تفتقدها المجتمعات التي لم تعش هذه المراحل الحضارية . ورغم مُرور خمسة قرون على ظهور الطباعة ، فإن « التعليم لا يزال هو الظرف العام المحيط ، في جزء صغير من العالم ، وما زالت أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا وأجزاء من أوربا في مرحلة ما قبل التعليم ، ولذلك فإن تكوينات الظروف المحيطة بهذه المناطق ما زالت تعتمد على السَّماع (١) .

وما زالت علاقات الأفراد فيها تقوم على أُسس وارتباطات قَبَليَّة أو ضيقة ، وما زالت تفتقد هذه المراحل التحليلية التركيبية ، التي فَكَّكَت علاقات الإنسان القبلي وأَدْمَجَتْهُ في جماعة أكبر ، ومَهَّدت لظهور القومية كَثمرة من ثمار حضارة القراءة ، ولعل ذلك يُعطي مزيدًا من الفَهْم لما يحدث لفكرة القومية في العالم العربي من امتداد وانتكاس ، نتيجة لتعدد المراحل الحضارية والقرائية التي يمرُّ بها كل مجتمع مَحَلّي من المجتمعات العربية .

وينبغي أن لا نفهم نظرية « ماكلوهان » بخُصوص تأثيرات المطبوع بطريقة سطحية أحادية البعد ، بل يجب أن نَتَسَلَّح بالنظرة الجدلية التي ترى الشيء ونقيضه مُجتَمِعيْن معًا ، وَيُعَمِّق فكرتنا عن تأثير القراءة ملاحظة ثاقبة ذكرها « ويليام جراى W . Gray » في دراسة عن القراءة ، حيث لاحظ أن القراءة منذ العصور المبكرة – أي قبل ظهور الطباعة بعشرات القرون – قد خدمت غايتين على طرفي نقيض :

أ – فهي من جِهة كانت قوة مُوَحِّدة عظيمة ، تميل إلى توحيد الفرق الاجتماعية Social groups عن طريق الإمداد بخبرات مشتركة وبديلة Common and vicarious ، وتربية اتجاهات ومُثُل وتطلعات مشتَرَكة .

ب – ومن جهة أخرى قامت بدور القوة المحطِّمة التي تَجْنَح إلى تعظيم الفروق بين

(١) Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy ... P. (A).

الفرق الاجتماعية ، وذلك بتدعيم الآراء المتباعدة ، وهكذا خَدَمت القراءة كلًّا من غايتي البناء والهدم (١) .

ومن الواضح أن « ماكلوهان » يضع في اعتباره مجتمع الطباعة الذي خلق الجمهور القارئ والإنتاج الواسع للمطبوع ، ولم يضع في اعتباره قضية معرفة مجتمع ما للكتابة ، وإلا كان مسئولًا عن التفسير الحضاري لأبعاد أخرىٰ كثيرة ترتبط باختراع الكتابة والحضارات القديمة التي أبدعتها ، وذلك موضوع لم يتدخل فيه « ماكلوهان » ، بل اعتبر كل مجتمع لم يتعلَّم القراءة بشكل جماهيري مجتمعًا شفهيًّا ، حتىٰ لو كان من أقدم المجتمعات رسوخًا في الحضارة ؛ لأن القراءة في هذه المجتمعات ليست جماهيرية حتىٰ الآن .

ومن الواضح أيضًا أن الحضارة الإسلامية ما زالت تحتاج إلىٰ دراسة أكثر تَعَمُّقًا ، سواء علىٰ ضوء نظرية « ماكلوهان » أو علىٰ ضوء مناهج ونظريات أخرىٰ ؛ لأن الحضارة الإسلامية هي حضارة « الكتاب » أو النَّص ، وهو القرآن الكريم ، الذي تبلورت وازدهرت حوله حضارة هائلة ، ولم تتأثر أمة أو حضارة مثلما تأثرت الحضارة الإسلامية بنصّ القرآن الكريم ، فقد نشأت حوله علوم كثيرة لخدمته وتفسيره ، ونشأت كيانات معرفية مستقلة وشامخة بُنيت علىٰ هذه العلوم المساعدة ، حتىٰ كَوَّنت ثقافة متكاملة في تاريخ الحضارة الإسلامية .

ولكن تفسيرات « ماكلوهان » للحضارة علىٰ ضوء حضارة « جوتنبرج » ، تعطينا فرصة هائلة لتأمل الماضي والحاضر والمراحل الاجتماعية والفكرية والنّسب الانفعالية والإدراكية التي يعيشها كل من المجتمعات العربية ، سواء في ظل بقايا ثقافته الشفهية أو تقدماته القرائية الطباعية ، خصوصًا أنَّ حضارة الكتاب مهددة بوسائل الاتصال الشفهية الإلكترونية الحديثة ، التي تكاد في بعض البلدان النامية تَرث مباشرة المراحل

(١)Mc Luhan, M. . Understanding media . P. 156.

الشفهية القديمة ، مع اختزال المراحل القرائية التي بُنيت عليها مقومات الحضارة الغربية في صُورها الصحية الشامخة ، وليس في صورها المتهالكة التي ننشغل بها في رؤية أُحَادية مجزوءة .

كما أن من المهم أن نُوضِّح أن أفكار « ماكلوهان » وتفسيراته رغم براعتها وإبداعها وقيمتها العلمية ، لا يمكن أن تَنْسب كل الفضائل للثقافة الكتابية الطباعية فحسب ، بحيث نُنْكِر كل فضائل ما قبل هذه الثقافة ، أي الشفاهية القديمة والحالية ، والمستقبلية .

وإذا كانت هذه الدراسة قد نجحت ولو بدرجة متواضعة في عرض أفكار « ماكلوهان » ومنهجه ، بحيث تُثير لدىٰ القارئ ردود أفعال متعددة تتراوح ما بين التأييد لبعض أفكاره ، والاعتراض أو التَّحَفُّظ علىٰ البعض الآخر ، فإن ذلك هو أَعز ما يطمح إليه الباحث ؛ لأن الأفكار المُبدعة هي التي تُثير القَلق والتَّساؤل ، وتُحَفِّز العقل لدراستها وبَحثها ، لتستمر جدلية الإبداع والابتكار ، وليس من الممكن أن تظهر نظرية صحيحة بصورة مطلقة ، ويكفي أن تطرح النظرية مزيدًا من الفَهْم للظواهر والعلاقات الخفية والكامنة . وثمّة جوانب هامة في نظرية « ماكلوهان » تتعلق بما يطرحه بالنسبة لتأثيرات وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة كالراديو والتليفزيون ، وهي مجال خصب لمزيد من الدراسات في المستقبل بمشيئة الله .

* * *

قائمة ببليوجرافية

١ – إبراهيم إمام . نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير .– القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ .

٢ – أونج ، والترج . الشفاهية والكتابية / ترجمة حسن البنا عز الدين .– الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٤ .

٣ – جيهان رشتي . الإعلام ونظرياته في العصر الحديث . – القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧١ .

٤ – ديورانت ، ول . قصة الحضارة . مجلد ٦ ، ج ١ [٢٢] / ترجمة عبد الحميد يونس .– القاهرة : جامعة الدول العربية ، ١٩٦٨ .

٥ – ديوي ، جون . الفن خبرة / ترجمة زكريا إبراهيم .– القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

٦ – شرام ، ولبور . أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية : دور الإعلام في البلدان النامية .– القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

7 - Gray , W.S. . Reading : Sociology of reading (Encyclopaedia of Educational Research) , ed.by W.S Monroe , N.Y., Macmillan , 1950 – P.P. 967 – 971 .

8 –Mc Luhan, M. . The cool medium : in (Cantor , Norman F. & Michael S. Werthman (eds.) : The history of popular culture . N. Y. , Macmillan , 1968 , P.P. 718 – 726.)

9 – Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy : The making of typographic man – Toronto : Univ . of Toronto pr., 1962.

10 – Mc Luhan, M. . The medium is the message. - London : Routledge & Kegan Paul , 1973 .

11 –Mc Luhan, M. : Understanding media : the extensions of man – N. Y. : The New American Library , 1966.

12 – Okasha, Sarwat . An encyclopaedic dictionary of cultural terms. Cairo: Egyptian International Publishing Co. Longman. , 1990 .

13 – Spengler, Oswald (1880 – 1936) . The decline of the West. – N.Y. , A.A. Knopf , 1932 .

14 – Waples, Douglas B. Bere L son, F.R. Bradshaw : What reading does to people ? : A summary of evidence on the social effects of reading .– Chicago : Chicago Univ. Pr. 1940 .

15 – Winger, Howard W. Historical perspectives on the role of the book in so ciety (Library Quarterly , Vol 25 , 1955 – pp. 295 – 305.) .

هل حرّر النديم (الفهرست) أكثر من مرة؟

أ.د أيمن فؤاد سيد*

أشَارَ كارل بروكلمان CARL BROCKELMANN إلى أنَّ النَّدِيمَ بَدَأ سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م ، تَصْنِيفَ كِتَابِه « الفِهْرِسْت » ، فوَضَعَ منه ــ بادئ الأمْرِ ــ أرْبَعَ مَقَالَات هي : مَقَالَةُ الفَلْسَفَة والعُلُوم القَدِيمَة ، ومَقَالَةُ الكُتُبِ المُصَنَّفَة في الأسْمَار والخُرَافَات، ومَقَالَةُ المَذَاهِب والاعْتِقَادَات القَدِيمَة ، ومَقَالَةُ الكِيمْيَاء ، وأنَّ هذا التَّأليفَ الأوَّل مَاثِلٌ في نُسْخَةِ مكتبة كوبريلي بإستانبول رقم ١١٣٥[١] .

ثم أضَافَ النَّديمُ في العَام نفسه إلى الكِتَابِ المَقَالَات السِّتّ الأولى في العُلُوم العَرَبِيَّة والإسْلامِيَّة ، واحْتَفَظَ بمُقَدِّمَة الكِتَاب ــ التي تَعَرَّضَ فيها لبَعْضِ لُغَاتِ الأُمَم من العَرَبِ والعَجَمِ ونُعُوتِ أقْلامِها وأشْكالِ كِتَابَاتها ــ التي كانت مَوْجُودَةً في التَّأليف الأوَّل ، فصَارَت هي الفَنَّ الأوَّل من المَقَالَة الأولى[٢] .

وتبَنَّى كثيرٌ من البَاحِثين هذا الرَّأي الذي ذَهَبَ إليه بروكلمان ، منهم هلموت ريتر H . ritter[٣] ، ويوهان فيك J . W . fuck[٤] ووَالِدي ، رَحِمَهُ الله ، فقال في مُقَدِّمة تَحْقِيقِه الأنْمُوذَجي لكتاب « طَبَقَات الأطِبَّاء والحُكَمَاء » لابن جُلْجُل الأنْدَلُسي : « من

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي وخبير المخطوطات .

(١) تشير أرقام الإحالات إلى نشرتي لكتاب الفهرست التي ستصدرها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن .

(٢)Carl Brockelmann, gal s i, pp . 226 -27 .

(٣)H . RITTER, {Zur berlieferung des Fihrist}, Der Islam 17 (1928), p . 17 .

(٤)J . W . F CK, El 2 art . Ibn al –Nad, m III, p . 919 .

قائمة ببليوجرافية

١ – إبراهيم إمام . نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير .– القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ .

٢ – أونج ، والترج . الشفاهية والكتابية / ترجمة حسن البنا عز الدين .– الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٤ .

٣ – جيهان رشتي . الإعلام ونظرياته في العصر الحديث . – القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧١ .

٤ – ديورانت ، ول . قصة الحضارة . مجلد ٦ ، ج ١ [٢٢] / ترجمة عبد الحميد يونس .– القاهرة : جامعة الدول العربية ، ١٩٦٨ .

٥ – ديوي ، جون . الفن خبرة / ترجمة زكريا إبراهيم .– القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

٦ – شرام ، ولبور . أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية : دور الإعلام في البلدان النامية .– القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

7 - Gray , W.S. . Reading : Sociology of reading (Encyclopaedia of Educational Research) , ed.by W.S Monroe , N.Y., Macmillan , 1950 – P.P. 967 – 971 .

8 –Mc Luhan, M. . The cool medium : in (Cantor , Norman F. & Michael S. Werthman (eds.) : The history of popular culture . N. Y. , Macmillan , 1968 , P.P. 718 – 726.)

9 – Mc Luhan, M. . The Gutenberg galaxy : The making of typographic man – Toronto : Univ . of Toronto pr., 1962.

10 – Mc Luhan, M. . The medium is the message. - London : Routledge & Kegan Paul , 1973 .

11 –Mc Luhan, M. : Understanding media : the extensions of man – N. Y. : The New American Library , 1966.

12 – Okasha, Sarwat . An encyclopaedic dictionary of cultural terms. Cairo: Egyptian International Publishing Co. Longman. , 1990 .

13 – Spengler, Oswald (1880 – 1936) . The decline of the West. – N.Y. , A.A. Knopf , 1932 .

14 – Waples, Douglas B. Bere L son, F.R. Bradshaw : What reading does to people ? : A summary of evidence on the social effects of reading .– Chicago : Chicago Univ. Pr. 1940 .

15 – Winger, Howard W. Historical perspectives on the role of the book in so ciety (Library Quarterly , Vol 25 , 1955 – pp. 295 – 305.) .

هل حرّر النديم (الفهرست) أكثر من مرة؟

أ.د أيمن فؤاد سيد*

أشَارَ كارل بروكلمان CARL BROCKELMANN إلى أنَّ النَّدِيمَ بَدَأ سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م ، تَصْنِيفَ كِتَابِه « الفِهْرِسْت » ، فوَضَعَ منه ــ بادئ الأمْرِ ــ أرْبَعَ مَـقَالَات هي : مَـقَالَـةُ الفَلْسَفَة والعُلُوم القَدِيمَة ، ومَـقَالَـةُ الكُتُبِ المُصَنَّفَة في الأسْمَار والخُرَافَات، ومَـقَالَـةُ المَـذَاهِب والاعْتِقَادَات القَدِيمَة ، ومَـقَالَـةُ الكِيمْيَاء ، وأنَّ هذا التَّأليفَ الأوَّل مَاثِلٌ في نُسْخَةِ مكتبة كوبريلي بإستانبول رقم ١١٣٥(١) .

ثم أضَافَ النَّديمُ في العَام نفسه إلى الكِتَابِ المَـقَالَات السِّتّ الأولى في العُلُوم العَرَبِيَّة والإسْلامِيَّة ، واحْتَفَظَ بمُقَدِّمَة الكِتَاب ــ التي تَعَرَّضَ فيها لبَعْضِ لُغَاتِ الأُمَم من العَرَبِ والعَجَمِ ونُعُوتِ أقْلامِها وأشْكالِ كِتَابَاتها ــ التي كانت مَوْجُودَةً في التَّأليف الأوَّل ، فصَارَت هي الفَنَّ الأوَّل من المَـقَالَة الأولى(٢) .

وتبَنَّى كثيرٌ من البَاحِثين هذا الرَّأي الذي ذَهَبَ إليه بروكلمان ، منهم هلموت ريتر H . ritter(٣) ، ويوهان فيك J . W . fuck(٤) ووَالِدي ، رَحِمَهُ الله ، فقال في مُقَدِّمة تَحْقِيقِه الأنْـمُوذَجي لكتاب « طَبَقَات الأطِبَّاء والحُكَمَاء » لابن جُلْجُل الأنْدَلُسي : « من

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي وخبير المخطوطات .

(١) تشير أرقام الإحالات إلى نشرتي لكتاب الفهرست التي ستصدرها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن .

(٢)Carl Brockelmann, gal s i, pp . 226 -27 .

(٣)H . RITTER, {Zur berlieferung des Fihrist}, Der Islam 17 (1928), p . 17 .

(٤)J . W . F CK, El 2 art . Ibn al –Nad, m III, p . 919 .

المَظْنُون أنَّ ابنَ النَّديم ألَّفَ كِتَابَهُ أوَّلًا عن الكُتُب اليُونَانِيَّة والمُتَرْجَمَة وأسْمَاء النَّقَلَة والمُتَرْجِمين ، كما يَتَّضِحُ ذلك من نُسْخَةٍ مَخْطُوطَةٍ من هذا الكتاب مَحْفُوظَةٍ بمكتبة كوبريلي بإستانبول برقم ١١٣٥ كُتِبَت سنة ٦٠٠هـ ، وهي نُسْخَةٌ قائِمَةٌ بذاتها وتَحْتَوِي على أرْبَع مَقَالَات فقط ، وهذه المَقَالَاتُ تُطابِقُ المَقَالات السَّابِعَة إلى العَاشِرَة من الكتاب » ، ثم أضَافَ : « ولَعَلَّ ابنَ النَّديم كان كِتابُه في الأصْلِ على هذه المَقَالَات ثم جَعَلَ كِتَابَه شَامِلًا لكلِّ الفُنُونِ فأضَافَ إليها المَقَالَات السِّتّ الأولى ، وصَارَ بذلك في عَشْرِ مَقَالات »[1] .

ولكنَّ مُرَاجَعَةً متأنِّيَةً للنَّصِّ الوَارِدِ في هذه النُّسْخَة يُثْبِتُ أنَّها مُجَرَّدُ انْتِقاءٍ قَامَ به شَخْصٌ آخَرُ غير النَّديم ــ رُبَّما بناءً على طَلَبِ عَالِمٍ لم يُعَيِّنه ــ لِيَسْتَخْلِصَ في مُجَلَّدٍ وَاحِدٍ ما ذَكَرَهُ النَّدِيمُ عن الفَلْسَفَة والعُلُوم والكُتُب المُتَرْجَمَة والاعْتِقَادَات القَديمة . واحْتَفَظ نَاسِخُ النُّسْخَة التي وَصَلَت إلينا ــ واسْمُهُ يُوسُف بن مَهَنَّا بن مَنْصُور ــ بالفَنِّ الأوَّل من المَقَالَة الأولى ، وفيه اقْتِصَاصُ ما يَحْتَوي عليه الكتابُ ، ليكون مَدْخَلًا له بَعْد تَحْوِيره لِيَشْتَمِل فقط على المَقَالَات الأرْبَع الأخِيرَة ، بحيث أصْبَحَت المَقَالَةُ السَّابِعَة هي المَقَالَةَ الأولى والمَقَالَةُ العَاشِرَة هي المَقَالَةَ الرَّابِعَة ، وحَوَّلَ اقْتِصَاص ما يحتوي عليه الكتاب لِيُنَاسِب هذا التَّعْدِيل ، فأصْبَحَ : « هذا فِهْرِسْت كُتُبِ العُلُوم القَدِيمَة من تَصانِيف اليُونَان والفُرْس والهِنْد » بَدَلًا من « هذا فِهْرِسْت كُتُب جَمِيع الأُمَم من العَرَبِ والعَجَم » واحْتَفَظَ ببَقِيَّة المُقَدِّمَة وتأريخ تَحْرِيرِها ، وضَمَّ الفَنَّ الأوَّل من المَقَالَة الأولى بعد تَعْديله إلى المَقَالَة الأولى في تَرْتيبه ، فأصْبَحَت بذلك في أرْبَعَة فُنُونٍ بَدَلًا من ثَلاثَة .

وفَاتَ المُنْتَقِي مع ذلك أنْ يُعَدِّلَ بَعْضَ العِبَارَات الاسْتِطْرادية التي يُحِيلُ فيها النَّدِيمُ إلى المَقَالَات الأولى للكِتَاب وتَرَكها على حَالِهَا دون حَذْفٍ أو تَعْدِيل . فنَقْرَأ في ترجمة

(١)فؤاد سيد : مقدمة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل . ص ز ، هـ١ .

يحيى بن أبي مَنْصُور (المخطوط ، وَرَقَة ٤٥ظ ، ١: ٢٣٧) : « وقد اسْتَقْصَيْتُ ذكره في مَوْضِعه » ، وقد مَرَّ حقًّا في الفَنّ الثَّالِث من المَقَالَة الثَّالِثَة من أصْلِ الكتاب١ : ٤٥٩ . وفي تَرْجَمَة أبي العَنْبَس الصَّيْمَرِيّ (المَخْطُوط ، ورقة ٤٧ظ ، ٢ :٢٤٥) : « وقد مَرَّ ذِكْرُهُ مُسْتَقْصًى » ، وهو قد مَرَّ في المَقَالة نَفْسِها ١ :٤٦٧ــ ٤٦٩ . واسْتَبْقَى كذلك ما ذَكَرَهُ النَّدِيمُ في ترجمة ابن أبي العَزَاقِر في المَقَالَة الأخِيرَة من الكتاب الرَّابعة = العَاشِرَة : « وقد اسْتَقْصَيْتُ ذكره في أخْبَار الشِّيعَة » (المَخْطُوط ، ورقة ١١٨و ، ٢ :٤٦٥) ، وهو قد مَرَّ في المَقالتين الثَّالِثَة والسَّادِسَة ١ :٤٢٧ ، ٦٣٥ ، ولم يُعَدِّل ما ذَكَرَهُ النَّديمُ عند إشَارَته إلى مُؤَلَّفَات الرَّازِي في الصِّنَاعَة ، وأبْقَى عِبَارَته كما هي : « فمن يُريد مَعْرِفَة ذلك فلْيَنْظُر في المَقَالَة العَاشِرَة » بَدَلًا من الرَّابِعَة عنده (المَخْطُوط ، ورقة ٦٤و ، ٢ : ٣٠٨) . وعند حَدِيثه في المَقَالَة الثَّامِنَة عن مَنْ عَمِلَ الأسْمَارَ والخُرَافَات على ألْسِنَة النَّاس والطَّيْر والبَهَائِم قال : « وقد اسْتَقْصَيْنا أخْبَارَ هؤلاء وما صَنَّفُوهُ في مَوَاضِعِه من الكتاب » (المَخْطُوط ، ورقة ٦٩و ، ٢ :٣٢٤) . وهم قد مَرَّ ذكرهم في المَقَالَة الثَّالِثَة .

ويتكوَّنُ نَصُّ كِتَابِ « الفِهْرِسْت » للنَّدِيم ، كما وَصَلَ إلينا نَقْلًا عن دُسْتُور المُؤَلِّف الذي كَتَبَهُ بخَطِّه ، من عَشْرِ مَقَالَاتٍ أتَمَّ النَّديمُ تَبْييض ــ ولا أقُولُ تَأْلِيف ــ القِسْمَ الأكبر منها في شَعْبَان سَنَة ٣٧٧هـ / نوفمبر سنة ٩٨٧م ، وهو ما يُشيرُ إليه صَرَاحَةً في أكثر من مَوْضِعٍ على امْتِدَادِ صَفَحَات الكتابِ بما مِثَالُه :

١ ــ « إلى عَصْرِنَا هذا وهو سَنَةُ سَبْع وسَبْعين وثَلاث مائة » ١ :٣ .

٢ ــ « هَذَا آخِرُ ما صَنَّفْناهُ من المَقَالَة الأولى من كتاب « الفِهْرِسْت » إلى يَوْم السَّبْت مُسْتَهَلّ شَعْبَان سَنَة سَبْعٍ وسَبْعِين وثَلاث مائة » ١ :٩٨ .

٣ ــ « هَذَا آخِرُ ما صَنَّفْنَاهُ من مَقَالَة النَّحْويين واللُّغَويين إلى يَوْم السَّبْت مُسْتَهَلّ شَهْر شَعْبَان سَنَة سَبعٍ وسَبْعين وثَلاث مائة » ١ :٢٧٠ .

وهو ما يُعَادِلُ سَبْعًا وخَمْسين وَرَقَةً من نُسْخَة الأصْلِ ، وهو أمْرٌ جَائِزٌ مَعَ وَرَّاقٍ مُحْتَرِفٍ مثل النَّديم أنْ يَكْتُبَ في يومٍ ، تَبْيِيضًا لا تأْلِيفًا ، نحو سِتِّين وَرَقَةً ، خاصَّةً إذا افْتَرَضْنَا أنَّه يَنْقِلُ من مُسَوَّدَةٍ كَامِلَةٍ ، مُقَارِنين ذلك بالحَدِيث الذي دَارَ بَيْنَه وبين وَرَّاقٍ آخَر من العُلَمَاء هو مُعَاصِرُهُ أبو زكريَّا يحيىٰ بن عَدِيّ المَنْطِقيّ عندما الْتَقَاهُ يومًا في سوق الوَرَّاقِين ، وعَاتَبَهُ النَّدِيمُ علىٰ كثْرَة نَسْخِه ، فأجَابَه يحيىٰ بن عَدِيّ : « لعَهْدِي بنَفْسِي وأنا أكْتُبُ في اليَوْم واللَّيْلَة مائة وَرَقَة وأقَلّ » ٢ :٢٠٢ .

والوَاضِحُ أنَّ النَّدِيمَ ، في مُسْتَهَلّ شَعْبَان سَنَة سَبْعٍ وسَبْعين وثَلاث مائة ، كان قد انْتَهَىٰ من جَمْعِ مادَّةِ كِتابِه ، وتَفَرَّغَ لتَبْيِيضه وإخْرَاجِه في شَكْل دُسْتُورٍ يُعَوَّلُ عليه ، وذلك بالرَّغْم من الفَرَاغَات الكثيرَة التي تُقَابِلُنا في الدُّسْتُور ، والتي كان يَوَدُّ أنْ يَسْتكملها فيما بعد ، في الوَقْتِ نفسه لم يتمكن من الحُصُولِ علىٰ مَعْلُومَات عن بَعْض المؤَلِّفين ، فاسْتَخْدَمَ بَدَلًا من تَرْك الفَرَاغَات عِبَارَات مثل : « ولا يُعْرَفُ من أمْرِه أكثر من هذا » أو « غَيْر هذا » ١ :٢٣٩ ، ٢٦١ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٧٣ ، ٢ :٢٥٦ ، ٢٩٩ أو « لا يُعْرَف غير هذا » ١ :٢٦٣ ، ٢ :٢٤٨ .

ثُمَّ أتَمَّ نَسْخَ ما تَبَقَّىٰ من أوْرَاقِ النُّسْخَة الدُّسْتُور والتي تُعَادِلُ ، في النُّسْخَة المَنْقُولَة عنها ، إحدىٰ وسَبْعين ومائتي وَرَقَة فيما تَبَقَّىٰ من سَنَة سَبْعٍ وسَبْعين وثَلاث مائة ، وأشَارَ إلىٰ ذلك بالصِّيَغ التَّالِيَة :

٤ ــ « ويَحْيَا إلىٰ الوَقْتِ الذي بُيِّضَ هذا الكتابُ فيه » ١ : ١٨٧ .

٥ ــ « ويَحْيَا إلىٰ وَقْتِنَا هذا بل أحْسَبُهُ مَاتَ قَرِيبًا » ٢ : ٣٤٠ .

٦ ــ « وَيَحْيَا إلىٰ زَمَانِنَا هذا » ١ : ٣٥٣ .

٧ ــ « ... تُوفِّي منذ شُهُور » ١ : ٤٠٦ .

٨ ــ « ويَحْيَا إلىٰ وَقْتِنَا هذا وهو سَنَة سَبْع وسَبْعين وثَلاث مائة » ١ :٤٠٧ ــ ٤٠٨ .

٩ ــ « ووَلَّاهُ عَضُدُ الدَّوْلَة قَضَاءَ الرُّبْع الأسْفَل من الجانِب الشَّرْقي من مَدِينَة السَّلام ، وإلىٰ وَقْتِنا هذا وهو سَنَة سَبعٍ وسَبْعين وثلاث مائة » ٢ : ٦٧ .

١٠ ــ « مَاتَ قَرِيبًا في سَنَة سِتٍّ وسَبْعين وثَلاث مائة » ٢ : ٢٦٣ .

١١ ــ « ما حَكَاهُ الرَّاهِبُ النَّجْرَانيّ الوَارِدُ من بَلَدِ الصِّين في سَنَة سَبْعٍ وسَبْعِين وثَلاث مائة » ٢ : ٤٣٢ .

وهي المَوَاضِعُ التي صَرَّحَ فيها النَّديمُ بالتأريخ الذي كَتَبَ فيه دُسْتُورَه ، وإنْ كان قد اسْتَخْدَمَ عِبَارَات أخْرىٰ تُؤدِّي المَعْنَىٰ نَفْسه رَغْم أنَّه لم يَذْكُر فيها التأريخ مِثْل : « وكان قَرِيبَ العَهْدِ وقد أدْرَكَهُ جَمَاعَةٌ في زَمَانِنَا » ١ : ٥٥ ؛ « ويَحْيَا إلىٰ زَمَانِنَا هذا » ١ : ٣٥١ ؛ و « تُوفِّي منذ شُهُور » ١ : ٤٠٤ ؛ و « القاضِي في عَصْرِنا » ٢ :١٢٣ يَقْصِد المُعَافىٰ بن زكريَّا النَّهْرَواني وقد توفِّي سنة ٣٨٦هـ ؛ و « في زَمَانِنَا ويَحْيَا إلىٰ وَقْتِنَا هذا » ١ : ٤٢٠ ؛ و « يَحْيَا في عَصْرِنا هذا » ١ : ٤٧٦ في حَدِيثِه عن عليّ بن محمد الشِّمْشَاطيّ ، المتوفَّىٰ سنة ٣٩٤هـ ؛ و « قَرِيبُ العَهْدِ وأحْسَبُهُ يَحْيَا » ١ : ٤٧٧ في حَدِيثه عن الحَسَن بن بِشْر الآمِدِي ، رَغْم أنَّه تُوفِّيَ سنة ٣٧١هـ ؛ و « وقد بَقِيَ إلىٰ زَمَانِنَا هذا » ٢ : ١٣٦ ؛ و « بها إلىٰ وَقْتِنَا هذا » ٢ : ١٣٩ ؛ « في زَمَاننا هذا » ٢ : ٢٠٦ ؛ « ويَحْيَا في زَمَانِنَا » ٢ : ٢٦٣ . وعند حَدِيثِه عن عبد الله بن أبي زَيْد القَيْرَوَاني ، المتوفَّىٰ سنة ٣٨٦هـ ، « أحَدُ الفُضَلَاء في زَمَانِنَا هذا » ٢ : ١٣ .

وهي كُلُّها أدِلَّـةٌ علىٰ أنَّ النَّديمَ كان يَكْتُبُ أحْيَانًا بَعْضَ مَعْلُومَاتِه من الذَّاكِرَة دُون أنْ يَتأكَّد منها .

وإذَا أخَذْنَا في الاعْتِبَار المَـجَال الذي يَتَنَاوَلُـهُ « الفِهْرِسْتُ » ، فمن غير المُسْتَبْعَد أنْ تكون هناك صِيَاغَةٌ مُبَكِّرَةٌ لبَعْضِ مَـقَالات الكِتَاب ضَمَّنَها النَّديمُ في مَوَاضِعِها عند التَّبْيِيض ، وعلىٰ الأخَصِّ المَـقَالات الأخِيرَة من الكِتَاب التي يَتَّضِحُ فيها الجُهْدُ والعَنَاءُ

الذي بَذَلَهُ النَّديمُ في جَمْعِ مادَّتها ، فهي تَشْتَمِلُ على فُصُولٍ حَوْل بِدَايَة الفَلْسَفَة وسِيرَة فلاطُن وأرِسْطاطالِيس وأُقْلِيدِس وجَالِينُوس وغيرهم من فَلاسِفَة الإغْرِيق ورياضِيِّهم وأطِبَّائِهم وعُلَمَاء المُسْلِمين الذين تابَعُوا مَنْهَجَهُم ، وكذلك عن أُصُولِ « ألْفِ لَيْلَة ولَيْلَة » ، كما أنَّه يُقَدِّمُ لنا مَعْلُومات في غَايَة الأهَمِّيَّة في مَقَالَة الاعْتِقَادَات القَدِيمَة عن الصَّابِئَة والمَانَوِيَّة ومَذَاهِب الهِنْد والصِّين ، ويُدْلِي برأيه أحْيَانًا عند حَدِيثه عن السِّحْر الأسْوَد والسِّحْر الأبْيَض ، على سَبِيل المِثَال ، أو على الشَّعْبَذَة والخُرَافَات وعِلْم الصَّنْعَة أو الكِيمْيَاء ؛ وخاصَّة أنَّه يُحِيلُ إليها عندما يَقُولُ في المَقَالَة الأولى عند حَديثه على أنْوَاع الوَرق ١ : ٤٧ « وقد اسْتَقْصَيْنا خَبَرَ ذلك في مَقَالة الفَلاسِفَة » . وعند حديثه على النَّقَلَة للكتاب المُقَدَّس ١ : ٥٨ يقول : « ونحن نَسْتَقْصي أخْبَارَهُم في مَقَالَة العُلُوم القَدِيمَة » .

وتَعْكِسُ المَقَالاتُ الأخِيرَةُ ، بالإضَافَة إلى ذلك ، الطَّبِيعَة المُتَغَايِرَة للمَصَادِر المُسْتَخْدَمَة في كتابتها ، وربَّما أيْضًا تَطَلُّبها لمَعْرِفَة خَلْفِيَّةٍ من المَعْلُومَات غير المُتَوَافِّرَة في المَجَال المألُوف للأدَبِ العَرَبي التَّقْليدي ، وتَكْشِفُ عن ضَرُورَة وُجُود صِيَاغَةٍ أوَّلِيَّةٍ لبَعْضِ فُصُولِ هذه المَقَالَات . ويمكن أنْ نَجِدَ في مَدْخَل جَالِينُوس أنْمُوذَجًا على ذلك يَدُلُّ على أنَّه كُتِبَ أوَّلًا قَبْل سَنَتَيْن أو ثَلاثَة من إدْمَاجِه في « الفِهْرِسْت » . فقد اعْتَمَدَ فيه النَّدِيمُ الرِّوَايَة التَّالِيَة لإسْحَاق بن حُنَيْن في « تاريخ الأطِبَّاء والفَلاسِفَة » ، يَقُولُ إسْحَاقُ :

« ومن وَفَاةِ جَالِينُوس وإلى سَنَة تِسْعِين ومائتين للهجرة سَنَة تأليف كتاب إسْحَاق ثَمَان مائة وخَمْس عَشْرَة سَنَة » تاريخ الأطباء ١٥٥. واسْتَخْدَمَ النَّدِيمُ الرِّوَايَةَ نَفْسَها ، ولكنَّه صَاغَها هكذا : « ومُنْذُ وَفَاةِ جَالِينُوس إلى عَهْدِنا هذا ، على ما أوْجَبَهُ الحِسَابُ الذي ذكره يحيى النَّحْوي وإسْحَاقُ بن حُنَيْن بعده ، تِسْع مائة سَنَة » ٢ : ٢٧٦ . فيكون قد كَتَبَ المَدْخَلَ الخاصّ بجَالِينُوس أو بَعْضَه سَنَة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ، أي قبل سَنَتَيْن من إدْمَاجِه في « الفِهْرِسْت » ، رَغْم أنَّنا لا يمكن أن نَتأكَّدَ تمامًا من صَوَابِ هذا التَّأريخ ، لأنَّ تأريخَ وَفَاة جَالِينُوس يُحْسَب بالتَّقْويم الشَّمْسي على حين أن التَّوَاريخ المستخدَمة

لدى المؤلِّفين العَرَب والمسلمين على السَّوَاء تَتْبَع التَّقْويم القَمَري ، فتكون الـ ٨٥ سَنَةً شَمْسِيَّة منذ سَنَة ٢٩٠هـ (ديسمبر ٩٠٢ ــ نوفمبر ٩٠٣) تَتَطَابَقُ مع السَّنَة المَعْرُوفَة لتأليف « الفِهْرِسْت » شَعْبَان ٣٧٧هـ / نوفمبر ٩٨٧م »[1] !

وتَبْدُو المَقَالاتُ الأرْبَع الأولى أشْبَه بثَبَتٍ ببْليوجرافي لمُؤلَّفات الكاتب أو الشَّاعِر ولا تُضِيفُ في العُمُوم إلَّا مَعْلُومَات مُخْتَصَرَةً جِدًّا عن حَيَاتِه على عَكْس المَعْلُومَات الوَارِدَة في المَقَالات الأخِيرَة ، فالنَّديمُ بحُكم عَمَلِه كوَرَّاقٍ يَهْتَمُّ أوَّلًا وقَبْل كلِّ شيء بالكُتُب والمُصَنَّفَات أكثر من اهْتِمَامِه بحَيَاةِ المُؤَلِّفين والكُتَّاب ، لاسِيَّما أنَّه تُوجَدُ مُؤلَّفاتٌ في الطَّبَقَات والتَّرَاجِم تَنَاوَلَت حَيَاة المُؤَلِّفين والشُّعَرَاء الإسْلاميين ، وهو لذلك لا يُثْبِت سوى عَنَاوِين الكُتُب التي رَآهَا بنَفْسِه ، أو أعْلَمَهُ الثِّقَاتُ أنَّهم رَأوها . ويُحَدِّدُ أحْيَانًا حَجْمَ مُجَلَّدِ الكتاب ، وعلى الأخَصِّ في مَقَالَة الشُّعَرَاء المُحْدَثِين ، حَيْثُ يُحَدِّدُ لكلٍّ منهم عَدَدَ أوْرَاق دِيوَانِه (بِنَاء على نَوْعٍ مُعَيَّنٍ من الوَرَقِ وعَدَدِ أسْطُر كلِّ صَفْحَة فيه ١ : ٥٠٢) . وغَالِبًا ما يَذْكر نُسَخًا كَتَبَها نُسَّاخٌ (خَطَّاطُون) مَشْهُورون مثل : ابن مُقْلَة وابن الكوفيّ وأبي الطَّيِّب بن أُخَيّ الشَّافِعِيّ والتِّرْمِذِيّ وابن عَمَّار الثَّقَفِيّ كاتب شِعْر المُحْدَثين ، ويَذْكُرُ كذلك هُوَاة الكُتُب ومُحْتَوَى مَكْتَبَاتهم .

لقد أرَادَ النَّدِيمُ أنْ يكونَ كِتَابُه ، الذي صَنَّفَه في عَشْرِ مَقَالاتٍ ، جَامِعًا للإنْتَاجِ الفِكريّ المكتوب باللُّغَة العَرَبِيَّة حتى الرُّبْعِ الثَّالِثِ من القَرْنِ الرَّابع الهجريّ ، ولكن كما يَتَّضِحُ من نَصِّ الدُّسْتُور الذي كَتَبَهُ بخَطِّه ، فإنَّ الكثيرَ من البَيَانَات والمَعْلُومَات لم تكن مُتَوَافِّرة له ، وكان يُرِيدُ اسْتِكمالَها فَبَيَّضَ لها في دُسْتُورِه على أنْ يَسْتَدْركها في وَقْتٍ لاحِق ، وأنَّه كان حَرِيصًا على إتْمَام إنْجَازِ الكتاب في الشُّهُور المُتَبَقِّيَة من عَام ٣٧٧هـ / ٩٨٨م .

(١) راجع كذلك : مقال زيمّرمان Friedrich w . Zimmermann, {On the Supposed Shorter Version of Ibn an –Nad.m's Fihrist and its Date}, Der Islam (1976), p.p . 267 -273 .

ورَغْم نَقْصِ هذه المَعْلُومات ، فإني أكادُ أَجْزِمُ أنَّ النَّدِيمَ كَتَبَ فَقَط بخَطِّه من كتاب « الفِهْرِسْت » النُّسْخَة الدُّسْتُور ، وتَرَكَ بها الفَرَاغَات التي لم يَتَحَقَّق منها ليُعَاوِدَ اسْتِدْراكها فيما بَعْدُ . وأنَا أظُنُّ أنَّ الإضَافَات التي تُطَالِعُنَا في نِهَايَة المَقَالَة الأولىٰ ١ : ٩٩ ــ ١٠٠ ونِهَايَة المَقَالَة الثَّانية ١ : ٢٧٠ ــ ٢٧٣ بَعْدَ أنْ ذَكَرَ قَبْلَها أنَّ هذا آخِرُ ما صَنَّفَهُ في كُلٍّ من المَقَالَتَيْن ، كانت في شَكْلِ طَيَّارَاتٍ مُضَافَةٍ في دُسْتُورِه وأضَافَهَا نَاسِخُ نُسْخَة الأصْلِ في نِهَايَة كُلِّ مَقَالَة .

ورَغْم تأخُّرِ وَفَاةِ النَّدِيم بَعْدَ انْتِهَائِه من كِتَابَة الدُّسْتُور ، في سَنَة ٣٧٧هـ / ٩٨٨م ، إلىٰ مُنْتَصَفِ شَعْبَان سَنَة ٣٨٠هـ / نوفمبر سَنَة ٩٩٠م ، فإنَّه لم يُعَاوِد النَّظَرَ في دُسْتُورِه لاسْتِكمالِ هذه النَّوَاقِص أو لإصْلاحِ وتَعْدِيل بَعْض عِبَارَات الكِتَاب التي تَحْتَاجُ إلىٰ اسْتِدْرَاكٍ أو التي تَظْهَرُ فيها أخْطَاءٌ إمْلائِية ونَحْوِيَّة وأسْلُوبِيَّة .

وعلىٰ ذلك فلا يُوجَدُ لكتابِ « الفِهْرِسْت » سِوَىٰ تَحْرِيرٍ وَاحِدٍ هو النُّسْخَة الدُّسْتُور التي تُمَثِّلُها الآن النُّسْخَةُ المُوَزَّعَةُ بين مكتبتي شيستر بيتي بدَبلن وشهيد علي باشا بالسُّليمانية بإستانبول ، لأنَّه لو كان حَرَّرَ كِتابَه أكثر من مَرَّة لكان علىٰ الأقَلّ اسْتَدْرَكَ المَوَاضِع التي بها تَقْدِيمٌ وتَأْخِير ٢ : ٨١ ، ١٠٦ .

(ويعود علي طه إلىٰ الشاطئ الذي بدأ منه رحلته الهائمة ، يعود محمولًا علىٰ الأعناق ليكَفَّن في شراعه ، وليُدفن في زورقه . وهناك ، علىٰ ضفاف النيل بالمنصورة توسَّد الملاح ثراه ، وبقيت القيثارة الحزينة ترجِّع همسًا رفيقًا يقول : هاهنا طاب للملاح المقام . هاهنا وجد الملاح الشاطئ الذي قضىٰ حياته تائهًا عنه . هاهنا خاتمة المطاف) .

من كتاب « مع الملاح التائه .. علي محمود طه » .

المُصحَف العُماني : تقاليد الكتابة وجماليات الفن

د. فيصل الحفيان*

إنَّ الحديث عن ثروة عُمان من المصاحف يثير من الأسئلة أكثرَ مما يقدِّم من الأجوبة ، ذلك أنَّ هذه الثروة – علىٰ الرغم من أهميتها – لا تزال حقلًا بِكرًا لم يَخُطَّ فيه أحد حتىٰ الآن ، ولعلَّ أهمَّ الأسئلة مرتبط بأننَّا لا نستطيع أن نوغل كثيرًا في التاريخ ، ونحن نتحدَّث عنها ، فأقدمُ مصحف مؤرَّخ في مجموعة وزارة التراث – علىٰ الأقل – لا يتجاوز منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، كتبه سالم بن ربيعة بن راشد (رقم ١٥ عام / ١٥أ خاص) وهذا يعني أننَّا نتحدث عن نحو ثلاثة قرون ونصف القرن ، وهي فترة غير كافية – في رأينا – لتلمُّس تقاليد الكتابة المصحفية في عُمان وجماليَّاتها .

إنَّها نقطةٌ تحتاج إلىٰ بحث دقيق ، فليس مفهومًا بالمرَّة ألاَّ نجد مصاحفَ أقدم من هذا التاريخ (المتأخِّر) في بلد عريق تاريخيًّا ، مثل عُمان ، ولا يمكننا أن نقبل عقلًا تأخُّر الكتابة المصحفية العُمانية عشرة قرون ، ونحن نعلم أنَّ الإسلام قد دخل عُمان مبكِّرًا (٨هـ / ٦٣٠م) . إشكاليَّة علمية وتاريخية نأمل أن تصل البحوث المستقبلية إلىٰ إجابة أو إجابات شافية لها .

وقد يكون في المصاحف التي لم تُجْمع حتىٰ الآن ، وليست تحت أعين الباحثين ، إجابة مُستَترة عن السؤال الكبير المُثار ، فما أدرانا أن بعض هذه المصاحف (الغائبة) أو (المغيَّبة) تعود إلىٰ تواريخَ مبكِّرة . يُضاف إلىٰ ذلك أن عددًا لا بأس به من المصاحف (الحاضرة)

---

* منسق البرامج بمعهد المخطوطات العربية – القاهرة .

غير مؤرَّخ ، وربَّما يكون فيها ما يرجع إلى تواريخ أقدمَ من التي جرى رصدها . على أنَّ هذه المغامرة في تحديد التواريخ ليست سهلة ، ولا مَناص من أن نتسلَّح فيها بالتِّقنيات الحديثة التي قد تجعل من المقاربة التاريخية لأعمار الورق والحبر والخط والزخرفة ، أمرًا ممكنًا ، كما أنه لا مناص من الاعتماد على الخبرات العلمية البشرية التي تملك القدرة على عقد الموازنات ، واستحضار التقاليد المدرسية التاريخية عبر العصور والعواصم الحضارية المختلفة ، حتى يمكن الخلوص إلى نتائج يُطمأنُّ إليها .

إن عدم جمع الثروة العمانية المصحفية ومن ثم درسها الذي رأينا فيه إجابة ما مستترة ليس منفردًا أو قاطعًا في تفسير « السؤال » ، فثمة إجابات أو تفسيرات أخرى عديدة ، وهي لا تعدو كونها افتراضاتٍ تفتقر إلى البحث التاريخيِّ والعلمي الدقيق الذي قد يزيل بعضَها تمامًا ، ويثبت – بالطبع – بعضها الآخر أو يثبتها جميعًا ، وما يثبته لن يكون كُلًّا واحدًا بالضرورة ، فقد تختلف الحظوظ ، ويكون لافتراضٍ أو افتراضات حظٌّ أكبر في التفسير ، وذلك كلُّه مرهون بالبحث الذي يملك وحده القدرة على أن يبعث الاطمئنان في نفوس الراغبين في المعرفة .

من الافتراضات الأولية (مشروعات الإجابات المؤجَّلة) أن موقع عُمان الجغرافي جعلها بعيدة عن العواصم الحضارية والسياسية الجاذبة ، حيث الخلفاءُ والأمراء ، وحيث مركزُ الدولة بثقلها الاقتصادي والحضاري ، ومنها أن تلك المراكز الجاذبة أخذت العُمانيِّين إليها ، أخذتهم بمعنى أنها جعلتْهم ينتقلون إليها ، وهكذا فإن عطاءهم ومساهماتهم نُسبت إلى تلك العواصم ، وغابت عن العين بلدهُم الأصلية . ومنها أن موقع عُمان الجغرافي – مرة أخرى – في أقصى الحدود الشرقية للعالم العربي والإسلامي ، على البحر جعلها « ثغرًا » ، والثغور غالبًا منشغلة : إما بالطارئ من الخارج الذي يغزو (الدفاع) ، وإما بالإعداد للخروج في تحركات استباقيَّة تهدف لنشر الدعوة أو قطع الطريق على الغازي ، أو تحقيق مصالحَ مختلفة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ، ومنها

أن الموقع من ناحية ، وما استلزمه من حركة دائبة عسكرية وتجارية ، وما يعنيه هذا وذاك من مخاطرَ قد أفقدنا جزءًا كبيرًا من تراث هذه المنطقة . هذه (الافتراضات) ليست وحدها ، فقد يكون هناك غيرُها ، ولسنا – هنا – في معرض استقصائها .

وعلى الرغم من الجهد الذي بذلتْه وزارة التراث في جمع المخطوطات المصحفية ، فإن العدد الذي تحتفظ به – وهو – في ما أعلم – ١٥٦ مصحفًا أو قطعةً من مصحف – رقْم لا يمثِّل سوى جزء قليل من ثروة عُمان من المصاحف المخطوطة . وهذه مناسبة للدعوة إلى تجميع هذه الثروة في مكان واحد ، وليس ما يمنع من أن تحتفظ كلُّ مجموعة بنسبتها إلى الأسرة التي تملكها ، رعايةً للحقوق الأدبية من ناحية ، واقترابًا من الغاية العليا المتمثلة في حصر هذه الثروة ، والمحافظة عليها ، وإتاحتها للدراسة ، مما يؤمَّل معه أنْ تنكشف الكثير من الأسرار المتعلقة بالتاريخ الحضاري والفكري والديني لعُمان في المراحل التاريخية المختلفة .

والإشكاليَّات العلمية التي تخصُّ ثروة عُمان من المصاحف المخطوطة يمكن إيجازها في نقطتين :

الأولى : في تأريخها ، وهذا ما سلفت الإشارة إليه ، مما يعني أننا بحاجة إلى بذل جهود كبيرة في هذا الاتجاه .

والثانية : في نسبتها ، فكثيرٌ من هذه المصاحف ، ناسخوها مجهولون ، ولذلك أسبابٌ ، منها : عدم تقييد الناسخ اسمه ، وضياعُ الورقة التي عليها الاسم أو تلفُها .

هاتان النقطتان هما جوهر أية دراسة محتملة لحركة النسخ والنُّسَّاخ في عمان ، وبخاصة النسخ المصحفي ونُسَّاخ المصاحف ، وسيكون لهذه الدراسة وأشباهِها فوائدُ عديدة ، تتصل بفهم تطوُّر الكتابة عمومًا ، والكتابة المصحفية خصوصًا ، وتطوُّر الخط العربي في عُمان ، وارتباط ذلك كله بحركة النسخ والنُّسَّاخ في العالم العربي والإسلامي .

وخلاصة القول إنه لا بد – ونحن ننظر في ثروة عُمان من المخطوطات ، وبخاصة مخطوطات المصاحف – من درس متنوِّع ، يشمل الدرسَ التاريخيَّ ، والحضاريَّ ، والفنيَّ ، بهدف وضع إنجازات هذه المنطقة الحضاريَّة المهمَّة في سياق حركة الإنجاز الحضاري العربي والإسلامي العام ، والإجابة عن تساؤلات مهمَّة حائرة حول التاريخ والحضارة والفنِّ ، تاريخِ عمان وحضارتها وفنِّها عامةً ، وتاريخ الكتابة والمدرسة النسخية والفنية وتقاليدها خاصةً ، والوشائج التي تربط هذا التاريخ المحلي وهذه المدرسة الخاصة ، والجدل الذي قام بينها وبين التاريخ العام والمدارس الأخرىٰ ، تأثُّرًا وتأثيرًا .

– ١ –

ونستطيع أن نسجِّل – دون كثير تردُّد – وعلىٰ الرغم من العوائق التي أشرنا إليها ، أنَّ العُمانيِّين كتبوا المصاحف التي وصلت إلينا لغاية وظيفية ، أعني القراءة والتعبُّد ، فقد كان الهدفُ الأساس هو إتاحة النَّصِّ المقدَّس للناسخ نفسه ، أو لولده ، أو لأخيه في الله ، أو لمعلِّمه ، أو للمسلمين عامة ، من خلال الوقف علىٰ مسجد ما مثلًا ، دون أن يعني ذلك الانشغال كلِّيًّا عن أمور أخرىٰ تتصل بالتأنُّق في الخط ، والزخرفة ، والتذهيب ، والتلوين . لكن هذه الأمور (الشكلية أو الجمالية) ظلَّت علىٰ هامش الهدف الأساس (الوظيفي) ولم تصل إلىٰ الحدِّ الذي يجعلنا نضع اليد علىٰ مدرسة فنِّية ذات خصوصية . ولا يقلِّل ذلك من قيمة هذه الثروة ، إذا ما وضعنا في الحسبان غايتها ، والرؤية التي صدرت عنها . وهي غاية جليلة ، ورؤية دينية خالصة ، لم تخالطْها غاياتٌ أو رؤىٰ دنيوية ، تسعىٰ إلىٰ إرضاء عظيم ، أو تتغيَّا عَرَضًا ما : مالًا أو تكريمًا أو شهرة .

والجمال ليس أبدًا في الفخامة والزينة ، قد يكون في البساطة والعفوية والتلقائية ، ففي هذه – أيضًا – جمالٌ من نوع آخر ، قد يكون راحة وسكينة وجلالًا للنفس في مقابل الانبهار والإعجاب والاستثارة للعين والعقل . وثَمَّ مَنْ يُبْهره هذا ، وثَمَّ من تَسْكُن نفسه إلىٰ ذاك!

إنَّ الغاية (الوظيفية) التي طبعت الإنتاج العماني في النَّسْخ المصحفي يمكن أن نقول إنَّها سبب ونتيجة ، سببٌ في عدم ظهور طبقة من المحترفين ، محترفي النسخ ، ونتيجةٌ في الوقت نفسه ، فعدم ظهور هذه الطبقة طَبَعَ الإنتاج بالطابع الوظيفي المرتبط بأداء العبادة ، والتقرُّب إلىٰ الله بتلاوة كتابه وحفظه .

ولا ينفي ذلك أن بعض العُمانيين قد ارتقوا بحرفة النسخ خاصة ، والصناعة المصحفية عمومًا ، فاقتربوا أو كادوا من النساخين (الفنانين) الذين عرفناهم في المدارس المملوكية المصرية والشامية والبغدادية ، أو المدرسة الإيرانية ، أو المدرسة العثمانية ، ومن هؤلاء عبد الله بن بشير الحضرمي (أحد العلماء النسَّاخ من رجال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي) الذي كتب نسختين من المصحف : الأولىٰ عام ١١٤٨هـ (في وزارة التراث ، برقم ٦٠أ) والثانية عام ١١٥٧هـ (في مكتبة السيد محمد ابن أحمد البوسعيدي ، برقم ٤١) ، وقد تميَّزت هاتان النسختان بمستوىً غالٍ من الإتقان والصنعة ، سواء علىٰ مستوىٰ الخط أو التزيين .

وعلىٰ الرغم من قِصر المدة – نسبيًّا – التي نعرفها عن الصناعة المصحفية العمانية ، فإن مما لا شك فيه أن أصداء التقاليد المملوكية والإيرانية والعثمانية تردَّدت فيها ، فقد كان لتلك المدارس دورُها في ابتداع تقاليدَ فنيَّةٍ راقية ومبهرة ، سواء علىٰ مستوىٰ الخط والكتابة النَّصِّية ، أو علىٰ مستوىٰ التذهيب والتزيين والتشكيل الفني ، أو علىٰ مستوىٰ التجليد وتِقنيَّاته ، ونعني تلك المدارس التي ازدهرت في القاهرة وبغداد ودمشق وفارس وإستانبول ، وكان لها جاذبيَّتها الشديدة التي يصعب الخروج من أَسْرِها .

وقد يصحُّ أن نشير هنا إلىٰ أنَّ عُمان وإنْ لم تكن مركزًا سياسيًّا كبيرًا في التاريخ الإسلامي ، كما هي مصرُ أو الشام أو العراق مثلًا ، فإنها في الوقت نفسه ما كانت يومًا بعيدة عن التأثير القويِّ والمشاركة الحقيقية في حركة الحضارة العربية الإسلامية ، وبخاصة علىٰ المستوىٰ العلمي ، ويكفي أن نسوق من أعلام عُمان أسماء كالخليل بن

أحمد الفراهيدي ، وابن دريد ، ونشوان الحِميري ، من المشهورين ، وسلمة بن مسلم العوتبي الصُّحاري صاحب كتاب « الإبانة في اللغة العربية » وأبي محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري (أيضًا) صاحب كتاب « الماء » ، من غير المشهورين بين المتخصِّصين اليوم . ولذلك فإننا لا نستبعد أن يكشف لنا الدرسُ الذي لا تحتمله مثل هذه العُجالة أسماء كبيرةً في مجال صناعة المصحف عمومًا ، ونِساخته خصوصًا .

- ٢ -

كتب العُمانيون المصحف ، واستخدموا في ذلك – كغيرهم – المداد الأسود غالبًا في كتابة الآيات الكريمة (النص) . وعلىٰ الرغم من أنَّ اللون الأسود هو الذائعُ في الكتابة ؛ لأسباب عدة ، فإن هذا اللون التقليدي قد يكون أشدَّ مناسبة ، ذلك أنه لونٌ واضح لا تستطيع الألوان الأخرىٰ أن تطغىٰ عليه ، أو تشغلَ العين عنه ، وكأنهم أخلصوه أو كادوا للنص المقدَّس مراعاة لهذا الملمح ، هذا إضافة إلىٰ ما يملكه من جلال ورصانة يتلاءمان مع المكانة العظيمة لكلام الله في نفوس المسلمين . وذلك لا يعني عدم استخدام الألوان الأخرىٰ في الكتابة ، ففي وزارة التراث مصحفٌ (رقمه ٣٤٤٩) مكتوب بمدادَين أزرقَ وأحمرَ معًا ، وقد راوح الناسخ بين اللونين ، كتب سطرًا بهذا وسطرًا بذاك ، علىٰ أنه ليس لدينا ما يؤكد أن هذا المصحف عُماني ، فقد خلا من اسم ناسخه وتاريخ نسخه ، وقد يكون هذا المصحف فارسيًّا ، ففيه ملامح الفن الفارسي ، لكنه – علىٰ كُلِّ حال – جزءٌ من ثروة عُمان المصحفية .

وإلىٰ جانب الأسود والأزرق والأحمر هناك أيضًا المداد الذهبي ، لكن هذا الأخير كان لونًا مُكْلِفًا ، يستخدمه أو يأمر باستخدامه عليةُ القوم من الخلفاء والأمراء والميسورين . وثَمَّ سبب آخر لعدم استخدامه بكثرة في الكتابة ، قد يكون وراء غيابه أو ندرته في المصاحف العمانية ، ويتمثل في أن الذهب لا يتوافق مع بساطة الإنسان الذي يعيش علىٰ تلك الأرض ، والقيم التي تسكن داخله ، كما أنها لا تتوافق مع بساطة البيئة

المحيطة والحياة بمفرداتها المختلفة التي ارتضاها . ولذلك لم نجد أيَّ مصحف من المصاحف العمانية مكتوبًا بكامله بالذهب .

والأسود ليس مفضلًا فحسب في الكتابة ، لكنه أيضًا مفضلٌ في الضبط (الحركات) ، وفي ذلك أيضًا ما يتوافق مع البساطة الإنسانية والبيئية والغاية الوظيفية المقصودة .

أما اللون الأحمر فيظهر كثيرًا في أسماء السُّور وما يرتبط بها (عدد الآيات ومكان النزول) كما يظهر أحيانًا في علامات القراءة وفي بدايات الأجزاء وفواتح السور ، وفي الفواصل ، وفي لفظ الجلالة الذي يحاول الناسخ إبرازه فيتعمد كتابته باللون الأحمر .

ويشارك الأحمرَ الذهبيُّ ، وبخاصة في الفواصل . والفواصل تأخذ في الغالب شكل الدوائر (حمراءَ أو ذهبية ، صغيرةً أو كبيرة) المعبَّاة والمحدَّدة بالسواد الرفيع أو السميك ، أو المفرَّغة ، أو تأخذ – علىٰ قلة – شكل الفاصلة ، أو الزهرة ، أو النقطة . وإذا ما كانت دائرة مفرغة أو زهرة فقد تُوضع داخلها نقطةٌ حمراء . وربما تتعدَّد أشكال الفواصل في المصحف الواحد . ويشارك الأحمرَ الأزرقُ والأبيض ، ولكنَّ ذلك قليل جدًّا ، ويظهر هذان الأخيران في أسماء السُّور .

ولا يقتصر الأحمر علىٰ ما ذكرنا ، ولكنه يتعدَّاه إلىٰ تلك الشروح والتعليقات علىٰ الحواشي ، والإشارات إلىٰ الأجزاء والأحزاب والأرباع والأعشار والأخماس والسجدات عندما تكون مثبتة ، كتابةً أو بالرموز .

إن استخدام هذه الألوان : الأسود والذهبي والأحمر والأزرق ليس بِدْعًا في المصاحف العُمانية ، فقد جرت علىٰ ذلك المدارس المملوكية والفارسية والعثمانية ، وقد رأىٰ بعضهم في اختيار هذه الألوان دلالات روحية ونفسية .

***

وخطُّ النَّسْخ هو المفضل عند الناسخ العُماني للمصحف الشريف ، ونحن نعلم أن هذا الخطَّ زاحم الخط الكوفي مبكرًا ، ولم يكن في ذلك الوقت قد استقرَّ له هذا المصطلح (النسخ) ، كان يومها في صورته الأولىٰ ، وكان يعرف بالخط اللين ، في مقابل الخط الجافِّ (الكوفي) إلىٰ أن جاء ابن مقلة ثم ابنُ البواب ثم ياقوت المستعصمي ، حتىٰ ساد في المرحلة العثمانية سيادةً شبه تامة ، وتراجع الكوفي قبل ذلك بكثير ليقتصر علىٰ عناوين السور وبعض الآيات التي تُكتب في واجهات المصاحف وخواتيمها .

ولكن لماذا اختار العُماني خطَّ النسخ ؟ لا شك أنَّ هناك غيرَ سبب ، بعضها يرجع لطبيعة هذا الخط ، وبعضها يرجع لرؤية هذا الإنسان (الناسخ) وغاياته .

فالنسخ أكثر وضوحًا وبساطة ممَّا عداه ، وهذا ما يجعله متوافقًا تمامًا مع الغاية الوظيفية التي سلفت الإشارة إليها ، هذه الغاية التي تكاد لا تُعير اهتمامًا لغير النصِّ نفسه ، والرسالة التي حملها ، وضرورة وصول هذه الرسالة للمتلقي (القارئ) دون عَنَتٍ أو مشقة ، ودون أن تصرِف العين والفكر عن عظمة الرسالة وقدسية (القراءة) العبادة ، إلىٰ شكل الحرف وجلاله أو جماله .

والنسخ أكثر قربًا واستجابة ليد الإنسان ، لا يرهقها ، ولا يشغلها ولا يستهلك وقتًا . ويرجع ذلك إلىٰ كونه خطًّا صغيرًا ، لا يكاد رسم الحرف فيه يبدأ إلا لينتهي .

وللنسخ ميزات أخرىٰ عديدة ، هي التي جعلتْه الخط المفضَّل للمصاحف ، ولذلك فإن أكبر عدد من المصاحف إنما كُتب به ، ليس في المصاحف العمانية فحسب ، ولكن في المصاحف عمومًا .

و« النسخ » ليس خطًّا واحدًا ، فقد تأثر بالجغرافيا ، كما تأثر بالتاريخ ، فالنسخ المبكِّر جدًّا الذي يقال إنه كان توأمَ الكوفي ، ليس هو الذي كتبه بعد ذلك ابن مقلة ، ونسخُ ابن البواب يختلف شيئًا عن سابقه ، والقولُ نفسه ينطبق علىٰ نسخ ياقوت ، ونسخ ابن الشيخ

الأماسي ، ودرويش حسين ، ودرويش علي أفندي .

والنسخ في مصر ليس النسخَ في فارس ، وهما ليسا النسخ في الهند ، وهي جميعًا ليست النسخ عند العثمانيين .

أقول ذلك لأخلُص إلىٰ أن النَّسخ الذي كُتبت به المصاحف العمانية تأثَّر بخطوط النسخ هذه – إن جاز التعبير – ورأينا فيه ملامح النسخ الهندي حينًا ، والفارسي حينًا آخر . وهذا بديهي إذا ما وضعنا في حسباننا الجوار الجغرافي والاحتكاك التاريخي الوثيق بين عُمان وكل من الهند وفارس .

ومن الضروري هنا الإلماح إلىٰ أن ثمة تفاوتًا بين درجة إتقان (النسخ) في المصاحف ، فبعضها مكتوب بخط نسخ عادي ، وبعضها بخط مُتْقن ، وبعضها بخط متقن جدًّا ، كما أن ثمة تفاوتًا من نوع آخر يتصل بحجم الخط وسمكه ، ويرتبط ذلك كله بمستوىٰ الناسخ والجهد الذي بذله في التجويد وأدواته المتاحة ومزاجه .

ولكن سيادة النسخ في عُمان (وفي غيرها في تلك الفترة الزمنية) لم يكن ليعني اختفاء الخطوط الأخرىٰ ، فقد ظهر مثلًا الكوفي ، أو لنقل النسخ القريب من الكوفي مرَّة في أحد مصاحف مكتبة السيد محمد بن أحمد البورسعيدي ، (مصحف رقم ٨٣) وظهر الثلث المتقن (مصحف رقم ٩٠ في الأرشيف الزنجباري) .

كما زاوج الناسخ بين النسخ والثلث في المصحف رقم ٦٤ في مكتبة السيد محمد ، ولم يغب خطُّ الريحان ، فرأينا مصاحفَ عديدة مكتوبةً به . وتفاوتت مستويات هذه الخطوط ، كما تفاوت خط النسخ .

ولعلَّ المصحف أو المصحفين اللذين كتبهما عبد الله بن بشير بن مسعود الحضرمي الصحاري ، وسبقت الإشارة إليهما ، يعدَّان نموذجَين لحِرْفيَّة الناسخ العُماني ، وقدرته علىٰ التجويد .

- ٣ -

تتراجع في الصناعة المصحفية عند العمانيِّين أهمية العناصر المتصلة بالتزيين والزخرفة ، وهذا مفهوم إذا ما استحضرنا فلسفة الناسخ وغايته ، وربطنا الأمر بأنه (الناسخ) ليس محترفًا ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نتوقف طويلًا عند ما يسمىٰ « الواجهة » واجهة المصحف ، و « الخاتمة » خاتمة المصحف ، تلك الصفحة أو تلكما الصفحتان اللتان تسبقان النصَّ القرآني ، أو تأتيان بعد انتهائه ، وتكونان مخلَصتين أو تكادان للتزيين ، كأنهما لوحتان فنيَّتان تهدفان إلىٰ الإيحاء بجلال ما بعدهما وقدسيته ، أو تختتمان هذا النص وتشعران بهذا وذاك أيضًا .

وليس التزيين قاصرًا علىٰ الواجهة والخاتمة اللتين لا تكونان دائمًا موجودتين ، بل يتعدَّاهما إلىٰ السورة القرآنية الأولىٰ وفواتح السورة الثانية بحسب ترتيب المصحف ، وهما (الفاتحة وفواتح البقرة) وتكونان عادة في صفحتين متواجهتَين ، كما يصل التزيين إلىٰ السورتين الأخيرتين (المعوِّذتين) اللتين قد تُفردان في صفحتين مستقلتين متواجهتين أيضًا ، وربما لا يغيب التزيين عن داخل النص القرآني ، أي في مطالع السور ، أو بعضها .

والحواشي أيضًا مساحة فارغة يجد فيها المزيِّن بُغيته ، فيضع عليها المداليونات والرصائع بأشكال مختلفة ، مذهَّبة ، وملوَّنة ، ويربط بين هذه الأشكال أو يوظِّفها لخدمة ما يودُّ تقييده من إشارات للأجزاء والأحزاب والأرباع والأعشار والأخماس والسجدات وغيرها .

وإلىٰ جانب ذلك لا يمكن أن ننسىٰ عناصر التزيين الأخرىٰ المحيطة بالنَّصِّ (الأطر) والمتعانقة معه (الفواصل وعلامات القراءة والسُّحُب المحيطة بالآيات) وسبق أن أشرنا إلىٰ الألوان الخاصَّة أو الغالبة علىٰ الفواصل وعلامات القراءة ، ولا تبعدُ السُّحُب أيضًا عن هذه الألوان ، وإن كان الغالب عليها اللون الذهبي ، علىٰ أن الناسخ أو المزيِّن

العماني يفضِّل الكتابة الحُرَّة ، الحُرَّة من السُّحُب ، والحُرَّة أيضًا من السطور ، والخطوط الفاصلة ، يريد أن ينصرف إلىٰ كلام الله يكتبه بتلقائية ودون قيودٍ أو حواجزَ . ولعلَّه لم يكن يعي أو يتعمَّد ذلك ، لكنَّ هذا (وأمورًا أخرىٰ) هو ما يمكن أن يفسِّر مزاجه هذا .

إن تراجع هذه العناصر التزيينية لا يعني انتفاءها ، فهي موجودة ، ولكن في حدود ضيِّقة ، وبمستوىٰ بسيط ، وهي لا تخرج غالبًا عن التقاليد الفنية المملوكية والعثمانية والفارسية في تشكيلاتها ، وفي ألوانها ، علىٰ أنَّنا يمكن أن نلفت إلىٰ أن اللون الأحمر خاصة يبدو لونًا رئيسيًّا في المصاحف العُمانية ، لا يكاد يخلو منه أيُّ تشكيل زُخْرُفي ، وقد يتم الاعتماد عليه منفردًا ، أو تتعاضد معه ألوان أخرىٰ : الأزرق والأصفر والأخضر الفاتح ، إضافة إلىٰ البُنِّي والبرتقالي .

- ٤ -

وتُعَدُّ عملية التجليد (أو التَّسفير كما يحلو للمغاربة أن يصطلحوا عليها) جزءًا لا يتجزأ من عملية صناعة المصحف ، فليس مقبولًا ترك كلام الله من غير حافظ له يمسك بأوراقه ، ويحميه ، ولا بدَّ من أن يرقىٰ هذا الجلد أو الحافظ للمهمة التي وجد من أجلها ، لهذا كان تزيينه وزخرفته ، لكن العُماني كان في التَّسفير ، كما كان في كتابة كلام الله غيرَ مَيَّال إلىٰ التأنُّق أو المبالغة ، فارتضىٰ غالبًا الألوان الداكنة : البني الغامق ، والأزرق الغامق (والفاتح أحيانًا) وربما استعان بالأحمر ، دون أن يعدِّد الألوان ، أو يزحم المساحة بالأشكال ، مقتصرًا في العادة علىٰ إطارات بسيطة في الأطراف ، ومداليون في الوسط ، أو مداليونات ، معتمدًا طريقة الكبس .

***

إن هذه الدراسة (المركَّزة) لا تتَّسع لكل ما يمكن أن يقال عن عالَم المصاحف العُمانية ، ولهذا فاتنا الكثير مما نأمل أن نستدركه أو نفصِّله لاحقًا ، وفي هذا السياق نشير إلىٰ أنه قد

عزَّ علينا أن لا نَعْرِض لمسائلَ أخرىٰ في غاية الأهمية ، من مثل النُّسَّاخ أنفسهم ، والعلاقات الإنسانية الحميمة التي وضعنا أيدينَا عليها ، والظواهرِ الاجتماعية والعلمية ، وأسماء المساجد التي رصدناها ونحن نقلب صفحات هذه المصاحف ، وكلُّ ذلك يحتاج إلىٰ وقفات متأنية ، حتىٰ تكتمل الصورة التي ترسُمها لنا أعمالُ هؤلاء النُّساخ ، لِتَقِفَنا علىٰ الحياة العُمانية المؤَارة بالحركة والعلم والدين عبر قرون من التاريخ .

(كثير من الناشرين عموا وصمُّوا ، عميت أبصارهم ومن قبلها عميت بصائرهم ، فمضوا يزيِّفون طبعات الكتب ، ويسخِّرون منجزات العصر الحديث في مجال التصوير في خدمة عملهم الآثم الشرير دون أن يرعوا للمؤلفين ولا للناشرين الأصليين حقوقًا أدبية أو مادية) .

من مقال بعنوان : الكتابة عن المخطوط العربي بين الأصالة والادعاء نشر بمجلة « التوباد » السعودية . المجلد الأول ، العدد الرابع (شوال ١٤٠٨ هـ / يوليو ١٩٨٨ م) .

مُعجم السفر لأبي طاهر السِّلفي

أ. عصام محمد الشنطي*

• المكان :

اعتنىٰ العرب إبَّان حضارتهم بتدوين تاريخ مدنهم ، لِمَا كان لها من أهمية عُمرانية واقتصادية ، وما تتمتع به من مراكز إشعاع فكري وثقافي . وزخر تراثنا بالمخطوطات التي سجَّلت تاريخ هذه المدن . غير أن بعضَها مما أشارت إليه المصادر والمظانّ ، لم يصل إلينا .

ومن هذه الكتب المؤلَّفة التي لم تصل إلينا كتاب « تاريخ الإسكندرية » الذي وضعه أحدُ علمائها في القرن السابع الهجري ، وهو منصور بن سليم . ولم يُنتدَب له باحث أو أكثر ، ليجمعوا ما توافر من النصوص المنقولة منه ، ومن ثم يعاد بناء هذا الكتاب المفقود من جديد .

ويبدو أن الباحثين كانوا أكثرَ اهتمامًا بتاريخ هذه المدينة في العهدين الإغريقي والروماني ، أما حقبتها العربية الإسلامية فنالها من عدم العناية ما وضعها في مصافّ التأخر والركود في أنشطتها العلمية وغير العلمية .

ولقد أحسنت منظمة « الإيسيسكو » في اختيار (الإسكندرية عاصمة الثقافة الإسلامية) ، في هذا العام (٢٠٠٨ م) ، ليُعاد اعتبار أهمية المدينة إليها ، بالكشف عن مدىٰ اتساع رقعة مشاركتها في الحضارة العربية الإسلامية ، وكيف زخرت هذه المدينة بعلماء استقطبوا الوافدين إليها من المشرق والمغرب ، للاستفادة من علومهم ، والأخذ

---

* خبير بمعهد المخطوطات العربية .

عنهم ، وتلقّي علومهم شفاهة وسماعًا وقراءة ، وهي أعلىٰ درجات أخذ العلم وتحصيله عن الشيوخ في ذلك الزمان .

ومن هؤلاء العلماء الذين سما طالعُهم ، وتميزّوا في الحديث النبوي خاصةً ، ونالوا مكانة عليا فيه ، شخصية جاءت من أصبهان ، بعد أن طافت الدنيا من أجل العلم ، وقرَّت في الإسكندرية مدة طويلة ، فنُسِبت إليها ، وعلا صيتها ، واستقطبت القاصي والدَّاني ، وبلغ تلاميذها الذين أخذوا عنها من الكثرة ما جاوز العدّ والإحصاء . وأصبح للسِّلَفِي مدرسة حديثية ، علىٰ وجه الخصوص ، مبنىً ومنهجًا ، عُرفت باسمه ، بجانب مدارس أخرىٰ عجَّت بها المدينة ، نذكر منها مدرسة أبي بكر الطُّرطُوشي ، الذي جاء من مدينة طُرطُوشة بالأندلس ، وبعد تطوافه في المشرق قرَّ في الإسكندرية ، قبل استقرار السِّلَفِي فيها . وأدركه السِّلَفِي أثناء مقامه بها ، وتعاصرا نحو تسع سنين .

لقد ترك هؤلاء العلماء للإسكندرية شهرة علمية واسعة ، وأثرًا واضحًا في الحركة الفكرية والثقافية ، بقي صداها علىٰ مدىٰ قرون الحضارة العربية الإسلامية التالية .

● المؤلِّف :

هو الحافظ أبو طاهر صدر الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السِّلَفِي من أصول فارسية ، ومن مواليد أصبهان ، في الجناح الشرقي من الديار العربية الإسلامية .

وحين حَطَّ رحاله في الإسكندرية كان قد بلغ من العمر السادسة والثلاثين . وكان قد نضج علمه ، واستقرَّ فيها نحو خمسٍ وستين سنة ، لم يخرج منها إلاّ مرة واحدة ، في أوائل وصوله إليها قاصدًا الفسطاط .

أما الفترة من ولادته إلىٰ أن وصل إلىٰ الإسكندرية ، فقد قضاها في طلب العلم . ورحل من أجله إلىٰ بلاد الدنيا ، ومشىٰ حافيًا للأخذ عن شيوخها علومًا مختلفة ، في

طليعتها الحديث النبوي ، توجُّهه الأول . وانتهىٰ إليه علوّ الإسناد مع الحفظ والإتقان ، فاستحق مرتبة « الحافظ » .

وبعد أن تَلَقّىٰ علومه في بلده أصبهان ، رحل إلىٰ بغداد ، وهو شابّ صغير ، ودرس فيها مع الحديث ، الفقهَ الشافعي واللغة ، وغادرها إلىٰ الحجاز للحج ، وعرَّج في طريقه علىٰ الكوفة ، سمع فيها من علمائها ، كما سمع من علماء مكة والمدينة . وعاد إلىٰ بغداد ثانية ، واستأنف فيها دراسته في الفقه واللغة . ثم خرج للبصرة في رحلة قصيرة ، ومن بغداد عاد إلىٰ المشرق ثانية ، فزار مدينة هَمَذَان ، وأقام في رباط من ربط الصوفية زامل فيه الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، وهو أخو حجة الإسلام أبي حامد ، وتردّد علىٰ مجالس وعظه ، ونشأت بينهما أُلفة ومودَّة .

وزار مدن الرَّيّ ودِينَوَر وقزوين ونَهاوَنْد ، وطاف بلاد أذْرَبَيْجَان ، ثم الجزيرة ، فزار آمِد ونصيبين وغيرهما .

وأقام في دمشق عامين ، سمع فيها من كثيرين وسمع منه كثيرون . وغادرها إلىٰ مدينة صور ، وقد كانت الحروب الصليبية في بلاد الشام محتدمة ، ومنها ركب سفينة حملته إلىٰ ثغر الإسكندرية . ولم يقم برحلاته إلاّ بقصد طلب العلم والأخذ عن شيوخه والسماع منهم .

اِبتدأ السِّلَفِي دروسه في داره ، وفي مساجد الإسكندرية . وكان قد تزوج بامرأة من المدينة ، وُصفت بالتقوىٰ والثراء . ثم بنىٰ له الوزير العادل أبو الحسن علي بن السلاَّر – الذي كان قريبًا منه ، متوافقًا معه في سُنّيته وشافعيته – مدرسةً غدت ذات شهرة عالية ، ومركزًا للعلوم الدينية السُّنّية ، وهو طابع المدينة عمومًا ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية الشيعية قائمة بمصر ، في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس .

وشهد صاحبنا الدولة الفاطمية بمصر وهي قوية . ثم شهد بدء انحدارها وانهيارها . ويُذكرَ أن الرجال الرسميين في الدولة كانوا شيعة ، وهو سُني شافعي كما قلنا ، فكان يغضي عن مذهبهم ، ويحرص على صلات طيبة تربطه بهم ، دون أن يخوض في مناقشات دينية أو مذهبيّة . وكان يتخلّص من الحرج بسياسته الحكيمة دون أن يؤذي شعورهم .

ولكنّ « معجم السَّفَر » لا يخلو من غمز فيه يأتي في سياق كلامه . فحين ترجم لابن الفرج الكَرْجيّ ، وهو من مشايخ الصوفية ، يقول : سُعي به غير مرّة ، ونُفي من موضع إلى موضع . وسببه أنه كان يذكر بالليل ، ويَذكر الصحابة ، ويخصّهم بالرحمة والرِّضْوَان ، وكان يشقّ ذلك على الشيعة ، فيسعَوْن به بما لا أصْل له ، بُغضًا فيه .. والله يحميه عنهم .

وشهد نشأة الدولة الأيوبية المنتصرة للسُّنَّة ، ونَذكر أن صلاحَ الدين وأبناءَه ووزراءَه وحاشيته ، تقديرًا لمكانة السِّلَفِي العلمية ، زاروا الإسكندرية إبّان حكم الأيوبيين بمصر ، وأمضوا فيها شهر رمضان ، يسمعون منه دروسه في الحديث ، وهم فرحون به ، وهو فرحٌ بهم .

لقد أمضى السِّلَفِي في الإسكندرية نحو خمس وستين سنة ، لم يغادرها إلاّ مرة واحدة إلى الفسطاط ليأخذ عن علمائها ، كما اتخذ له حلقة وسط حلقات جامع عمرو بن العاص يدرّس فيها الحديث ، وأقام بها نحو ثلاث سنوات .

وبالثغر – كما كان يسمّيها – توفي ودُفن عن نحو مائة سنة ، قضى نحو ثلثها في بلده ورحلاته ، وثلثيها في الإسكندرية التي ألّف فيها معظم كتبه ، دون أن يشغله التدريس عن التأليف .

كان واسعَ الاطّلاع ، متفرّغًا لعلمه ، ومغرمًا بجمع الكتب ، وكان يقتني مكتبة ضخمة ، ويتتبع تركات الكتب التي تُباع بعد وفاة أصحابها ، فيشتري منها الكثير

ليضمه إلى مكتبته .

وكانت له صلات صداقة بورّاقي الإسكندرية ، يتردّدون على مدرسته للأخذ عنه ، ويتردد عليهم لانتقاء الكتب وشرائها ، أو استنساخها . وفي « معجم السَّفَر » يصف ورّاقًا جلّد له مجلدات ، ونَسَخَ له جزئيات ، ويصف آخر بوِراقته الحسنة ، غاية الجودة . وثالثًا في مكة كان عارفًا بالكتب وأثمانها . وفي كتابه طُرْفة سمعها من قيروانيّ لها صلة بالوِراقة ، وهي قوله : عملتُ في بيتي حبرًا فاسودّ كلُّ ما في البيت ، سوى الحبر ، وقوله : من كثرتْ غلطاته حسنت كشطاته . ولم يُشاهَد إلاّ بين يديه كتاب يطالع فيه . ولم يُعرَف عنه أنه خرج لبستان أو فرجة غير مرة واحدة .

وبقي يدرّس ، وهو في سنِّه العالية ، وظلَّ حاضرَ الذهن ، قويّ الحافظة إلى غروب شمس يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخِر من سنة وفاته ، وهو يُقرأ عليه الحديث ويُصحِّح . وفي فجر يوم الجمعة التالي ، بعد أن صَلّى صلاة الصبح ، أسلم روحَه لبارئها .

● **الكتاب :**

يمكننا أن نكسر مراحل حياة السِّلَفِي إلى ثلاث ، مرتبطة بما وَضع من المشيخات الثلاث :-

فالأولى : مرحلة أصبهان ، مسقط رأسه . وقد ألّف لها ، وهو – بعدُ – فتىً ، مشيخة صباه وشبابه ، وهو معجم لشيوخه الذين أخذ عنهم في بلده ، وجاء في مجلّدة ذكر فيها نحو ست مائة شيخ .

والثانية : مرحلة بغداد ، وقد وضع لها المشيخة البغدادية ، أثبتَ فيها شيوخه الذين أخذ عنهم ، وهو كبير ، بلغ خمسة وثلاثين جزءًا .

أما المرحلة الثالثة : فهي مشيخته التي أرّخ فيها لشيوخه في أسفاره وتجواله ، وفي

مقامه بالإسكندرية ، وأسماه « معجم السَّفَر » مع أن كثيرًا من محتواه يعود إلىٰ شيوخه وتلاميذه ، وهو قارٌّ بالإسكندرية . وواضح أنه بدأ في وضع مادة الكتاب في جذاذات ، وأطلق عليها هذا العنوان في وقت مبكر ، قبل استقراره فيها ، خاصةً أنه كان في نيّته أن تكون معبرًا إلىٰ بلاد أخرىٰ ، علىٰ نحو ما سنبيّن بعد قليل .

والكتاب خالٍ من مقدّمة يكتبها – عادة – المؤلِّف . وجاء في آخر النصّ العبارة التالية : آخر ما وُجد بخط [المؤلف] في جذاذات .

وهو مرتّب علىٰ الحروف الهجائية علىٰ الحرف الأول من الاسم ، ولم يُعْتدّ في ترتيب المترجَمين باسم الأب ، أو الجد ، أو الجد الأعلىٰ . وابتدأ المعجم بحرف الألف ، فيمن اسمه أحمد ، وانتهىٰ بحرف الياء . وسبق التراجم عبارة واحدة لها دلالتها : محمد الأصبهاني (رض) فبيّضتها ورتّبتها كما تجيء ، لا كما يجب . ونتساءل مَن هو محمد ، ونعلم أن اسمه أحمد لا خلاف فيه .

والراجح أن أحدَ تلاميذه ، وهو الذي جمع الجذاذات ، بخطّ المؤلف ورتّبها بالحرف الأول ، وربما كان ذلك بعد وفاة المؤلِّف ، الأمر الذي يفسِّر خلوَّ الكتاب من المقدّمة .

رصد السِّلَفِي في معجمه حركاته وسكناته . وذكر مَن لقي في أسفاره من الشيوخ والتلاميذ . وهو بصيته في علمه ، ونشاطه في الثغر ، أكسب المدينة شهرة واسعة ، فكان عالِمَها في القرن السادس الهجري دون منازع . الكلُّ يقصدها للقاء السِّلَفِي . وقيل في أخباره إنه حين زارها كانت نيّته بعد الأخذ عن مشايخها ، خاصة شيخها ابن الحطَّاب الرَّازي ، أن ينفذ إلىٰ بلاد المغرب والأندلس للأخذ عن شيوخها من أصحاب ابن عبد البَرّ القرطبي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) ، ثم العود إلىٰ بلاده أصبهان . وإذا به يَقَرُّ في الإسكندرية ، وإذا بالمغاربة والأندلسيين يفدون إليه بدلًا من أن يَفِد إليهم . ومعجم السَّفَر زاخر بأخبار هذه الوفود ، فُرادىٰ وجماعات ، وأخبار بلادهم . بل كان الوافدون

إليه من كلِّ حدب وصوب ، من الديار الإسلامية ، يقصدون علمه الذي تمكَّن فيه ، فأصبح من العلماء الأعلام .

وبلغ من وفرة ما سجَّله السِّلَفِي من وافدي الأندلس في كتابه ، وذكر أخبارهم ، أن استخرج منه إحسان عباس كتابًا أصدره بعنوان : أخبار وتراجم أندلسية مستخرَجة من « معجم السَّفَر » .

وكان منهجه في الكتاب أنه إذا روىٰ حديثًا أو خبرًا أو غيرهما ، فإنه يعقِّب علىٰ راويه بترجمة وافية ، ومعلومات تتّسم بالشمول ، من مدح أو نقد . كما كان يحرص علىٰ ذكر تاريخ ولادته ومكانها ووفاته وشيوخه الذين أخذ عنهم .

وعلىٰ سبيل المثال يقول بعد رواية خبر عن الرسول الكريم (ﷺ) : أبو مخلد هذا كان من علماء المسلمين مذهبيًّا خلافيًّا لغويًّا نحويًّا . اجتمعنا ببغداد ونَهاوَنْد وسَاوَه ، وقد ولي قضاء مدينة الرسول (ﷺ) مدّة ، وحضرتُ مجلسَ وعظه بنَهاوَنْد ، واستحسنتُ وعظه .

ولكننا نجد – علىٰ قِلَّة – ترجمةً لأحدهم دون ذكر متنٍ ما قبل الترجمة ، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه لم يترك في الكتاب شاردة ولا واردة إلاّ ذكرها ، فزخر بالفوائد والمعارف المختلفة .

ولم يغفل السِّلَفِي في كتابه ما يتصل بحياته الخاصة . يحدثنا عن زوجه التي اقترن بها في الثغر ، وأنها دِيِّنة نقيَّة . ويحدثنا عن والدها الفاضل ، وبعض مَن يمتّ لها بِصلة قرابة . هكذا نرىٰ في الكتاب أشتات أخبار مبثوثة ، تظهر بين الفينة والأُخرىٰ ، وتُعين الباحث علىٰ الدراية بحركته وظروفه الخاصة ، وبالتالي تكشف عن عناصر الحياة الاجتماعية في هذه المدينة في عهده .

ولا يخلو كتابه من الحديث عن النشاط العلمي في مدينة الفسطاط علىٰ سبيل المثال .

ففي ثنايا تراجمه لشيوخه وتلاميذه فيها ، تحسّ بحركة دءوبة لحلقات الدرس التي كان يَعجّ بها جامع عمرو بن العاص ، وفي دور العلماء وأماكن اجتماعهم .

ويكشف الكتاب عمَّا كان يميل إليه السِّلَفِي من أنواع الثقافات الأخرىٰ ، مثل كثرة ورود أخبار المتصوفة وكراماتهم . واحتفاله بمن يفِدُ عليه منهم ، من المغرب والأندلس وغيرهما . يرحِّب بهم أيَّما ترحيب ، ويأخذ عنهم ما يُرضي شهيته نحو التصوف . وهي بذرة نشأت فيه حين زار مدينة هَمَذَان ، وأقام في رباط من ربط الصوفية ، وأخذ – في مجالس وعظ – عن الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، علىٰ نحو ما فصّلنا في ذلك .

ويبدو احتفاله أيضًا بالشعر والشعراء ، فهو يَسْعَد بلقائهم ، ويأخذ عنهم بعض أشعارهم ، أو أشعار غيرهم ، ويهتمّ بتقييدها مسلسلة كرواية الحديث النبوي . وكان هو نفسُه شاعرًا ، يتذوّق الشعر ، ويحكم عليه مُشيدًا أو ناقدًا ، ويُكثر من أخذ أشعار الحكمة والتدبّر والزهد وفضائل الأخلاق وصالح الأعمال .

ولكنه لم يكن يأنف أن ينقل إلينا أشعارًا في الغزل العفيف ، وأشعارًا شعبية تجاوزت بحور الشعر وأوزانها . ومن الأشعار ما كانت في مدح السِّلَفِي نفسه . يقول عند ذكر أحد أدباء صقِلّية : وله فيَّ قصائد . وآخر : وله إليّ قصائد ، وقد أجبته عنها .

كما يَذكر ، وهو في دمشق ، أن الشاعر ابن صَدَقة الدمشقي المعروف بابن الخيَّاط أنشده لنفسه شعرًا . ويصفه السِّلَفِي بشاعر الشام في عصره ، وأن أهلها يفضلونه علىٰ الوأواء . وقد انتخب صاحبنا من ديوان شعره مجلَّدة لطيفة احتفظ بها ، وجميعها أنشدها الشاعر من لفظه ، في دار السُّمَيْساطي التي كان السِّلَفِي نازلًا بها .

وفي الإسكندرية كانت له صلة بشاعر الثغر في ذلك الوقت ، وهو أبو المنصور ظافر الحَدَّاد ، الذي كتب لصاحبنا من شعره غير قصيدة بخطِّه ، وكتب السِّلَفِي من شعره بخطه . وكاتبه صاحبنا مرة ، فأجابه بشعر احتفظ السِّلَفِي به .

ولم يقصر حديثه عن الأدب بعامة علىٰ الحركة الشعرية في الإسكندرية وغيرها في القرن السادس الهجري ، بل تعدّاها إلىٰ أن يترجم لأديب وكاتب مقامات مجهول لدينا ، لا نكاد نعرفه إلاّ من حديث السِّلَفِي عنه . يقول : وقد أنشأ مقامات علىٰ طريق البديع الهَمَذَاني والحريري والبصري ، وسمعناها عليه بالإسكندرية .

وامتدت صلاته بعدد من نساء الإسكندرية المشتغلات بالعلم أو الأدب أو الشعر ، ممن أخذ عنهنّ أو أخذنَ عنه ، ويترجم لإحداهن وتدعىٰ عائشة التي كانت تحدِّث ، وهي ابنة محدِّث وأخت محدِّث . وكانت صالحةً ، قَرأ عليها سنة ٥٣٤ هـ . ولها أختٌ أخرىٰ محدِّثة واسمها خديجة ، وتدعىٰ مليحة ، روىٰ عنها السِّلَفِي كما روىٰ عن أختها .

ومن شواعر الإسكندرية المجيدات تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري ، وكانت تدعىٰ ست النعم . ويحكم السِّلَفِي علىٰ شعرها أنه جيد وذو معانٍ حسنة ، وقد مدحته بقصائد كثيرة ، ويقول : لم أرَ قط شاعرةً سواها .

واتَّسم السِّلَفِي عند الخاصة والعامة بأخلاق العلماء ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي « معجم السَّفَر » تاب علىٰ يديه غيرُ واحد ، يقول في أحدهم : كان يحفظ من الشعر كثيرًا ، وكانت له صبوة (يشرب الخمر) ، ثم تاب علىٰ يديّ .

أما العامة فكانوا يعدّونه وليًّا صالحًا ، يزورونه علىٰ أمل أن ينالوا ما يفكّ كربتهم ، فلا يخيِّب أملهم في الدعوة لهم .

ومن فوائد كتابه أنه يبيِّن فيه أسلوب التعليم الذي كان متعارفًا عليه . فهو أستاذ مدرسته ، يعاونه عدد من المعيدين . وتحدث مرة عن معيد لازمه في مدرسته ، ولم يفارقه إلاّ بوفاته بعد سبع سنين ظلَّ فيها معيدًا في مدرسته . ويفصِّل السِّلَفِي في أعمال المعيد الأخرىٰ ، كأن يؤمّ الناس في المدرسة في الصلوات الخمس . وكان لمدرسته مؤذِّن يؤذّن للناس في أوقات الصلاة . وهو مؤذن كان في دار الطُّرْطوشي ، وجاء لمدرسة السِّلَفِي

بعد وفاته .

وكان السِّلَفِي يلقي دروسه في العلوم الدينية ، في الحديث والفقه والتفسير ، كأن يَقرأ نصًّا أو كتابًا من الكتب المعتمدة ويشرحه ، أو يملي أماليه في الحديث ، وكان يطلق عليها « الأمالي الحديثية » ، ويخص لها يوم الجمعة من الأسبوع . وأحيانًا يَقرأ أحدُهم عليه كتابًا بعينه ، وهو يسمع ويصحِّح ويعلّق . وكان يُعنىٰ بالعلوم الأخرىٰ التي تتصل بها كالتاريخ وسيرة ابن هشام ، بوجه خاص .

وعُرف ، وهو يدرّس ، بهيئته الوقور ، خاصة في تدريسه الحديث . وأثناء الدرس لا يشرب ماءً ولا يبصق ، ويجلس معتدلًا في جلسته ، ولا يبدو له قدم . وفي الكتاب نرىٰ كيف زَجر وزير مصر وأخاه لأنهما تحدّثا أثناء دروس الحديث ، فللحديث عنده حُرمة خاصة .

أما تلاميذه فمنهم المنتظمون من الصبيان المبتدئين ، ودروسهم يومية ، ما عدا يوم الجمعة . أما الشبان والرجال من هواة العلم فهم غير متفرغين . و « معجم السَّفَر » زاخر بهؤلاء ، فكانوا نخبة من العلماء والشعراء والأدباء ورجال الفكر والمهندسين ، من الإسكندرية وغيرها ممن يَفِدُ إليه من الشرق والغرب . ومنهم كذلك ولاة وأمراء ووزراء وقضاة وجنود ومتصوفة وزُهَّاد وتُجَّار وعلماء ممن كانوا يجيئون للإسكندرية ذات الميناء التجاري المشهور . وكانت مدد تدريسهم متفاوتة . وقد ترجم السِّلَفِي لبعضهم في معجمه .

ومما يتميَّز به الكتاب هذا الخلط بين ذكر شيوخه وتلاميذه . فكثيرًا ما يَفِدِ إليه العالِم ليأخذ عنه ، فيعطيه السِّلَفِي مما عنده . ولا يتردّد في أن يأخذ عنه ما عنده . وعبارة : وقد كتب عني فوائد ، وعلّقت عنه جملة صالحة من .. ، أو نحوها ، شائعةٌ في كتابه . وكان يمنح الإجازات لمن يستحق ، يقول في أحدهم : وسمع عليّ كثيرًا ، وسألني في الإجازة

له ولابنه ، فأجزتُ لهما .

وكنا قد أشرنا فيما مضىٰ إلىٰ كثرة تلاميذه من الوافدين إليه من أهل المغرب والأندلس خاصةً ، يقصدونه مارّين بالإسكندرية وهم في طريقهم للحج ، أو عائدين إلىٰ بلادهم . نذكر منهم علىٰ سبيل المثال ، النابُلي (نابُل في تونس) ، والتَّاهَرْتي (تَاهَرْت مدينة بالمغرب) ، وغيرهما كثر . وكان يحرص علىٰ الدقة ، شأنه شأن المحدّثين ، فينبّه إلىٰ الفرق بين النابُلي والبابلي والناتلي ، إشارة منه إلىٰ باب التصحيف والتحريف الواسع .

ووفَّر لنا الكتاب بعض الفوائد العلمية ذات القيمة ، كقوله في روايته عن المَالِطي : كان القائدُ يحيىٰ صاحب مَالِطة ، قد صَنع له أحدُ المهندسين صورة يَعرف بها أوقات النهار بالصنج .

كما وفَّر لنا ، في ثنايا رحلاته وتضاعيفها ، فوائد جغرافية تتصل بالأماكن التي سمع فيها الحديث أو الخبر . نراه يذكر أسماءَ قرىٰ وبلدان لا نجدها في المعاجم الجغرافية المتخصّصة ، يقول : سمعتُ بـ « ضُمَيْر » ، علىٰ مرحلة من دمشق . وفي موضع آخر يذكر تيغان قرية من قرىٰ طرابلس الغرب . ويذكر جامع شِيفيا ، وهي قرية علىٰ سبعة فراسخ من واسط . ومولده بـ « شُبْرُب » ، وهي من نظر بلنسية (بالأندلس) ، وأهْر من مدن أذْرَبَيْجَان . وعند الزَّرهوني يقول : وزَرْهون جبل بقرب فاس فيه أُمّة لا يُحصىٰ عددهم . ويميّز بين الأماكن المتفقة تسميتها ، يقول : والباجي هذا من باجَةِ إفريقيّة ، لا من بَاجَةِ الأندلس .

● خاتمة :

يتَّضح من البحث أننا كسرنا مباحثه علىٰ ثلاثة :

الأول : خصصناه ، في حديث مكثف ، لمدينة الإسكندرية التي عاش السِّلَفِي فيها ثلثي حياته ، فنُسب إليها . وكان في القرن السادس الهجري عالِمَها الأول . واستطاع أن

يؤسس مدرسة حديثية ، مبنىً ومنهجًا . واستقطب الوافدين إليها من أقصىٰ المشرق والمغرب . وكان تأثيرُه في الحركة العلمية والفكرية واضحًا . وترك للإسكندرية – مع غيره من العلماء – صدىٰ حركة فكرية وثقافية بقي علىٰ مدىٰ قرون الحضارة العربية الإسلامية التالية .

والثاني : عن المؤلِّف . وكانت حياته حافلة ، وله ترجمات في المصادر مستفيضة ، لم نذكر منها إلاّ ما يمتّ بِصلة بكتابه « معجم السَّفْر » .

عرضنا لأسفاره ورحلاته ، وحدّدنا مسارها ، وأتينا علىٰ عناصر ثقافته المتوجهة إلىٰ الحديث ، في المقام الأول ، والفقه واللغة والأدب . وكشفنا عن ميله للتصوّف والمتصوفة . وانتهىٰ إليه في الحديث علو الإسناد ، والحفظ والإتقان ، فاستحق لقب « الحافظ » ، وهي مرتبة علمية عالية .

وذكرنا مراكز تعلّمه ، وأولها بلدة أصبهان . ثم رحلته إلىٰ بغداد والكوفة ومكة والمدينة والبصرة وهَمَذَان والرَّيّ ودِينَوَر وقزوين ونهاوَنْد وبلاد أذْرَبَيْجَان ، وفي الجزيرة آمِد ونصيبينَ ، ثم دمشق . ركوبه سفينة من صور إلىٰ الإسكندرية ، التي زار وهو فيها الفسطاط . وكان في نيّته اختراق المغرب والأندلس للأخذ عن شيوخها ، والعودة إلىٰ بلده أصبهان .

ولكنه قَرَّ في الإسكندرية لدواعٍ عَرضت له ، منها وفاة شيخها الأول ابن الحَطَّاب الرَّازي ، الذي أخذ السِّلَفِي عنه ، فقام صاحبنا بملء فراغه الشاغر ، واقترن بزوجة من الإسكندرية . وبَنىٰ له الوزير العادل أبو الحسن علي بن السلاَّر مدرسة نالت شهرة عالية . كلُّ هذه الأسباب مجتمعة جعلت السِّلَفِي يقيم فيها أمدًا طويلًا إلىٰ أن توفي بها ، ودفن في ثراها .

كان السِّلَفِي سُنِّيًّا شافعيًّا . وبحكمته لم يصطدم بالرجال الرسميين من الشيعة إبّان

الدولة الفاطمية في مصر . ولقي مَجْدًا فائقًا في عهد الدولة الأيوبية المنتصرة للسُّنَّة . ولقَدْرِه العالي زاره صلاح الدين الأيوبي وأبناؤه ووزراؤه وحاشيته ، وقضوا شهر رمضان في صحبته ، يسمعون منه دروسَ الحديث النبوي .

كان واسع الاطِّلاع ، متفرغًا لعلمه ، ومغرمًا بجمع الكتب . وكان يقتني مكتبة ضخمة . ويتتبع تركات الكتب التي تُباع بعد وفاة أصحابها فيشتريها ليضمها إلىٰ مكتبته . وكانت صلاته بورّاقي الإسكندرية قوية ، يأخذون عنه العلم ، ويتردد علىٰ دكاكينهم لشراء الكتب أو استنساخها .

أما المبحث الأخير ، فهو الحديث عن كتابه « معجم السَّفَر » عرضًا وتحليلًا ، وهو المشيخة الثالثة التي ألَّفها . وكان قد وضع مشيختين قبله : مشيخة في أصبهان ، ذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم في صباه وشبابه ، والثانية المشيخة البغدادية ، وهو كبير ، في خمسة وثلاثين جزءًا .

وَصَلَنا « معجمُ السَّفَر » في هيئة جذاذات بخط السِّلَفِي ، ولا شك في أنه أطلق عليه هذا العنوان قبل أن يستقرّ في الإسكندرية التي كانت – بعد الأخذ عن علمائها – معبرًا إلىٰ الفسطاط وبلاد المغرب والأندلس .

واحتوىٰ المعجم علىٰ أخبار المؤلِّف في أسفاره ورحلاته ، وكذلك ذِكْر شيوخه وتلاميذه في « الثغر » كما كان يسمّيها . والراجح أن الذي جمع جذاذاته ورتّبها علىٰ حروف المعجم أحدُ تلاميذه بعد وفاته . ويقوّي هذا الرأي خلوُّ الكتاب من مقدمة .

رصد السِّلَفِي في معجمه حركاته وسكناته ، وذكر متون أخباره ، وتراجم وافية لرواتها . وحدّثنا فيه عن حياته الخاصة وزوجه ووالدها وبعض أقاربها ، وكشف عن كثير من عناصر الحياة الاجتماعية في « الثغر » في عهده .

وتميَّز الكتاب ببيان الحركات العلمية في البلاد ، ووَصَفَ حلقات جامع عمرو بن

العاص في الفسطاط . وحفل بالمتصوفة الوافدين إليه ، واهتم بالشعر والشعراء . ويقيِّد كثيرًا من أشعارهم وأشعار غيرهم ، ومنه نتبين صلته ، وهو في دمشق ، بشاعر الشام ابن الخَيَّاط ، وبشاعر الإسكندرية ظافِر الحَدَّاد . وامتدت صلاته بعدد من نساء الإسكندرية المحدّثات والشواعر ، وأخذ عنهن ، ومدحنه .

ويكشف المعجم عن نظام التعليم في عهده ، وأسلوب أدائه لمتلقي العلم من صبيان صِغار أو هواة كِبار . وكان أداؤه دروسَه مثالًا للالتزام بآداب المهنة ، خاصة في « أماليه الحديثية » ، التي خصَّص لها يوم الجمعة من الأسبوع .

ويظهر في الكتاب بعضُ الفوائد العلمية ، وذِكْرُ بعض الأماكن الجغرافية التي لا نجد ذكرًا لها في المعاجم الجغرافية المتخصّصة . وضربتُ أمثلة مختلفة للتدليل على هذه الفوائد ، مستمَدَّة من هذا الكتاب الحافل .

المصادر والمراجع :

- أخبار وتراجم أندلسية مستخرَجة من « معجم السَّفَر » / تحقيق إحسان عبَّاس ـ بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٣ م .

- أدوات تحقيق النصوص : المصادر العامة /عصام محمد الشَّنْطِي ـ ط١ ـ الإسماعيلية : مكتبة الإمام البخاري ، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م .

- الأعلام / خير الدين الزِّرِكْلِي ـ ط١٠ ـ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٢ م.

- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي / جمال الدين الشَّيَّال ـ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٥ م .

- سيَر أعلام النبلاء / الذهبي ؛ تحقيق بشأر والسرحان ـ ط ١ ـ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

- شذرات الذهب / ابن عماد الحنبلي ـ القاهرة : مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ هـ .

- طبقات الشافعية الكبرى / تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكي ؛ تحقيق عبد الفتاح الحلو ، محمود محمد الطناحي ـ ط١ ـ القاهرة : عيسى الحلبي ، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

- فهرس الفهارس والأثبات / عبد الحي بن عبد الكبير الكَتَّابي ؛ اعتناء إحسان عبَّاس ـ ط٢ ـ بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م .

- معجم السَّفَر / أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفِي ؛ تحقيق عبد الله عمر البارودي ـ بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٣ م/ ١٤١٤ هـ .

- معجم المؤلِّفين / عمر رضا كحَّالة ـ ط١ ـ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م .

- وَفَيَات الأعيان / ابن خَلِّكان ؛ تحقيق إحسان عبَّاس ـ بيروت : دار صادر ، ١٩٦٨ م .

أضواء على حياة أبي بكر بن العربي المتأخر

أ. العزيز الدائز الفرياطي*

● **(اسمه ونسبه وأسرته ، مولده ، شيوخه ، رحلاته ، تلاميذه ، آثاره ، وفاته)**

كان ابن العربي المتأخر رجلًا زاهدًا راغبًا عن الشهرة ، عازفًا عن الدنيا وأهلها ، وأراد لنفسه أن يكون كذلك ؛ وكان بوسعه ـ لو أراد ـ أن يشتهر ، ويذيع صيته ، بل كان منه على طرف الثمام أن ينافس أصحاب الجاه والرياسة والمناصب لغير سبب . فهو من بيت علم ورياسة ، فـ«بيت ابن العربي» له مكانة عظيمة في إشبيلية بالأندلس ، وتولى بعض رجاله مناصب سامية في دولة المرابطين ، وليس يعجزه أن يدرك بعض ما أدركه سلفه .

ثم هو كذلك قد رحل إلى المشرق ، وطوَّف بالمراكز العلمية فيه ؛ بدءًا بالإسكندرية ، ثم الشام ثم القاهرة ، ثم الحجاز ثم بغداد والموصل ، ولقي المشايخ الكبار المشندين بهذه المدن ، وكان بوسعه أن يعود إلى الأندلس فيتصدر للإقراء والتدريس ؛ ويشتهر ذكره ، ويذيع صيته ، ويصبح مطمح أنظار الطلاب ، ومحل عناية رجال الدولة ، لا سيما أن الرحلة إلى المشرق ولقاء المشايخ والأخذ عنهم آنذاك كانت كافية لأن يتبوأ صاحبها في المغرب والأندلس المناصب العليا والمنازل السامية ، مثل القضاء والشورى والحسبة ونحوها ، وأشهر مثال لذلك أبو الوليد الباجي ، والقاضي أبو بكر بن العربي ، وأبو علي الصدفي وغيرهم ممن سبقهم أو تأخر عنهم ، ولكن صاحبنا لم يكن من ذلك في شيء ، فهو ـ وإن كان رجع إلى الأندلس ودرَّس زمنًا يسيرًا ـ لم يلبث أن دعاه داعي

(*) طالب ماجستير بكلية الحديث . الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة .

الشوق إلى المشرق ليجاور بالحرمين ، ثم ليحط رحاله بمدينة الإسكندرية ، ويعيش فيها وحيدًا حتى يدركه الموت وهو بعيد عن أهله ، غريب عن وطنه .

وفيما يلي نبذة يسيرة مما تيسر جمعه من أخباره ، وهي قليلة بلا شك ؛ فقد ضاع الكثير منها ، ونأمل أن تكون بعض المخطوطات محتفظة لنا بمعلومات عنه مثل مسلسلات صاحبه ابن الطيلسان [1] ، وغيرها .

● **اسمه ونسبه وأسرته :**

هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربي المعافري ، أبو بكر . كذا نسبه ابن الأبار في التكملة [2] .

وهو من بيت القاضي أبي بكر بن العربي ، الإمام المفسر المعروف ، فهو من بيت علم ورياسة وجلالة ، ومن أسرة علمية شهيرة لها سمعتها وخطرها في الأندلس وفي إشبيلية بالذات .

وقد كان وجه قرابته من القاضي أبي بكر ـ بالنسبة لي ـ محل تساؤل ؛ هل هو من أبناء عمه ، أو من أحفاده أم غير ذلك ؟ إلا أن الحافظ المقري أمدنا بحل لهذا الإشكال فصرح بأنه حفيد للقاضي أبي بكر بن العربي ، وتبعه الأستاذ سعيد أعراب ـ رحمه الله ـ في كتابه عن ابن العربي [3] .

ثم تبين لي أن المقري اعتمد على الذهبي في « تاريخ الإسلام » الذي قال عنه : «من

(١) وهي مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط ، ولم يتسن لي الاطلاع عليها.

(٢) انظر : ترجمته في التكملة لابن الأبار ٢ / ١١٤ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣ / ٥٢٥ (٤٨٢) ، ونفح الطيب للمقري ٢ / ٦٢٦

(٣) انظر :كتاب مع القاضي أبي بكر بن العربي ، سعيد أعراب . ص ١١٦

أقارب القاضي أبي بكر بن العربي» ، وكتب فوقها بخطه «حفيد» كما بينه المحقق في الهامش[١] .

ومهما يكن ، فما ذكره الذهبي والمقري ظاهر ، وليس هناك ما يرده أو يبعده ، على أن صاحبنا روى - في جزء فيه خمسة أحاديث من مروياته[٢] - من طريق القاضي أبي بكر ، ولم يشر إلى كونه من أجداده ، كأن يصفه بـ :«جدنا» أو «جدي» أو نحو ذلك .

أجل ، لم يشر إلى شيء من هذا ، وربما أعرض عنه لكونه معلومًا لدى السامعين ، أو لأنه لا يرضى لنفسه أن يفاخر بأجداده .

وكذلك نجد ابن الأبار ـ الذي يرجع إليه الفضل في التعريف به ـ اكتفى بقوله : «من بيت القاضي أبي بكر» ، فهل كان يقصد بذلك أنه من أحفاده أم كان هو الآخر لا يعرف سوى أنه من أسرته ؟ يؤيد الاحتمال الأخير أن ابن الأبار أخذ مواد هذه الترجمة من ابن الطيلسان كما صرح في نهايتها ، فتكون معرفته بهذا الرجل غير قوية بحيث لم يلقه أو يكاتبه .

ومن المناسب أن نشير إلى بعض أعلام هذه الأسرة بإيجاز ، فمنهم :

ـ عبد الله بن محمد بن عبد الله ، أبو محمد الأندلسي ، ابن العربي الأب ، تلميذ ابن حزم ، والد القاضي أبي بكر ، استوزره بنو عباد ملوك إشبيلية فحظي عندهم ، واشتهر أمره ، وصار له رياسة (٤٣٥ـ٤٩٣هـ) [٣]

(١) انظر :تاريخ الإسلام للذهبي ١٣ / ٥٢٥

(٢) سيأتي التعريف به في آثار ابن العربي صاحبنا.

(٣) انظر : مطمح الأنفس لابن خاقان ١ / ٢٩٧ ، و مختصر تاريخ دمشق ٤ / ٣٦٠ ، والسير للذهبي١٩ / ١٣٠

ـ ولَدُه القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله ، ابن العربي ، الإمام المشهور ، صاحب المصنفات الكثيرة ، وهو أشهرهم ذكرًا وأبعدهم صيتًا (٤٦٨ـ٥٤٣هـ)[١]

ولهذا عدة أولاد منهم :

١ ـ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي ، أبو محمد ، توفي سنة (٥٤١هـ) يوم استولى المرابطون على إشبيلية ، في حياة أبيه أبي بكر .

قال ابن الأبار : «وكان من أهل النباهة والجلالة ، معنيًّا بالرواية وسماع العلم ، وجيهًا بذاته وسلفه» . [٢]

٢ـ عبد الله بن العربي ، أبو محمد(ت ٦٣٧هـ) بمراكش ، قال ابن الأبار : « تلبس بالدنيا . ولم يكن يعرف الحديث» . [٣]

ومما يستغرب حقًّا أن الأستاذ سعيد أعراب مؤلف كتاب «مع أبي بكر ابن العربي» ، لم يذكر هذا الابن ولا أشار إليه ، مع تأخر وفاته ، وترجمة ابن الأبار والذهبي له .

٣ ـ عبد الرحمن بن العربي ، أبو الحسن . لم أقف على وفاته .

له سماع من أبيه ، وجماعة من شيوخ الأندلس ، قال ابن الأبار : «وكان له اعتناء بسماع العلم ومداومة عليه ، ولم يبلغ مبلغ التحديث في ما أحسب ، وقد روى عنه أبو الحسن بن فيد القرطبي » [٤].

(١) انظر : الصلة لابن بشكوال ٢ / ٥٥٨ ، والسير للذهبي٢٠ / ١٩٧

(٢) التكملة لابن الأبار ٢ / ٢٥٩

(٣) التكملة لابن الأبار ٢ / ٢٩٧ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٤ / ٢٤١ ، والأعلام للمراكشي ٨ / ٢١٥

(٤) التكملة ٣ / ٢٥ ـ ٢٦

٤ ـ أحمد بن العربي ، ذكر في بعض المصادر عرضًا ، وهو جد صاحبنا حسب ما تقدم عن الذهبي والمقري ـ فهو محمد بن عبد الله بن أحمد ابن القاضي أبي بكر محمد بن العربي .

● مـولده :

وكان مولده بإشبيلية في جمادىٰ الآخرة من سنة ٥٤٢هـ كما ذكر هو نفسه لتلميذه ابن وردان ، ونقله الدمياطي في معجمه [١] .

● شيوخه :

من المؤكد أن يكون لأبي بكر بن العربي المتأخر مشيخة كبيرة ، من مسندي الأندلس والمغرب والمشرق الإسلامي كما تنبئ بذلك رحلاته المتعددة ، وحرصه الشديد علىٰ الطلب حتىٰ أواخر عمره ، والظاهر أنه لم يخرج لنفسه مشيخة أو معجمًا ، ولا خرجه له أحد الآخذين عنه ، فضاعت بذلك فوائد كثيرة ، وبقينا عالة ـ في الوقوف علىٰ أخباره ـ علىٰ ما ذكره ابن الأبار في ترجمته ، إضافة إلىٰ ما ورد في الجزء الصغير الباقي من مروياته، ويمكن أن نصنفهم علىٰ قسمين : شيوخه بالأندلس الذين أخذ عنهم في بلده ، ثم شيوخه الذين لقيهم وأخذ عنهم في رحلاته المتعددة بالمشرق .

أولًا : شيوخه في الأندلس :

١ ـ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي المطرف : عبد الرحمن بن سعيد ، أبو القاسم القرطبي المسند المعمر ، يعرف بـ «ابن جُرْج» (٥٢١ ـ٦١١هـ) [٢] ، ويعتبر ابن جُرْج هذا ، والشَّقُوري الآتي في عداد أصحابه كما يقول ابن الأبار .

(١) معجم شيوخ الدمياطي (خ)

(٢) انظر ترجمته في : التكملة لابن الأبار ١ / ٩٢ ، والذيل والتكملة ١ / ٤٤٨ ، والسير للذهبي ٢٢ / ٣٠ ، وتاريخ الإسلام ١٣ / ٣١٠

٢ ـ القاسم بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي ، الشيخ الفقيه ، الحسيب المحدث المقرئ المعروف بابن الطيلسان(٥٧٥ـ٦٤٢هـ) [١] روىٰ عنه في هذا الجزء .

٣ ـ قاسم بن محمد بن مبارك الأموي بن الحاج أبو محمد الزقاق (ت بعد ٥٧٠هـ) [٢] أخذ عنه ببلده قراءة نافع كما يقول ابن الأبار ، ولعله أقدم شيوخه .

٤ ـ علي بن أحمد بن علي بن عيسىٰ بن سعيد بن مختار بن منصور بن شاكر ، أبو الحسن الشَّقُوري الغافقي (٥٣٦ ـ ٦١٠هـ) [٣] .

ذكر ابن الأبار بعض شيوخه ثم قال عنه : « وانفرد في وقته بالرواية عن هؤلاء الجلة ، ورحل الناس إليه وأخذوا عنه وكاتبوه من البلاد لعلو إسناده ، وكان ثقة عدلًا صالحًا فاضلًا » .

٥ ـ يوسف بن إبراهيم بن وهبون ، أبو الحجاج الكلاعي الإشبيلي (٥١١ ـ ٦٠٦هـ) [٤] كان فقيهًا ، عاقدًا للشروط ، قال ابن الأبار : « سمع من أبي بكر بن العربي بعض مسلسلاته بقراءة ابن خيرة » ، وقد روىٰ عنه في الجزء الذي فيه بعض مروياته ؛ فقال : « أخبرنا الفقيه المسن المعدل أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم بن وهبون ... بإشبيلية في

(١) سيأتي في تلاميذ المترجم.

(٢) انظر ترجمته في : التكملة ٤ / ٧١ ، والذيل والتكملة ٥ / ٥٧٠ (١١٠٤) ، ، وغاية النهاية ٢ / ٢٤ ، وجذوة الاقتباس ٢ / ٥١٣

(٣) انظر ترجمته في : التكملة ٣ / ٢٢٩ ، والسير للذهبي٢٢ / ٩٥

(٤) انظر ترجمته في : التكملة لابن الأبار ٤ / ٢٢١ (٦١٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣ / ١٥٤

السادس عشر من المحرم سنة إحدىٰ عشرة وستمائة »[١] .

ثانيًا : شيوخه في المشرق :

٦ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، أبو طاهر السِّلفي الأصبهاني ، الحافظ المسند المعمر الرحال (٤٧٥ـ ٥٧٢هـ)[٢] .

سمع منه في طريقه بالإسكندرية الأربعين حديثًا من جمعه ، والنصف الأول من السيرة لابن إسحاق ، وأجاز له في رجب من السنة نفسها .

٧ ـ إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسىٰ بن عوف بن يعقوب بن محمد بن عيسىٰ العوفي الإسكندري المالكي شيخ المالكية (٤٨٥ـ ٥٨١هـ)[٣]

٨ ـ زاهر بن رستم ، أبو شجاع الأصبهاني ثم البغدادي الشافعي الصوفي ، العالم المفتي المقرئ القدوة المجاور ، إمام المقام بالحرم المكي (٥٢٦ـ ٦٠٩ هـ)[٤]. قدم مكة

(١) انظر : جزء فيه خمسة أحاديث من رواية أبي بكر بن العربي المتأخر(مخ ل٥٢ / ب)

(٢) الأنساب للسمعاني ٧ / ١٠٥ ، والكامل لابن الأثير ١١ / ١٩١ ، واللباب ١ / ٥٥٠ ، والتقييد لابن نقطة ١ / ٢٠٤ ، وتكملة الإكمال٣ / ٣٣٩ ، وتاريخ ابن الدبيثي٢ / ٣٦٠ ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨ / ٣٦٢ ، وطبقات الشافعية لابن الصلاح ١ / ٣٥٨ ، والروضتين لأبي شامة ٢ / ١٦ والوفيات لابن خلكان ١ / ١٠٥ ، والسير للذهبي٢١ / ٥ ، وتاريخ الإسلام ١٢ / ٥٧٠ ، والمختصر المحتاج إليه ١ / ٢٠٦ ، والعبر ٤ / ٢٢٧ ، وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٩٨ ، والميزان ١ / ١٥٥ ، والوافي بالوفيات للصفدي ٧ / ٣٥١ ، وطبقات الشافعية للسبكي٦ / ٣٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ / ٣٠٧ .

(٣) السير للذهبي ٢١ / ١٢٢ ، وتاريخ الإسلام ١٢ / ٧٢٤ ، والعبر ٤ / ٢٤٢ ، وابن فرحون في الديباج ١ / ٢٥٧ ، وحسن المحاضرة ١ / ٤٥٢.

(٤) التقييد لابن نقطة ١ / ٣٣٢ ، وتاريخ ابن الدبيثي٣ / ٢٩٥ ، والتكملة للمنذري ٢ / ٤٦٤(١٢٦٨) ، والسير للذهبي ٢٢ / ١٧ ، وتاريخ الإسلام ١٣ / ٢١٣ ، ومعرفة القراء ٢ / ٥٩٩ ، والمختصر المحتاج إليه ٢ / ٧٤ ، والعبر ٥ / ٣١ ، والمشتبه . ص ٢٨٨ ، والوافي بالوفيات للصفدي ١٤ / ١٦٦ ، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٨ / ١٤٦ ، وغاية النهاية ١ / ٢٨٨ ، والعقد الثمين للفاسي٤ / ٤٢٦ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٠٧ ، وشذرات الذهب٥ / ٣٧ .

حاجًّا فسمع منه جامع الترمذي .

٩ ـ عبد الله بن دَهْبَل بن علي بن منصور بن إبراهيم ، أبو محمد الحريمي البغدادي الدقاق ، الشيخ المسند المعروف بـ«ابن كارِه» (ت٥٩٩هـ)[١] سمع منه وأجاز له .

١٠ ـ عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد بن محمد ، أبو القاسم الطوسي الموصلي ، الإمام الدِّين الصدوق ، خطيب الموصل وابن خطيبها (٥٣٨ـ٦٢٢هـ)[٢]

لقيه صاحبنا بالموصل .

١١ـ عبد الوهاب بن علي بن علي بن عبيد الله ، ضياء الدين أبو أحمد الصوفي الشافعي البغدادي ، محدث العراق ومسنده ، المعروف بـ « ابن سُكينة » (٥١٩ ـ ٦٠٧)[٣] .

١٢ ـ علي بن المفضل بن علي ، أبو الحسن المقدسي ثم الإسكندري المالكي الحافظ

(١) انظر ترجمته في : تكملة الإكمال لابن نقطة ٢ / ٥٧٥ ، والتكملة للمنذري ١ / ٤٦٤(٧٤٤) ، وتاريخ ابن الدبيثي ٣ / ٤٥٦ ، والسير للذهبي ٢١ / ٣٩٣ ، وتاريخ الإسلام ١٢ / ١١٦٨ ، والمختصر المحتاج إليه ٢ / ١٤٣

(٢) انظر ترجمته في : الكامل لابن الأثير ١٢ / ٤٤٨ ، والتكملة للمنذري ٣ / ١٤١(٢٠٢٣) وتاريخ ابن الدبيثي ٤ / ٢٨١ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣ / ٧١٢ ، والمختصر المحتاج إليه٣ / ٨٨ ، ولسان الميزان ٥ / ٢٥٠ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٦٣ ، وشذرات الذهب ٤ / ١٦٢

(٣) انظر ترجمته في : التقييد لابن نقطة ٢ / ١٤٣ ، والتكملة للمنذري ٢ / (١١٤٦) و الكامل لابن الأثير ١٢ / ٢٩٥ ، والسير للذهبي ٢١ / ٥٠٢ ، وتاريخ الإسلام ١٣ / ١٦٣ ، والوافي بالوفيات١٩ / ٣٠٩ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٣٢٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٦١ ، وطبقات الشافعية للأسنوي ٢ / ٦٠ ، ومعرفة القراء للذهبي ١ / ٤٨٠ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٠١ وشذرات الذهب ٥ / ٢٥

الإمام (٥٤٤ـ ٦١١هـ)[١].

سمع منه وهو قافل إلى المغرب في رحلته الأولى .

١٣ ـ محمد بن إسماعيل بن علي ، أبو عبد الله اليمني ، المعروف بـ«ابن أبي الصيف» الفقيه الإمام (ت٦٠٩هـ)[٢] . سمع منه بمكة .

١٤ ـ يونس بن يحيى بن أبي الحسن بن أبي البركات ، الشريف أبو محمد الهاشمي الأَرَجي البغدادي القصار المجاور بمكة (٥٣٨ ـ ٦٠٨هـ)[٣] .

سمع منه بمكة « صحيح البخاري » و « مسند عبد بن حميد » وغير ذلك .

● رحـلاته :

كان ابن العربي ذا همة وحرص شديد في طلبه للعلم ، فلم يقنع بالأخذ عن أهل بلده

(١) انظر ترجمته في : التكملة للمنذري ٢ / (١٣٥٤) ، ووفيات الأعيان ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩٢ ، والسير للذهبي ٢٢ / ٦٦ ، وتاريخ الإسلام١٣ / ٣٢٠ ، وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٣٩٠ - ١٣٩٢ ، والعبر ٥ / ٣٨ ، ودول الاسلام ٢ / ٨٦ ، وترجمه الصفدي مرتين في الوافي بالوفيات الأولى باسم علي ابن الأنجب ، والثانية باسم علي بن المفضل ، والبداية والنهاية ١٣ / ٦٨ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٢١٢ ، وحسن المحاضرة ١ / ١٦٥ .

(٢) التكملة للمنذري ٤ / ٤٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٤٦ ، وطبقات الإسنوي ٢ / ١٤٤ ، والعقد الثمين ١ / ٤١٥ ، وتوضيح المشتبه لابن ناصر ٥ / ٢٥٣.

(٣) التقييد لابن نقطة ٢ / ٣١١ ، والتكملة للمنذري : ٢ / ٢٢٨ (١٢٠٣) ، والسير ٢٢ / ١٢ وتاريخ الإسلام١٣ / ٢٠٦ ، والعبر ٥ / ٣٠ ، والميزان ٤ / ٤٨٤ ، والمختصر المحتاج إليه ٣ / ٢٥٤ ، وذيل التقييد للفاسي ٣ / ٣٥٨ ، والعقد الثمين له ٧ / ٥٠٠ ، ولسان الميزان لابن حجر ٨ / ٥٧٨ وإتحاف الورى لابن فهد ٣ / ٦٣.

إشبيلية بل رحل إلى المدن الأخرى مثل قرطبة التي كانت أهم مركز علمي بالأندلس ، ثم لم يرض بذلك فشد الرحل إلى المشرق بل تعددت رحلاته إليه .

وكانت الرحلة الأولى سنة ٥٧٢هـ وله من العمر ثلاثون سنة ، فمرَّ بالإسكندرية فسمع من أبي طاهر السلفي ، وشيخ المالكية أبي الطاهر بن عوف ، ثم أدى الفريضة ورجع إلى بلده . وربما كان مقصوده الأهم في هذه الرحلة هو أداء فريضة الحج ، أو كان مقصوده طلب العلم ولكن لم تسعفه الظروف فقنع بما تيسر ، ثم عجل بالعودة إلى بلده .

ثم كانت رحلته الثانية سنة ٥٩٦هـ ، وهي الرحلة الواسعة التي طوَّف فيها بأقطار المشرق ، وزار المراكز العلمية فيه بعد رحلته الأولى بنحو ٢٤ سنة ، فدخل الشام ولا نعرف مَنْ الذين لقيهم بالشام ، والمحتمل أنه لقي تلاميذ الحافظ ابن عساكر وأصحابه ، ثم دخل بغداد ولقي بها كبار المسندين فسمع منهم وأجازوه كابن سُكينة ، ثم الموصل فسمع من خطيبها أبي القاسم الطوسي ، وجاور بالحرم خمس سنين ، وسمع من أهل الحرم والمجاورين به والقاصدين إليه .

ثم كرَّ راجعًا إلى الأندلس سنة ٦٠٤هـ ، وفي طريقه سمع من ابن المفضل المقدسي بالإسكندرية ، فاستغرقت رحلته هذه نحو تسع سنين ، وهذه المدة كافية ليشبع نهمته ، ويملأ وِطابه ، فقدم الأندلس ، وأخذ عنه بإشبيلية وقرطبة . كذا نص عليه ابن الأبار ، والمعروف أن من كان بهذه المثابة تتشوف نفوس الطلاب للأخذ عنه والسماع منه ، ويكثر الإقبال عليه ، فالمتوقع أن الآخذين عنه عدد جم ، لكن مما يؤسف له أننا لم نعرف من الآخذين عنه إلا ابن الطيلسان ، وابن الحاج التجيبي من أهل الأندلس .

ومن العجيب أن صاحبنا لم يزل حتى بعد عودته إلى الأندلس يواصل طريق الطلب ، والأخذ عن الشيوخ ؛ فقد روى في هذا الجزء عن ابن وهبون بإشبيلية سنة ٦١١هـ وعمره آنذاك تسع وستون سنة .

ثم في ٢٢ شهر ربيع الأول سنة ٦١٢هـ بدأ رحلته الثالثة ـ الأخيرة ـ إلى المشرق فقصد مكة للحج ، ثم استقر به المقام في مصر إلى أن توفي بمدينة الإسكندرية .

● **تلاميذه :**

يظهر أن ابن العربي كان رجلًا منعزلًا ، منشغلًا بالعبادة ، غير راغب في مخالطة الناس ، فلم نعرف أنه تولى التدريس في مدرسة أو جامع معين ، فضلًا عن أن يتولى منصبًا دينيًّا، وكان بإمكانه لو سعى في ذلك كما هو شأن كثير من الأندلسيين المهاجرين إلى المشرق الذين تولوا مناصب هامة . ومن أجل هذا وغيره قلَّ الآخذون والرواة عنه . فبرغم كونه مسندًا رحالًا ، ومحدثًا كبيرًا ، لم أقف بعد البحث إلا على هؤلاء النفر اليسير ، وهم قليل لا يبلغون العشرة ، فمنهم :

١ ـ عبد المحسن بن يونس بن عبد المحسن ، وجيه الدين أبو محمد السمعوني القضاعي الخولاني ، الشيخ الصالح المؤدب (نحو ٥٧٥ ـ ٦٦٥هـ) (١) .

سمع منه أولاده وبناته ، وهم : الزين أبو العباس أحمد ، والمعين أبو الحسن علي ، وكان له خمس سنين ، وحفيده أبو الفضائل محمد .

٢ ـ عبد الوهاب بن عتيق بن هبة الله بن الميمون بن عتيق بن وردان ، أبو الميمون القرشي المصري المالكي المقرئ ، الإمام المفيد (٥٥٤ـ٦٢٦هـ)(٢) .

وبوساطته يروي الشرف الدمياطي جزء أحاديث ابن العربي صاحبنا .

٣ ـ عمران بن علي بن داود ، أبو موسى الغافقي ، ولم أقف عليه .

(١) انظر ترجمته في : صلة التكملة للحسيني ص / ٤١٥ ، وتاريخ الإسلام للذهبي١٥ / ١١٦

(٢) انظر ترجمته في : التكملة للمنذري ٣ / ٢٤٥(٢٢٤٥) ، والسير للذهبي ٢٢ / ٣١٤ ، وتاريخ الإسلام له١٣ / ٨١٥

٤ ـ القاسم بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي المعروف بابن الطيلسان(٥٧٥ـ٦٤٢هـ) (١) .

صرح ابن الأبار أن ابن الطيلسان أخذ عنه ، و هو الذي أفاد ابنَ الأبار بترجمته .

٥ـ محمد بن أحمد بن عيسى ، أبو يحيى التُّجِيبي القرطبي ، المعروف بـ : « ابن الحاج» ، الشيخ الأديب القاضي (تـ ٦٤٨ أو ٦٤٩هـ) (٢)

ذكر ابن الأبار أنه روى عن جماعة منهم : «أبي بكر بن العربي الحاج» ، والمراد به صاحب هذا الجزء من غير شك .

٦ـ محمد بن ضرغام الزكي ، أبو عبد الله الهلالي . لم أقف عليه .

● **ثناء العلماء عليه :**

قال ابن الأبار : « وسلك طريقة التصوف وكان من الفضل والدين والتواضع ولين الجانب بمكان »(٣) .

● **آثـــاره :**

ولم أقف له على أثر من تأليفه غير جزء فيه خمسة أحاديث من مروياته ، ولم يذكر في ترجمته أنه صنف شيئًا ، ولكن ورد في نص السماع عليه في نهاية الجزء المذكور أنه أجاز للسامعين جميع مروياته وسماعاته ومناولاته ومصنفاته ؛ مما قد يفهم منه أن له مصنفات .

(١) انظر ترجمته في : التكملة ٤ / ٧٥ ، وبرنامج الرعيني ص / ٢٧ ، والسير للذهبي ٢٣ / ١١٤ ، وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٢٦ .

(٢) انظر ترجمته في : التكملة لابن الأبار ٢ / ١٥١ ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك ٦ / ٢٠ .

(٣) التكملة لابن الأبار ٢ / ١١٤ .

والجزء المشار إليه يوجد مخطوطًا في المكتبة المحمودية ـ وهي ضمن مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ـ في مجموع رقم (٢٧٠٤ / ٥) في ٩ ورقات من (٥١ـ ٥٩)[١].

ونسخته قيمة جدًّا مكتوبة بخط نسخي جميل ، وكاتبها يدعى عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن يوسف العجمي المصري المعروف بالقنقازي ـ وهو من تلاميذ شرف الدين الدمياطي ـ ، وجاء عنوانه هكذا : « الجزء فيه خمسة أحاديث من رواية الشيخ الزاهد أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الأندلسي الإشبيلي المتأخر عن شيوخه ، رواية الشيخ الوجيه أبي محمد عبد المحسن بن يونس بن عبد المحسن السمعوني القضاعي الخولاني المؤدب المصري عنه ، رواية الشيخ الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن الخضر بن موسى الدمياطي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين» .

وعليه عدة سماعات وتملكات ، فكتب على صفحة العنوان بخط السبكي « سمعه علي السبكي» ، وتحته « قرأه مالكه محمد المظفري » ، وبحذائه إلى اليسار كتب « قرأه وله منه نسخة محمد المشهدي » ، وقيد قراءة بخط السخاوي .

ثم في آخره سماعات أخرى على الحافظ شرف الدين الدمياطي وغيره ، مما يدل على تداول هذا الجزء بين العلماء سماعًا ورواية ، كما يضفي على هذه النسخة قيمة علمية في صحتها ووثاقتها .

● **وفاته :**

يبدو أن صاحبنا طاب له المقام بالمشرق ، فحط رحاله بالإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٦١٧هـ كما نص عليه ابن الأبار والذهبي .

* * *

(١) فهرس الحديث بمكتبة الملك عبد العزيز ص / ٣١٥ (٩٣٣) .

هذا ما تيسر من أخبار هذا العالم الجليل من خلال كتب التراجم التي ترجمت له ، ومن خلال الجزء الذي بقي من مروياته ، وأرجو أن أكون قد وفقت في إحياء ذكراه ، ونفض غبار النسيان والإهمال عنه ، ولفت انتباه الباحثين والمهتمين إلى شخصيته . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الورق وصناعته في مدينة دمشق

أ. إياد خالد الطبّاع*

بقيت دمشق في العصر الأموي وحتىٰ فترة طويلة بعده تستعمل الجلود والرقوق والبرديات ، لأنّ صناعة الورق دخلت إليها متأخرة كما سنرىٰ .

وقبل الورق كان الدماشقة يستعملون القراطيس المتخذة من ورق البَرْديّ يستوردونها من مصر[١] . ونقلت الأخبار أنّ عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) كان أوّل من أحدث أن يكتب في رءوس الطوامير : « قل هو الله أحد » وغيرها من ذكر الله[٢] ، وكانت القراطيس غالية الثمن ، لذلك فقد كان الناس يقتصدون بها كل الاقتصاد ، وكان عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) أكثر الخلفاء الأمويين في دمشق توفيرًا لها ، وكان يناقش الكتّاب والعمال في عدد القراطيس ، ويأمرهم بجمع الخط كراهة الإسراف ، وقد كتب إلىٰ بعض عماله : « دَقّق القلم وأوجِزِ الكتاب فإنّه أسرع للفهم» [٣] .

وشكا أحدُ عمّاله قلّة القراطيس عنده فكتب إليه : « دَقّق قلمك ، وقلّل كلامك ،

* خبير المخطوطات وإحياء التراث العربي بوزارة الثقافة السورية ، وعضو مجلس إدارة الهيئة العامة السورية للكتاب.

(١)الوراقة وصناعة الكتابة / حبيب الزيات . ص ٦٩.

(٢) فتوح البلدان . ص ٢٤٠ .

(٣)الوزراء والكتاب / الجهشياري . ص ٤٨.

تكتفِ بما عندك من القراطيس»[١] . ولعزّة القراطيس وغلاء ثمنها زمن الأمويين فقد جُعل لها في دمشق بيتٌ خاص ، وهذا ما أشار إليه المسعودي[٢] في حادثة مقتل عمرو ابن سعيد الأشدق (ت ٧٠ هـ) ، وكان الخلفاء من هذا البيت يوزّعونها بمقادير محدودة علىٰ العمّال والولاة[٣] .

ومن هذا الخبر يستدلّ علىٰ غلاء القراطيس غلاءً جعل الدولة تشرف بنفسها عليها ، وتهتم بها اهتمامًا خاصًّا ، ويؤكد ذلك ما ذكره أبو يوسف في كتاب «الخراج»[٤] من أنّ الدواوين كانت إذا خاطبها أحد في أمر له تتقاضاه ثمن ما يكتب له فيه . وقد نهىٰ عمر ابن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) عن هذا رفقًا بالناس .

ولا يعلم بالضبط متىٰ بدُئ عمل الورق في دمشق .

قيل : إنّ صناعته انتقلت إليها من بغداد في منتصف القرن الرابع[٥] ، بينما يرىٰ حبيب الزيات أنها وفدت من حماة ولذلك اشتهر الورق الحَمَويّ في كلّ زمان[٦] .

وقد وُصف ورق دمشق بالجودة وأنه منعدم النظير[٧] ، حتىٰ إنه نافس ورق سمرقند

(١)المصدر السابق .

(٢)مروج الذهب بهامش نفح الطيب ٢ / ٥١٨.

(٣)الوراقة وصناعة الكتابة . ص ٧٤.

(٤)كتاب الخراج . ص ١٠٢٠.

(٥)حركة الوراقين . ص ١٣٩ .

(٦)أحسن التقاسيم . ص ص ١٨٠ – ٣٢٦..

(٧)الوراقة وصناعة الكتابة . ص ٩٢.

أصل صناعته[١] ، وإنه كان من جملة ما يحمل من دمشق إلى الشرق واليمن والحجاز وبلاد الروم[٢] .

فقد عُرف الورق الدمشقي في بلاد أوروبا سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م وكانوا يسمّونه Charta Damascena [٣] ، وظلّ يُصدّر إليها مدّة قرون ، كما يُشير موقع الجمعية البريطانية لمؤرخي الورق[٤] .

وبقي الورق الدمشقي على جودته حتى عصر متأخر ؛ فقال أبو البقاء البدري (ت ٨٩٤ هـ) : « وفي دمشق تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله »[٥] ، وليس المراد بالقرطاس هنا سوى الورق لا البَرديّ .

وقال محمد كرد علي : أمّا دمشق وهي أمّ المدائن الشامية ، فقد اشتهرت بمعامل ورقها اشتهارًا بعيدًا ، وقد نوه بورقها مؤرخو اليونان[٦] ، ولما كانت دمشق إحدى الحواضر الكبرى وبؤرة من بؤر الثقافة والعلم ، فقد كان استهلاك الورق فيها بالطبع كبيرًا . وفي كتب الأخبار ذكر لأربع معامل للورق بدمشق وكانوا يسمونها (الورّاقات) .

١ – الأولى ذكرها ابن عساكر[٧] (ت ٥٧١هـ) وسماها الورّاقة القديمة ، وهي عند

(١)سفر نامة . ص ١٣.

(٢)أحسن التقاسيم . ص ١٨١.

(٣)الوراقة وصناعة الكتابة . ص ٩٢.

(4) British Association of Paper Historians

Available at : http: //www.bodley.ox.ac.uk /scad /archivedwebsites /Early %20History %20of%20Paper.htm

(٥)نزهة الأنام . ص ٣٦٣ .

(٦)الإسلام والحضارة العربية / محمد كرد علي . ١ / ٢١٥.

(٧)تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد الأول الورقة ١٦٤ / ب .

عين تُسمى (عين كمشتكين) [١] .

قال الدكتور صلاح الدين المنجد : « تقع هذه العين في زقاق يسمى اليوم (زقاق العين) وهو زقاق على يمين الخارج من باب السلامة الذاهب شمالًا نحو مسجد القصب[٢] ، ثم قال : وهو زقاق ضيق متعرّج ينتهي بطاحون تسمى طاحون العين ، وقبيل الطاحون على اليمين عين ينزل إليها بدرج ما تزال فائضة ، هي اليوم عين الوراقة أو عين كمشتكين قديمًا .

وفي جنوب هذا الزقاق يجري نهر العقرباني[٣] .

وقد ذكرت هذه الورّاقة أيضًا في كتابة قديمة على عتبة باب المدرسة النورية الكبرى جاء فيها : «والحمّامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة والدار المجاورة لهما » .

٢ – الورّاقة الثانية وتُسمى (العُوينة) وقد ذكرت في الكتابة المذكورة على عتبة باب المدرسة : «والوراقة بعوينة الحمى»[٤] . قال الدكتور المنجد[٥] : وتقع هذه الوراقة في

(١)ذكرها ابن عبد الهادي في « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » ص ١١٢ ، وورد اسمها كمشلين ، وهو غلط كما أفاد الدكتور صلاح الدين المنجد في «خطط دمشق» ص ١١١ .

(٢)خطط دمشق . ص ١١١.

(٣)المصدر السابق. ونهر العقرباني : فرع من فروع نهر بردى ينفصل عنه في ساحة المرجة يجري شرقًا فيكوّن خندقًا لقلعة دمشق من شمالها ، ثم يماشي سور المدينة من خارجه ويصل إلى باب السلام ثم مسجد خالد بن الوليد في مقبرة الشيخ أرسلان فأراضي جرمانا وعقربا وبيت سحم ؛ انظر معجم دمشق التاريخي / قتيبة الشهابي ٢ / ٣٢٩.

(٤)المصدر السابق.

(٥)خطط دمشق / صلاح الدين المنجد . ص ١١٢.

البقعة التي فيها المدرسة الشامية البرانية[١] شمال دار البطيخ ، وفي هذه البقعة عين تسمى اليوم عين علي لعلها هي العوينة »[٢] .

وهاتان الورّاقتان ومن خلال الكتابة المذكورة على عتبة المدرسة النورية كانتا موجودتين زمن السلطان نور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) لأنّ الكتابة هذه مؤرخة سنة ٥٦٧ هـ[٣] ولكن لا يُدرى بالضبط متى كانت بدايتها ومن أسسها ، وإذا كان ابن عساكر (٥٧١ هـ) يسمّي وراقة عين كمشتكين[٤] بالوراقة القديمة فمعنى هذا أن زمنًا طويلًا أتى عليها وربما كانت أوّل مصنع للورق في دمشق .

٣ - الوراقة الثالثة : تقع تحت المدرسة العزية البرانية[٥] ذكرها المؤرّخ ابن كثير[٦] في أثناء تعرضه للحديث عن الأمير عز الدين أيبك (ت ٦٤٥ هـ) الذي «دفن بباب النصر في مصر ، ثم نقل إلى تربته بدمشق فوق الوراقة» كما ذكر ابن كثير أيضًا في حوادث سنة

(١)الدارس / النعيمي . ١ / ٢٧٧.

(٢) العوينة : موضع كان عند العقيبة ، إلى الجنوب المجاور للطرف الشرقي من سوق صاروجا ، بجوار المدرسة الشامية البرانية ، شمالي خان البطيخ] ويمرّ منها اليوم جسر الثورة [، وتُعرف أيضًا بعوينة الحمى ، وبعوينة دار البطيخ. ولفظة (العُوَينة) عامّية فصيحها العُيينة بمعنى العين الصغيرة . انظر : معجم دمشق التاريخي / قتيبة الشهابي ٢ / ٩٠.

(٣)خطط الشام / كرد علي . ص ١١٢.

(٤) عين كمشتكين : عين ماء كانت في محلّة مسجد الأقصاب ، خارج باب السلام ، وبجوارها طاحون العين ، إلى الجنوب الغربي من محلّة السبعة أنابيب والجنوب الشرقي من جامع مسجد الأقصاب ؛ انظر معجم دمشق التاريخي / قتيبة الشهابي ٢ / ٩٢.

(٥) الدارس . ١ / ٥٥٠.

(٦) البداية والنهاية . ١٣ / ١٧٤. .

٦٥٤ هـ أن « الأمير مظفر الدين ابن الأمير عز الدين أيبك دفن عند والده بالتربة عند الوراقة»[١] .

وهذه الوراقة ذكرها صلاح الدين الصفدي في وفاة عبد الوهاب بن فضل العمري سنة ٧١٩ هـ فقال : « ودفن بتربة له جوار المدرسة العزية التي عند الوراقة ظاهر دمشق »[٢] .

وحدّد النعيمي مكان هذه الوراقة عندما تحدث عن الزاوية اليونسية فقال إنها : « بالشرق الشمالي غربي الوراقة والمدرسة العزية »[٣] .

قال الدكتور صلاح المنجد : « كانت هذه الوراقة تحت المدرسة العزية على الشرق الشمالي وكان عندها عين تسمى عين الوراقة »[٤] وقد حدد موضعها الشيخ محمد أحمد دهمان في مخطط الصالحية[٥] .

٤ - الوراقة الرابعة : ذكرها ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) في كلامه عن علي بن محمد الأنطاكي فقال : «توفي في الوراقة التي خارج باب الفراديس عقيب صلاة الجمعة الثامن من رجب سنة ٤٩١هـ »[٦] .

وقد ظلت صناعة الورق قائمة في دمشق حتى زمن متأخر بل وظلت مزدهرة ، إذ يذكره البدري (ت ٨٩٤ هـ) في تاريخه ، ويعده من جملة المواد المشهورة التي تميزت

(١) المصدر السابق . ١٣ / ١٩٥.

(٢) الدارس . ١ / ٥٥٠.

(٣) الدارس . ١ / ٢١٤.

(٤) خطط دمشق صلاح الدين المنجد ص ١١٢.

(٥) وهو ملحق بكتاب تاريخ الصالحية لابن طولون ط المجمع.

(٦) تاريخ مدينة دمشق مخطوطة الظاهرية ، تراجم من اسمه علي.

دمشق بتصديرها إلى سائر الأقطار وخاصة مصر[١] .

وقد ذكرنا من قبل أن الطلب على الورق في دمشق كان قائمًا ، ونزيد هنا أن الذي ساعد على ازدهار صناعته فيها كثرة الأنهار لحاجة الورق إلى الماء[٢] ، وكثرة زراعات القنّب التي يحتاجها الورق في صناعته .

قال محمد كرد علي : فقدت الشام عدة صناعات كادت تكون خاصة بها ، وتعد في جملة موارد عيشها ، ومنها الوراقة صناعة عمل الورق . فقد كانت من الصناعات التي تعدها من حاجياتها . وكانت العرب تكتب أولًا في أكتاف الإبل والحجارة الرقيقة البيض وعسيب النخل ، وبعدها كانت الكتابة في الأديم والرقوق على ما قاله المقريزي .

وفي أيام بني أمية عُمل الورق من الكتان وسمي بالخراساني . والغالب أنّ الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبج قبل هذا التاريخ . وعامّة المؤرخين من الفرنج على أنّ الورق من اختراع أهل (الصين سنة ١٢٣ق . م) ونقل صنعه أسرى من الصين إلى سمرقند في سنة (٧٥١م) ، وفي سنة (٧٩٤ م) ، وأُسس معمل للورق في بغداد ، ثم في دمشق ، ويظهر من بيت طرفة في معلقته أنّ القرطاس ينسب للشام والبيت :

وخدٌّ كقرطاس الشامي ومشفر كسب اليماني قده لم يجرد[٣]

وأنّ القرطاس كان يعمل في الشام على عهده أو قبله خلافًا لما قاله مؤرّخو الفرنج ،

(١) نزهة الأنام . ص ٣٦٣.

(٢) خطط دمشق صلاح الدين المنجد . ص ١١٠.

(٣) في جمهرة أشعار العرب أنه شبَّه خدَّها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام ، وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغة القرظ للينه.

وأن الورق من صناعات الجاهلية ، وكان يرتفع منه كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي .

وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته في فرنسا ، ومنها انتقل إلى جميع أوروبا ، فلدمشق على فرنسا بل على المدنية بأسرها الفضل الأول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم والأفكار في العالم .

وقد حمل الشاميون الورق إلى الأندلس وصقلية في جملة ما حملوه من صناعتهم ، على نحو ما حملوه إلى شمالي إفريقية . وكانت شاطبة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة (١٠٠٩ م) الورق بكثرة ، ويحمل منها إلى سائر أرض الأندلس .

وكان الورق يصنع أشكالًا في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخرق البالية أو الحرير ، واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة (٧٠٦م) رجل اسمه يوسف ابن عمرو ، ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة (٢٢٦ هـ) على ورق يظن أنه من الورق الشامي ، وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته[١] .

وقال الرحالة ناصر خسرو : إن الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنعًا .

وذكر القلقشندي أنّ الورق المعروف بورق الطير ، أي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة الحمام الزاجل ، هو صنف من الورق الرقيق ، والورق القديم أشبه بالبردي أو الرقوق في متانته ، ولا نعلم في أي زمن انقرضت هذه الصناعة . وحدثني أحد علماء حلب أنّ الورق كان يصنع في الشهباء ، وأنّ حيًّا من أحيائها لا يزال اسمه

(١) هو كتاب مسائل الإمام أحمد بن حنبل ؛ وهو من محفوظات المكتبة الظاهرية.

الوَرّاقة حيث كانت معامل الورق .

والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا .

وفي أوائل القرن العشرين أسس رجل بيروتي في بيت الباحوط ، معملًا مهمًّا في أنطلياس على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وأصدر ورقًا جيدًا كورق النمسا وفرنسا ، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام ، فاضطر هو أن ينزل أيضًا ، ثم خفضت السعر ولم تزل تخفضه حتى قضت على هذا المعمل النافع ، وأصبح المجلوب من الورق كلّ سنة يساوي عشرات الألوف من الدنانير إلى الشام ، وأصبح الورق حاجة من حاجات المدنية[1] .

هذه قصّة صناعة الورق في دمشق : تاريخها ومجدها ، لكنّها انقرضت الآن مَثَل كثير من الصناعات ، وأصبحت البلاد الأوروبية المورد الأساس لهذه المادة ، إلى أنْ أصبحت بلدان أمريكا الجنوبية ودول الشرق الأقصى المصدِّر الرئيس لها .

(١) خطط الشام ٤ / ٢٢٢.

المستشرق الفرنسي جورج فايدا وآثاره حول التراث الإسلامي

د. عبدالواحد جهداني *

ما زال البحث حول الاستشراق والمستشرقين في الدراسات والجامعات العربية يراوح مكانه الذي انتهى إليه نهاية القرن ما قبل الماضي .

فجُلُّ الدراسات والأبحاث بالجامعات العربية ما زالت تدور حول أعلام الاستشراق الغربي خلال الفترة الممتدة من النصف الثاني من القرن االتاسع عشر إلى النصف الأول من القرن الماضي كإجناز جولدزيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠ – ١٩٢١)[1] ، وثيودور نولدكه Théodore Noldeke (١٨٣٦ – ١٩٣٠)[2] ، ويوليوس

* أستاذ الدراسات الإسلامية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة ابن زهر / المغرب .

(١) إجناز جولدزيهر : مستشرق مجري أحد أقطاب الاستشراق الغربي ، ولد في ٢٢يونيو ١٨٥٠ لأسرة يهودية ، درس في بودابست وليدن وفيينا ، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقية ،كما رحل إلى القاهرة وسوريا وحضر بعض الدروس في الأزهر.عمل جولدزيهر في جامعة بودابست في مجال الدراسات العربية والإسلامية ، و أصبح أستاذًا للغات السامية عام ١٨٩٤.
كتب كثيرًا حول الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخًا ، وكان له تأثير في الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه في مختلف اللغات الأوروبية.من كتبه : العقيدة والشريعة ، وكتاب حول المذهب الظاهري ، ونشر ديوان الحطيئة وفضائح الباطنية للغزالي. انظر عبد الرحمن بدوي . موسوعة المستشرقين . ص ص ١٩٧ - ٢٠٣ و ص ص ٧٥٣ــ ٧٥٢ Encyclopaedia Judaica,7 /.

(٢) نولدكه : مستشرق ألماني ، شيخ المستشرقين الألمان ، صاحب دراسة « تاريخ القرآن » ، وعلى منواله صار تلامذته برتسل وشوالي وبرجستراسر. موسوعة المستشرقين . ص ص ٥٩٥ـ٥٩٨.

فلهـاوزن Wellhausen (١٨٤٤ -١٩١٨)[١] ، ودافيـد صـامويل مرجليـوث David Samuel Margoliouth (١٨٥٨ -١٩٤٠)[٢] ، وغيرهم .

أما الدراسات حول الأجيال الجديدة من المستشرقين الذين ما زال الكثير منهم يمارس نشاطه العلمي ، مثل فان هيس Van Hess[٣]، وأندري ميكال André Miquel[٤] ، وأندرو ريبين Andrew Rippin ، وأبراهام إيدوفيتش Abraham Udovitch[٥] ، أو الذين توفي البعض منهم منذ سنوات ، كمكسيم رودنسون Rodinson Maxime[٦] ،

(١) فلهاوزن مستشرق ألماني ، رائد في نقد العهد القديم ، تخرج في جامعة جوتنجن ، ودرس بها ما بين سنة ١٨٩٢و ١٩١٣ ، توفي سنة ١٩١٨. موسوعة المستشرقين . ص ص ٤٠٨ -٤١٠.

(٢) مرجليوث : مستشرق إنجليزي متعصب ، نشر معجم الأدباء لياقوت الحموي والأنساب للسمعاني ، ورسائل المعري ، توفي سنة ١٩٤٠. موسوعة المستشرقين . ص ٥٤٦.

(٣) أشهر المستشرقين الألمان في الوقت الحاضر.

(٤) أندري ميكال مستشرق فرنسي كبير وموضوعي ما زال على قيد الحياة. عمل مديرًا للمكتبة الوطنية الفرنسية كولييج دي فرانس. من أهم مؤلفاته : الجغرافية البشرية للعالم الإسلامي حتى القرن ١١م (٤ ج) ، إضافة إلى ترجماته الأدبية المتعددة نذكر منها : أسامة بن منقذ وألف ليلة وليلة. ينظر عنه : محمود المقداد . تاريخ الدراسات العربية في فرنسة ، ص ص ٢٧١ – ٢٧٦ . ـــ (عالم المعرفة ؛ ١٦٧) .

(٥) مستشرق أمريكي من أصل يهودي ، ولد في بريطانيا في ٣١ / ٥ / ١٩١٦ودرس في جامعتي كولومبيا ويل . عمل أستاذًا مساعدًا في قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون ١٩٦٢ - ١٩٧٠ ،ثم تولى رئاسة القسم في الفترة من ١٩٧٣ -١٩٧٧ ، وكذلك في الفترة من ١٩٨٠إلى ١٩٩٤. كما كان عضو مجلس أمناء معهد البحوث الأمريكي في تركيا منذ عام ١٩٦٩ ، وعمل رئيسًا للجنة الدراسات الإسلامية في الجمعية الاستشراقية الأمريكية ، وترأس مجلة دراسات إسلامية Studia Islamica الصادرة بباريس. يهتم إيدوفيتش بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ الإسلامي. من مؤلفاته : الشراكة والربح في إسلام العصر الوسيط ، وشارك في تأليف كتاب بعنوان : آخر اليهود العرب :مجتمعات جربة [تونس].

(٦) مستشرق فرنسي ماركسي ذو أصول يهودية . ولد في باريس عام ١٩١٥ ، توفي أواخر شهر مايو سنة ٢٠٠٤. من مؤلفاته «محمد» ، الذي صدر عام ١٩٦١ ، و « الإسلام والرأسمالية » =

وكلود كاهن Claude Cahen[١] فضيلة أو نادرة جدًّا ، قد لا تتجاوز بعض الاستجوابات الصحفية .

إضافة إلى أنه خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، ازداد تأثير الاستشراق الصهيوني على الأوساط العلمية في الغرب ، بسبب التواجد الصهيوني في العديد من المراكز العلمية الغربية ، والنشاط العلمي المتزايد للجامعات الصهيونية ،[٢] في غياب جامعات الأمة المحاصرة بالاستبداد والتغريب من جهة ، وفقدان الفقه الحضاري من جهة أخرى .[٣]

ونتساءل كما تساءل أحمد الشيخ « كيف نفسر هذه المفارقة الغريبة ، في استمرار نقد ما انتهى في عالم الاستشراق ونسيان ما هو قائم اليوم؟ كيف تجمد الاستشراق عند لحظة

= و « إسرائيل والرفض العربي : ٧٥ عامًا من التاريخ » ، و كتاب « الماركسية والعالم الإسلامي» .

(١) مستشرق فرنسي ذو أصول يهودية ، أحد الذين ساهموا في انطلاقة الدراسات التاريخية حول الحضارة الإسلامية . توفي سنة ١٩٩١.

(٢) كما يلاحظ منذ ثمانينيات القرن الماضي تزايد نفوذ الاستشراق الصهيوني وتأثيره على الساحة العلمية الغربية ، حيث عاد المستشرقون الصهاينة إلى الأساطير الأولى للإستشراق الصهيوني نحو القرآن الكريم والنبوة التي وضعها شيخهم جولدزيهر ، وقد قام بإحياء هذه الأساطير وبعثها من قبورها المستشرقون الجدد . أمثال باتريسيا كرون Patricia Crone ، ومايكل كوك Michael Cook، وكينيث كراج Kenneth Cragg ، وغيرهم. وتدخل هذه المشاريع في إطار الحملة الغربية من أجل تغريب الإسلام -- الدين الوحيد الذي استعصى على التحريف والتبديل -- كخطوة أولى وأساسية للقضاء عليه باعتباره المنهج الوحيد في الحياة الذي يواجه المشروع الغربي.وفي هذا الإطار تدخل المشاريع الغربية التي تتهاطل على المنطقة العربية لتغيير مناهج التعليم وقوانين الأحكام الشخصية ، بمشاركة ومؤازرة المستشرقين العرب الذين يطلق عليهم في فرنسا وفي الغرب حاليًا « المفكرون المسلمون الجدد ».

(٣) نعني بالفقه المعني القرآني الوارد في سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة ١٢٢] .

زمنية لم يعد لها وجود إلى حد كبير ، في مجال الدراسات الاستشراقية؟ هل لم يغير الاستشراق ، طوال قرنين أو أكثر ، من مجالاته ومناهجه وصوره بحيث يستوجب ثبات النقد الموجه إليه ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هي المبررات التي تدفعنا باستمرار إلى نقد نماذج لاستشراق لم تعد قائمة ، وننسى أو نتناسى ، الاستشراق الجديد ؟ »[١] .

في هذا السياق تأتي محاولتنا هذه لسد هذا الفراغ ، وتقديم سلسلة من المقالات هدفها الأولي التعريف ببعض أعلام الاستشراق عامة ، والفرنسيين منهم خاصة ، وذلك من خلال التعريف بإنتاجاتهم الفكرية ، آملين أن نضع بين يدي الباحثين المواد الأولية من أجل دراسات مستقبلية حولهم .

وبحكم اهتمامنا بالتراث العربي الإسلامي اخترنا أن نبدأ هذه السلسلة من المقالات بالمستشرق الفرنسي جورج فايدا الذي يعتبر بلا منازع الرائد والمؤسس للدراسات التراثية (التراث المخطوط) بفرنسا .

جورج فايدا : سيرة حياة [٢]

سيرته :

ولد جورج (يهودا أريح) فايدا بمدينة بودابست عاصمة المجر في 18 نوفمبر 1908 من عائلة يهودية محافظة . وتابع فيما بين سن الرابعة عشرة والواحدة والعشرين دراسته بثانوية المعهد اليهودي ، حيث درس الآداب القديمة ، ثم التحق بالمعهد نفسه ليتتلمذ على كبار أساتذة العلوم اليهودية ، وسيمكنه ذلك من الالتحاق فيما بين ١٩٢٧ -١٩٢٨

(١) أحمد الشيخ . من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب : حوار الاستشراق ـ المركز العربي للدراسات الاستشراقية . ص٥ .

(٢) حول حياته ينظر : كتاب

- Paul B. Fenton. Bibliographie de l'oeuvre de Georges Vajda ; Peeters ; Louvain, Paris, 1991, -Encyclopaedia Judaica ,16 /52.

بجامعة بودابست ـ قسم الدراسات الشرقية ـ حيث تتلمذ على الأستاذ جوليوس نيمت Julius Némth ، وفي الوقت ذاته بدأ أيضًا دراسته للغة العربية و التركية . وفي سبيل تعميق دراسته وتخصصه بالدراسات الشرقية ، توجه فايدا سنة ١٩٢٨ إلى فرنسا لمتابعة دراسته بالمعهد الإسرائيلي بباريس .

وفي السنة التالية تظهر له أول مقالة بمجلة الدراسات اليهودية ، وهي عبارة عن قراءة لكتاب حول عيد الفصح [١] .

الشخصيات المؤثرة فيه ومسيرته العلمية :

لم تبرز شخصية فايدا العلمية من فراغ ، بل كانت في نظرنا نتيجة تضافر عوامل متعددة لعل أهمها :

- الإرادة والعزيمة الشخصية لفايدا ، والتي لازمته طوال حياته حتى لفظ أنفاسه في مكتبه وهو يعد دراسة عن ابن حزم .

- الرعاية والاهتمام من أساتذة كبار توسموا فيه النبوغ والعزيمة ، فشملوه بالتوجيه أولًا ثم بالرعاية والاهتمام ثانيًا .

- البيئة العلمية التي ظهر فيها فايدا (باريس) التي كانت تعيش حينها أنشط فترات حركة الاستشراق الفرنسي .

ومن أهم الشخصيات العلمية التي أثرت في مسيرة جورج فايدا العلمية وتوجهه الفكري منذ وقت مبكر ، نجد شخصيتين يهوديتين :

(١)مجلة دراسات يهودية ،١٣٨ (١٩٢٩) ،٢١٦ -٢٢٠.

– لودفيك بلاو (1861 -1936) Ludwig Blau ،[١] مدير المجمع الديني اليهودي ببودابست ، الذي أشرف لمدة تزيد على أربعين سنة على المجلة الدورية الهنغارية للعلوم اليهودية Magyaar Zsido Szemle المتخصصة في الثقافة اليهودية .

– والشخصية الثانية ـ و هي الأكثر أهمية و الأكثر تأثيرًا ـ هي برنار هيلر Bernard Heller (١٨٧١ –١٩٤٣)[٢] ، أحد تلامذة المستشرق المشهور جولدزيهر (- 1936 1861) . كرس هيلر حياته العلمية للبحث في الإسلام والهاجاداه / Haggadah : كتاب احتفالات عيد الفصح[٣] ، كما كان مهتمًا بالأساطير اليهودية في التراث

(١) درس بلاو في المجمع اليهودي في بودابست وكذلك في جامعة بودابست .كان بلاو لا يزال طالبًا حين عرض عليه التدريس في المجمع اليهودي ، حيث سيصبح أستاذًا كامل العضوية سنة ١٨٨٩ ، ولم يلبث أن أصبح مديرًا للمجمع نفسه سنة ١٩١٤. أسس بلاو المجلة العبرية - Ha -Zafeh le Hokmat Yisreal be -Erz Hagar ،وبقي رئيسًا لتحريرها حتى سنة ١٩٣١.كان بلاو باحثًا يهوديًا غزير الإنتاج ساهم في كل أشكال البحث حول اليهودية ، حيث تشتمل قائمة مؤلفاته على ٨٨٧ مؤلفًا ما بين كتاب أو مقال أو غير ذلك.ويعتبر بلاو من أوائل الباحثين الذين حاولوا تقييم الأخبار التلمودية حول الأناجيل ، كما اهتم بالمخطوطات العبرية ، وكان من أوائل من استغل البرديات اليونانية في تقييم ودراسة القوانين العبرية. يراجع : Encyclopaedia Judaica,7 /1076 .

(٢) باحث مجري متخصص في الدراسات العربية والفلكلور وتاريخ الأدب ، أصبح هيلر حبرًا سنة ١٨٩٦ في مجمع أحبار بودابست ، حيث درس فيه الإنجيل فيما بين ١٩٢٢ و ١٩٣١ ، ولم يلبث أن أصبح مشرفًا عامًا على المدارس اليهودية في بودابست.كما كان عضوًا في جمعية الدراسات الإثنية والشرقية في الأكاديمية المجرية للعلوم. ولتأثره الشديد بأستاذيه باشر Bacher و جولدزيهر ، كرس هيلر حياته لدراسة الأغادا (الروايات الشفهية حول التلمود والمدراش) والإسلام.كما كان تأثره بأستاذه جولدزيهر واضحًا ،حيث جمع دراسات مختلفة في كتاب « دراسات شرقية » « Oriental Studies » في سنة ١٩١٠ وأهداه إلى أستاذه بمناسبة بلوغه الستين عامًا.كما أعد ببليوجرافيا حول أعمال جولدزيهر سنة ١٩٢٧. يراجع : Encyclopaedia Judaica,7 /307.

(٣) هاجاداه» كلمة عبرية معناها «القص» أو «القول» ، وهي الصيغة الثابتة التي تُروَى بها قصة الخروج في الليلة الأولى من احتفالات عيد الفصح ، وهي جزء من السدر (النظام).عبد الوهاب المسيري . موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة) . ٢ / ٨٧.

الإسلامي[١] ، وهو الذي كتب في دائرة المعارف الإسلامية – التي ينشرها المستشرقون الغربيون – المقالات حول الشخصيات المذكورة في التوراة ، وهو نفس العمل الذي قام به فايدا في الطبعة الثانية لهذه الموسوعة[٢] . وبتوجيه من أستاذه هيلر سيتوجه فايدا إلى الدراسات الإسلامية .

رحل جورج فايدا إذن و بتوجيه من أستاذه هيلر سنة ١٩٢٨ إلى باريس ، حاملًا معه توصية منه إلى الحاخام الأكبر لفرنسا ليفي إسرائيل Lévy Isréal (١٨٥٦ -١٩٣٩)[٣] .

يقول هيلر في رسالته إلى الحاخام الأكبر : « إنني أضع بين يديك أحد أفضل تلامذتي »[٤] ، وبدوره يقدم الحاخام الأكبر ليفي فايدا إلى جوليوس باوير . J . R Bauer (1868- 1932) مدير المعهد الإسرائيلي بفرنسا حيث سيتابع فايدا دراسته فيه على يد الحبر جليان وايل (١٨٧٣ –١٩٥٠) Julien Weil [٥] ، كما سيشغل منصب

(١) مما كتبه في هذا الموضوع :
– الأساطير اليهودية في الإسلام .– « مجلة دراسات يهودية » . ـ ع ٣٨ (١٩٣٤) .ـ ص ص ١ـ ١٨.
– علاقة الهاجاداه بالأساطير الإسلامية .– « مجلة العالم الإسلامي » ، ع٢٤ (١٩٣٤) .ـ ص ص ٢٨١ـ٢٨٦.

(٢) انظر : مقالات فايدا في دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) رئيس الكنيس اليهودي بفرنسا. درس الأدب الحاخامي والتلمودي في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ابتداء من سنة ١٨٩٠ ،كما أصبح أمين جمعية الدراسات اليهودية عندما أسست سنة ١٨٨٠ .وبعد ست سنوات عين رئيس تحرير مجلة « دراسات يهودية » ،كما ساهم بنشر ترجمة فرنسية للتوراة أو ما سمي بالتوراة الحاخامية.من مؤلفاته : تاريخ يهود فرنسا.
يراجع :Encyclopaedia Judaica , 11 /82 -83.

(٤) كتاب فونتون . ص ١٦.

(٥) حبر يهودي فرنسي ، ولد بفرساي سنة ١٨٧٣ ، والتحق بالمعهد الإسرائيلي (١٨٩١ـ١٨٩٧). وبعد تخرجه خلف والده حبرًا لمدينة فرساي . وفيما بين سنة ١٩٠٥ـ١٩٢٨ درس بالمعهد الإسرائيلي الآداب القديمة والأدب الفرنسي.كما اشتغل ضمن هيئة تحرير مجلة دراسات يهودية =

معيد و أستاذ اللاتينية و اليونانية لطلبة حلقة التلمود -التوراة ، و كذلك أستاذ للعربية لبعض طلبة اليهود القادمين من شمال أفريقيا .

ومما لا شك فيه أن هذه الرعاية التي لقيها فايدا وهو ما زال طالبا تشير إلى أن أساتذته قد توسموا فيه النبوغ والعزيمة لطلب العلم منذ شبابه ، لذا نراه لا ينتقل من مؤسسة إلى أخرى إلا وهو حامل رسالة من أساتذته تحث مستقبليه على رعايته والاهتمام به .

دراسته الجامعية :

في باريس تابع فايدا دراسته الجامعية في جامعة السوربون ، حيث درس الآداب الكلاسيكية ، و في نفس الوقت كان يدرُس اللغتين الفارسية و التركية بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية .

و فيما بين سنة ١٩٣٠و١٩٣٥ ، التحق بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا Ecole Pratique des Etudes Hautes ، حيث تابع فيها دروس علمين من أعلام الاستشراق الفرنسي خلال النصف الأول من القرن العشرين هما موريس جود يفري - ديمومبين Maurice Gaudefroy -Demombynes (١٨٦٢ -١٩٥٧)[١] ، ولويس

= والتي سيصبح رئيسًا لها. وفي سنة ١٩٣٣ أصبح الحبر الأعظم لباريس بعد وفاة حبرها جاك هنري دريفيس.ومثل وايل يهود فرنسا في احتفالات اغتصاب فلسطين وتأسيس الكيان الغاصب.توفي وايل في أبريل ١٩٥٠.

http : / /judaisme.sdv.fr /histoire /rabbins /julienw /jweill.htm

(١) مستشرق فرنسي ، درس القانون ثم أقام بالجزائر والتحق بمدرسة الآداب العليا بالجزائر ثم بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وفي سنة ١٩٢٣ عين مدرسًا بجامعة السوربون ،وفي سنة ١٩٢٧ عين مديرًا للدراسات الخاصة بالإسلام بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.من أهم مؤلفاته المتميزة كتابه : النظم الإسلامية. موسوعة المستشرقين . ص ص ٢٧١ -٢٧٢.

ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٣ -١٩٦٢) [١] صاحب الدراسات المتعددة حول الحلاج . وكان بجانب فايدا خلال هذه الفترة ثلة من الطلبة ستبرز أسمائهم في ساحة الاستشراق فيما بعد منهم هنري كوربان (١٩٠٣- ١٩٧٨)[٢] ، وروبير برنشفيك(١٩٠١- ١٩٩٠) ،[٣] وبول كراوس (١٩٠٤ -١٩٤٤) [٤]، وهنري

(٢) ولد في باريس ، وحصل على دبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية (فصحى وعامية) . التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة أواخر عام ١٩٠٦. وفي مصر حضر ماسينون بعض دروس الأزهر وكان يرتدي الزي الأزهري.شغل ماسينيون منصب مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا ، وزار العديد من البلاد الإسلامية منها الحجاز والقاهرة والقدس ولبنان وتركيا. عمل معيدًا في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (١٩١٩ -١٩٢٤) وأصبح أستاذ كرسي (١٩٢٦ -١٩٥٤)ومديرًا للدراسات في المدرسة العلمية العليا حتى تقاعده عام ١٩٥٤. واشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة الحلاج حيث حقّق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف) . موسوعة المستشرقين . ص ص ٥٢٩ - ٥٣٥.

(٢)مستشرق فرنسي ولد بشمال فرنسا من عائلة بروتستنتية ،كان مهتما بالفلسفة الفارسية وبصفة خاصة الفلسفة الإشراقية عند السهروردي . وحين أنشأت فرنسا سنة ١٩٤٥ معهد الدراسات الإيرانية بطهران ، عين كوربان مديرًا له . من أهم إنتاجه العلمي : المكتبة الإيرانية ، وهي منشورات محققة تحقيقًا علميًا لمؤلفات أساسية بالفارسية ، وقد ناهزت هذه المكتبة العشرين مجلدًا. توفي كوربان في ١٧ أكتوبر ١٩٧٨. موسوعة المستشرقين . ص ص ٤٨٢ -٤٨٥.

(٣)مستشرق فرنسي من أصل يهودي ، متخصص في تاريخ تونس والفقه الإسلامي . عين بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا مدرسًا بتونس ، كما درس بالجزائر خمسة عشر سنة . يعتبر مؤسس الدراسات الأصولية والفقهية بالجامعات الفرنسية ، وعلى يديه تخرج كل من عبد المجيد تركي وماري برنان . امتازت كتابته الفقهية والأصولية بالدقة والموضوعية ، وسنفرد له مقالة خاصة إن شاء الله.

(٤)بول أليعزر كراوس Paul Eliezer Kraus ، ولد في ١٩٠٤ في براغ بتشيكوسلوفاكيا لأسرة يهودية ، هاجر إلى فلسطين ليعيش في إحدى المستعمرات ودرس في مدرسة الدراسات الشرقية في =

لاوست (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) ، [١] .

في سنة ١٩٣١ يحصل فايدا على الإجازة في الآداب ، وبعدها على الجنسية الفرنسية، وفي سنة ١٩٣٣ حصل على دبلوم المدرسة الوطنية للغات الشرقية .

وابتداء من سنة ١٩٣٣ ، سيختاره الحاخام الأكبر جليان وايل– الذي يعتبره فايدا أحد أهم أساتذه بفرنسا – ليصبح عضوًا في اللجنة المشرفة على «*مجلة الدراسات اليهودية*» Revue des Etudes Juives أهم منبر فكري أكاديمي يهودي بفرنسا على الإطلاق .

و في ٢٢ يونيو ١٩٣٣ يناقش فايدا أول رسالة جامعية له بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا تحت إشراف أستاذه جودفري ـ دومومبين بعنوان : المانوية لدى بعض الشعراء بداية الخلافة العباسية . و قد نشر دراسته هذه فيما بعد سنة ١٩٣٧ في مجلة « دراسات شرقية » الإيطالية تحت عنوان « الزنادقة في بلاد الإسلام بداية الخلافة العباسية » مصدرة بإهداء إلى إجناز جولدتسيهر .

بعد إغلاق حلقة التلمود – التوراة ، في سنة ١٩٣٥ ، يصبح فايدا مدرسًا للآداب الكلاسيكية واللغة العبرية بمدرسة ابن ميمون التي افتتحت في السنة ذاتها بباريس ، كما

= الجامعة العبرية في القدس ، ثم انتقل إلى برلين ليحصل من هناك على درجة الدكتوراه . اهتم بالتراث العلمي الإسلامي وكانت له دراسات حول جابر بن حيان والبيروني والرازي . أسهم مع ماسنيون في دراسة الحلاج ، كما أنجز دراسة حول تاريخ الإلحاد في الإسلام ترجمت إلى العربية ونشرها عبد الرحمن بدوي. مات منتحرًا يوم الخميس ١٤ سبتمبر ١٩٤٤ بالقاهرة . موسوعة المستشرقين . ص ص ٣٢٥ – ٣٣٠ و 45- Encyclopaedia Judaica 10 /1244.

(١) مستشرق فرنسي تخصص في ابن تيمية والحنابلة ، شغل منصب أستاذ علم الاجتماع الإسلامي بكوليج دو فرنس (١٩٥٣ـ١٩٧٥) ، كما تولى رئاسة جمعية الصداقة الفرنسية السعودية.موسوعة المستشرقين . ص ص ٥١٠ـ٥١١..

عمل في نفس الوقت مصححًا بالمطبعة الوطنية .

في سنة ١٩٣٦ استدعي فايدا من الحاخام الأكبر مـوريس ليبر Liber Maurice 1956) (1884-[١] لشغل كرسي « التوراة و العقيدة اليهودية » بالمعهد الإسرائيلي ، كما كلفه الحاخام ليبر الذي كان مدير دراسات « اليهودية التلمودية والحاخامية » بقسم العلوم الدينية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، ليكون معيدًا له بهذه المدرسة ، و لإلقاء مجموعة من الدروس حول تصوف يحيى بن باقودا . وكان من بين المتابعين لمحاضرات فايدا المستشرق الصهيوني المعاصر برنارد لويس Bernard Lewis[٢] ويظل فايدا يحاضر بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا حول اليهودية حتى سنة ١٩٤٨ . ويعتبر فايدا هذه الفترة أساسية وحاسمة في مساره العلمي ، فهي التي فتحت له باب المجال العلمي على مصراعيه كمحاضر وباحث مشهود له بالكفاءة العلمية ، معترفًا بفضل الحاخامين موريس ليبر وليفي إسرائيل عليه في مسيرته العلمية .

(١) انظر عنه : Encyclopaedia Judaica 11 /187.

(٢)أحد ألمع وأخطر المستشرقين المعاصرين ، معروف بصهيونيته وعدائه للإسلام. ولد لويس في٣١ مايو بلندن عام ١٩١٦ لأسرة يهودية ، والتحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرنسا للحصول على دبلوم الدراسات السامية (١٩٣٧) فتتلمذ على المستشرق الفرنسي ماسينيون وغيره ، ثم عاد إلى جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٩ وكان موضوع رسالته عن الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين . التحق لويس بخدمة المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبقي يعمل فيها حتى عام ١٩٧٤ ليلتحق بالتدريس في جامعة برنستون بالولايات المتحدة. يعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجًا وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي ، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة قبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية وعن الإسلام والديمقراطية ، ويعتبر من المنظرين للحرب الحضارية ضد الإسلام . يراجع رسالة الدكتوراه : مازن مطبقاني . منهج المستشرق برناردلويس في دراسة الجوانب الفكرية في التاريخ الإسلامي .- كلية الدعوة – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

والاجتماعية في ثوبها الجديد ، والتي كانت وما زالت تدعي الإحاطة والمقدرة على تفسير كل علم . كما أن أعماله طيلة حياته كانت تنطلق من المصادر التراثية خاصة المخطوطات منها ، حيث يعتبر فايدا في فرنسا امتدادًا للمدرسة الفيلولوجية الألمانية التي تعطي أهمية كبيرة لدراسة النصوص .

وفي سنة ١٩٧٠ عين فايدا أستاذ كرسي «الأدب اليهودي ما بعد التوراة » Littérature juive post -biblique الذي أنشأته جامعة السوربون الجديدة خصيصًا له ، وظل يشغله حتى تقاعده سنة ١٩٧٨ .

وخلال نفس السنة ، أسندت إليه رئاسة مجلة « الدراسات اليهودية » Revue des Etudes Juives حيث سيجعلها من أهم المجلات العلمية في الغرب . وإلى جانب كل هذه المسئوليات ، ظل فايدا مديرًا للقسم العربي لمعهد بحوث وتاريخ النصوص حتى وفاته .

جورج فايدا والكيان الصهيوني :

في صيف ١٩٤٧ قام فايدا بزيارة علمية إلى المغرب ، الذي كان حينها خاضعًا للسيطرة الفرنسية ، بدعوة من معهد الدراسات العليا المغربية التابع لسلطة الاحتلال . و على إثر عودته إلى فرنسا نشر سنة ١٩٥١ كتاب « مجموعة نصوص تاريخية يهودية ـ مغربية » . بعد ذلك وُجهت إليه الدعوة لشغل كرسي الفلسفة اليهودية بالجامعة العبرية بفلسطين المغتصبة ؛ وفي جوابه على هذه الدعوة كتب فايدا قائلًا : « إن قلبي في القدس ، ولكن فكري في باريس»[1] .

و في سنة ١٩٦١ وبمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي للدراسات العبرية بفلسطين المغتصبة ، زار فايدا فلسطين لأول مرة ، ونشر فيها فيما بعد ثلاثة كتب ، وفي عامي ١٩٦٨

(١) كتاب فونتون . ص ٢٢ .

وخلال هذه الفترة ، تسند إليه مهمة تسيير القسم الشرقي (الذي كان يضم القسم العربي والعبري) من معهد بحوث وتاريخ النصوص Institut de Recherche et d'Histoire des Textes

وبعد انتهاء « الحرب الغربية الثانية »[1] ، يناقش فايدا سنة – ١٩٤٦ – بجامعة السوربون رسالته للدكتوراه التي تحمل عنوان « النظام العقدي والفلسفي لدى يهودا بن نسيم بن مالكا » . ؛ ثم سيعاود عمله بمركز بحوث وتاريخ النصوص ، حيث يكلف برئاسة القسم العبري الذي أسس سنة ١٩٤٦ ، و في الوقت نفسه يقوم بفهرسة المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس . كما عاود فايدا تدريس التوراة والعقيدة بالمعهد الإسرائيلي ، حيث ظل إلى سنة ١٩٦٠ يكون أجيالًا من الرهبان والمدرسين الذين سيشكلون فيما بعد القاعدة العلمية اليهودية بفرنسا في مختلف التخصصات والمجالات العلمية .

وحينما يتقاعد الحاخام ليبر سنة ١٩٥٤ ، يعين فايدا مكانه في ١٥ أكتوبر من نفس السنة مدير دراسات « اليهودية الربية » بقسم العلوم الدينية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا الملحقة بجامعة السوربون ، حيث ستصبح هذا القسم و باقتراح من فايدا سنة ١٩٧٢ يحمل اسم « يهودية القرون الوسطى» ، وسيبقى فايدا في هذا المنصب حتى سنة ١٩٧٩ .

وهكذا نلاحظ أن نجم فايدا ومكانته العلمية في الدراسات اليهودية بدأت في تصاعد مستمر ، وأنه لقي حظوة كبيرة خصوصًا لدى الزعماء الدينيين ، نظرًا لاهتماماته المبكرة بالدراسات التراثية في وقت بدأ الاهتمام العلمي يتوجه بكثرة نحو العلوم الإنسانية

(١) نستعمل هذا المصطلح مكان المصطلح الشائع « الحرب العالمية الثانية » لأن هذا الأخير مصطلح غربي متحيز ، ينطلق من كون الغرب هو المركز وهو العالم والباقي حواشي وأطراف . وبما أن هذه الحرب كانت غربية ، فهي بالتالي وفق هذا المنظور عالمية .

و ١٩٧٢ حاضر في الجامعة العبرية .

جورج فايدا و الدراسات العربية :

في سنة ١٩٣٧ أسس معهد « بحوث و تاريخ النصوص» على يد « فليكس جرات Félix Grat » بهدف جمع المعلومات حول الكتاب المخطوط في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ودراسة مضمونه ومحتواه من جهة و من جهة أخرى دراسة مادته .[١] وعندما تم تأسيس القسم العربي من هذا المعهد سنة ١٩٤٠ برعاية المستشرقين المشهورين « ريجيس بلاشير Regis Blachère»[٢] ـ صاحب الدراسات حول القرآن ـ و « جان سوفاجي Jean Sauvaget »[٣] ، الباحث في مجال التاريخ الإسلامي ، عهد بإدارته إلى جورج فايدا حيث بقي فايدا رئيسًا لهذا القسم منذ تأسيسه حتى توفي فيه يوم ١١ أكتوبر ١٩٨١ وهو مشغول بدراسة ابن حزم الأندلسي .

وخلال عمله بهذا القسم ، وبالإضافة إلى أبحاثه المتعلقة بالمخطوطات العربية ، وضع جورج فايدا اللبنات الأولى لـــمشروع مهم وطموح يحمل اسم « **أعلام العرب** »

(١) ويشتمل هذا المركز الكبير عدة أقسام مستقلة فيما بينها يبلغ عددها أكثر من خمسة عشر قسمًا . ومن بين هذه الأقسام القسم العربي واليهودي والروماني اللاتيني وقسم خاص بعلم المخطوطات Codicologie وقسم خاص بالكتابات القديمة الباليوغرافيا Paélographie..

(٢)ولد في باريس سنة ١٩٥٥م وتلقى التعليم الثانوي بالمغرب ، حصل على الإجازة في اللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر . تولى العديد من المناصب العلمية منها أستاذ اللغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط ، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤ -١٩٣٥) ، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس ، وأستاذًا محاضرًا في السوربون ثم مديرًا لمدرسة الدراسات العليا والعلمية ، ثم أستاذ اللغة العربية وحضارتها في باريس. وتوفى سنة ١٩٧٣م . من أبرز إنتاجه ترجمته لمعاني القرآن الكريم وكذلك كتابه (تاريخ الأدب العربي) ، وله أيضًا كتاب (أبو الطيب المتنبي : دراسة في التاريخ الأدبي) . موسوعة المستشرقين . ص ١٢٧.

(٣) مستشرق فرنسي (١٩٠١ -١٩٥٠) ، عني بالآثار والتاريخ. عمل مديرًا للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بالسوربون ، وأستاذًا بالكوليج دو فرنس . موسوعة المستشرقين . ص ٣٥٦ .

Onomasticon Arabicum ويهدف هذا المشروع إلى إنشاء بنك للمعلومات خاص بأعلام الحضارة الإسلامية من القرن الأول إلى القرن العاشر ، هذا المشروع الذي سهرت عليه تلميذته وخليفته من بعد السيدة جاكلين سوبله Jacqueline Sublet[١] يضم الآن أكثر من ستين ألف عَلَم من أعلام الحضارة الإسلامية [٢].

وبجوار هذه الأنشطة والمهام المتعددة ، كان فايدا حتى وفاته مسئولًا عن القسم العربي والعبري للمخطوطات بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس . ويُعد بالنسبة لكثير من الباحثين اليهود الفرنسيين أستاذ الدراسات اليهودية بفرنسا خلال القرن العشرين بلا منازع [٣].

مؤلَّفاته :

يعتبر جورج فايدا من أغزر المستشرقين والباحثين الفرنسيين إنتاجًا ، فأعماله وأبحاثه المختلفة – ما بين كتاب ومقالة طويلة أو قصيرة أو عرض نقدي لكتاب ما – تناهز الألف .[٤] فقد كان فايدا مغرمًا بالكتب والمخطوطات ، وكانت الخزائن (خاصة قسم المخطوطات الشرقية بالمكتبة الوطنية الفرنسية) هي كهف اعتكافه . وعلى هذا الأساس

(١) عالمة متخصصة في الاسم العربي . ولقد أصبح هذا القسم من أهم المراكز التي يفد إليها الباحثون المتخصصون في التاريخ والحضارة الإسلامية من شتى بقاع العالم ، لما احتواه المركز من مكتبة متخصصة في كتب التاريخ والتراجم والطبقات ، إضافة إلى مكتبة ميكروفيلمية Filmothèque جمعت صورًا ميكروفيلمية لحوالي ٢٠٠٠ مخطوط عربي ، أكثرها في التاريخ ومعاجم الشيوخ والأنساب والطبقات.

(٢) انظر مقالتنا : ورقة تعريفية بمجموعة البحث الدولية « أعلام العرب » ، في ندوة « صناعة الفهرسة والتكشيف » . ص ص ١٩١ – ١٩٧ . (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية) ، ٢٠٠٢.

(٣) أهدى فايدا مكتبته الغنية إلى الرابطة الإسرائيلية بباريس.

(٤) أحصى بول ب.فونتون في كتابه حول مؤلفات جورج فايدا حوالي ١٦٥٦ عملًا ، أكثرها قراءة ومراجعة للكتب المنشورة.

يمكن اعتباره من أواخر الوجوه الاستشراقية الموسوعية التي ألمت بمجالات متعددة من الحضارة الإسلامية ، ساعده في ذلك تكوينه النقدي - التاريخي الذي أرست المدرسة الألمانية الفيلولوجية دعائمه ومناهجه .

تتوزع أعمال وأبحاثه بين مجالين : أبحاث في مجال الدراسات اليهودية ، وأبحاث في مجال الدراسات الإسلامية ، خلال الفترة الزمنية التي يطلق عليها في الفكر الغربي « القرون الوسطى » . (١)

وجُلُّ ما صنفه فايدا كتبه باللغة الفرنسية ، إضافة إلى بعض المقالات باللغة الهنغارية والإنجليزية والألمانية والعبرية . أما مجالات بحثه فقد كانت متنوعة ، توزعت بين تاريخ الأفكار والفلسفة والعقائد والتصوف واللغة - محاولًا في كثير من الأحيان الانطلاق من النصوص المخطوطة التي لم تنشر بعد أو لم تكن معروفة من قبل - معبرًا من جهة عن اهتماماته المتعددة ، ومن جهة أخرى عن موسوعيته التي يعترف بها كل من عاشره والتقى به .

وقد نبغ فايدا في مجال الدراسات العربية والإسلامية ، ويعتبر — في نظرنا - رائدًا بفرنسا في مجالين هما :

- طرق نقل المعرفة Transmission du savoir في الحضارة الإسلامية .

- التراث العربي المخطوط .

ففي المجال الأول يعتبر فايدا من أوائل من تنبهّوا إلى أهمية هذا المجال لدراسة الحضارة الإسلامية القائمة على الكتاب وعلى المعرفة . وله دراسات حول شهادات

(١) « القرون الوسطى » أو القرون المظلمة (Moyen âge) ، هو مصطلح غربي نقل حرفيًا إلى العربية ، وهي تسمية غربية للفترة المظلمة التي عاشتها أوروبا بين الحضارة الرومانية القديمة والنهضة الصناعية الحديثة . وهي الفترة التي كانت فيها أوروبا غارقة في ظلام الجهل والاستبداد الإقطاعي وسيطرة الكنيسة ، بينما كانت الحضارة الإسلامية تعيش أوج عصرها.

السماع والقراءة في المخطوطات العربية ، وفي هذا السياق نشر عددًا من معاجم الشيوخ كأعمال رائدة في مجال لم يكن معروفًا وقتها ، حيث كان من الأوائل الذين تنبهوا إلى القيمة المعرفية والعلمية لهذه الجوانب الثقافية والفكرية من الحضارة الإسلامية .

أما في مجال المخطوطات ، فلا يمكن الحديث عن المخطوطات العربية بفرنسا عامة ، وبالمكتبة الوطنية بباريس خاصة ، دون ذكر اسم فايدا الذي خدم هذا المجال بفهارسه الدقيقة ومقالاته وأبحاثه ، حيث كان يرى أنه لا يمكن دراسة أي جانب من جوانب المعرفة إلا بعد التأكد من صحة النصوص ونشرها نشرًا علميًا .

كما يمكن اعتباره أحد الرواد الفرنسيين في مجال المخطوطات العربية ، حيث شكّلت أبحاثه في هذا المجال الإرهاصات الأولى التي سيعتمد عليها الباحثون الفرنسيون في تأسيس ما يطلق عليه « **علم المخطوطات العربية** Codicologie des manuscrits arabes » . ولعل عمله المبكر « مصور الخط العربي »(١) الصادر سنة ١٩٥٨ خير دليل على ريادته ، إذ أنه تنبه مبكرًا إلى أن دراسة نشأة الخط العربي وتطوره لا يمكن أن تتم إلا من خلال المخطوطات ، وليس عن طريق روايات كتب التاريخ والأدب فقط ، كما هو الحال في كثير من الدراسات في عالمنا العربي .

كما أن أعماله وأبحاثه ساهمت بقسط وافر في تنشيط مجال الدراسات المقارنة الإسلامية — اليهودية بفرنسا ، بحكم معرفته بالثقافتين .

وأما اهتماماته العلمية في مجال الدراسات العبرية فيمكن حصرها في ثلاثة مجالات :

١ـ علم الكلام ، حيث كتب حوالي خمسين مقالة حول موضوع علم الكلام اليهودي والإسلامي . وأظن أن علم الكلام الإسلامي هو الذي وجهه لدراسة بعض القضايا المماثلة عند اليهود (رؤية الله تعالى ، الإرادة ...) وهذا التأثير صرح به فايدا خلال

(1) G.Vajda, Album de Paléographie Arabe Andrien .- Paris: Maisonneuve,1958.

دراسته لتصوف يحيى بن باقودا ، حيث بيَّن بما لا يدع مجالًا للشك التأثير الواضح للتصوف الإسلامي على يحيى بن باقودا .

٢ـ القراء ، حيث يعتبر فايدا أحد الرواد في هذا المجال بفرنسا ، وتعتبر دراساته حول يوسف البصير والقيرقساني أبحاثًا رائدة في هذا الموضوع .

٣ـ القبالة ، حيث يرجع إليه الفضل في استرداد القبالة مكانتها في التراث اليهودي في وقت كان جُلُّ الباحثين اليهود بفرنسا قد افتتنوا بالمناهج الحديثة في دراساتهم للتراث اليهودي .(١)

وأخيرًا ، فإن التراث الذي تركه فايدا ليس سوى ثمرة لهمَّة فردية عالية ، وجهد متواصل ، وتفانٍ مطلق ، وحياة خصصها للعلم وحده ، ومن جهة أخرى لظروف موضوعية ، حيث عاش فايدا في محيط يعتبر العلم والمعرفة شرطًا أساسيًّا للوجود الحضاري والسيطرة ، فأسس لهذه الغاية مؤسسات ومعاهد وجامعات ، يشرف عليها فقهاء ، وتنجب فقهاء ، وهؤلاء الفقهاء هم الذي يرسمون السياسات لأصحاب السياسة والقرار .

المصادر والمراجع :

- عبد الرحمن بدوي . موسوعة المستشرقين .- ط٢ .- بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٩ .

. - Paul B . Fenton : Bibliographie de l'oeuvre de Georges Vajda ; Peeters ; Louvain Paris, 1991

- J . SUBLET : Bibliographie de Georges Vajda (1908 -1981), Arabica, Tome xxix ; Fasc3, pp316 -329 .

-Encyclopédia Hébraica .

(١) كتاب فونتون . ص٢١.

هِمَّةُ العُلَمَاءِ وسنوات الثِّمار

رحلة مع ابن الجوزي

أ. أشرف عبد المقصود*

العُلماء كالأشجار عندما تنضج تَجُود بالثِّمار ، وتشتعل فيها الألوان .. ومن يتأمَّلُ هِمَّتهم في مرحلة « سنوات الثِّمار »(١) أو ما بعد السِّتين يَجِدُها أضعافَ وَقْتِ الشَّبابِ ، فهيَ لا تَقِفُ عندَ سِنٍّ مُعَيَّنَةٍ ، وإنَّما تُشْرِقُ في كلِّ مرحلةٍ منْ مَراحلِ العُمْرِ .

فهم أعلم النَّاس بمَقَادير الزَّمان ومَواسم العُمْر ، فالأعمارُ مَوَاسمُ للرِّبْحِ والخَسَارَةِ ، يَرْبَحُ فيها المُمْتَثِلُ المُجِدّ ، ويَخْسَرُ فيها المُضَيِّعُ ، فهيَ موضوعةٌ لبلوغِ الأَمَلِ ، ورَفْعِ الخَلَلِ ، فبهذا العُمْرِ اليسيرِ يُشْتَرَى الخلودُ الدائمُ في الجِنانِ ، والبقاءُ الذي لا ينقطعُ كبقاءِ الرَّحمنِ ، ومَنْ فرَّطَ في العُمْرِ وقعَ في الخُسْران(٢) .

وإذَا كانتْ هذه المواسمُ محطاتٍ يستفيدُ منها العَالِمُ بما يتلاءمُ مع طبيعةِ كلٍّ منها ؛ فإنَّ « سنوات الثمار » - معَ مَا يَعتريها من عَوائقَ وعَوَارضَ - تُعَدُّ أهمَّ مرحلةٍ فيها ، حيثُ القُرْبُ منَ الله ، ومُراجعةُ النَّفْسِ ، والاستدراكُ والتنقيحُ لما فاتَ .

ولدينا نَماذجَ رائعةٍ لا تحصى لعلماءَ أجلاَّء تَخَطَّوا سِنَّ السِّتينَ أو السَّبعينَ أو الثمانينَ أو التِّسعينَ أو المائةِ ، ولم تُقْعِدْهُمُ العَوَارضُ والقَوَاطعُ عنْ مَواصلةِ السَّيْرِ في نَشْرِ العِلْمِ ونفعِ النَّاسِ ، واغتنام اللحظات وحفظ الأوقات .

* باحث ماجستير بقسم البحوث والدراسات التراثية ـ معهد البحوث والدّراسات العربية – القاهرة .

(١) على حدِّ تعبير أستاذنا الدكتور كمال عرفات نبهان حفظه الله .

(٢) « تنبيه النائم الغَمْر على مواسم العُمْر » ص (٣٥) .

وهذه وَقفاتٌ مع عالمٍ نِحْريرٍ ، مُنقطِعِ النَّظيرِ ، عَالمٍ يعرفُ قَدْرَ العُمْرِ جيِّدًا[١] ، هو الحافظ ابن الجوزي - رحمه اللهُ - ، مَفْخَرةِ العِرَاقِ[٢] ، ووَاعِظِ الآفَاقِ[٣] ، وحَامِلِ لِوَاءِ الوَعْظِ والقَيِّمِ بفنونِهِ[٤] ؛ لنعيش مع دُرَرٍ من كلماته الرَّقراقة ، وأحواله الإيمانية ، ونستخلص من خلالها الدُّروس والعبَر .

الوقفة الأولَى : الهِمَّةُ المُعَذِّبةُ المُهَذِّبةُ :

إذَا كانتِ « الهِمَّةُ العَالِيةُ لا تكونُ إلَّا فِي نَفْسٍ نَفِيسةٍ »[٥] فأَحَقُّ النَّاسِ بِها وأهلُها هُمُ العلماءُ الصَّادقونَ ، أصحابُ القلوبِ الصَّافِيَةِ ، والبَصائرِ النَّيِّرَةِ ، والهِمَمِ العَالِيَةِ . عَالِمٍ عذَّبَتْه هِمَّتُه ، إنَّها هِمَّةٌ يُحَرِّكُهَا هَمٌّ كبيرٌ ، وقلقٌ عظيمٌ ، هِمَّةُ نَفْسٍ تَعُدُّ الأَنْفَاسَ ، فلا يَضِيعُ منها نَفَسٌ وَاحدٌ فِي غيرِ طاعةٍ ، هِمَّةٌ يُضْرَبُ بِها المَثَلُ فِي الكَدِّ والمثابرةِ ، واغتنامِ الأوقاتِ ، والمحافظةِ علىٰ اللحظات :

يقولُ ابنُ الجَوْزِيِّ - رحمه الله - : « مَا ابْتُلِيَ الإنسانُ قَطُّ بأعظمَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، فإنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُه يَخْتَارُ المعالِي ، وربَّما لا يُسَاعِدُه الزمانُ ، وقدْ تَضْعُفُ الآلةُ ، فيبقَىٰ فِي عذابٍ ، وإنِّي أُعْطِيتُ مِن عُلُوِّ الهِمَّةِ طَرَفًا ، فَأَنَا به فِي عَذابٍ ! »[٦] .

(١) فقد صنَّف فيه كتبًا منوعة منها : « أَعْمار الأعيان » ، و « حِفظ العُمْر » ، « تنبيهُ النائمِ الغَمْرِ علىٰ مَواسم العُمْرِ » ، وأمَّا كلامُه الكثيرُ عن الهمَّة فمنثورٌ في معظم مصنفاته ، ويمكن أن يُفْرَدَ في مؤلَّف .

(٢) وَصَفَه بذلك الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٣ ، ٤١٥) .

(٣) وَصَفَهُ بذلك العلامة الدَّاودي ، « طبقات المُفَسِّرين » (١ / ٢٧٦) .

(٤) قاله الذهبي في « السِّيَر » (٢١ / ٣٦٧) .
وقال عنه أيضا : « وما أظنُّ الزمانَ يَسْمَحُ بمثله » اهـ

(٥) قاله ابنُ القيم في « بدائع الفوائد » (٣ / ٧٥٠) .

(٦) « صيد الخاطر » ص (٢٥٠) ، ط١ دار القلم بيروت ٢٠٠٨م.

ويقول : « ومَنْ رُزِقَ هِمَّةً عَالِيةً ؛ يُعَذَّبُ بِمقدارِ عُلُوِّها كما قال الشاعرُ :

وَإِذَا كانتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ »[١] .

ويقولُ : « خُلِقَتْ لِي هِمَّةٌ تطلبُ الغَاياتِ ، بَلَغْتُ السِّتينَ ومَا بَلَغْتُ ما أمَّلْتُ ، أَخَذْتُ أسألُ اللهَ تَطْويلَ العُمْرِ وتقويةَ البَدَنِ وبُلُوغَ الآمالِ ، فأنكَرَتْ عَلَيَّ العاداتُ ، وقالتْ : مَا جَرَتِ العَادَةُ بِها تَطْلُبُ . فَقُلْتُ : إنَّما أطلبُ مِنْ قادِرٍ علىٰ تَجَاوُزِ العَاداتِ ! »[٢] .

ثمَّ أَخَذَ يَصِفُ هذه الهِمَّةَ المُعَذِّبَةَ المُقْلِقَةَ ، قائلاً : « غيرَ أَنِّي استسلمتُ لتعذِيبِي ، ولعلَّ تَهْذِيبِي فِي تعذيبِي ؛ لأنَّ عُلُوَّ الهِمَّةِ إنَّما هو لِطَلَبِ المعالِي المُقَرِّبَةِ إلَى الحقِّ - عَزَّ وجَلَّ - وربَّما كانتِ الحَيْرَةُ فِي الطَّلَبِ دليلاً إلَى المقصودِ ، وها أنا أحفظُ أَنْفَاسِي مِنْ أنْ يَضِيعَ منها نَفَسٌ فِي غيرِ فائدةٍ ، فإذا بَلَغَ هَمِّي مُرَادَهُ وإلاَّ فَنِيَّةُ المؤمنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ »[٣] .

الوقفة الثانية : طُولُ العُمْرِ مَعَ حُسْنِ العَمَلِ هو النِّعمةُ الكبرَىٰ :

يا لَهَا مِنْ نعمةٍ عظيمةٍ أنْ يَمْتَدَّ العُمْرُ فِي طاعةِ الله ! وما أحسن قول مالك بن دينار : « اتَّخذ طاعة الله تجارة ، تأتك الأرباح من غير بضاعة »[٤] .

وابن الجوزيِّ - رحمه اللهُ - حين يسأل الله أنْ يُطِيلَ عُمْرَهُ ، فهو يعلم جيِّدًا شرف العُمْر وقيمته ، وقدْ سُئِلَ النبيُّ ﷺ : أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قال : « مَن طالَ عُمْرُهُ وحَسُنَ عَمَلُه » . قيل : فأيُّ الناسِ شَرٌّ ؟ قالَ : « مَنْ طالَ عُمْرُهُ وسَاءَ عَمَلُه »[٥] .

(١) المصدر السابق ص (٤٦٩) والبيت للمتنبي ، ديوانه ص (٢٤٩) .

(٢) المصدر السابق ص (٢٦٣) ..

(٣) المصدر السابق ص (٢٧٦) .

(٤) « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » لابن حبان ، ص (١٣) .

(٥) رواه أحمد (٥/ ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٩) والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.وقال الترمذي « حسنٌ صحيحٌ » .

والناظرُ لسيرةِ ابنِ الجوزيِّ يَرَىٰ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - مَدَّ له في العمرِ مع الطاعةِ ، فعَاشَ ما يُقَارِبُ التسعينَ عامًا مُنَعَّمًا فيها بطاعةِ الله - تعالَىٰ - ، يُحاسِبُ نفسَه فيها علىٰ اللحَظَاتِ ، مُغتنمًا جميعَ الأوقاتِ مَهْمَا اعْتَرَاهُ فيها مِنَ المِحَنِ والآفاتِ(١) .

وهو القائلُ(٢) :

اللهَ أسألُ أنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي ... لأنالَ بالإنعام ما فِي نِيَّتِي

لِي هِمَّةٌ فِي العِلْمِ ما إنْ مِثْلُهَا ... وهِيَ التِي جَنَتِ النُّحُولَ هِيَ التِي

خُلِقَتْ مِنَ القَلَقِ العَظِيمِ إلَىٰ الـمُنَىٰ ... دُعِيَتْ إلَىٰ نَيْلِ الكَمَالِ فَلَبَّتِ

ومن العلماءِ مَنْ جاوَزَ المائةَ ، وهو مُسَدَّدٌ ومُوَفَّقٌ ، مثلُ الحافظِ أبي طاهرٍ السِّلَفِيِّ الذي لم يَزَلْ يُقْرَأُ عليهِ الحديثُ حتَّىٰ آخرِ يومٍ مِنْ حياتِه وهو يُصحِّح ، وفي هذه السِّنِّ الكبيرةِ ، يَرُدُّ علىٰ القارئِ اللحنَ الخفيَّ ، وهو في هذه السنِّ المتقدمةِ ، حاضرَ الذهن ، قويّ الحافظة ، وفي فجر يوم الجمعة التالي ، بعد أن صَلّىٰ صلاة الصبح تُوفِّي رَحِمَهُ الله(٣) .

الوقفة الثالثة : مَنْ أَحْسَنَ فِي صِغَرِه كُوفِئَ فِي كِبَرِه :

ذُو الهمَّةِ لا يخفَىٰ من زَمَانِ الصِّبَا(٤) ، وحَصَادُ الثَّمَرَةِ مبنيٌّ علىٰ ما قُدِّمَ فِي الصِّغَرِ وَوَقْتِ الشَّبابِ . ومِصْداقُ ذلكَ قولُ الله - تعالَىٰ - فِي قصَّةِ يُوسُفَ - عليه السَّلامُ - : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

وفِي قصَّةِ مُوسَىٰ - عليه السَّلامُ - : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ

(١) عاش ابنُ الجوزي سبعة وثمانين عامًا تقريبًا ، فقد ولد في سنة ٥١٠ هـ تقريبا ،وتوفي في سنة ٥٩٧ هـ .

(٢) « سِيَر أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٧٨) ، و « الذيل علىٰ طبقات الحنابلة » (٢ / ٥٠٧) .

(٣) حيث تُوفِّي رحمه الله سنة ٥٧٦هـ ، وله ١٠٦ سنة . « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٩) .

(٤) « صيد الخاطر » (١٨٣) .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] .

كانَ بعضُ العلماءِ قدْ جاوَزَ المائةَ سَنَةٍ وهو مُمَتَّعٌ بقُوَّتِه وعَقْلِه ، فَوَثَبَ يومًا وَثْبَةً شديدةً ، فَعُوتِبَ فِي ذلكَ فقالَ : « هَذِه جَوَارِحُ حَفِظْنَاهَا فِي الصِّغَرِ فَحَفِظَهَا اللهُ علينا فِي الكِبَرِ »(١) .

وابنِ الجوزيِّ رجلٌ من طراز رفيع يعرف مقادير الزَّمان ، ويغتنم مَواسِم العُمْر ، فهي عنده أَنْفس من الدُّر .

ففي سِنِّ السَّادِسَةِ يتحدَّثُ عنْ نفسِه فيقولُ : « أَذْكُرُ نَفْسِي ولِي هِمَّةٌ عاليَةٌ ، وأنا فِي المكْتَبِ ابنُ سِتِّ سنينَ ، وأنا قرينُ الصِّبيانِ الكِبارِ ، قدْ رُزِقْتُ عقلاً وافرًا يزيدُ علىٰ عقلِ الشُّيُوخِ .. حتَّىٰ إنِّي كنتُ ولِي سَبْعُ سَنِينَ أو نحوُها أَحْضُرُ رَحْبَةَ الجامعِ فلا أَتَخَيَّرُ حَلْقَةَ مُشْعْبِذٍ ، بلْ أطلُبُ المحدِّثَ ، فيتحدَّثُ بالسِّيَرِ فأحفظُ جميعَ ما أسمعُه وأذهبُ إلَىٰ البيتِ فأَكْتُبُه » اهـ(٢) .

ويَصِفُ مسموعاتِه حينئذٍ فيقولُ : « حَمَلَنِي شيخُنا ابنُ ناصرٍ إلَىٰ الأشياخِ فِي الصِّغَرِ ، وأَسْمَعَنِي العَوَالِي ، وأَثْبَتَ سَمَاعاتِي كُلَّها بِخَطِّه ، وأخذَ لِي إجازاتٍ منهم ، فلمَّا فَهِمْتُ الطَّلَبَ كنتُ أُلازِمُ منَ الشُّيُوخِ أَعْلَمَهُمْ ، وأُوثِرُ مِنْ أربابِ النَّقْلِ أَفْهَمَهُمْ ، فكانَتْ هِمَّتِي تجويدَ العُدَد ، لا تكثيرَ العَدَد »(٣) .

وإذَا ذَهَبْنَا إلَىٰ سِنِّ الشَّبابِ نراه يتأسَّفُ علىٰ مَنْ يُضَيِّعُه ويُفَرِّطُ فيه ، فيقولُ : «كان خَلْقٌ كثيرٌ من الأشياخِ يتأسَّفُونَ فِي حالةِ الكِبَرِ علىٰ تضييعِ مَوْسِمِ الشَّبابِ ، ويبكونَ علىٰ التفريطِ فيه ، فَلْيُطِلِ القيامَ مَنْ سيقعدُ ، ولْيُكْثِرِ الصِّيامَ مَنْ سيعجزُ .. فلينظُرِ الشَّابُّ فِي

(١) « جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ص (١٤٤) .

(٢) « لفتة الكبد إلىٰ نصيحة الولد » لابن الجوزي ص (٥٢) .

(٣) « مشيخة ابن الجوزي » ص (٥٩) .

أيِّ مقامٍ هو ، فليسَ لمقامِه مِثْلٌ ! »[١] .

ويقولُ أيضًا : « مَنْ أنفقَ عَصْرَ الشبابِ في العلمِ ، فإنَّه في زَمَنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنْيَ مَا غَرس ، ويَلْتَذُّ بتصانيفِ ما جَمَعَ ، ولا يَرَىٰ ما يَفْقِدُ مِنْ لَذَّاتِ البَدَنِ شيئًا ، بالإضافةِ إلَىٰ ما يناله مِنْ لَذَّاتِ العِلْمِ ، هذا مَعَ وجُودِ لَذَّتِه في الطَّلَبِ الذي كان تأمَّلَ به إدراكَ المطلوب ، وربَّما كانتْ تلكَ الأعمالُ أَطْيبَ مِمَّا نِيلَ منها »[٢] .

وفي سِنِّ الستين : رأيناه مُعَذَّبًا بِهِمَّتِه التي تَرُومُ نِهايةَ العملِ بالعلمِ ، فجَعَلَتْهُ يَحْفَظُ أنفاسَه مِنْ أنْ يَضِيعَ منها نَفَسٌ في غيرِ فائدةٍ .

وفي سِنِّ الثمانين : رأيناه صابرًا محتسِبًا ، طالبًا للعلمِ مع وَلَدِه يوسف ، بعدَ المحنةِ التي تعرَّضَ لَهَا ، مِمَّا يؤكِّدُ علىٰ حفظِ اللهِ وتوفيقِه له ، ومُبَارَكته لِعِلْمِه طِيلةَ عُمْرِه كُلِّه[٣] .

فقدْ بارَكَ اللهُ في مَجالِسِه الوعظيةِ ، التي يَصِفُها الحافظُ ابنُ رجبٍ بقوله : « لم يكنْ لها نَظِيرٌ ، ولم يُسْمَعْ بِمثلِها ، وكانتْ عظيمةَ النَّفْعِ ، يتذكَّر بِها الغافلونَ ، ويتعلَّمُ منها الجاهلونَ ، ويَتُوبُ فيها المذنبونَ ويُسْلِمُ فيها المشركون »[٤] .

وبارَكَ اللهُ في تَصانِيفِه حتَّىٰ قالَ عنها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ - رحمه الله - : « عَدَدْتُها فرأيتُها أكثرَ مِنْ ألفِ مُصَنَّفٍ ، ورأيتُ بعدَ ذلكَ ما لم أَرَهُ »[٥] .

(١) « تنبيه النائم الغمر علىٰ مواسم العمر » لابن الجوزي ص (٥٢) .

(٢) « صيد الخاطر » ص (٢٥٠) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٧٧) ، وفي سِنِّ الخامسَةِ والسَّبعينَ صنف كتابَه « أعمارَ الأعيانِ » كما أفاده محققه د . محمود الطناحي - رحمه الله - مقدمة التحقيق ص (١٩) .

(٤) « الذيل علىٰ طبقات الحنابلة » لابن رجب (٢ / ٤٨٠) .

(٥) « المصدر السابق » (٢ / ٤٨٩) .

وقال الذهبيُّ - رحمه الله - : « وما عَلِمْتُ أحَدًا من العُلماء صَنَّفَ ما صَنَّفَ هذا الرَّجُلُ »[١] .

الوقفة الرابعة : عُلُوُّ الهِمَّةِ في مواجهةِ الصِّعَابِ والعَوَائق :

تزدادُ القواطعُ والعوائقُ والمثبِّطاتُ ومُنَغِّصَاتُ الحياةِ كلَّما تقدَّمَ العُمْرُ ، فـ « الهِمَّةُ إذا عَلَتْ وارتفعتْ لم تَلْحَقْها القَوَاطعُ والآفاتُ ... وإنَّما تَلْحَقُ الآفاتُ والدَّواعي والإراداتُ الهمَّةَ الفاشلةَ ، فأمَّا إذا عَلَتْ فلا تَلْحَقُها الآفاتُ » كما يقول ابن القيم[٢] .

لم تَصْفُ الحياةُ لابنِ الجوزيِّ وهو في آخرِ عمرِه ، فقدِ ابْتُلِيَ بمحنتينِ عظيمتينِ لم يُوهِنَا مِنْ عَزْمِه ، ولم يَخْفِضَا مِنْ هِمَّتِه :

الأولىٰ : الوِشَايَةُ بِهِ للخليفةِ مِمَّا عَرَّضَهُ للحَبْس .

يقولُ الذهبيُّ : « وقدْ نالتْهُ محنةٌ في أواخرِ عمرِه ، ووَشَوْا به إلَىٰ الخليفةِ الناصِرِ ، فجاءَ مَنْ شَتَمَهُ ، وَأَخَذَهُ قَبْضًا باليدِ ، وخَتَمَ علىٰ دارِهِ ، وشَتَّتَ عِيَالَهُ ، ثم أُقْعِدَ في سفينةٍ إلَىٰ مدينةِ واسِطٍ ، فَحُبِسَ بِها في بيتٍ حَرِجٍ ، وبقيَ هو يَغْسِلُ ثَوْبَه ، ويطبُخُ الشيءَ ، فبقيَ علىٰ ذلكَ خمسَ سنينَ ما دَخَلَ حَمَّامًا »[٣] .

ولم تَمْنَعْهُ هذه المحنةُ مِنْ طَلَبِ العلمِ ، ولم تَخْفِضْ مِنْ هِمَّتِه بلْ رأيناه يُشَارِكُ وَلَدَهُ - الناشئَ في طاعةِ اللهِ - يُوسُفَ مُحْيِي الدِّينِ في طلبِ العلمِ .

يقول الذهبيُّ : « وما رُدَّ مِنْ واسِطٍ حتَّىٰ قرأَ هو وابنُه بتلقينِهِ بالعَشْرِ علىٰ ابْنِ الباقلانيِّ ،

(١) « تذكرة الحفاظ » ص (١٣٤٤) و « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٦٥ ، ٣٦٧) .

(٢) « طريق الهجرتين » لابن القيم (١ / ٣٥٢) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٧٦ ، ٣٧٧) . وكانت هذه المحنةُ من سنة ٥٩٠ إلىٰ سنة ٥٩٥ ، ، ولم يَعش بعدها سوىٰ عامين . راجع : مقدمة الطناحي لتحقيق «أعمار الأعيان » ص (٣٥) .

وسِنُّ الشيخ نحوُ الثَّمانِينَ ، فانظرْ إلَى هذه الهِمَّةِ العاليةِ »[١] .

الثانية : عُقُوقُ وَلَدِهِ أبي القاسِمِ عَلِيٍّ . وهو الذي أخذَ مُصَنَّفَاتِ وَالِدِه ، وبَاعَهَا بَيْعَ العَبيدِ ولمنْ يَزيدُ ، ولما أُحْضِرَ والِدُه إلَى واسِطٍ ، تَحَيَّلَ علىٰ الكُتُبِ بالليلِ ، وأَخَذَ منها ما أرادَ ، وبَاعَها بثمَنِ المِدَادِ ، وكان أبُوه قدْ هَجَرَهُ منذُ سنينَ ، فلَمَّا امْتُحِنَ صَارَ حَرْبًا عليهِ[٢] .

لم يَضْعُفْ ابنُ الجوزيِّ أمام هذا البلاءِ والعُقُوقِ ، بلْ وجَدْنَاه صابرًا محتسِبًا تُرَافِقُهُ هِمَّتُهُ لطلبِ العلمِ ، فَيُشارِكُ ولَدَه الصغيرَ يُوسُفَ الذي صارَ فيما بَعْدُ أستاذًا لدارِ الخلافةِ .

الوقفة الخامسة : قدْ يَفْتَحُ اللهُ في سنوات الثمار ما لا يَفْتَحُ فيما سَبَق :

إذا كان العلم فَتْحًا من الله[٣] ؛ فإن فَتْح الله علىٰ العُلماءِ كبيرٌ ، وهو يتنوَّع ، وَلَيس لَهُ حُدُود ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فمنه : أن يهيِّئ لهم من الأَعْمَال الصالحة ما يُطَيِّب ذِكْرهم ، وَوَفَّقَهُم لها في آخِر أعمارهم ، لتكون مِسْك الختام ، وقدْ قالَ النبيُّ ﷺ : « إذَا أَرَادَ اللهُ بعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ ، قيل : ومَا عَسَلَهُ ؟ قال : « يَفْتَحُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قبل مَوْتِه ، ثمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ »[٤] .

(١) المصدر السابق (٢١ / ٣٧٦ ، ٣٧٧) .

(٢) السَّابق (٢١ / ٣٨٤) ، وهو الذي نَصَحَهُ والده برسالة « لفتة الكبد إلى نصيحة الوَلد » طُبِعَت بتحقيقنا .

(٣) وعناوين تصانيف العلماء تؤكد ذلك ، فمنها : « فتح الباري » « فتح المجيد » ، « فتح المبدي » « الفتح الرباني » « فواتح الرحموت » إلخ .

(٤) رواه أحمد (٤ / ٢٠٠) من حديث أبي عنبة الخولاني وصححه الألباني في « الصحيحة » (١١١٤). والمعنىٰ : طيَّب ذكره وحَلَّاهُ في قُلوب النَّاس بالصَّالح من العمل ، من قولك : عَسَلْتُ الطعام ، أي جعلت فيه عَسَلًا . وفلان مَعْسُول الخُلق أي طَيِّبه .
« معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (٤ / ٣١٤) .

ولو ذهبنا نستعرض طرفًا من الفتوحات الرَّبانية في تلك المرحلة لطال الكلام ، ويكفي أن نذكر أن الصحابِي الجليل المجاهد عمرو بن العاصِ - رضيَ اللهُ عنه - أحد القادة الفاتحين في تاريخ أمتنا ، فقد فَتَحَ مِصْرَ والشَّامَ وقَدْ تَخَطَّىٰ سِنَّ السِّتين ، ويتعرض لأشد أنواع الخطر ، ويحبس في أرض العدو ، ولا يهن ولا يضعف ولا يستكين[١] .

ففي فتح الإسكندرية الأول بقي في الحصار تسعة أشهر ، دون أن يثني عزيمته أو يفل همته[٢] ، صابرًا علىٰ الجوع والعطش والحر والبرد واختلاف الأجواء وتغير البيئة في مواجهة أعتىٰ دول الأرض وأقواها .

فهو لم يعرف لحظة من لحظات حياته الراحة ، فقد مضىٰ إلىٰ عُمان ومن عُمان إلىٰ الشام ومن الشام إلىٰ فلسطين والأردن ومن فلسطين إلىٰ مصر يجوب الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ، ما ض في سبيل الله لتحقيق موعود الله .

فحقًّا من يَعْلَمُ شرف العُمْر وقيمته ، فمحال أن يُفَرِّط في لحظة منه حتىٰ يلقىٰ الله تعالىٰ ، وقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ : متَىٰ يَجِدُ العبدُ طَعْمَ الرَّاحَة ؟

فقال : « عندَ أوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الجنَّة »[٣] .

رحم الله ابن الجوزي الذي قال يوما في مناجاته : « إلَـٰهِي لا تُعذِّبْ لسانًا يُخبر عنك ، ولا عينًا تنظرُ إلىٰ علومٍ تدلُّ عليك ، ولا قدمًا تمشي إلىٰ خدمتكَ ، ولا يدًا تكتب حديث رسولك . فبعزتكَ لا تُدْخلني النار ؛ فقد علم أهلها أني كنت أذبُّ عن دينك »[٤].

* * *

(١) راجع : « عمرو بن العاص الأمير المجاهد » للدكتور منير محمد الغضبان ص (٣٥٩) .

(٢) وبعد فتح الإسكندرية عاد الروم بعد أربع سنوات فاحتلوها ، فأخرجهم منها ثانية عمرو بن العاص ، وهدم أسوارها ، وأنهىٰ الوجود الروماني منها إلى الأبد .

(٣) « المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد » لابن مفلح (٢ / ٣٩٨) .

(٣) « الذيل علىٰ طبقات الحنابلة » لابن رجب (٢ / ٤٩٩) .

أهم المصادر والمراجع

البستي ، أبو حاتم محمد بن حبان .

- « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » .- ط١ .- مطبعة كردستان العلمية : مصر ، ١٣٢٨هـ

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد .

- « أَعْمَارُ الأعيانِ » ، تحقيق محمود الطناحي .- ط١ .- مكتبة الخانجي : القاهرة ، ١٩٩٩م .

- « تنبيهُ النَّائم الغَمْر على مواسم العُمْر » ، تحقيق محمد ناصر العجمي.-ط١.- دارالبشائر الإسلامية : بيروت، ٢٠٠٤م

- « صَيْدُ الخاطر » ، بعناية حسن السماحي سويدان .- ط١ .- دار القلم : دمشق ١٤٢٥هـ .

- « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » .- ط١ .- مكتبة الإمام البخاري : الإسماعيلية ، ١٤١٢هـ .

- « مَشْيخة ابن الجوزي » ، تقديم وتحقيق محمد محفوظ .- ط١ .- تونس ، ١٩٧٧م .

- « حِفْظُ العُمْر » ، تحقيق محمد ناصر العجمي.-ط١.- دارالبشائر الإسلامية : بيروت، ٢٠٠٤م .

الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين .

- « سِيَر أعلام النبلاء » تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين .- ط١ .- مؤسسة الرسالة : بيروت ، ١٩٨٤ م .

- « تَذْكرة الحفاظ » ١-٤ مجلد .- دار إحياء التراث العربي : بيروت ، مصورة عن طبعة الهند .

ابن رجب الحنبلي ، عبد الرحمن .

- « جامع العلوم والحكم » ،.- ط١ .- دار المعرفة : بيروت ، ١٤٠٨هـ .

- « الذَّيل على طبقات الحنابلة » ١- ٥ مجلد ، بتحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ،.- ط١ .- مكتبة العبيكان : الرياض ، ٢٠٠٥ م .

الغضبان ، منير محمد .

- « عَمرو بن العاص الأمير المجاهد » .- ط١ .- جامعة أم القرى : مكة المكرمة ، ١٤٢٠هـ .

ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي .

- « بدائع الفوائد » .- ط١ .- مكتبة نزتر الباز : مكة المكرمة ، ١٩٩٦م .

- « طريق الهجرتين » .- ط١ .- دار ابن القيم : الدمام ، ١٩٩٤م .

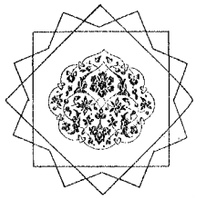

مقتطفات من كتاباته غير المنشورة

أهم المصادر والمراجع

البستي ، أبو حاتم محمد بن حبان .

- « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » .- ط١ .- مطبعة كردستان العلمية : مصر ، ١٣٢٨هـ

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد .

- « أَعْمَارُ الأعيانِ » ، تحقيق محمود الطناحي .- ط١ .- مكتبة الخانجي : القاهرة ، ١٩٩٩م .

- « تنبيهُ النَّائم الغَمْر على مواسم العُمْر » ، تحقيق محمد ناصر العجمي.-ط١.- دارالبشائر الإسلامية : بيروت، ٢٠٠٤م

- « صَيْدُ الخاطر » ، بعناية حسن السماحي سويدان .- ط١ .- دار القلم : دمشق ١٤٢٥هـ .

- « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » .- ط١ .- مكتبة الإمام البخاري : الإسماعيلية ، ١٤١٢هـ .

- « مَشْيخة ابن الجوزي » ، تقديم وتحقيق محمد محفوظ .- ط١ .- تونس ، ١٩٧٧م .

- « حِفْظُ العُمْر » ، تحقيق محمد ناصر العجمي.-ط١.- دارالبشائر الإسلامية : بيروت، ٢٠٠٤م .

الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين .

- « سِيَر أعلام النبلاء » تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين .- ط١ .- مؤسسة الرسالة : بيروت ، ١٩٨٤ م .

- « تَذْكرة الحفاظ » ١-٤ مجلد .- دار إحياء التراث العربي : بيروت ، مصورة عن طبعة الهند .

ابن رجب الحنبلي ، عبد الرحمن .

- « جامع العلوم والحكم » ،.- ط١ .- دار المعرفة : بيروت ، ١٤٠٨هـ .

- « الذَّيل على طبقات الحنابلة » ١- ٥ مجلد ، بتحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ،.- ط١ .- مكتبة العبيكان : الرياض ، ٢٠٠٥ م .

الغضبان ، منير محمد .

- « عَمرو بن العاص الأمير المجاهد » .- ط١ .- جامعة أم القرى : مكة المكرمة ، ١٤٢٠هـ .

ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي .

- « بدائع الفوائد » .- ط١ .- مكتبة نزتر الباز : مكة المكرمة ، ١٩٩٦م .

- « طريق الهجرتين » .- ط١ .- دار ابن القيم : الدمام ، ١٩٩٤م .

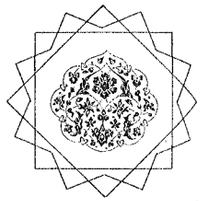

مقتطفات من
كتاباته غير المنشورة

الحلوجي وأدب الرحلة

مختارات من كتابه (مع الإنجليز في بلادهم)

إعداد محمود محمد ذكي*

هذه مختارات منتقاة من كتاب لم تتح الظروف ظهوره ، ومنحى أدبي لا يعرفه الكثيرون عن عبد الستار الحلوجي ، الذي وصفه أحد الفضلاء بأنَّه أديب ضلَّ طريقه إلى العلم ! وهو عملٌ فنيٌّ صبَّ فيه كاتبه خلاصة تجربته وانطباعاته خلال رحلته إلى إنجلترا في العقد السادس من القرن الماضي ، وهو دون الخامسة والعشرين ، في قالب أدبي رائق ، تصارع فيه الشكل والمضمون ، والروح الأدبية والمنهجية العلمية .

ولعلنا نستطيع القول بأن هذا العمل جاء وسطًا بين الكتابة العلمية والأدبية ، فقد امتزجت فيه روح كاتبه الأدبية - التي أنتجتها ثقافته وقراءته الأدبية منذ الصغر ثم التحاقه بقسم اللغة العربية بكلية الآداب- بروحه العلمية المنهجية المعهودة في كتاباته ومحاضراته ومناقشاته على سواء ، فتحصَّل عن ذلك الامتزاج عمل فني وعلمي جميل يحمل نكهة الحلوجي الأديب العالم .

في هذا الكتاب يحاول الكاتب أن يرسم صورة لحياة المجتمع الإنجليزي ، بناء على تجربته الشخصية في التعامل معه لمدة ثلاث سنوات قضاها كطالب مبعوث لدراسة التخصص الجديد (علم المكتبات) . وهي تجربة يصفها صاحبها - وهو العالم المُدقِّق أو الباحث النابه حينها ! - بأنها كانت تجربة غنية بالخبرات والانطباعات ، وبالخواطر والذكريات . وقد استطاع الكاتب من خلال اتصاله بالمجتمع أن يضع يده على الخطوط الرئيسة لخصاله وطريقة حياته ، مع اعترافه بأن رسم صورة كاملة التفاصيل والأبعاد ، شيءٌ ليس بالهين أو اليسير « فليس أشقّ من أن نَصُبَّ حياة شعب من الشعوب وأخلاقه

---

* باحث بقسم المخطوطات ـ دار الكتب المصرية .

وطباعه في مثل هذا العدد اليسير من الصفحات ، وليس أعسر من أن نَحْصرَ جوانبَ الحياة كلَّها في كلمات أو سطور ! » على حد تعبيره .

تناول الكاتب ملامح المجتمع الإنجليزي في فصول كتابه الثلاثة والعشرين ، بدأها بفصل وضع له عنوان : « صفات ثلاث » ، صدَّرها بمقولة قالها له صديق عند وصوله إلى بلاد الإنجليز : « أحب أن أقول لك يا صاحبي إن هذا الشعب يمتاز بصفات ثلاث ، هي : الأمانة والغباء وتقديس العمل » !

ثم فصَّل فيما بعده من فصول لما أجمله في كلامه عن النظام في حياتهم ، وعن البرود الإنجليزي ، ثم تعرَّض لجوّ ولغة وطعام الإنجليز ، وتكلم عن البيت والأسرة الإنجليزية ومشاكل السكن ، وعن الزواج ، والاقتصاد والتجارة الداخلية ، والمواصلات ، والخدمات الصحية .

وتناول المؤلف بعد ذلك التربية والتعليم في بلاد الإنجليز ، وأجهزة الثقافة والإعلام ، ثم فصَّل في مناحٍ اجتماعية أخذت عناوين : من أخلاقهم ، والخمر والرقص ، وفي أعياد الميلاد .

وبعد ذلك توسع في الكلام عن لندن ومدينة الملاهي بلاكبول ومانشستر (المدينة السوداء) ، ثم عرض في الفصل قبل الأخير (أنماط من البشر) لثلاث شخصيات تأثر بها ، وهو فصل يكشف عن جوانب من سيرة الكاتب وعلاقاته .

وأنهى كتابه بفصل - عن فكر وأخلاق الجيل الجديد ، وتملصه من العادات والتقاليد - وخاتمة وَازن فيها بين أهم الإيجابيات والسلبيات في المجتمع الإنجليزي ، وألمح فيها إلى الفرق الحضاري والأخلاقي بينه ومجتمعاتنا .

ورغم ما تُغيّره السنون في المجتمعات ، إلاَّ أن مزية الكتاب تظل قائمة تدعو إلى ظهوره ونشره ، وهي تكمن في عدة أمور منها : رؤية الكاتب الذاتية للمجتمع

الإنجليزي في فترة تاريخية ، وتلمُّسه لطباعه ، وتحليله لمفردات حياته ، وعقده للمقارنات بينه وبين مجتمعاتنا ، فضلًا عن قيمته الفنية كعمل أدبي ممتع يستحق القراءة ، ومصدر جيد للسيرة الذاتية للكاتب .

ونختم كلامنا بما بدأ به الكاتب مقدمة كتابه ، يقول : « **عرفت الشعب الإنجليزي فأحببته وأجللته ، وعرفته فكرهته واحتقرته ، ذهبت إليه وفي نفسي عنه الكثير من الحقائق والأوهام ، وعدتُ من عنده وقد صحَّت الحقائق واتضحت الأوهام** » .

في احتفالية عيد العلم – اليوبيل الفضي لجامعة القاهرة ١٩٥٨

* * *

البرود الإنجليزي

« وربما سَاعد الإنجليز علىٰ دقّتهم في حفظ النظام ومراعاته ما يتمتعون به من برود شديد في طباعهم وأخلاقهم ومعاملاتهم . وهو برود تلحظه وأنت تقف في الصباح علىٰ محطة الأتوبيس . فنحن معشر الشرقيين نقف في قلق ولهفة وتطلع للطريق في انتظار وصول سيارة الأتوبيس .

أما الشعب الإنجليزي فيقف هادئًا وادعًا . وكثيرًا ما تجدهم يقفون في الطابور ومنهم من يقرأ في صحيفة ومنهم من يقرأ في كتاب بكل هدوء واطمئنان . وربما تعجبت كيف يستطيع إنسان في موقف الانتظار أن يركز فكره وذهنه في كتاب أو في مقال صحفي .

والرَّد علىٰ هذا بسيط جدًّا : إنه برود الإنجليز .. برود الإنجليز الذي أتاح لفيلم South Pacific أن يستمر عرضه خمسة أعوام متصلة في مدينة واحدة هي لندن ، وفي دار واحدة للسينما هي Dominion .

قَارن هذا إن شئت بالسينما عندنا ، هل تطيق الجماهير استمرار عرض فيلم من الأفلام في إحدىٰ دور السينما لبضعة أسابيع فضلًا عن بضع سنين ؟ !

ألست معي في أن القوم هناك يتمتعون ببرود منقطع النظير ؟ !

ويجرنا الحديث عن برود الإنجليز إلىٰ الحديث عن فكاهتهم . وهي فكاهة عديمة الطعم إذا قيست بالفكاهة العذبة التي يشتهر بها شعبنا المصري . واسمع ما شئت من فكاهاتهم التي يجمعونها في كتيبات صغيرة مثل Keep Laughing للفكاهي Morey Amsterdam . واسأل نفسك بعد هذا كله كم مرّة ضحكت من أعماقك ؟

إنني أؤكد لك أنك لو قرأت كتابًا من كتب النكتة عندهم لانتهيت من قراءته دون أن تفتح فمك إلا بالبسمة النادرة التي تنتزع من بين شفتيك انتزاعًا . واستمع أن شئت

إلىٰ هذه الفكاهة :

عاد الزوج إلىٰ البيت مع مطلع الفجر فسألته الزوجة : أين كنت الليلة ؟

فأجابها : عند صديق لي مريض .

فقالت الزوجة : ومن يا ترىٰ يكون هذا الصديق ؟

فرد عليها قائلًا : الحق أن مرضه كان شديدًا لدرجة أنه لم يستطع أن يقول لي من هو .

ألست تحس أنها نكتة هادفة تصور لنا حياة ذلك الزوج الذي لم يرع للزواج حرمة أو قداسة ، فَرَاح يدنسه بعلاقة آثمة مع صديقة له صرفته عن بيته وأسرته لينفق ليله كله معها ؟ ثم ألا تحس أنها تسخر من الانهيار الخلقي الذي أصاب المجتمع ؟

وأخيرًا ، ألست معي في أنها تمتع ولكنها لا تضحك ؟

والواقع أن النكتة الإنجليزية قوامها الفكرة قبل كل شيء ، فقد تستمع إليها فلا تضحك في التّو والحال ، ولكنك تتأملها وتتمعنها فتدرك مغزاها بعد حين ، وربما أسعدك الحظ وضحكت بعد فوات الأوان !

والنكتة التي تُقدَّم علىٰ المسارح والملاهي ، والتي ينقل التليفزيون الإنجليزي نموذجًا منها ممثلًا في حفلات مسرح الباليديم الأسبوعية ، نلاحظ أنها تعتمد علىٰ الحركة وعلىٰ طريقة الأداء أكثر مما تعتمد علىٰ أي شيء آخر . فقد تسمع النكتة فتضحك ، ولكن الضحك لن يخطر لك علىٰ بال إن قرأتها مطبوعة في كتاب .. » .

جوُّ الإنجليز

« ولعلَّ جوَّ الإنجليز من أبرز العوامل التي أكسبتهم ما يمتازون به من برود في الطباع . فلا يكاد يصل أحد إلىٰ بلادهم حتىٰ يروعه أول ما يروعه ذلك الجوّ القارس الخانق ، ولا يكاد أحد يعيش هناك فترة من فترات حياته إلا خلّف الجوُّ في نفسه

انطباعات كثيرة ليس من السهل أن تُمحى . وأنت حين تذهب إلى هناك لن يشغلك في الأيام الأولى شيء كما سيشغلك الجو ، ولن يؤثر في نفسك شيء كتأثيره .

وكلما أطلت البقاء هناك كلما شغل الجوُّ من نفسك ومن حديثك الشيء الكثير . وليس في ذلك غرابة أو عجب ، فجوُّ الإنجليز يشغل الإنجليز أنفسهم لا يكاد أحدهم يلتقي بصاحبه إلا دار الحديث بينهما عن الجوّ ، وهو حديث يفرض نفسه عليهم وعلى كل من يعيش في بلدهم من الغرباء .

وأول ما يلفت النظر في جوِّ الإنجليز أنه جوٌّ متقلّب لا قرار له . فأنت لا تستطيع أن تثق به لأكثر من ساعة واحدة . فما أسرع ما يستحيل الإشراق عبوسًا ، وما أسرع ما ينقلب الجفاف مطرًا متصلًا . وهو جوّ بارد شديد البرودة إلى درجة لا يمكن احتمالها في كثير من الأحيان . ومن أجل هذا لا يكاد يخلو بيت من البيوت ، بل لا تكاد تخلو حجرة من مدفأة تعمل بالكهرباء أو بالفحم أو بالغاز .

المهم أنه حيثما وُجِدت حياة فلا بد أن توجد تدفئة من أيّ نوعٍ . ومن أجل هذا ننظر فنرى المدفأة في البيت هي مركز تجمع أفراد الأسرة . فحجرة الجلوس عندهم لا تنتشر مقاعدها في جميع أنحاء الحجرة وأركانها ، وإنما تجتمع حول الموقد مبعث الدفء والحياة .

ويصل الأمر ببرودة الجوِّ إلى حد أنك كثيرًا ما تستيقظ من نومك في الصباح فتجد الصقيع قد كسا نافذتك من الخارج ، وطغى عليها طغيانًا يتعذّر معه أن تفتحها إلا بعد طلوع الشمس لفترة طويلة تكفي لإذابة ما تجمد من الماء .

ومَا زلت أذكر أننا كنا في كثير من الأحيان ننشر الملابس المغسولة في حديقة المنزل كي تجفَّ ، ونأتي لجمعها في اليوم التالي فنجدها ألواحًا متصلبة تجمد ماؤها ، فهي بحاجة إلى أن توضع على مقربة من المدفأة لتعود سيرتها الأولى .

وإنك لتسير في الطريق فتجد على جانبه منحدرًا تجمعت فيه كمية قليلة من الماء لا

تكاد تلمسها حتى تتبين أنها كتلة صلبة من الجليد . وتسير في المتنزهات والحدائق العامة فترى ذلك المنظر الطريف ، منظر قطرات الندى وقد تجمدت على أوراق النباتات والحشائش فإذا هذه النباتات الخضراء وقد اختفت تحت طبقة شفافة من الجليد .

وليس منظر هذا الصقيع هو كلّ ما يخلبك ويستهويك من شتاء الإنجليز . فلقد أصبحنا ذات يوم فراعنا أن رأينا الهواء يتلاعب بأجسام صغيرة بيضاء كأنها الفراش يداعبها حينًا فتتراقص في الفضاء ، ويقسو عليها حينًا آخر فتثور وتغضب وتشتجر ، ولكن الشجار ينتهي دائمًا بأن تجتمع على المحبة أو على الكراهة لتتراكم على ما شاء الله لها أن تتراكم عليه من مظاهر الطبيعة .

ولم تكن هذه الأجسام الصغيرة غير قطع رقيقة من الثلج ضاقت بها السماء والأرض أو هي كارهة للسماء نافرة من الأرض مبغضة لهما معًا . ومن ثم فهي تهيم في الفضاء على غير هدى . ولكن المصير ينتهي بها إلى الأرض . تمامًا كالإنسان وككلّ مخلوق في هذا الوجود ، يستمدّ وجوده من السماء ثم ينمو على الأرض حتى يبلغ أجله ويعود آخر الأمر إلى الأرض كارهًا مرغمًا .

ولم تلبث هذه الثلوج أن غطت كلَّ شيء فامتلأت الشوارع بطبقة كثيفة من الثلج تغوص فيها الأرجل ويتعذر فيها سير العربات ، وأصبحت الأشجار وكأنها قوائم من النور ترتفع في الفضاء ، واكتست المبانى والمنشآت كلها بهذا الغطاء الجميل ، وأوشكت السيارات أن تختفي تحت أكوام الجليد .

وتَسير في الشارع فيخيل إليك أنك تسير في ملَّاحة من الملَّاحات ، وتمتدّ يدك إلى هذه الثلوج فتغوص فيها كما تغوص في أكوام الملح .

منظر رائع وعجيب حقًّا ! منظر يعجز القلم عن وصفه ويعجز أبرع الفنانين والمصوّرين عن رسمه وتصويره . ماذا أقول ؟ إنها صورة فوق مستوى البشر . صورة

أحكمها الذي أحكم كلَّ شيء صنعًا . السماء غائمة لا ترىٰ فيها غير الظلمة ، والأرض مشرقة بهذا الغطاء الكثيف الذي تدثرت به . وأما ما بين السماء والأرض فهو مزاج من الظلمة والنور أو هو خليط من ظلمة السماء ، وهذا الجليد الذي لا أدري أأنسبه إلىٰ السماء التي أتىٰ منها أم إلىٰ الأرض التي هبط إليها ؟!

وتطل علىٰ المنظر الكبير من نافذتك فَيَمْلَؤُكَ روعة وهيبة وجلالًا . وتنظر إلىٰ الشوارع فلا تبصر فيها غير صبية صغار حلا لهم أن يعبثوا بالجليد ، وأن يلهوا به هذا اللهو البريء الحبيب إلىٰ نفوسنا نحن الذين مضىٰ بنا ركب الزمن بعيدًا عن فترة الطفولة والصبا ، فهم يتصايحون ويتقاذفون كرات الثلج بينهم والفرحة تملأ قلوبهم وتفيض علىٰ وجوههم بشرًا ونورًا .

وليت الأمر يقتصر علىٰ البرودة التي تجمِّد الماء وتخفي الشوارع والمباني تحت طبقات كثيفة من الجليد . فلجوّ الإنجليز أحوال غريبة كتلك التي حدثت في ديسمبر من عام ١٩٦٢ . فمع خيوط الفجر الأولىٰ ليوم الثلاثاء الرابع من شهر ديسمبر من ذلك العام بدأت جحافل الضباب تتسلل إلىٰ سمائهم ، وما هي إلا ساعات قليلة حتىٰ تعذرت الرؤية وتعطلت المواصلات وأُغلقت المطارات . ونتج عن ذلك تعطل كافة أجهزة الدولة . بل نتج عنه ما هو أخطر من ذلك ، فلم يكن من الممكن أن يخرج الرجل من بيته ليشتري طعامه أو لوازم بيته ، بل لم يكن في إمكانه أن يصل إلىٰ إحدىٰ الصيدليات ليشتري ما يحتاج إليه هو وأسرته من دواء وعلاج . وانتظر القوم فرج الله القريب ، وكان الأمل يملأ نفوسهم في أن ينقشع الغمام في ساعة أو ساعات ، ولكن الأنباء كانت تأتيهم بما يروعهم ويشغل بالهم ، فقد حمل الضباب في طياته سمومًا قاتلة ينبغي اتخاذ الإجراءات الصحية للوقاية منها ، وينبغي استعمال الكمامات لتلافي خطورتها . ولكن كيف السبيل إلىٰ الصيدليات في ذلك الجوّ الذي لا يبصر فيه المرء شيئًا ؟

لقد أخذت كثافة الضباب تزداد شيئًا فشيئًا حتىٰ تعذّرت الرؤية تمامًا وأصبحت لا

ترىٰ الأشياء علىٰ بعد خطوة واحدة منك ، وجُنّدت معظم برامج التليفزيون للحديث عن هذا الـ Smog الغريب والتفَّ الناس في بيوتهم حول أجهزتهم في انتظار الفرج . ولكن أي فرج يُنتظر والضباب يزيد كِثَفًا علىٰ كثف ، والناس يكادون يختنقون في بيوتهم من الرائحة القاتلة التي تشبَّع بها الضباب ؟ !

قضىٰ القوم ليلة الثلاثاء هذه كأبشع ما تُقضىٰ الليالي . وما زلت أذكر أني كنت علىٰ موعد لزيارة صديق في ذلك المساء وخدعني عن الجوّ أني رأيت الضباب قد بدأ ينقشع قليلًا في المساء ، ووجدتني أبصر إلىٰ مدىٰ ما يقرب من خمسة أمتار . فخيل إليّ أن الأزمة ستنفرج وأن الجوَّ في طريقه إلىٰ التحسن . وكانت الوسيلة الوحيدة للمواصلات في ذلك الحين هي قطارات المترو التي تسير تحت الأرض Under ground في شبكة تربط أنحاء لندن ببعضها ، فاستقليت أحد هذه القطارات إلىٰ حيث أريد ، ولكن ما كدت أغادر القطار وأصعد إلىٰ ظهر الأرض حتىٰ ألفيتني لا أتبين شيئًا من كثافة الضباب . حتىٰ أعمدة النور المضاءة احتجبت عن الأنظار ! ورأيت من الأفضل أن أعود من حيث أتيت ، ولكني استكثرت أن أكون علىٰ مقربة من بيت الصديق وأعود دون أن أراه . وشجعني علىٰ ذلك أن بيت الصديق كان في نفس الشارع الذي توجد فيه أبواب محطة القطار ، فأمر الوصُول إليه أهون من العودة ولا شك .

وهكذا وضعت يدي علىٰ جدار الحائط أتحسسه وأسير هداه ، ومضيت في اتجاه البيت متعشمًا في وجه الله خيرًا . وكثيرًا ما كان يلقاني أشخاص يتحسسون نفس الحائط فأصطدم بهم دون أن أراهم ودون أن يروني ، فلا نزيد علىٰ أن يبدأ أحدنا الآخر بكلمة « آسف » ثم يمضي كلٌّ لحال سبيله .

وبقيت علىٰ هذه الحال فترة طويلة . وكان الأمر يزداد مشقة وعسرًا كلما وصلت إلىٰ شارع عرضي لا مفر من اجتيازه . هنالك كنت أتخبط ذات اليمين وذات الشمال حتىٰ أصل إلىٰ الجانب الآخر بعد جهد ولأي .

كل ذلك وأنا أتحسس أبواب البيوت لأعرف أرقامها حتى لا أخطئ بيت هذا الصديق . ولست أنكر أنني على الرغم من كل هذه المشقة كدت أضلّ الطريق لولا أن الله سلَّم . أرأيت شيئًا أبشع من ذلك ؟ أسمعت عمرك عن شيء أشدّ من ذلك هولًا وأعظم نكرًا ؟

ويشاء الله القدير أن يظلَّ الجوّ على هذه الحال ثلاثة أيام ونصف تقريبًا عاشتها البلد بكل أعصابها . فقد تهددتها مجاعة لا عهد لها بها من قبل ، وانعزلت بلاد وقرى عن الدنيا بأسرها ولم يكن ثمة وسيلة لإمدادها بالطعام والعون اللازم إلا عن طريق طائرات الهليكوبتر . وتجمدت المياه في أنابيبها فانفجرت الأنابيب وانقطعت المياه عن البيوت . وعاشت البلد أيامًا رهيبة قاسية .

وتصوَّر مدينة كلندن أظلمت سماؤها واحتجبت الرؤية فيها ، ووصلت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بما يقرب من عشرين درجة ، وانفجرت أنابيب مياهها فحمل الناس أوعيتهم لملئها بالماء من حنفيات الحريق ؟ ! منظر كفيل بإثارة أشد النفوس قسوة وغلظة . ولولا رحمة الله تداركتهم لهلك القوم وأصبحوا عبرة لمن يعتبر .

وليس هذا هو كلّ ما يمكن أن يقال عن جوّ الإنجليز . فإلى جانب التقلّب وشدّة البرودة وكثافة الضباب في كثير من الأحيان ، هناك صفتان لازمتان لابد من ذكرهما . فأما أولاهما فهي الظلمة التي قليلًا ما تتلاشى أشباحها أمام مواكب النور . فالدنيا في الشتاء ظلام في الليل والنهار . لا تستطيع أن تبقى في بيتك لحظة بلا إضاءة . أما في الصيف فتنكشف هذه الظلمة وتظهر الشمس ، ولكنها شمس مريضة لا تدفئ ولا تستمر إلا قليلًا . والصفة الأخرى هي الأمطار ، فجوُّ الإنجليز ممطر في الصيف والشتاء على السواء ، وكلما اتجهنا شمالًا ازداد المطر كثافة واتصالًا .

ويكفي أن تعيش في بلد كمانشستر لترى كيف تمطر الدنيا أيامًا متوالية تزيد أحيانًا على

الأسبوع مطرًا متصلًا في الليل والنهار . والغريب حقًّا أنك كثيرًا ما ترى اجتماع الشمس والمطر في وقت واحد . وأغرب منه أنك قد ترى الشمس سافرة بينما تمطر السماء كرات من الثلج بدلًا من قطرات الماء !

أرأيت إذن كيف أن شمس الإنجليز شمس مريضة لا تقوى حتى على إذابة ما تجمَّد من قطرات الماء ؟ !

طعام الإنجليز

« والأكلة الشعبية عند الإنجليز هي الـ Fish and Chips وهي أسماك وشرائح من البطاطس تغلى في الزيت وتُتَّخذ غداء أو عشاء في أغلب الأحيان . وهي أشبه ما تكون بالفول والطعمية في بلادنا . فكما يعرج الرجل منا وهو في طريقه إلى بيته في المساء على بائع الطعمية يشتري منه بقرشين أو ثلاثة ، فكذلك يعرج الرجل الإنجليزي في طريق عودته إلى البيت على محل Fis & Chips يشتري منه بشلنين أو ثلاثة . وإنك لتسير في الشوارع ليلًا فترى محلات الأسماك هذه وقد ازدحمت أمامها الجماهير بعد خروجها من دور السينما ، وبعد أوبتها من المراقص والحانات . وكثيرًا ما تجد الناس يتعجلون الأكل في الطريق وينتهون منه قبل أن يصلوا إلى بيوتهم .

وإذا تركنا هذا اللون إلى غيره من ألوان الطعام الإنجليزي وجدنا أن طعامهم في عمومه من النوع المسلوق . لا سمن فيه ولا « تخديعة » ولا توابل ، وإنما هي ألوان من الخضر تغلى في الماء ويوضع عليها قليل من الزبد ، والله يحب المحسنين !

وهم لا يجدون بأسًا أن يجمعوا بين السمك واللبن في إناءٍ واحد . ورب سائل يسأل كيف ذلك ؟ والإجابة عن هذا التساؤل نسوقها من خلال التجربة ومن واقع الحياة . فلقد دعيت ذات مساء إلى العشاء على مائدة إحدى زميلات الدراسة . وكان على المائدة إناء كبير أشبه ما يكون بصينية المكرونة عندنا ، أو هكذا ظننته أول الأمر . وما لبثت

المضيفة العزيزة أن وضعت لكل واحد منا في طبقه قطعة مما في الإناء . وبدأت أغمس شوكتي في الطبق ، فخرجت لي أنواع مختلفة من الخضروات عرفت منها البطاطس والجزر . وتبينت وسط الخضروات آثار « كريمة » باللبن فعجبت كيف تجتمع البطاطس بصلصتها مع اللبن ؟ وما هي إلا لحظات حتى وجدتني أمام ما هو أغرب من ذلك وما هو أدهى وأمر . لقد كان قاع الإناء يحتوي على طبقة من السمك !! أرأيت « لخبطة » في الأكل أكثر من هذه ؟ سمك ولبن وخضروات ... كلها في إناء واحد ؟ !

ذلك طعام لا نسيغه نحن بأذواقنا وطريقتنا في أكلنا وشربنا ، بل لا يسيغه إلا الإنجليز ومن هم في حكمهم من الأوروبيين الذين يجمعون بين الملح والسكر في إناء واحد ! وأنا لا أقول ذلك من خلال قراءاتي عن أطعمة القوم ، وإنما أقوله من خلال خبرتي معهم وعشرتي لهم فترة إن لم تكن طويلة فما هي بالقصيرة على أي حال .

فلقد كنت أتناول طعام الغداء ذات يوم في مطعم أحد الفنادق الكبيرة بلندن . وأثناء الطعام مرّ أحد عمال المطعم يحمل بين يديه إناء عميقًا به نوع من الخضر تراه فتظن للوهلة الأولى أنه « ملوخية » . ومرّ الرجل على جاري في المائدة وسأله هل تريد أن أضع لك في طبقك بعض الشيء ؟ فأجاب بالإيجاب . وأقبل الرجل عليّ وكرر نفس السؤال فقلت له : لا بأس ولكن بقَدَر . فغرف الرجل من إنائه ملعقتين كبيرتين وضعهما على الطبق الذي آكل فيه .

وما كدت أذوق طعم هذه « المنعنعة » حتى كدت أتقيأ ، إنها – قبل كل شيء – ليست ملوخية ، وإنما هي نبات أو حشائش خضراء الله وحده هو الذي يعلم كنهها ، وهل خلقها لتكون طعامًا للإنسان أم للحيوان ! وهي بعد ذلك غريبة الطعم مقززة للنفس بدرجة خطيرة ، فقد جمعت بين المتناقضات التي لا يمكن أن تجتمع إلا في شهية الإنجليز وذوقهم وقابليتهم للطعام . وما تقول في إناء يلتقي فيه الملح والشطة والسكر كأبشع ما يكون التلاقي وكأشدّ ما يكون فساد الأذواق ؟ ! » .

التربية والتعليم

« ولعل من أبرز صفات الشعب الانجليزي أنه شعب قارئ ، فهو يقرأ بِنَهم شديد يملأ نفسك إعجابًا وتقديرًا . فأنت تسير في الشارع ، فتجد الناس يقرأون الصحف وهم في انتظار الأوتوبيس ، وتركب السيارات أو القطارات فتجد معظمهم يقرأون الصحف ، وكثيرًا منهم يقرأون الكتب والمجلات .

ولا تظن أنهم يقبلون على القَصَص السهل اليسير لمجرد قتل الوقت ليس غير . فما أكثر ما تجد راكبًا في الأتوبيس يقرأ كتابًا في الهندسة أو الطب أو في غيرهما من ألوان المعرفة التي تتطلب الانتباه الكامل وتركيز الذهن .

والتعليم في بلاد الانجليز مُتَاح لجميع أفراد الشعب ، فالدولة تَكْفُل لأبنائها تعليمًا مجانيًّا حتى سن الخامسة عشرة ، أي إلى ما يوازي نهاية المرحلة الإعدادية عندنا . وبعدها تتقاسم التلاميذ مدارس الـ Grammar School والـ Secandary Schoolوذلك حسب قدراتهم واستعداداتهم ومواهبهم .

فأما النوع الأول من المدارس فيُفْضي إلى الجامعة ، وأما النوع الثاني فمرحلة متوسطة مبتورة لا تُفْضِي إلى أي نوع من أنواع الدراسة العالية .

فإذا انتقلنا إلى مرحلة التعليم العالي بالجامعات ، وجدنا أنها لا تُبَاح إلا للقليلين الذين أتموا المرحلة الثانوية في الـ Grammar School بنجاح وتفوق .

والظاهرة العجيبة حقًّا أن الشباب لا يقبل على الجامعة هذا الإقبال الشديد الذي نجده عندنا في مصر . فالمتعلم عندنا يريد أن يعلم أبناءه ، والذي فاتته فرصة التعليم في الماضي نجده أحرص ما يكون على ألا تفوت أبناءه . وتكون النتيجة أن يتضخم التعليم عندنا تضخمًا شديدًا لا بد من من مواجهته والسيطرة عليه .

ولعل السبب في هذا التضخم الشديد أن الناس عندنا ينظرون إلى المهن الحرة والأعمال الآلية على أنها أقل في المستوى بكثير من الأعمال العقلية ووظائف الأجهزة الحكومية والشركات ، فكلُّ واحد يُريد أن ينجو بأبنائه من هذه المهن والصناعات ، ولا يلجأ إليها إلا مضطرًّا كارهًا عندما تتعثر بهم الخطى في طريق الدراسة وتنقطع بها السبل . أما عند الإنجليز فللمهنة مكانة اجتماعية لا تقل عن مكانة الوظيفة . والعامل هناك لا يقل مركزًا ولا مرتبًا عن الموظف . ومن أجل هذا لا يجد الشاب بأسًا في أن يختصر الطريق ويتخذ لنفسه حرفة من الحرف أو صناعة من الصناعات ، غير عابئ بشهادة يظفر بها أو درجة علمية يحصل عليها .

أليس للعمال من الدخل ما يكفيهم لأن يعيشوا حياتهم كرامًا مترفين ؟

أليس بإمكانهم أن يُضْربوا فيُجْبروا الدولة على أن تزيد أجورهم كلما أحسوا بحاجة إلى هذه الزيادة ؟

أليس في إمكانهم أن يُسْقِطوا حكومة ويقيموا مكانها حكومة أخرى ؟

كل ذلك جائز وممكن ، بل كل ذلك حاصل بالفعل في بلادهم . ومن أجل هذا نجد الكثير من أبناء الشعب يفضلون الصنعة على الدراسة ، ويؤثرون المهنة على الوظيفة .

وكامتداد لهذه الظاهرة ننظر فنرى الشعب الإنجليزي لا يُقَدِّس الدرجات العلمية ولا يَعْبُد الشهادات . وحتى بين أساتذة الجامعات أنفسهم لا نجد أساس المفاضلة شهادة أكبر أو درجة علمية أعلى ، وإنما نجد الأساس ما ينتجه كل واحد منهم من أبحاث ، وما ينشره من كتب ومقالات في المجلات العلمية .

فقد تجد مدرسًا يُحاضر طلبة الدراسات العليا ولا يحمل من المؤهلات العلمية غير درجة الليسانس أو البكالوريوس . ولكنه ببحوثه يَفُوق من حصل على الماجستير والدكتوراه ، وقد تجد عميدًا لإحدى الكليات وليس معه غير الماجستير أو حتى مجرد

الليسانس أو البكالوريوس . ومع ذلك فهو بدرجة أستاذ Professor وربما ظفر بدرجة من درجات الزمالة Fellosship وكلٌّ من هاتين الدرجتين أرفع شأنًا عندهم من درجة الدكتوراه ولقب « الدكتور » .

وتلك ظاهرة نرجو أن نراها وقد تحققت في مجتمعنا في القريب . فما أحوجنا إلى أن نزن الناس بأعمالهم لا بدرجاتهم وشهاداتهم .

وما أحوجنا إلى أن نستفيد من كل ذي علم في الجامعة ، بدلًا من أن نقصرها على كل ذي دكتوراه حتى ولو كان من أجهل خلق الله !! » .

المستر فيولنج

« والمستر فيولنج شخصية طريفة يعرفها كل مصري يسافر إلى إنجلترا ؛ لأنه أحد موظفي مكتب البعثات أو ما يسمى بالمركز الثقافي المصري هناك .

وهو رجل إنجليزي أحبّ لغة العرب فتعلمها وأتقنها إتقانًا رائعًا ، حتى ليخيل إليك وأنت تسمعه - يحدثك بلغتك العربية ويضرب لك الأمثال في مواضعها - أن الرجل عربيّ الأصل عربيّ اللسان .

والحق أن الثقافة العربية التي يتمتع بها هذا الرجل ثقافة خصبة واسعة ، وأن قراءاته في تلك اللغة كثيرة متنوعة .

وما زلت أذكر أني كثيرًا ما كنت أدخل عليه مكتبه فأجد أمامه ديوان المتنبي أو أبي تمام أو غيرهما من شعراء العرب الأقدمين .

وما زلت أذكر أني كنت أتحدث معه ذات يوم عن أدبنا العربيّ فقال : إن الشيء الذي يؤسف له حقًّا هو أنه لا يوجد عندكم أدب عربيّ معاصر .

فقلت له : وأين طه حسين والعقاد وأمثالهما من أعلام الفكر والأدب ؟

فرد عليّ الرجل بذكاء قائلًا : إن هؤلاء الأساتذة الأعلام يمثلون جيلًا قد مضىٰ . فمجد العقاد الأدبيّ ومجد طه حسين يكمن فيما سبق أن كتبه كل منهما في الماضي . أما الآن فكلاهما يعيش علىٰ بقايا المجد القديم . والذي أريد أن أراه الآن هو الرجل الجديد The New Man الذي يبزغ نجمه في سماء الثقافة والأدب عندكم .

قلت له : إن عندنا رجالًا كثيرين يستحق كل واحد منهم أن يطلق عليه The New Man ، ومضيت أحدثه عن رجالات نهضتنا الأدبية والفكرية .

فقال الرجل : أرجو حينما تعود إلىٰ مصر أن تبحث لي عن هؤلاء ، وأن ترسل إليّ ما يستحق القراءة من كتبهم ، فلعليّ أجد فيها ما يشبع نهمي ويروي ظمئي بكل جديد في الفكر والأدب العربيين .

فوعدته بذلك وأرسلت إليه بضعة كتب لأئمة الفكر عندنا ، أرجو أن تكون قد راقته وأن يكون قد وَجَدَ بها بعض الذي يريد .

وثقافة الرجل لا تقف عند حدود اللغة العربية وآدابها ، وإنما تتجاوزها إلىٰ مختلف لغات البشر التي يقرأ بها هذا الإنسان الغريب . فهو يجيد عدة لغات ، وهو كَلِف بالقراءة في تلك اللغات جميعًا حتىٰ أصبحت القراءة عنده هواية وفنًّا .

حدثني يومًا أنه أتىٰ عليه وقت أسندت إليه فيه أعمال مكتبة المركز الثقافيّ ، فاستغل الفرصة التي سنحت له وجعل يطلع علىٰ كل ما وجده تحت يديه من مصادر التراث العربيّ ، وجعل يقرأ رسائل الماجستير والدكتوراه التي أعدها الطلبة المصريون وحصلوا بها علىٰ درجاتهم العلمية ، وأودعوا نسخًا منها بمكتبة المركز كما تنصّ علىٰ ذلك لائحة البعثات . وقد أفادته هذه القراءات الكثيرة ثقافة واسعة متنوعة ، وأكسبته القدرة علىٰ الحكم الصحيح علىٰ ما يقرأ من كتب وأبحاث .

حدثني يومًا أنه قرأ ما يزيد علىٰ مائتي رسالة بين ماجستير ودكتوراه ، فرضي عن

بعضها وسخط علىٰ البعض الآخر . وكثيرًا ما كان يجد رسالة ماجستير تستحق أكثر من الدكتوراه ورسالة دكتوراه لا تستحق شيئًا يذكر !

وتسأل الرجل : في أي الموضوعات تقرأ ؟ وأي فنون المعرفة يستهويك ؟ فيقول لك إنه يقرأ في كل شيء ، وربما وجد كتابًا لم تَرُقْهُ مادته العلمية ، ومع هذا يشتريه لأنه يعطي القارئ مراجع وافية عن الموضوع الذي يبحثه ، ويزوده بقائمة ببليوجرافية يرجع إليها كلما أحبّ مزيدًا من المعرفة والبحث .

وليس الجانب الثقافيّ هو كل ما يبهر في تلك الشخصية الطريفة الظريفة ، ففيها إلىٰ جانب الثقافة الواسعة العميقة المتنوعة جانب إنسانيّ لا تخطئه أبدًا .

فالطلبة القادمون إلىٰ إنجلترا يذهبون إليه في أول يوم لهم في هذا البلد الغريب ، فيطمئن نفوسهم ويرضي خواطرهم ويخفف عنهم حدّة ما يعانون من شعور بالألم لفراق الأهل والوطن ، ويهوّن عليهم مشاكل اللغة والدراسة والحياة الجديدة .

وما زلت أذكر أني لقيته في صباح اليوم التالي لوصولي إلىٰ إنجلترا (إبريل سنة ١٩٦١) وكنت في شبه ذهول لهذه النقلة المفاجئة من مجتمعنا المصريّ إلىٰ مجتمع أحسست فيه بالغُربة كأشد ما يكون الإحساس بالغربة .. غربة في اللغة .. وغربة في الدين . غربة في الجو .. وغربة في التقاليد .. غربة في السكن .. وغربة في الطعام .

كل هذه الألوان من الغربة كانت تتفاعل في نفسي ، ونتج عن تفاعلها إحساس بالأسىٰ والانقباض فاضت به جوانب نفسي وارتسمت آثاره علىٰ قسمات وجهي . وأحسّ الرجل وأنا أكلمه أني لا أجيد اللغة وإنما أتعلثم فيها وأتحدث ببطء ورهبة ووجل . فأخذ يهدّئ من روعي ويحدثني بلغة هي مزيج من لغته الإنجليزية ولغتنا العربية .

قال لي الرجل : أعرف أنك تعاني الآن من مشكلة اللغة ولا شك ، وربما سمعت الناس يتحدثون فلم تفهم من حديثهم شيئًا . ولكن لا تظن أن ذلك يرجع إلىٰ جهلك

أو قلة معرفتك باللغة إلى هذه الدرجة المخيفة التي تجعلك لا تَفْهم ما يقال ، لأن الأمر أيسر من ذلك بكثير .

فالأُذن لم تألف بعد هذه اللغة ولم تتعود على هذا النطق الجديد . ولن تمضي غير بضعة أيام حتى تعتاد أذنك تلك اللهجة الجديدة ، فإذا بك تسمع لغة القوم فتعرفها ، وتسمع حديثهم فتفهمه .

والحق أن كلمات الرجل كانت بردًا وسلامًا على نفسي ، وأنها أعادت إليّ ثقة كدت أفقدها وأملًا كاد يختنق في ضباب اليأس المميت .

ولم يكتف الرجل بهذا القدر من الكلام ، وإنما أراد أن يخوض معي في ألوان من الحديث حبيبة إلى نفسي ، فعاد يسألني : من أي بلاد الجمهورية قدمت ؟ وفي أي البلاد عشت ؟

فقلت له : إنني كنت أعمل مدرسًا في أسوان قبل سفري . فسرح ببصره في الأفق وكأنه يسترجع أطيافًا من الذكريات وقال : أسوان ؟ .

قلت : نعم .

قال : آه ! لقد زرتها منذ عشر سنوات . النيل ما أعظمه ! والطبيعة الساحرة بجبالها وتلالها ورمالها بأسوان ! إنني ما زلت أذكر رحلاتنا في نيلكم الخالد ، وما زلت أذكر كل من لقيته من شعبكم الطيب النبيل ، سواء في القاهرة أو في أسوان أو في غيرهما من البلاد التي زرتها .

هل تعلم يا صديقي أنني تعرفت في أسوان إلى شاب صغير كان يعمل حلاّقًا ، وكان ظريفًا يمتعنا بحديثه ويريحنا بما ييسره لنا من وسائل العيش ؟

ومضى الرجل يسترجع ذكرياته مع هذا الصبي ، ثم توقف فجأة وهو يقول : آه ، لا

شكَّ أنه قد كبر الآن . لقد كان صغيرًا حقًّا ، ولكن عشر سنوات في عمر الزمن كفيلة بأن تنقله من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب . ليتني أذهب إلى هناك وأبحث عنه وألتقي به وأراه رجلًا يافعًا بعد أن تركته صبيًّا صغيرًا ؟ !

واستطرد المستر فيولنج في خواطره وهو يقول : لقد شوقتني يا صاحبي إلى مصر . وليتني أستطيع أن أزورها هذا العام أو في العام المقبل . فإنني أحتفظ لها في نفسي بأقدس الذكريات . القاهرة ، ما أجملها وما أروعها !!

ومساجد القاهرة ، آه ! لقد زرتها حينما كنت إنسانا تقيًّا صالحًا . ولقد بهرني منها مسجد ابن طولون أكثر من أي مسجد آخر . هل تعرف لماذا ؟ لأن الذي يدخله إنما يدخله ليقف بين يدي ربه ، يصلي له ويناجيه ، لا شيء يصرفه عن صلاته ومناجاته . فلا سجاجيد فخمة ولا نجف ولا زينة ولا حلية وإنما هي بساطة رائعة حقًّا . أروع بكثير من مظاهر الأُبَّهة التي تجدها في مسجد محمد عليّ وغيره من المساجد الكبيرة التي تُبهر معظم السائحين .

إنَّ الذي يريد الله وحده فسيجده في هذا المسجد البسيط وأمثاله . ومن أجل هذا لا أخفي عليك يا صاحبي أن إعجابي بهذا المسجد لا ينقضي لأنه في نظري بيت الله حقًّا . ولن أنسَى ما حييت يوم وقفت في هذا المسجد العتيق أضرع إلى الله وأدعوه والدموع تسيل غزارًا من عيني .

ألا ما أحب هذا الموقف إلى نفسي . ليتني أذهب إلى هناك الآن لأقف وقفتي التي وقفتها منذ عشر سنين ، ولأسكب الدمع في محراب الأتقياء الصالحين !

ومضى الرجل بعد هذا يحدثني عن معالم القاهرة وشوارعها ودروبها ومقاهيها التي رآها وارتسمت في ذهنه ، وعاشت حيَّة في خياله كلّ هذه الأعوام الطوال .

وأردف يقول : ولكن الشيء الذي لا شكّ فيه ، أن كلّ ذلك قد تَغَيَّر الآن . فلم تعد

القاهرة كما كانت منذ عشر سنين ، ولم تعد أسوان كما رأيتها في ذلك التاريخ . ومن أجل هذا تراني كلفًا بأن أزور مصر الجديدة .. مصر الثورة .. وبأن أرىٰ أسوان الجديدة ، أسوان مدينة السدّ العالي العظيم .

هكذا كان أول لقاء لي مع الرجل الظريف . وأشهد أنني ما لقيته بعد ذلك اليوم إلا سألني عن أحوالي في المعيشة والدراسة .

وما أذكر أنه ضّن عليّ أو علىٰ غيري بشيءٍ من وقته وجهده . فقد كان كريمًا معي ، كريمًا مع غيري من الزملاء الذين عرفوه فأحبوه كما أحببته ، وألفوه كما ألفته ، وامتلأت نفوسهم به إعجابًا كما امتلأت نفسي له محبة وتقديرًا .

ومهما نسيت لا أنسىٰ للرجل موقفًا إنسانيًّا نبيلًا قلما تجد له نظيرًا بين الإنجليز .

فلقد ذهبت لأودعه قبل عودتي إلىٰ مصر فتأثر الرجل تأثرًا شديدًا ، وقال : إذا ذهبت إلىٰ أبويك فقبِّل أيديهما وأطع كلامهما ولا تعص لهما أمرًا ، وحاول جهدك أن تظفر برضائهما لأنه ثروة لا تقدر بثمن .

إنني أعرف جيدًا مشاعر الآباء والأمهات ، ولكنني لا أعرف كيف أعبر لك عنها . إنها شيء فوق الوصف والتعبير ، فحاول دائمًا أن تغترف من هذه المنابع الفياضة بالبر والرحمة والحنان والدعاء قدر ما تستطيع ، تكن في حياتك موفقًا سعيدًا .

كان الرجل يحدثني والدموع تكاد تفرّ من عينيه . وكان الموقف مؤثرًا حقًّا لأنه موقف وداع وموقف نبل ووفاء .

وودَّعت الرجل وانصرفت ، وما زالت صورته تتراءىٰ أمام عيني حتىٰ هذه الساعة ، وما زلت أتمثله واقفًا أمامي يقول في تأثر وحماس : اذهب إلىٰ والديك فقبِّل أيديهما والتمس رضاءهما يبارك الله لك ويرزقك التوفيق ! » .

خاتمة

« والآن ، وبعد أن استعرضنا تلك الصورة السريعة للمجتمع الإنجليزيّ الحديث كما عرفته من خلال حياتي معه وعشرتي إياه ما يقرب من ثلاثة أعوام ، أراني أُسَائل نفسي : هل سيخرج القراء من قراءة هذا الكتاب وقد رضوا عن حياة الإنجليز وأحبوها ، أم أنهم سينتهون من القراءة ليجدوا أنفسهم وقد ضاقوا بها وأبغضوها ؟

والواقع أنني لم أتعمد أن أُسخط القراء علىٰ هذه الحياة أو أن أُرَغِّبَهم فيها . فأنا لم أُضِف إلىٰ الصورة رُتُوشًا تُجمّلها وتحبب الناس فيها ، ولم أزد عليها شيئًا يُقبّحها وينفرهم منها . ولكني أردت أن تكون الصورة صادقة بالقياس إلىٰ واقع الحياة ، وليس بالقياس إلىٰ ما أراه أنا أو ما يراه غيري من الناس ، وتحريت أن يكون الحديث موضوعيًّا لا يظلم الحقيقة ولا يجور عليها ، ولا يلقي عليها ظلالًا نفسية قد تشوهها أو تطمس معالمها .

وأراني بعد أن اكتملت الصورة واتضحت ظلالها وتفاصيلها أعود لألقي عليها نظرة الوداع قبل أن أتركها أمانة في أيدي القراء ، فأشعر بما كنت أشعر به يوم كنت أعيش هذه الحياة التي صببتها في تلك السطور ، أشعر بمزيج من الرضىٰ والسخط ، وبشيء من الحب والكراهية لهذه الحياة التي يحياها الإنجليز في بلادهم . فللقوم مميزاتهم وفضائلهم ، ولهم نقائصهم ورذائلهم التي عرضنا لها فيما سلف من الحديث . لقد عرفناهم شعبًا يمتاز بالأمانة كأبلغ ما تكون الأمانة ، ويتحلّىٰ بالصدق كأشد ما يكون الصدق ، ويحافظ علىٰ النظام كأحسن ما يكون النظام ، ويقدّس الواجب كأروع ما يكون تقديس الواجبات . وعرفناهم إلىٰ جانب ذلك شعبًا قد وهَت علاقاته الاجتماعية ، وخارت قواه الروحية ، وأصبح يعيش حياة إباحية متحللة من الخلق والدين .

ولكننا مع هذا ينبغي ألا نزن حياتهم وقيمهم بميزاتنا الخلقيّ ، فذلك خطأ ينبغي ألا

نتورط فيه ؛ لأن مفاهيم الأخلاق تختلف باختلاف البيئات والمجتمعات . فلكل مجتمع تقاليده وثقافته ، ولكل شعب تراثه الفكريّ والحضاريّ .

وطبيعيّ جدًّا أن تختلف صورة الحياة عندنا عن صورة الحياة التي يحياها الإنجليز في بلادهم ، وطبيعي جدًّا أن يكون الخلاف بيننا وبينهم في الآراء والأفكار والمعتقدات خلافًا بعيدًا عميق الجذور .

فنحن بحكم موقعنا الجغرافيّ في خريطة العالم ، وبحكم مكاننا الثقافيّ والحضاريّ في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وبحكم وضعنا الروحيّ الذي اختصنا به الله سبحانه وتعالى حين جعل ديارنا منزل وحيه ومهبط رسالاته . بحكم هذا كله ومن أجل هذا كله أصبح من الطبيعي جدًّا أن يعيش شعبنا على ضفاف النيل حياة غير تلك التي يحياها الشعب الإنجليزيّ على ضفاف التيمز ، وأصبح من الطبيعي أيضًا أن تحكم مجتمعنا قيم وأخلاق تختلف عن تلك التي تحكم المجتمع الإنجليزيّ ؛ لأننا نستمد قيمنا وأخلاقنا من الشرائع السماوية التي نعيش في رحابها ونسير على نورها وهداها .

وقيمة هذا التباين الحضاريّ والثقافيّ والأخلاقيّ الذي تبرزه لنا المقابلة بين الصورة التي ارتسمت في أذهاننا عن حياة الإنجليز ، والصورة التي عليها مجتمعنا الآن ، هو أن نعرف مكاننا وأن نحدد طريق المستقبل الذي نسير فيه .

إن الذين يتصورون أن الحياة الغربية خير كلها إنما يعيشون في وَهْم كبير ، والذين يظنون أنَّ سبيلنا إلى التقدم هو أن نعيش حياتنا كما يعيش الإنجليز حياتهم أو كما يعيش الأوروبيون حياتهم واهمون أيضًا . فحياتنا التي نحياها الآن ليست بنت اليوم والساعة وإنما هي وليدة تجارب أجيال عديدة من شعبنا على مدى طويل من السنين والأعوام .

فإذا أردنا أن ننطلق في طريق التقدّم والرقي ، وأن نلحق بركب المدنية الحديثة ، فلا مفرّ من أن نقتبس من هذه المجتمعات الغربية التي قطعت في طريق التقدّم أشواطًا

بعيدة المدى . ولكننا ينبغي أن نحتاط في الاقتباس وأن نكون على حذر شديد . فليست حياتهم خيرًا كلها كما يتصور البعض ، وإنما فيها جوانب الخير وجوانب الشر . وفيها الجوانب المضيئة المشعَّة والجوانب المظلمة حالكة السواد . والعقلية النافذة البصيرة وحدها هي التي تستطيع أن تميز بين الغثّ والسمين ، وأن تقبل من جوانب هذه الحضارة ما يصلح أحوالها ويرتقي بها في مدارج الكمال .

وبعد :

فقد بدأت سطور هذا الكتاب وفي نفسي أمل ظلّ يقوى ويكبر كلما خططت فيه خطًّا ، أو أضفت إليه سطرًا . أمل في أن يجد القارئ بين دفّتيه صورة صادقة ودقيقة للحياة التي يحياها الإنجليز في بلادهم . وأرجو أن أكون قد وفّقت لبعض ما أريد » .

* * *

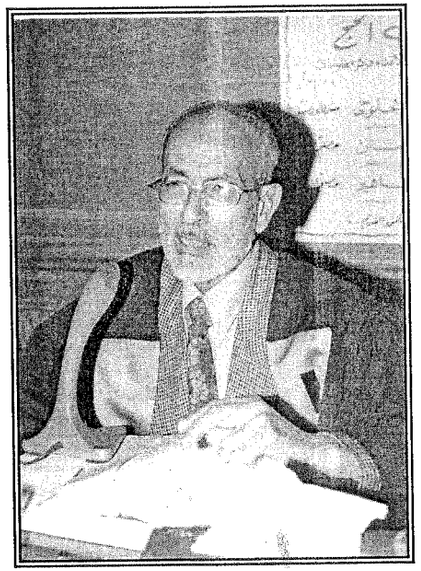

جانب من مناقشة عبد الله المحضار في ١/ ٣/ ٢٠٠٣

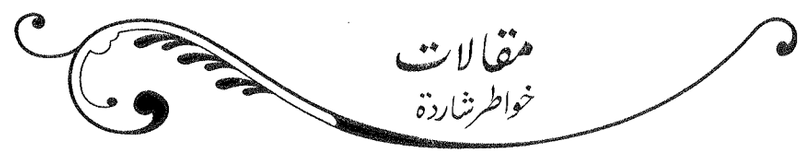

الطريق الطويل

قلتها حين التحقت بالجامعة ، وقلتها حين تخرّجت في الجامعة ، وقلتها حين قدمت إلى إنجلترا ، قلت : إن الطريق شاقّ طويل ، وإنني لا أعتبر الليسانس خاتمة المطاف ، وإنما أعتبره بداية مرحلة جديدة من مراحل الكفاح . وأَشْفق عليّ المُخْلِصُون ، وضحك مني الساخرون .

ولم أكن أعبأ بالسخرية أو الإشفاق ؛ لأنني كنت أُومن أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرهن على صدق ما أقول هو مُواصلة السَّير في الطريق إلى غاية .

ومضيت في السلم من الدرجة الأولى من درجات الجامعة حتى حَصَلت على الليسانس ، وظن قوم أنني قد أَجْهَد في السعي ، وأنني سَألقي السلاح وسأكتفي بما أحرزت من نَصْر . ولكن ظنهم خاب حين بدأتُ من حيث انتهيت مرحلة جديدة من مراحل الدَّرس .

ومضى عام وكانت الوظيفة ، ومرة أخرى تستيقظ الأوهام في النفوس ويقول البعض إن الوظيفة ستطوي جناحيّ وسَتُقَيّد قَدَميَّ ، وسَتُغْلق أمامي سُبُل الدرس والتحصيل . واقتربت أَوهامهم من الحقيقة واليقين حينما كانت الوظيفة أبعد ما تكون عن القاهرة مَوْطن الدرس والتحصيل .

وكان لا بد أن أَقْبل الوظيفة وأن أسعى إليها . ومَضَيت إلى حيث قدَّر الله لي لقمة العيش ، ومَضَيت وفي نَفْسي أملٌ كبير في ألا يكون البعد عن القاهرة سدًّا يحول بيني

وبين النور .

وتمضي الأيام عليّ في « أسوان » ، وأُحِسُّ أنني أقف في مكاني ولا أتقدم ، ويزداد هذا الإحساس في نفسي قوة بمرور الأيام ، وأحسن بأنني أكاد أختنق ، وبأن الوظيفة سجن مظلم يحجب عني الضّوء والهواء الطلق .

ومن هنا بدأتَ أضج بالوظيفة ، وأتمنى لو أتركها لأُتَمِّم مَا بدأت . ولكن لا سبيل إلى أن يترك الإنسان مَوْرد رزقه مهما كانت الظروف .

ومن أجل هذا بدأت أُفكّر في حل آخر أواجه به المشكلة بدل الهروب منها ، وكان التصميم والعزم الأكيد على أن أسعى لتحقيق ما أصبو إليه هو الحل الوحيد . ومن أجل هذا عقدت العزم على أن أقهر الصعاب ، وعلى أن أقهر الزمان والمكان ، وألا أجعل من بُعد المكان حائلاً بيني وبين مواصلة الدّرس في القاهرة .

وكانت تجربة قاسية مريرة ، تجربة أمتحنَت فيها إحساساتي ومشاعري ، وامْتُحنت فيها إراداتي وعزيمتي ، ونجحت التجربة وأيقن الجميع أن ليس هناك شيء مستحيل ، وأن شيئًا لا يملك أن يقف في وجه الإرادة القوية والعزم الأكيد .

وكان نجاح التجربة باعثًا قويًّا لمواصلة السير وحَثّ الخُطَى . وأراد الله لي أن أرحل إلى إنجلترا في طلب العلم فتمّت إرادة الله .

واليوم وأنا على أبواب مرحلة جديدة من مراحل الطريق أشعر شُعورًا قويًّا ، أَقوى جدًّا مما يظن الناس ، بأن الطريق ما يزال ممتدًا إلى آفاق بعيدة لا يُدْركها المدى ، وبأن طريق المجد ليس مفروشًا بالوُرُود والرَّياحين ، وإنما هو غاصٌّ بالأشواك والعَقبات . والكفاح الشاق المرير وحده هو الذي يُفَتِّق هذه الأشواك وُرُودًا ورياحين يتنسم الإنسان عبيرها حينما يُدرك الهرم ، وتقفر الحياة من حوله ويأخذ عمره في الذبول .

اليوم أزداد يقينا بأن عمر الإنسان مهما طَالَ فهو قصير ، وبأن العلم لاحدَّ له ولا

نهاية ، فمن أراد أن يتعلم فليعلم أن العمر لا يكفي وأن الإنسان لا بد أن يضاعف جهده أضعافًا كثيرة حتى يستطيع أن يمدّ عمره سِنين طويلة . فكل قطرة عرق تسيل من جبهة الإنسان في طريق العلم تزرع شجرة سُرعان ما تكبر فيستظل بها ويجني ثمارها ، وكل وَمْضة فِكْر في حياة الإنسان هي في الحقيقة هالة من النور يَعيش فيها حينما تظلم من حوله الحياة . وكل خطوة يخطوها الإنسان في طريق العلم هي خطوة في الطريق إلى الله ؛ لأن العلم هو الطريق إلى الله .

ومن ثمَّ كانت كل خطوة يخطوها الإنسان بعيدًا عن أهله وأحبائه طلبا للعلم ، جهادًا في سبيل الله . فكما أن الحج جهاد في سبيل الله ، وكما أن الحاج يُثَاب فإن طالب العلم يُثاب على مَا تركه أَهْله وعَشِيرته وتحمله عناء الدَّرس والبحث والتحصيل .

ولعل ثواب طالب العلم أعظم عند الله من ثواب الحاج ، لأن الحاج يكسب ثوابه لنفسه ، أما طالب العلم فيكسب علمه للناس جميعًا ؛ لأن العلم ليس مِلْكًا لأحد من الناس ، وإنما هو تُراث الإنسانية كلها ؛ ولأنه قبس من نور الخالق ، فهو وَديعة الله تعالى في قلب الإنسان وعَقْله .

هذا هو ما أومن به اليوم وأنا أكاد أخطو الخطوات الأولى في هذه الدراسة الجديدة :

إيمان عميق بالنفس ، وإحساس صادق بواقع هذا السير الطويل الذي لا يُقْدِم عليه إلا الذين آلوا على أنفسهم أن يبذلوا غاية الجهد وأقصى الطاقة في سبيل الوصول إلى الهدف الكبير ، والذين يزدادون قوة وتصميمًا كلما قطعوا مرحلة من مراحل الطريق .

واليوم ، يَطيب لي أن أذكر الحقيقة التي أكَّدتها لي الأيام ، والتي جهدت بها منذ ما يزيد على ست سنوات ، وهي أن الطريق شاق عسير ، ولا بد لمن يريد أن يسلكه أن يدفع الجهد والعرق ثمنًا للمضي فيه ، وإلا سقط صريعًا وَدَاسَتْه أقدام الزاحفين .

١ / ٦ / ١٩٦١

إلى جدتي

بكيت حين قرأت تحيتكِ التي حمَّلتها أمانة في عنق والدي ليبلغني إيَّاها . وبكيت كثيرًا حينما امتدت يدي إلى القلم لتسطر إليه رسالة حبّ وعرفان .

ولم يكائي حُزنًا على شيءٍ وإنما كان عجزًا عن أشياء كثيرة . فكما يكون البكاء تعبيرًا عن حُزنٍ عميق ، فكذلك يكون تعبيرًا عن مشاعر شتى رسبتها الأيام في نفس المرء حتى ليقف عاجزًا عن أن يخرجها من نفسه إلا بأن يذيبها في الدموع .

وكذلك كان بكائي حين قرأت تحيتك وحين حاولت أن أكتب إليك رَدًّا على هذه التحية . فما أحسب أن اللسان مهما أُوتى من بَيان يستطيع أن يُعربَ عما أكنُّه في نفسي لك من حب وتقدير وإجلال .

وما أحسب أن القلم مهما بلغت به القدرة على تسجيل هذه المشاعر بقادر على أن يرسم لها صورتها الأصلية ، وما أحسب أن خطابًا أو خطابات تستطيع أن تحمل كل هذه المشاعر والأحاسيس التي لا تكاد النفس تحملها .

من أجل هذا عجَز اللِّسان وجمد القلم وطُويت الصحيفة ، وخليت بين العين والدموع ، فأحيانا تكون الدموع دوائر لأنها تطفئ الجذوة المتقدة في النفس . أستغفر الله . بل إنها لتغمرها حتى تكاد تخفيها ولكنها لا تلبث أن تنحسر عنها فتظهر أكثر وضوحًا وجلاء .

وربما لم أطلق لعيني سبيل البكاء لهذا فحسب ، وإنما لأن البكاء إلى جانب هذا كله مظهر من مظاهر الوفاء .

وما أحسب أني أفي لأحد كما أفي لك يا جدتي العزيزة . فأنا لست من أولئك الذين ينسون الإحسان أو يتنكرون للمعروف ، وما أعرف إنسانًا أهدى إليَّ جميلاً أَوْ صَنَع بي معروفًا كما صَنَعْت أنت . فقد تركتِ أولادك وبناتك جميعًا وَرَضيت فراقهم لتكوني

معي عونًا على الأيام حينما كنت أطلب العلم في القاهرة .

كنت أسهر الليل فتسهرين معي ، حتى إذا أويت إلى فراشي سهرت عينك عليّ تكلؤني برعايتها وسهر قلبك عليّ يغمرني بدعواته . ومازلت أذكر أن لسانك لم يكن يكف لحظة من ليل أو نهار عن الدعاء لي .

وكان الدعاء الحبيب إليك هو أن يحبب الله الناس فيّ . ولم أكن أُدْرِك لهذا الدعاء قيمة ، ولم أكن أُعَلِّق عليه كبير أهمية بادئ ذي بدء .

ولطالما سألتك عن سرّ هذا الدعاء فكنتِ تقولين لي أن حب الناس من حب الله ، ومن أَحَبه الله حبب الناس فيه . وتمضي الأيام ويزداد هذا الدعاء في نفسي وضُوحًا ، حتى أصبحت أرى أن أعز ما يمكن أن يملكه إنسان في هذه الحياة هو حب الناس ، وحتى أصبحت أُومن أن حب الناس في الدنيا لا يقل عن جنة الخلد في الآخرة .

آمنت بهذا حينما قدر لي أن أقضي عامين في جنوب مصر . واليوم وأنا أحيا بعيدًا عن وادي النيل العظيم ، وأعيش نازحًا عن الأهل والوطن . اليوم يزداد هذا المعنى في نفسي وضوحًا ، ويزداد كلامك في نفسي قَدَاسة وَرُسوخًا ، وأَشْعُر بأن كلامك لم يكن إلا خلاصة تجربة السنين والأيام ، وأن هذا الكلام الذي كنت آراه يسيرًا يحمل في طياته درسًا لا يفهمه إلا القليلون .

ومازلت أذكر أيضًا أني مرضت يومًا فكان منك الطبيب وكان منك الأم والأب والإخوة والأخوات . كانت منك الرعاية والعناية ، وكان منك الدعاء لي بالشفاء العاجل ، وكانت لديك طمأنينة النفس وهدوء البال ، ثم كان منك آخر الأمر دموع كنت تسكبينها بعيدًا عني فيها الإشفاق والرجاء معًا .

وهكذا كنت أحس وأنتِ إلى جواري أنني لم أُفارق البيت والعائلة ، فقد كنت تملأين حياتي كما لو كنت أعيش وسط إخوتي وأخواتي . كنت أنظر إليك فأرى فيك الأسرة

كلها ، وأرى فيك حنان الأُمومة وعطفها .

وبفضلك أنت يا جدتي العزيزة ، وبعونك أنت ، استطعت أن أُحْرِز النصر بعد النصر . وليس من شك في أَنّي مَدِين لك بما أنا فيه الآن . فلولاكِ مَا أُتِيح لي التفوق ، ولولا التفوق ما بُعثت إلى البلد الذي أعيش فيه الآن طالبًا للمزيد من العلم والمعرفة . ومن أجل هذا فأنا أشعر شعورًا عميقًا جدًّا بأنني مَدين لكِ بمستقبلي ، بل بحياتي كلها .

وما زلت أذكر يا جدتي العزيزة أنك تركت أولادك جميعا حين علمت أنه قد كُتب عليّ أن أرحل طالبًا للعلم في بلاد بعيدة . ومكثت معنا الفترة السابقة للرحيل بلا ملل ولا ضجر . وما زلت أذكر يوم الرحيل . يومها استيقظت مبكرة لتصلي لربك وتدعي لي بأن يوفقني الله في رحلتي هذه وأن يرزقني السلامة والإياب . ومهما أنسَ فلن أنسى تلك الدعوات التي اختنق بها صوتك حين أجهشت بالبكاء ونحن في موقف الفراق . لم يكن السِّنّ ، ولم تكن الأيام لتقف في سبيل عَبْرتك .

ولم يكن السن ، ولم تكن الأيام لتنقص من حبك وعطفك وحنانك . وكذلك المخلصون الأوفياء دائمًا في مثل هذه المواقف ينسون أنفسهم ويرتدون إلى عهود طفولتهم النقية البريئة ، فإذا هم يبكون كالأطفال أو أشد ، لأن المحبة الصادقة لا تعرف السن ولا تعرف التكلف ، وإنما تعرف شيئًا واحدًا هو الشعور . الشعور الذي ينطلق كالإعصار لا تقف في طريق المظاهر والشكليات .

واليوم يا جدتي العزيزة ، وأنا أجني ثمار ما غَرَست يداك ، أذكرك ، لا على أنك عارض عَرض لحياتي في يوم من الأيام ، بل على أَنك قوة كبرى وطاقة هائلة كنتُ وما زلت أستمد منها العون . وأذكرك على أنك قبَس من النور أضاء لي طريق الحياة ، وسيظل هذا الشعاع من النور ممتدًّا في آفق حياتي ما امتدت هذه الحياة .

اليوم أذكرك ، لا كما يذكر الأَحفاد أجدادهم على أنهم كمّ مهمل وبضاعة أَدْرَكها

الكَسَاد وإنما علىٰ أنك قوة خلاّقة بناءة ، وعلىٰ أنك مركز إشعاع كنتُ وما زلت وسأظل أسير علىٰ ضوئه .

اليوم أذكرك لا كما يذكر الإنسان أقرباءه حينما ينأىٰ عنهم ، وإنما كما يذكر الإنسان أمه وأباه علىٰ أنهما شيء يجري في دمه ويتغلغل في روحه ، ويملأ عليه نفسه ولا يستطيع أن يفرق بينهما وبين نفسه .

أجل ، أذكرك اليوم علىٰ أنك جزء من نفسي ، بل علىٰ أن نفسي جزء منك لا يمكن أن تنفصل عنك إلا بالموت .. وإذا كان الموت يقهر الأبدان ، فهيهات أن يقهر النفوس .

اليوم يا جدتي أذكرك علىٰ أنك صاحبة الفضل عليّ ، وعلىٰ أنك الجندي البطل الذي خاض المعركة بثبات وإيمان حتىٰ كُتب له النصر والفوز .

اليوم ياجدتي أذكرك ، وأنا هنا في إنجلترا ، أذكرك كما يذكر الناس أعلام التاريخ ، فقد كنتِ ومازلت علمًا في تاريخي ، بل وفي تاريخ الأسرة كلها ، علمًا يخفق بالمحبة ، ويلتقي تحت لوائه الأقرباء والأحباب جميعًا .

اليوم يا جدتي ، وفي كل يوم ، أذكرك ، علىٰ أنك أم حنون ، وأذكرك علىٰ أنك قلب كبير يحتويني ويحتوي الكثيرين غيري ، ويغمرني بعطفه وحنانه كما يغمر الآخرين .

اليوم ، وفي كل يوم . أذكرك يا جدتي ، لأني أجد في ذِكْرك استقرار النفس وراحة الضمير . اليوم ، وفي كل يوم ، أذكرك ، عرفانًا بالجميل . الجميل الذي أجني ثماره الآن ، والذي سيظل يثمر وسأظل أجني ثماره ما دمت حيًّا .

وفي هذا الاعتراف بالجميل تجد النفس راحتها ويجد القلب سكينة . وفي هذا الاعتراف بالجميل اعتذار عما يكون قد لَحِقَك مِنّي من إساءة ، فأنا أعترف بأنني كنت أُسيء إليك حينما كنت معي في القاهرة ، ولكنك كنت تقابلين الإساءة بالإحسان ، وكنت أَثُور عليك ، فَتقابلين الثورة بنفسٍ راضية مطمئنة لا تعرف الغضب ولا السّخط .

بل لقد كنت تقومين الليل متعبدة متهجدة ، ولطالما لهج لسانك في جوف الليل بالدعاء لي أن يوفقني الله ويكتب لي النجاح والفلاح . فأرجو أن تغفري لي يا جدتي الإساءة وأن تصفحي عما كان يبدر مني من أخطاء ، فقد عهدتك عفوَّة رحيمة .

إنني لعلىٰ يقين من أنني مهما مُدَّ في أجلي ، ومهما صنعت ، فما أنا بمستطيع أن أرد هذا الدَّين . فالله سبحانه وتعالىٰ أسأل أن يوفقني لأداء بعض هذا الدين الكبير .

وختاما يا جدَّتي ، إليك من هنا . من بعيد . بعيد جدًّا ، أُهدي أطيب التحية وأعمق التجلة ، من قل ملأه الله حبًّا لك وإجلالًا . قلب عبد الستار الذي لا يجد الآن غير الدموع يسكبها سكبًا علَّها تطفئ النار المتأججة في أعماقه . نار الفُراق . فُراق الأهل والأحباب ، وفراقك أنت يا أعز الأهل ويا أعز الأحباب .

منشستر في ٢٧ / ٥ / ١٩٦١

***

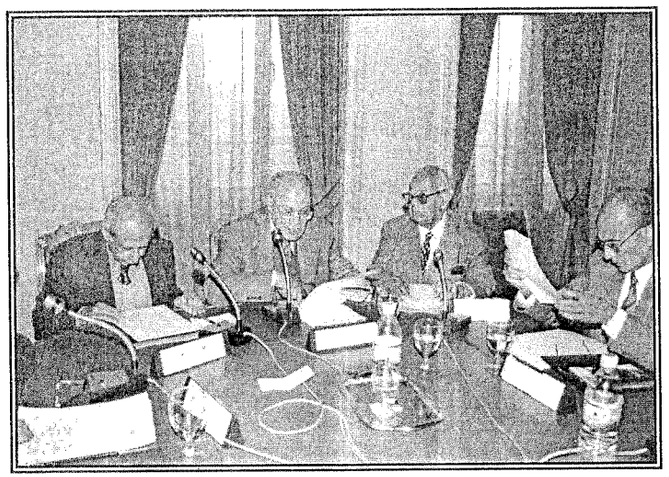

في ندوة قضايا المخطوطات (٥) ـ تراث العرب السياسي ـ والتي عُقِدَت بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الجلسة الثالثة ، بتاريخ ٢٩ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م .

هذا النُّور !!

قال لي صاحبي : ما بالك تُحمل من الأُمور عظيمها وتكلّف نفسك من أمرها أشقّ المشقة وأعز العُسر ، وكأني بك قد أَلفت الشقاء وأَلِفَك حتىٰ لم تَعُد تعرف للحياة طعمًا بدونه ؟

فأنا أعرف أن الإنسان ينقطع عهده بالامتحانات حينما يتم تعليمه ويعمل في ديوان من دواوين الحكومة ، أما أنت فأراك مُعَلّمًا في الصباح مُتَعلّمًا بالليل ، وآراك مُدَرّسًا وتلميذًا في وقت واحد كأن عهد الصبا والتلمذة والامتحانات حبيب إليك ، وكأن الله لم يخلقك إلا لتعيش تلميذًا ولتموت تلميذًا .

رفقًا بعينيك اللتين تذبلان قليلاً قليلاً . رفقًا بهذا النور الذي تسيء استعماله وتفقده في عبث لا طائل تحته ولا خير يُرجىٰ من وَرَائه . رِفقًا بهذا الجسم الذي لا هو بالحيّ ولا هو بالميّت وإنما هو حيّ تُميته أنت كل يوم مائة مرة ومرة ، يُريد الله له أن يحيا وتُريد له أنت أن يموت .

وقد كنت تَزْعم لنا أن هذه المشقة التي تأخذ نفسك بها لن تدوم إلا ريثما يحلّ الامتحان ، فإذا انتهىٰ الامتحان فرغت لنفسك وللناس . وها هو الامتحان قد مَضَىٰ لحال سبيله ، فليت شعري ماذا دَهَاك حتىٰ تعود في فترة الراحة إلىٰ كتبك وقراءاتك التي أَضْنَتْكَ وأشقتك شقاءً بعيدًا !

ألم تشبع قراءة بعد كل هذا الذي بذلت في القراءة من جهد ؟ !

هلا رعيت لجسمك حق عليك وأَرَحْت نفسك من هذا الشقاء الذي تغرق فيه إلىٰ أذنيك ؟ !

قال لي صاحبي هذاالكلام وإن نفسه لتذوب حسرة وألمًا علىٰ ما أَصابني ، وإن صوته

ليفيض إخلاصًا ووفاء . فهو يقول هذا الكلام ناصحًا في صدق ، راجيًا في أمل . أما أنا فقد كنت أشبه بالذي يستغرق في نوم عميق ، وأشهد أني كنت أسمع حديثه وكأنه حلم آراه في المنام . ولم يَلْبَث أن انتهىٰ من حديثه حتىٰ رجعت إلىٰ نفسي أحاول أن أرد علىٰ هذا الصديق النصوح مقالته .

قُلْتُ له : صَادِقٌ أنت أيها الأخ العزيز في كل ما قلت . فأنا أقرب إلىٰ التلميذ مني إلىٰ الأستاذ ، وأنا أفخر بأني مازلت طالب علم ، وأعتقد أني سأظل كذلك ما عشت في هذه الحياة ، وما أحسب أن الوظيفة تستطيع أن تقيد قدماي فما أستطيع أن أنطلق ، أو أنها قادرة علىٰ أن تقص جناحيّ فما أستطيع أن أطير .

إنني كالفراشة التي تحوم علىٰ الزهر وترف علىٰ الماء ، وتقع علىٰ العشب وتسقط علىٰ النور ، لا تعرف لها بغية غير السبوح ، ولا لذة إلا التنقل . فأنت لا تراني إلا سابحًا في بحور المعرفة ، متنقلاً بين ربوعها وعلىٰ أفنانها ، لا أجد في ذلك مشقة أو عناءً وإنما أجد فيه لذة ومتاعًا .

فلا تظن أيها الأخ العزيز أنني شَقِيٌّ بالعلم وبدُنيا الكتب ، فأنا سعيد ما عشت طالبًا للعلم ، باحثًا عن المعرفة ، وأنا كَلِف برفقة الكتب ، فالكتاب في نظري خير أنيس وأمتع جليس . ومن أجل هذا فأنا لا أَمَلُّه وإنما أَميل إليه ، لا أبغضه ولكن أحبه أشد الحب وأعظمه . وكأنما خلقني الله لأعيش بين الكتب غير برم بهذه الحياة ولا سَاخط عليها ، وإنما رَاضٍ عنها كل الرضا ، معجب بها غاية الإعجاب .

فهأنذا قد انتهيت من امتحاناتي وأردت أن أُريح نفسي بعض الوقت ولكني وجدت قدماي تقودانني إلىٰ المكتبة ، ووجدت يدي من حيث لا أدري ، تنقب بين الكتب عن كتاب يمتع النفس أو يشرح الصَّدر ، وإنا بي أجدني مرة أخرىٰ بَاحثًا مُنَقّبًا في بطون الكتب ، متنقلًا بينها كما تتنقل الفراشة بين الرياحين . فماذا عساني أن أصنع وقد أودع

الله فيّ حب العلم والتماس المعرفة ؟ ماذا أصنع وأنا لا أستلذّ أجده في بطون الكتب غذاءً للعقل والروح ؟

ماذا أصنع وكلما ازددت معرفة ازددت علما بأنني أجهل الناس ، وازددت رغبة في أن أكون أعلم الناس ؟

صدِّقني أنني لا أحب لنفسي أن أعيش في هذه الحياة إلا إنسانًا ، إنسانًا بالعلم والمعرفة ، إنسانًا بالعقل والضمير . فلتدعني يا صاحِ وما أنا فيه ، ولا تسألني لماذا أحمِّل نفسي فوق ما تحتمل ، فَنَفْسي تحتمل الشيء الكثير ، أكثر جدًّا مما يحتمل الناس . وما عليّ بأس من أن أكون نَحِيل البدن شاحب الوجه مادام قلبي غَضًّا نضيرًا ومادام عقلي في عنفوان الصبا والشباب . ما عليّ بأس في أن أعيش عليل الجسم مادمت صحيح القلب والعقل والفؤاد . فالشباب في نظري ليس شباب الجسم وإنما هو شباب العقل والروح ، فمن الناس من يمتلئ جسمه قوة وشبابًا ولكن رُوحه مَرِيضة وعقله عليل . ومن الناس من يَعيش جِسْمُه في مرحلة الشَّباب ، ولكن عقله وروحه يعيشان في مرحلة الطفولة المبكرة أو الشيخوخة المتأخرة . فَشَبَابُ الأجسام وطفولة العقول والأرواح أو شيخوختها هو أخطر ما يُمَنِّي به بنو الإنسان .

من أجل هذا أيها الأخ العزيز فأنا لا يضيرني علة جسم أو شحوب وجه مادام العقل يمتلئ قوة ، والقلب يفيض حيوية وشبابًا .

ولكن الشيء الذي ينغصُ حياتي ويفسدها عليّ هو هذا النور ، أجل ! هذا النور الذي يذبل قليلاً قليلاً بمرور الأيام ، هذا النور هو نور عيني !!

أجل أيها الأخ الصديق ، فقد كان وضاء كأشد ما يكون النُّور وضوءًا ، وفجأة وجدته يمكر بي ويحاول أن يهرب مني ، فظننت أنها نوع من الدعابة اللطيفة لم أُعرها كبير التفات ، ولكن لم أَلبث أن وجدت الأمر جد خطير ، فقد وجدت النور يُفارق

عيني شيئًا فشيئًا ، فإذا بي أجري في دروب الحياة هلعًا فزعًا باحثًا عنه ، وهو يجري أمامي هاربًا مني بسرعة مُذهلة ، فكلما مضى الزمن ، كلما ازدادت المسافة بيني وبينه ، وكلما بسط الظلام جناحه عليّ حتى كدت أضل طريقي إلى ذلك النور .

وقال الأطباء : لا تجزع ، خُذ هاتين العدستين وضعهما على عينيك فسترتدّ بصيرًا كما كنت ، وكذب الأطباء في مقالتهم هذه ، فهأنذا أضع العدستين أمام عيني فأرى بهما جيدًا ، ولكنني أخلعهما فلا أكاد أبصر شيئًا . ومن هنا ، من هنا أيها الأخ العزيز يبدأ البؤس ويبدأ الشقاء . من هنا يبدأ الصراع العنيف المرير بين ما وُجِّهتُ إليه بالفطرة من حب للمعرفة وشغف بالقراءة والدرس ، وبين ما أصابتني به الأيام من ضعف هذا النور ، نور البصر !!

ربَّاه ! ماذا أصنع ؟ أعزف عن القراءة والدرس وأعيش في ظلام العقل والروح ؟ أم أمضي في لطريق الذي أسير فيه قدمًا وأعيش ببصيص من نور العين ، نورك أنت يا رب ، الذي وهبتني قبسًا منه ، والذي لا ينطفئ أبدًا لأنك أنت ، أنت يا إلهي منبعه الذي لا يجف ومعينه الذي لا يَنْضب ؟

اللهم لا اعتراض على قضائك ، ولا جُحود لنعمك ، ولكنه الرجاء ، الرجاء في أن يكون القضاء علينا لطيفًا هيِّنًا ، فنحن بشر ، نحن عبادك يارب ، فالطف لأجل رسول العالمين بنا . الطف بنا فأنت أنتَ وَحْدَك أملنا الوحيد . مِنْك أنت يارب نستمد البقية الباقية من الرَّجاء ، الرجاء في هذا النور الذي نعيش فيه ، فلا تحرمنا يا إلهنا من نورك الأزلي فقد عهدناك بنا لطيفًا رحيمًا .

سَمِعَ صاحبي هذا الكلام فانهمرت الدموع من عينيه في أسى وحزن عميقين ، وقال والعَبَرات تخنق حديثه :

وماذا قررت أن تصنع أمام قضاء الله وقدره ؟

قلت : قررت أن أمضي في الطريق الذي أسير فيه ، طريق العلم والمعرفة ، أجل سأسير في الطريق قُدُمًا إلى لأمام وأملي في الله كبير ، كبير جدًا ، أكبر من كل شيء . وأنا أعرف أني سأدفع الثمن غاليًا ، ويوم أفقد هذا البصيص الضئيل من نور عيني ، يومذاك سأعيش في مهرجان كبير من النور ، أشبه بمهرجان الشروق .

أتدري أيّ نور هو ؟

إنه نور العلم والمعرفة !!

بورسعيد في ٢٣ / ١٠ / ١٩٦٠

* * *

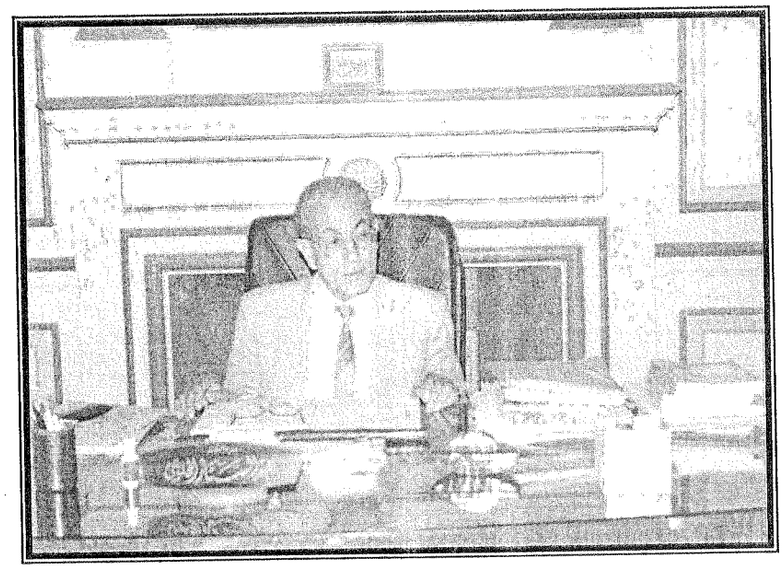

في مكتبه أثناء توليه وكالة الكلية لشئون المجتمع وتنمية البيئة – جامعة القاهرة ١٩٩٧

فلسفة الحزن والألم

ومن الناس من يعيشون للحزن أو يعيش الحزن لهم ، وكأنما عَقَدُوا بينهم وبين الحزن ميثاقًا ، فهو يَصْحَبُهم ولا يكاد يُفارقهم طرفة عين . وهم عن هذه الصُّحْبة راضون ولها أوفياء مخلصون .

وكأنما وَجَد الحزن له في نُفوسهم مُستقرًا ومُقَامًا ، فهو يأوي إليهم كلما أجهده السّعي أو كلما أجهد الناس بسعيه . يأوي إليهم ويُلْقي لديهم بأعبائه وأثقاله فإذا هم يحتملونها وكأنها شيء طبيعي لا يأتيهم من خارج نفوسهم وإنما يتفجر من أعماق هذه النفوس .

الحزن فيهم طبيعة وسَجيّة ، والفرح ضيف عزيز قلّما يزورهم ، وإذا ألمّ بهم فما أسرع ما يهرب مهم ؛ لأنه سُرعان ما يتبين أنه في ديار أشد الناس عداوة له .

قد ترىٰ الواحد منهم يضحك حينما تستثير فيه الضحك ، ولكن ما يُضْحك الناس ليس كافيًا لأن يُضحكه ، فهو محتاج إلى أن يشق علىٰ نفسه كي يُكرهها علىٰ ما لا تحب . وحتىٰ إذا ضحك أحسست أن هذا الضَّحك لا يتفجر من نفسه وإنما يأتيه رذاذًا من هنا وهناك . رذاذ يتجمَّع حوله ويتكثف في نفسه ليجري فيها تيارًا من الغبطة والانشراح ، ولكنه تيار ضعيف ضئيل لا يقوىٰ علىٰ ما يعترضه من أعشاب الأسىٰ وجَنادل الحزن وشلالات الألم ، فهو يتعثَّر في سيره ويتلوّىٰ من فرط الألم ، ولا يلبث أن ينتهي به الأمر وقد خارت قُواه من شدة الجهد والعناء .

هم محزونون دائمًا ، وهم راضون بحزنهم وألمهم ، يضحك الناس وهم يبكون . يمرح الناس وهم يكتئبون ، يهيج الناس ويموجون وهم صامتون جامدون . تراهم فترىٰ فيهم الحُزن حيًّا كأقوىٰ ما تكون الحياة ، وتحس أنهم جميعًا صور لحقيقة واحدة هي الحزن والألم .

وربما أخذتك الشفقة عليهم والرأفة بهم ، وتمنيت لو أنهم يحيون كما يحيا الناس ،

ويتمتعون كما يتمتع الناس . وربما دفعتك نزعة الخير إلى أن تلتمس لهم من هذا الضيق مخرجًا ، حتى إذا دَنَوت منهم ردُّوك في رفق عن هذا الذي تسعى إليه ، وأظهروك على أن السخط والتشاؤم لا يعرفان إلى نفوسهم سبيلاً ، فهم راضون عن حياتهم هذه الحزينة الآسية ، وهم مغتبطون بها ، لا يرضون عنها بديلاً .

وأصحاب الحزن والألم هؤلاء لا يغضبون حينما تقف منهم موقف المعارضة والإنكار ، فهم لا يريدون لك أن تذهب مذهبهم في الحياة ، وأن ترضى عن فلسفتهم وتؤمن بها . هم لا يريدون ذلك ولا يسعون إليه ولا يحرصون عليه ، إنما الذي يُريدونه أن تعتنق ما تشاء من الآراء وأن تحيا الحياة التي ترضى عنها بروحك ونفسك وعقلك وضميرك . أما أن تجعلهم موضع السخرية والاستهزاء فهذا ما يضيقون به أشد الضيق وينكرونه أشد الإنكار .

إنهم لا يسخرون من أحد ، ولا يُريدون أن يسخر منهم أحد . إنهم لا يَدْعُون الناس إلى سلوك طريقتهم في الحياة ، ولا يُريدون الناس أن يصدُّوهم عنها . فَحَسْبُهم ما هم فيه من حزن وألم . أما أن تطول الألسنة في حقهم فهذا ما لا يرضون عنه ولا يرجون لأحد أن يتورط فيه .

ولكنني جعلت حزنهم وألمهم فلسفة ومذهبًا في الحياة . وللفلسفة أيًّا كان نوعها وأيًّا كانت طريقتها في التفكير ، جذور عميقة موغلة في التاريخ بقدر إيغالها في النفس الإنسانية التي تعتنقها وتدين بها . وسواء رضينا عن فلسفة هؤلاء وآمنا بها ، أو سخطنا عليها وكفرنا بها ، فثمة حقيقة باقية لا تتأثر بسخط ولا رضى ، ولا تضعف بكفرٍ ولا تقوى بإيمان . وهي أن الحزن شيء راسخ في أعماق النفس الإنسانية ، والفرح لا يمكن مهما بلغت شدته أن يَسْبر أغوار هذه النفس أو يظهر على ما ران عليها من مرارة . فإذا أضفنا إلى ذلك صورة الشبح الأسود الذي يفجأ الناس بلا نذير فيختطف الأم من بين أبنائها ، وينتزع الأبن من أحضان أمه ، وأن مجرد التفكير في الموت كفيل بأن يثير ما

خلفته الأيام في النفس من حزن ومرارة ، بل هو كفيل بأن يملأ النفس الفرحة المرحة حزنًا وألمًا ، استطعنا أن نقترب من الحقيقة التي قررها الحسن البصري في قوله « يحق لمن يعلم أن الموت مَوْرِدُه ، وأنه الساعة موعده وأن القيامة بين يدي الله تعالى مشهده ، أن يطول حُزنه » .

وصدّقوني أن ما قيل من أنه لولا الفرح ساعة الميلاد ما كان الحزن ساعة الموت ، لم يكن إلا نوعًا من محاولة إيجاد التوازن بين كفَّتين لا يمكن أن تتساويا بحال من الأحوال . إنها معادلة مختلَّة الأطراف . فأنا لا أستطيع أن أتصور فرحة الأم بوليدها تقابل لوعتها وحسرتها وألمها وهي تراه يلفظ الأنفاس الأخيرة من هذه الحياة .

« إن الحُزن في ساعة الموت أضعاف أضعاف سرور ساعة الميلاد » كما قال أبو العلاء رحمه الله . ولو أن أمًّا تتلهف على البنين فكَّرت لحظة واحدة في موقف الفراق الأليم لتمنَّت أن تكون عقيمًا !

ولكن من الظلم أن نَتَّهِم الفلسفة الإسلامية بأنها حزينة مكتئبة ، باكية ناحبة ، مُتشائمة ساخطة ، ففيها جوانب مشرقة من الأمل الوضاء ، ولكنه في حقيقة أمره أمل في حياة غير هذه الحياة التي نحياها ، والطريق إليه محفوف بالأشواك التي تُدْمي الجَسَد وإن كانت لا تَجْرَح القلب .

بيد أن أن فكرة الموت جديرة بألا تثير في النفوس حزنًا أو ألمًا ما دام الموت أمرًا لا مفرّ منه ولا مندوحة عنه . فالحياة نفسها إذن هي مثار الألم الحقيقي الذي تأخذ كل نفس منه بخصيب يختلف من فرد إلى آخر . وحسبك أن تفتح عينيك على الحياة لترى فيها الفضيلة والرذيلة ، والطهر والإثم جميعًا .

وقد اعتاد الناس أن يقولوا إن هناك صراعًا بين الفضيلة والرذيلة ، ولو صحّ هذا لاطمأنت النفوس وهدأت القلوب . ولكن المأساة تأتي من أن الفضيلة والرذيلة في

حياتنا قد استعارتا من العصر الحديث مصطلح التَّعَايُش السلمي ، فهما تتعايشان تعايشًا سِلْميًّا ، وهما تعيشان جنبًا إلى جنب كلٌّ في طريقها لا تكاد تحس بالأخرى . هذا رجل يمضي إلى المسجد ، وذاك يمضي إلى الحانة . هذا يضرع إلى الله في خشوع . وذاك يُعَرْبِد في ضجيج وصخب . كل منهما راضٍ عن نفسه ، وكل منهما قَانع بما هو فيه . ألا يدعو ذلك إلى المرارة والآسى ؟!

على أنه ليس شيء أخطر على الحياة من الأحياء أنفسهم ، وليس ثمة شيء يبعث الألم في نفس الإنسان أكثر من الإنسان نفسه . فأنت لا تستطيع أن تعيش بعيدًا عن الناس ، أو أن تحكم على نفسك بالسجن الانفرادي ، إنما أنت مُضطر أن تلقى الناس وأن تختلط بهم وَتَتَعامل معهم وترى ما في طباعهم من التناقض العجيب .

هذا كاذب وهذا مُنَافق ، وذاك لا يعرفك إلا لمصلحة فإن انتهت المصلحة لقيك وكأنه لم يعرفك من قبل . أنماط من البشر لا حصر لها ، وهي أنماط في أكثرها تثير في النفس الألم وتبعث على الانقباض .

وكلما ازداد نصيبك من هذه الحياة ، ازدادت علمًا بالناس ، وازددت تبعًا لذلك شّكًا فيهم وريبة ، وتضاعف ألمك وأساك نتيجة لهذا كله .

فأخلاق الناس في هذه الأيام تغمّ ولا تَسُرّ . ومادام الإنسان سيِّد الكون ، فأي غَرابَة في أن يصطبغ كل شيء فيه بهذه الصبغة القاتمة المُزْرية !!

لندن في ٧ / ١١ / ١٩٦١

***

رجع الصدى

كانت الخطوات ثقيلة متئدة وأنا أتخذ طريقي إلى باب المستشفى . وما كدت أصله حتى وجدتني أقف هنيهة حائرًا لا أدري أيان يكون الاتجاه . وتمضي لحظاتٌ الله وَحده يَعلم أَطَالت أم قصرت ، ثم تمضي بي قَدَماي في الطريق الذي تعودت السَّير فيه من قبل . كان الرأس مُطْرقًا وكان الفكر شاردًا وكانت النفس حزينة مكتئبة ، ولو أن الدنيا كلها قامت وقعدت ما أحسست بها في تلكم اللحظات .

ووقفت مرة أخرى أتبين الطريق الذي تَسير فيه السيارة التي تُقِلُّني إلى حيث أعيش ، وما إن أقبلت حتى وجدتني أصعد درجها وكأنني أَصعد قمة من قمة الجبال . وعلى أول مقعد جلست وأنا في شغل عن الدنيا وما فيها . وتطلعت حولي فلم أجد أحدًا غيري . ويرتد البصر حسيرًا ويرتفع من نفسي صوت يهتف بي : ألم تعرف أنك قد أصبحت وحيدًا منذ دقائق ؟ ها هي الوحدة تلاحقك من باب المستشفى وتَصْحبُك في الطريق ، ولا تتخلى عنك حتى وأنت تحاول أن تهرب منها إلى السيارة العامة ، لم يكن التفكير عميقًا ولكنه هائمًا حائرًا ، وكان مختلطًا مضطربًا لا أكاد أعرف له وجهة ولا طريقًا . كنت أشبه شيء بالنائم الذي يستغرق في نومه فلا يحسّ بالعالم من حوله وإنما يحسّ بهذه الصور التي تتتابع على عقله الباطن فيما نسمية بالأحلام .

وأفيق من هذا الحلم لأَسير في الطريق وحيدًا إلى البيت ، ولو سألت نفسي لماذا أتجه إلى البيت الآن لما وَجَدت عندها جوابًا . وقد كانت الحيرة قد بلغت بي حدًّا بعيدًا جعلني أترك قدمي تسيرا بي إلى حيث تُريدان ، أو إن شئت الدِّقة قلت إلى حيث اعتادتا المسير .

وعدت إلى البيت لأجده خاويًا صامتًا . ولقد اعتدت أن أرى كل شيء فيه يتحرك وينبض بالحياة ، أما اليوم فكل شيء جامد في مكانه لا حركة ولا حياة . وتسمعت

الصَّوت الذي تعود أذناي فلم أستبنْ شيئًا ، وأرهفت السمع فإذا بالصوت يصدر ضعيفًا يشبه الأنين ويظل يقوي ويقوي حتىٰ يصبح قويًّا عنيفًا ، ولكنه في هذه المرة لم يكن يطرق مسمعي وإنما كان يتردد في جنبات نفسي كما يتردد تيار الكهرباء في أسلاك البرق . كل شيء حولي هادئ ساكن إلا هذه النفس التي أحمله بين جنبي فإنها تموج بالمشاعر والأحاسيس . ولو أردت أن أتعقَّب هذه المشاعر وأستقصيها لوجدتها أخلاطًا متناقضة لا يمكن أن تجتمع إلا في نفس إنسان مثلي . بعضها إشفاق وحذر وبعضها ضيق وضجر . بعضها ثَورة مهذبة وبعضها هدوء عميق . بعضها أمل باسم وبعضها ألم مرير . إحساس بالوحدة يعذبني وأنا الذي اتخذت من الوحدة رفيقًا لازَمَني من العمر سنين طوالًا وما ضقت بها في يوم من الأيام . إحساس بالألم يعتصرني وأنا الذي اتخذت من الألم فلسفة وطريقة حياة فماذا حدث في الدنيا ؟ أكلّ شيء تغير إلىٰ هذا الحد أم أنا الذي تغيَّرت ؟

وأنت أيها البيت ماذا دَهَاك ؟ مالي أراك مُوحشًا كأنك هجرت مئات السنين ؟ ومالي أراك تنكرني كأنك لم تعرفني من قبل ؟ مالي أراك أطلالاً ورسُومًا دارسة كأن لم أعش فيك ساعة من العمر ؟ أأصابك ما أصاب الحياة وما أصاب ابن الحياة ؟ أم أن لك نفسًا كنفسي تأسىٰ لفراق ربة البيت وتجد في الصمت أبلغ الأسىٰ ؟

إنْ كان قد أصابك ما أصابني يا بيت فلنكن رفيقين يأوي كل مِنَّا إلىٰ صاحبه يبثه همومه وأشجانه ، وإذ رأيتني بعد اليوم آوي إلىٰ جدارك في صمت وفي حُزنٍ عميق فاعلم أيها الرفيق أنَّ ما أصابك هو بعض الذي أَصَابني .

لندن ٣٠ / ١٢ / ١٩٦٣

في حفل تسليم جائزة الملك فيصل العالمية بالرياض يتسلم الجائزة من صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز مساء السبت ١٧ شوال ١٤١٨ / ١٤ فبراير ١٩٩٨ ، ويُرىٰ بجانبه الرئيس السنغالي عبده ضيوف .

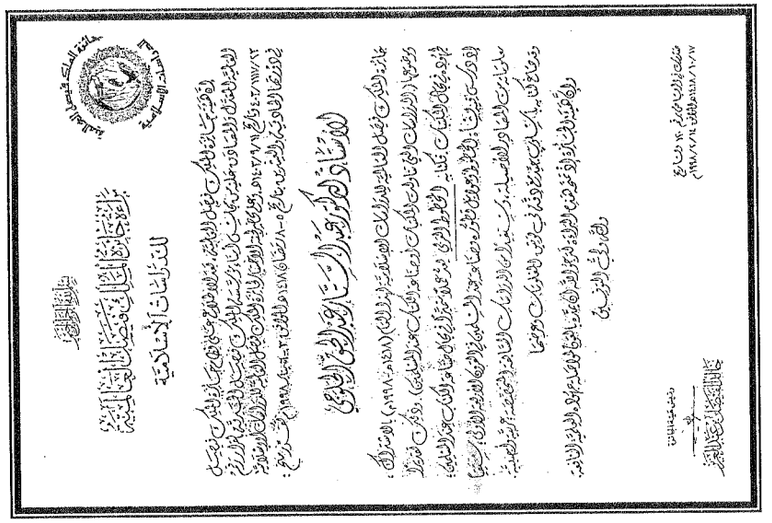

تم الكتاب بحمد الله

on

Manuscripts and Arabic Tradition

Studies Presented to
Professor **Abdel-Sattar Al-Ḥalwagy**
On his seventieth birthday
(1938 – 2008)

Introduction
Professor **Kamāl Arafāt Nabhān**

Al-Imām al-Bokhāry Bookshop